غابرييل كامب



البربر

ذاكرة وهوية



ترجمة عبد الرحيم حزل

أفريقيا الشرق

هذا الكتاب ترجم عن النص الأصلي :

Titre : *Les berbères. Mémoire et Identité*
Auteur : Gabriel CAMPS
Editions : Babel, Actes Sud, Paris, 2007

طبع بدعم من مصلحة التعاون الثقافي
التابعة لسفارة فرنسا في المغرب

Publié avec le concours du Service
de Coopération et d'Action Culturelle
de l'Ambassade de France au Maroc

تأليف : **غابرييل كامب**
ترجمة : **عبد الرحيم حزل**
عنوان الكتاب: **البربر ذاكرة وهوية**
رقم الإيداع القانوني : 2010/2843
ردمك : 978-9981-25-752-8
أفريقيا الشرق - المغرب

159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
• الهاتف : 04 95 25 22 05 / 13 98 25 22 05 الفاكس : 20 29 25 22 05
• الهاتف : 54 67 29 22 05 / 53 67 29 22 05 الفاكس : 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني : E.mail : africorient@yahoo.fr
www.afrique-orient.com

غابرييل كامب

البربر

ذاكرة وهوية

ترجمة

عبد الرحيم حزل

أفريقيا الشرق

مقدمة الترجمة

أولا، المؤلف:

غابرييل كامب مؤرخ وعالم إناسة فرنسي (الجزائر، 20 ماي 1927 – فرنسا، 6 شتنبر 2002). بدأ عمله مدرساً بالمستويات الثانوية في الجزائر خلال السنوات من 1950 إلى 1956. وتقلد فيها مجموعة من المهام العلمية، كان مبتدؤها بالإشراف على أحد المختبرات الكبرى التابعة لـ«المركز الوطني للبحث الاجتماعي» (CNRS) وهو المختبر الذي كان ضم بين جنباته يومئذ لفيفاً من الباحثين، صاروا في ما بعد يكونون ما يُعرف بـ«مدرسة الجزائر»، وأبرز أعضائها كان كامب. ولقد لمع نجم الرجل خاصة من يوم أسس ليونيل بالو «المركز الجزائري للبحوث الأنثروبولوجية وما قبل التاريخ والإثنوغرافية» (CARAPE) في سنة 1955، ثم آلت إدارته بعد ذلك إلى كامب، وظل على رأسه إلى سنة 1969. وعيّن كامب كذلك أستاذاً بجامعة الجزائر سنة 1962، وامتد عمله بها إلى سنة 1969. وفي هذه السنة أنشأ بجامعة إكس أون بروفونس «مختبر البحوث الأنثروبولوجية وما قبل التاريخ لبلدان غرب الأبيض المتوسط» (LAPMO). وخلال تلك الفترة تولى كذلك إدارة «المتحف الوطني للإثنوغرافيا وشؤون ما قبل التاريخ بباردو» (MNEPB) وإدارة مجلة **ليبيكا** (Libyca). كما تولى إدارة «معهد الأبحاث الصحراوية وعلوم الإنسان» (IRS). وتقلد كامب كذلك مجموعة من المهام العلمية ذات الصبغة الدولية؛ فكانت له عضوية في «اللجنة التنفيذية للاتحاد الدولي لعلوم ما قبل التاريخ وقبيل التاريخ» (CEUISPP)، وفي «الجمعية الدولية لدراسة أديان ما قبل التاريخ والعراقات» (AIERPA)، وفي «الاتحاد الدولي لعلوم الإناسة والعراقة» (UISAE)، وعضوية في مكاتب جمعيات عملية عديدة، من جملتها «جمعية دراسة علوم الإنسان في شمال إفريقيا» (AESHAN)، و«مركز أبحاث ودراسة المجتمعات المتوسطية» (CRESM)، و«أكاديمية علوم ما وراء البحر» (ASOM).

لاحظ كامب من تقليبه النقدي في الأبحاث السابقة، التي خاض بها أصحابها في شؤون التاريخ البشري خلال الحقبتين قبل التاريخية وقبيل التاريخية، أن الحقبة الأخيرة قد نابها غمطٌ فادح من عموم الدارسين، على الرغم من عظم أهميتها على ما تلاها من عصور الإنسان في منطقة شمال إفريقيا. فكانت من الدوافع إليه (كما وجد دافعاً في الأطروحة التي أنجزها يومئذ ليونيل بالو في موضوع «**شمال إفريقيا قبل التاريخ**» (1955))، إلى إنجاز أطروحته الرئيسية للدكتوراه عن بلاد البربر في حقبة قبيل التاريخ في موضوع «**أصول بلاد البربر : معالم وطقوس مقابرية من الحقبة قبيل التاريخية**» (1961، 628 ص). ثم أتبعها بأطروحة تكميلية، كرسها لمنطقة شمال إفريقيا خلال العهود الأولى لما قبل التاريخ، من خلال التقليب في شخصية الملك النوميدي العظيم ماسينيسا، وأسماها «**أصول بلاد البربر : ماسينيسا، أو بدايات التاريخ**» (1962، 320 ص). فكان بهذين الكتابين، اللذين أنشأهما في بداية مساره في البحث الجامعي، قد رسم لنفسه السبيل التي ستظل ديدَنه في الدراسة والبحث والتأليف لزمن مديد، قد طال به أربعين سنة، ثبّت خلالها بأعماله الزاخرة والرائدة لركائز البحث في منطقة شمال إفريقيا خلال الحقبة قبيْل التاريخية، وما فتئ يهدي السبل إلى دراسة البربر، بعد أن كانت الأبحاث في هذا الموضوع يعتورها الكثير من الانقسام والتشتّت.

ولقد تنوعت المجالات التي ضرب فيها كامب بسهامه في التاريخ البشري لكنه آثر بدراساته خاصة الحقبةَ ما قبل الرومانية في منطقة شمال إفريقيا. وظل عالَم البربر أهم المحاور التي استقطبت اهتماماته وانشغالاته، كما تشهد عليها كثرةُ مؤلفاته ودراساته فيه، ومن أبرزها **مدخل إلى ما قبل التاريخ** (1982، 448 ص). ولذلك يجزم أحد رفاق كامب في الدراسة والبحث، جيهان ديسانج، بأن ذلك التنوع الكبير في أعمال الرجل لا يخفي أن مركزها وقطب الرحى فيها إنما كانت دراسة العالم الليبي البربري عبر العصور[1].

ومن الأطوار الرئيسية في مسار كامب العلمي تعتبر سنة 1970 منعطفاً حاسماً في جهوده لتحريك البحث في شؤون البربر. ففي تلك السنة أطلق كامب وفريقه العلمي مشروعه العظيم، المتمثل في **الموسوعة البربرية**. لكن هذا المولود لم يلق في حينه الترحيب المستحق من أوساط اللسانيين والعراقيين المشتغلين بالعالم المغاربي وعالم البربر؛ فكثيرون منهم كانوا يعتبرون قضية البربر لا تزيد عن دعوى من

---

1 - Jehan Desanges, «*In memoriam* G. Camps. Témoignage», *Encyclopédie berbères*, tome 25, p. 3788.

اختلاق «الآباء البيض»، الذين عُرفوا خاصة بدفاعهم عن لغة القبائل وثقافتها ولقي هذا الموقف كذلك سنداً من الحكومة الجزائرية، هي التي أدرجت العراقة في سلة «العلوم الاستعمارية». ولقد ثابر كامب وفريقه على إصدار هذه **الموسوعة** في طبعة مؤقتة بطريقة الاستنساخ، إلى ما بعد عددها العشرين، ويومها لقي هذا المجهود الالتفاتة والتنويه من اليونسكو، فقُيِّض الصدور للعدد الأول عن Edisud سنة 1984، وقدم له كامب بمقدمة وافية من أربعين صفحة، هي في الحقيقة إجمالٌ لكتابه هذا، الذي نقدم هَهُنا ترجمته العربية، وختمها ببيان لماهية هذه **الموسوعة** وعرض لأهداف هذا المشروع. فهذه **الموسوعة** جاءت لتساعد في تذليل الصعاب المتصلة بقضايا البربر، وتسعف الباحثين في شؤون بلدان المغرب، والصحراء والساحل والمناطق المجاورة للنيل بتصنيف منهاجي للمعارف المتعلقة بمجموع ساكنة هذه المناطق. و**الموسوعة** تنشد نفض الغبار عن العناصر الداخلة في تكوين الإنسان الإفريقي والمتوسطي، بتعميق البحث خاصة في من سُموا «الليبيين» في العصور القديمة، و«البربر» في العصور الوسطى، و«الأمازيغ» اليوم. ولذلك شدد كامب على وجوب تمييز **الموسوعة البربرية عن موسوعة الإسلام**؛ فهذه الأخيرة تظل هي الأداة التي ليس عنها استغناء لدراسة كل ما يتصل بالبلاد الإسلامية[2].

ولقد شكلت **الموسوعة البربرية** ملتقى للفيف من دارسي البربر، وكان كامب أكثرهم إسهاماً في هذا المشروع العلمي الكبير. فما فتئ ينشئ لها المقالات والدراسات (بلغت أعداد المجلدات الصادرة من هذه **الموسوعة** قيد حياة كامب أربعة وعشرين؛ بما مجموعه 4 000 صفحة، أنشأ هو نصفها)، وبعضها كان يحرره بأسماء مستعارة، من جملتها : EB، وC. Agabi، أو C. El Briga، إلى أن توفي عنها، فتولاها من بعده تلميذه ورفيقه سالم شاكر[3].

وكان لمنطقة المغرب الكبير (بلدان المغرب في الوقت الحاضر) إيثار خاص في الأبحاث والدراسات التي أنشأها كامب؛ خاصة خلال الحقبتين قبل التاريخية وقبيل التاريخية. ومن أعماله فيهما : **حضارة شمال إفريقيا والصحراء في ما قبل التاريخ** (1974، 336)، و**المعين في الأبحاث التاريخية** (1979، 460ص، وطبعة ثانية سنة 1990)، و**ما قبل التاريخ. في البحث عن الفردوس المفقود** (1982، 463 ص وقد توِّج من لدن الأكاديمية الفرنسية وتُرجِم إلى الإيطالية في 1985)، و**إفريقيا**

---

2 - Gabriel Camps, «AVERTISSEMENT», *Encyclopédie berbères*, tome 1, pp. 47-48.

3 - واصل سالم شاكر إصدار «**الموسوعة**»، التي بلغت أعدادها الصادرة إلى اليوم (2013) ستة وثلاثين.

بصيغة التأنيث (1992، 353 ص)، وهو مجمع مبهر بسيَر مشاهير النساء الإفريقيات بين حقيقيات ومتخيَّلات. وأشرف كامب كذلك على إصدار مؤلفات جماعية لباحثين يشاركونه بعض اهتماماته، كما أنشأ سلسلة **أطالس ما قبل التاريخ لحوض البحر الأبيض المتوسط** (صدرت منها عشرة أجزاء)، وكانت كذلك ثمار أبحاث أنجزها طلابه (برسم شهادة الأستاذية ودبلوم الدراسات المعمقة). كما أطلق سلسلة أخرى هي **أطلس تونس لما قبل التاريخ** (صدرت منها كذلك عشرة أجزاء).

وإذا كان كامب قد ابتدأ أنشطته العلمية في النطاق الجزائري؛ وخاصة المجال الصحراوي، فاهتم بالتقليب في النقائش والرسوم الصخرية خلال مهام عديدة كانت له إلى الهقار وتاسيلي نعاجر، فلقد اهتم بتلك الأمور كذلك خلال بعثاته إلى المغرب وتونس، وكانت له مشاركات متواصلة للبحث في جبال الأطلس المغربية خلال عهود ما قبل التاريخ. وقاده فضوله في الأخير إلى الاهتمامِ بالملاحة في البحر الأبيض المتوسط، وسكان الجزر، والاهتمام خاصة بتجارة السبَج، وقد كانت من الظواهر البارزة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الحجري الأوسط؛ فهذا تأدّى به بطبيعة الحال إلى كورسيكا، وقد كانت آخرَ مجال عُني بالبحث فيه، فخصّها بمقالات عديدة، كما تناولها بكتاب هام أصدره سنة 1988 (**أصول جزيرة كورسيكا في ما قبل التاريخ**، 1988، 283 ص).

وكانت لكامب مشاركات في العديد من المجلات الفرنسية والأجنبية، وفي العديد من المؤتمرات، أثمرت في ما بين سنوات 1945-1952 و2002 أكثر من 250 مقالة ودراسة، أحاط فيها بكثير من جوانب رحلة الإنسان في أنحاء المعمور عبر مختلف الأزمنة. لكن كامب يظل بأبحاثه ودراساته العديدة التي تناول بها تاريخ الإنسان عامة، والبربر بصفة خاصة، في منطقة شمال إفريقيا، يؤثر في تلك الأبحاث والدراسات الحقبة قبيْل التاريخية؛ وهذا أمر قد نوّه إلى أهميته ووجاهته ابتداء من كتابه الثاني عن **ماسينيسا**. فقد ميّز في مقدمته بين المهتم بدراسة الحقبة ما قبل التاريخية؛ فهو يراه متقيداً بدراسة الوثائق المادية، وبين المهتم بدراسة الحقبة التاريخية، وهو يراه ينساق بما يملي عليه سحر النصوص، وأما الدارس المشتغل بالحقبة قبيل التاريخية فهو عنده ملزم بأن يعرف كيف يستخلص من الحفريات أكبر قدر من المعلومات، وأن يستقرئ النصوص النادرة التي تخلّفت من تلك الحقبة ليمسك من خلال ذلك كله بالخيط الرفيع الذي بدونه لا يتحقق شيء من فهم تلك الحقبة الدقيقة في تاريخ الإنسان[4].

---

4 - Gabriel Camps, *Massinissa*, Arts et métiers graphiques, 1960, p. 3.

لكن غابرييل كامب، مع كثرة فتوحاته في مجال البحث الأكاديمي، وربما بسببها كذلك (ومن جملتها ذلك الاكتشاف منه لعصر برونزي في منطقة شمال إفريقيا وذلك الوصل المبتكر منه للبربر بالإنسان العاقل في منطقة شمال إفريقيا (إنسان مشتى العربي)، وتلك الاستقراءات الذكية منه للنقائش والأثريات المتخلفة من غابر الأزمان)، لم يسلم من الاختلاف حوله من الباحثين المجتمعين وإياه على الاهتمامات نفسها؛ سواء في ما قدم بين أيدي البحث الأكاديمي من براهين وأدلة أو في ما خلُص إليه من نتائج. ولعل من أول ما يمكن مؤاخذته به، كمعظم الدارسين الأجانب لما يتصل بعالمنا العربي والإسلامي، قلة المعرفة بالمصادر العربية، والاقتصار منها عامة على المترجَمة إلى اللغات الأجنبية، وفداحة الأخطاء التي يمكن أن تنجم عن ذلك النقص المعرفي في ما يتعلق بقضايا الإنسان في العالمين العربي والإسلامي والخصوصيات الثقافية والاجتماعية للعرب والمسلمين. ومن قبيل ذلك أن القارئ يلحظ أن جل المقارنات التي يعقدها المؤلف في سياق مقاربته للبربر قديماً وحديثاً يكاد يقتصر فيها على نطاقات جغرافية دون غيرها (إيثاره على سبيل التمثيل للظواهر التي تسعفه بها صقلية وقبرص والجزيرة الإيبيرية)، انسجاماً والأطر المنهاجية التي توسلها إلى مقاربة هذا الموضوع، الذي يقرّ هو نفسه بتعدديته وغلبة الرجم والشك فيه على الجزم واليقين.

ثانياً، الكتاب:

يكتسي هذا الكتاب أهمية خاصة، لاعتبارات عديدة؛ يأتي في مقدمتها ما صار للبربر (الأمازيغ) اليوم من تواتر الاهتمام في البلدان المغاربية عامة، وفي المغرب بوجه خاص؛ كما نرى بعض أوجهه في اتساع نطاق الحضور الثقافي والإعلامي الذي صار يحوزه المكون البربري (الأمازيغي) في هذه البلدان، والاهتمام الكبير الذي صارت تلقاه اللغة البربرية (الأمازيغية) في دساتيرها وفي برامجها التعليمية. فهي اعتبارات قد عزّزت من الحاجة إلى مزيد تعرّف على أصول البربر، ورحلتهم المديدة في التاريخ، وإبراز ما كان لهم فيه من ألوان المساهمات، والتعرّف إلى تقاليدهم، وأساليبهم في العيش، واستكناه العناصر المكونة لثقافتهم واجتماعهم. فلقد أثبت البربر، والناطقون بالبربرية، في منطقة شمال إفريقيا، على امتداد تاريخهم

الطويل، أنهم ليسوا بالأقلية «الزهيدة»، التي يسهل إقصاؤها، أو غض الطرف عنها أو احتواؤها بشتى أنواع الغزو والهيمنة[5].

ولعل بعض شيء مما يدلنا على المكانة المرموقة التي يتبوأها هذا الكتاب بين أعمال كامب طبعاته المتتالية (أربع «مركزية» (في فرنسا)، وثلاث «محلية» في كل من الجزائر، وتونس، والمغرب)؛ فهو يمثل بحق موسوعة مصغرة بكل ما يتصل بالبربر في سائر ما طبعوا من الأزمنة، وعمَروا من الأمكنة. وحتى ليصح أن نقول إن المؤلف قد أجمل في هذا الكتاب عملَه الموسوعي الجبار في هذا المضمار، والذي أدار عليه تلك **الموسوعة البربرية**.

وفوق هذه الاعتبارات الراهنة، هنالك اعتبار آخر بالغ الأهمية، وقد كان كذلك من موجّهات كامب إلى الاشتغال بالبربر؛ نريد خصوصيّتهم المائزة لهم بين سائر الأقوام التي عمَرت عالمنا من قديم الأزمان. فالبربر قد عمّروا فوق ما عمّر سواهم كثيرون، والبربر قد صمدوا لتقلبات التاريخ، وغزو الغزاة، ومحاولات الاحتواء والطمس، والتذويب؛ فكأنهم المجرى الثابت الذي ظل موصولاً بعد انقضاء الحضارات، والدول، والإمبراطوريات التي تعاقبت على منطقة شمال إفريقيا. ولا تزال ترى للبربر وجوداً إلى اليوم في أكثر من اثني عشر بلداً، وعلى نطاق شاسع يمتد من غرب مصر إلى أقصى الشمال الإفريقي، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى جنوب النيجر. وإذا كان البربر، والناطقون بالبربرية، يشكلون مع ذلك أقلية بين ساكنة منطقة شمال إفريقيا، فهي أقلية لها وزن وأهمية، هم الذين يُقدَّر تعدادهم اليوم بما بين 20 و25% من ساكنة الجزائر، وبين 35 و40% من ساكنة المغرب[6].

ولقد اختلف المؤرخون في رصد أصول البربر، وإن غلب عندهم الرجوع بتلك الأصول إلى المشرق؛ يستوي بينهم القدامى والمحدثون، والأجانب والعرب. كما ويكادون يتفقون على التأريخ لمجيئ البربر إلى منطقة شمال إفريقيا قبل تسعة آلاف سنة. لكن بين المشتغلين بالبربر كذلك من يجعل لهم أصولاً إغريقية، وإيجية (نسبة إلى بحر إيجة)، بل إن منهم من يرتدّ بالبربر إلى الشمال الأوروبي، فيُدخلهم في السّلتيين. ومن المعلوم أن البربر قد استوطنوا منطقة شمال إفريقيا، وشكلوا فيها قبائل، واتحادات قبلية، وأقاموا لهم فيها ممالك عديدة. ثم ابتُلوا في ما بعد بالاحتلال الروماني، وعرفوا التمسيح، ودخلوا تحت الهيمنة الوندالية، والبيزنطية بعدها وتعرضوا للغزو العربي، فانقلب منهم كثيرون إلى الإسلام.

---

5 - Salem CHAKER, «La question berbère dans le Maghreb contemporain : éléments de compréhension et de prospective», *Diplomatie - Magazine*, 3, mai-juin 2003, p. 75.

6 - Salem Chaker, *op. cit.*

وكما اختلف البربر أصولاً وأنساباً عند المؤرخين، فكذلك اختلفوا أسماء عبر تاريخهم المديد؛ فهم «الليبو» و«التمحو»، وهم «الماكسيس» و«المازيس»، وهم «الجيتول» و«النوميديون»، إلخ. وإذا كانوا قد اشتهروا، ولا يزالون، باسم «البربر» (الذي يؤثر عليه أبناء جلدتهم اليوم اسم «الأمازيغ»)، فلأنه الأنسب لتعريف هذه الأقوام؛ فربما كانت لا تشترك في غير لهجاتهم اللغوية (فهي كأنما تقوم لها، برأي غير قليل من الدارسين، مميزاً عن الأقوام الأخرى)، مع إنكار كامب نفسه أن تكون اللغة البربرية تسعف في التعرف إلى البربر ورحلتهم في الزمان بأكثر مما قد تسعف عليه غيرها من المعطيات الإناسية والعرقية. فالبربر قد دخلت في تكوينهم الكثرة الكثيرة من الأقوام، يجتمع فيها السريان، والعرب، واليهود، والكوشيون، والأريان والفينيقيون، والكنعانيون، والإيبيريون، والوندال، والإغريق، واللاتين، والزنوج (حسب الترتيب الذي جاء لهم به بويتش وفيري)[7]، وسواهم كثيرون، وكذلك اندخلت لغتهم بالكثير من اللغات التي اتصلت بها بشتى أنواع الاتصالات.

ويسود بين البربر تنوع آخر كبير في العادات، والتقاليد، والأديان، وما استوطنوا من جهات ومناطق (وكثيرة هي البلدان التي استوطنها البربر في قديم الزمان ثم صاروا لا يكادون يُذكرون بها؛ كمصر، والسنغال، وجزر الكناري، إلخ.) والتي يخطئ من يقصُرها على منطقة شمال إفريقيا، أو يختزلها في بلدين اثنين من هذه المنطقة؛ المغرب والجزائر.

وفي مقابل هذا الوجود المتميّز الذي كان للبربر، أو بسببه أيضاً، ترى المهتمين بهذه الأقوام كأنما يعجزون عن الإحاطة بالجرد والوصف بمادة على هذا القدر من التنوع؛ فلا يسعهم إزاءها إلا أن يركبوا مراكب التجزيء والاقتطاع المسفّ. ولذلك فقد ظل معظم تصور الدارسين للبربر قاصراً عن تعمّق هذه الأقوام والإحاطة بخصوصيتها. فتراهم – بتعبير س. شاكر – يقطعون بهامشية البربر، وعجزهم السياسي المتأصل، الذي يرونه يسفر في حالة من التشرذم، وعدم القدرة على تشكيل دولة لهم، وغيابهم التام بالمعنى التاريخي. فالبربر إذا ما قيسوا إلى قرطاجة وروما، أو قورنوا بالعرب، بدوا أقواماً غير ذات شأن أو أهمية؛ فكأنهم لا يزيدون عن «مادة سالبة»، كانت تُشكَّل ويُعاد تشكيلها بما يقع عليها من غزو الغزاة![8].

---

7 - Gilles Boetsch et Jean-Noël Ferrie, «Le paradigme berbère : approche de la logique classificatoire des anthropologues français du XIXe siècle», In: *Bulletins et Mémoires de la Société d'anthropologie de Paris*, Nouvelle Série, Tome 1, fascicule 3-4, 1989. pp. 266.

8- هنا بالذات، ص. 37.

ثم جاء غابرييل كامب، فنحا منحى مغايراً في مقاربة هذا الموضوع. فالرجل قد جاء متسلحاً برؤية جامعة إلى البحث التاريخي عامة، والدراسات البربرية بوجه خاص؛ فهو فيه يأخذ بمختلف العلوم المسعفة على دراسة الإنسان. ولقد أكد من خلال مجموعة من الأبحاث في عالم البربر، يُعدّ هذا الكتاب بحقّ زبدتَها ومحصلتها على وحدة هذا العالم، وعلى الاستمرارية البربرية في منطقة شمال إفريقيا. وكامب يروم في هذا الكتاب استجلاء تاريخ هذه الأقوام، بعد أن كان الجهل يسود بمعظم جوانب تكوّنها وخصوصيتها؛ وهي التي تمثل اليوم ساكنة من حوالي ستة عشر مليوناً، ويبحث خاصة في الأسباب من وراء تلك السيطرة التي وقعت على البربر من أكثر من حضارة وقومية، ويتوقف خاصة عند ذلك الاحتواء الكاسح الذي وقع عليهم من الحضارة العربية الإسلامية. وجاء كامب يفكك الأساطير والخرافات التي نسجها الأجانب والعرب سواء بسواء بشأن البربر، وثقافتهم وأصولهم. والكتاب يمثل أول محاولة في مقاربة تاريخ البربر بالتوسل بجُماع من العلوم – تدخل فيها الحفريات، والجغرافيا، والعراقة، الإناسة، واللسانيات، إلخ. – وهاجس تركيبي لائح للملمة شعث تاريخ من الصراع لصون الهوية البربرية من رياح الاجتياحات الأجنبية التي توالت على هذه الأقوام الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني.

فالبربر الذين عُرف عنهم، بتعبير كامب، أنهم يتلقون بسهولة لكن يهجرون بصعوبة[9]، قد استطاعوا الصمود والبقاء، على الرغم مما نابهم من صنوف الغزو والاجتياح، والتذويب، وإن يكن منهم من صاروا في وقت من الأوقات بونيقيين ومن صاروا روماناً، ومن باتوا اليوم معدودين في الغرب. والبربر قد استطاعوا الاستمرار على عاداتهم، والمحافظة على لغتهم، وتقنياتهم التقليدية (كما نرى بعض أوجهها في الأثاث، وفي الزراعة، وفي المصنوعات اليدوية، إلخ.). ولعل في هذه العوامل مجتمعة تفسيراً كذلك لكثرة الدراسات التي تناولت البربر، حتى ليجزم كامب أنه لا توجد أقوام قد وقع البحث في أصولها من الاجتهاد والتلفيق بقدر ما وقع في البربر[10]!

ولقد سعى كامب إلى مقاربة موضوع على هذا القدر من التشابك والتضارب في المصادر والآراء، فنحا في تناوله له بكتابة سلسة بديعة، وتوخى فيه جهد الإمكان

9 - هنا بالذات، ص. 320.

10 - هنا بالذات، ص. 55.

بناء الوقائع المؤسسة لتاريخ البربر بالتسلسل الزمني[11]، وهو شيء لائح من مجرد التمعن في الفصول التي وزع إليها كتابه. كما ونلمس هذا المنهاج لديه في التجريح الذي تناول به النظريات التي سبقته إلى البحث في موضوع البربر، والعودة على أكثرها بالتفنيد؛ ففقهاء اللغة، والمستشرقون في العصر الحديث لم يكادوا يزيدون على اختلاف توجهاتهم في البحث، وأساليبهم في الاستقصاء عن الإمعان، في تلبيس البحث عن الحقيقة في موضوع البربر، وذلك لأسباب تكاد تكون واحدة فهي تجتمع في نقص المعارف بقضية البربر[12]. ومع ذلك فكامب لا يزعم أنه يقبض في هذا الموضوع على الحقيقة التي تفلّتت من بين أيدي من سبقه إلى التقليب فيه لكن أفضلية مساهمته في الحرص الشديد الذي كان منه على استيضاح التشابكات الكثيرة التي تحف بهذا الموضوع.

الفصل الأول

عرض في البداية للأساطير التي حيكت في أصول البربر، وقد ارتد فيها إلى عهد هيرودوت، الذي نسب البربر إلى الطرواديين. وتدرج مع الأساطير التي نُسجت في تعقب أصول البربر؛ فكانت الأسطورة التي تردّهم إلى الأصلين الميدي والفارسي (سالوستيوس وهيمبسال)، والأسطورة التي تردّهم إلى الأصل الكنعاني (بروكوبيوس). كما عرض لأساطير أخرى من العصور القديمة، وتدخل في جملتها تلك التي ترد البربر إلى الهنود (سترابون)، والتي تردهم إلى الموسينيين (بطليموس). وكلها أساطير قد تناولها كامب بالبسط والاستعراض، ثم عاد عليها بالتجريح والتفنيد. فأكثر هذه الأساطير أقامها أصحابها بوهم أن البربر يشكلون شعباً (أو جنساً)، فصاروا يتكلفون البحث له عن أصول؛ عمدتهم فيها ما وقفوا عليه من تشابهات في الأسماء بين مجموعة من الأقوام ومجموعة من الأماكن. ولا يشذّ عن هذا التصور لأصول البربر ما جاء عند المؤلفين العرب (ابن خلدون والبكري والمسعودي)، إلا في المنحى الأبوي الذي درج عليه هؤلاء النسابة (ويعزوه كامب إلى البونيقيين)؛ في ارتدادهم بأصول سائر الأقوام إلى جد أكبر تكون منه تفرعت في شتى أنحاء المعمور. غير أننا لا نعدم عن ابن خلدون نفسه ميلاً في الخروج عن تلك الأحادية في تصنيف أصول البربر. فهو إذا كان يرد البربر إلى كنعان ابن نوح

11 - Lucien Golvin, «G. Camps, Berbères aux marges de l'Histoire», In : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, N°32, 1981, p. 166.

12 - Golvin, *Op. cit.*, p. 163-164.

فإنه يستثني منهم صنهاجة وكتامة، فيردهما إلى اليمنية، وبعض نسابة البربر يردهم إلى العرب (حميَر)[13]. غير أن تلك الأساطير في بحث أصول البربر لم تقتصر على القدامى، بل وقع فيها كذلك الباحثون والمستشرقون الأوروبيون المعاصرون، وحتى لقد فاقوا في جموح الخيال كتّاب الأساطير القديمة، وإن يكونوا توسلوا في بحث هذه الأصول بالمنهاجين الفقهي اللغوي والحفري الأثري[14].

فأما الأول فقد اختص به دارسون ألمان، وهؤلاء استندوا إلى مجموعة من القرائن المتشابهة بين البربرية ولغات عديدة؛ فمن ردّ البربر كذلك إلى الكنعانيين (موفرز) ومن ردهم إلى الهنود (كاتبرونر، وريتر، وهي الدعوى نفسها التي كان سبقهم إليها سترابون)، بل ردهم آخرون إلى الإغريق (بيرثولون). لكن هذه الدعاوى لم تصمد لما أُريدَ لها من نتائج عرقية؛ ذلك بأنها تقطع بثبات ما وقع الاحتجاج به من أقوام على مديد القرون.

وأما الثاني فقد برز فيه دارسون فرنسيون، وهو يبدو للوهلة الأولى أقل شطحاً من المنحى الأول ذي الطبيعة اللغوية، لأن الأطروحة الأثرية تقوم على مرتكزات مادية تتمثل في المخلّفات الأثرية لهذه الأقوام. لولا أن هذا المجال قد غلبت عليه المسبقات القومية والنوازع الإديولوجية. وما أكثر علماء الآثار الذين انبروا يتنازعون في رد الدلمنات والأنصاب المقابرية في شمال إفريقيا إلى ما يؤثرون ويستحبّون من الأقوام. وتظهر النزعة الاستعمارية سافرة لدى بعض هؤلاء العلماء لا يفلحون في حجبها بما يتوسلون من وسائل وأدوات علمية. فمن رد تلك المآثر إلى الدرويديين (روزي وگويون)، ومن أرجعها إلى الغاليين (فيرو)، ومن نسبها إلى الأرموريكيين (بيس). ولعل أبرز الأمثلة في هذا الباب ذلك الاستبسال الذي كان من البعض لرد الدلمنات التي في الجزائر إلى السلتين، بما يعني أنهم يردونها إلى الأصل الفرنسي[15].

وفي مقابل هذه النظريات، التي تبحث في أصول البربر بالاعتماد على الأطروحة القائلة بهجرتهم وانتشارهم، بما كان يقع عليهم من أشكال الغزو وصنوف الهيمنة، وبالأخذ بما لاعدّ له من التشابهات اللغوية والأثرية، يرجّح كامب جانب الأبحاث والدراسات التي تتجه في بحث أصول البربر إلى التمعن في البقايا البشرية

---

13 - Lucien Golvin, *Op. cit.*, pp. 164.

14 - هنا بالذات، ص. 64.

15 - هنا بالذات، ص. 66.

المتخلّفة عن عصور ما قبل التاريخ. «فالمنطق يقتضي أن نجعل الأولية للإناسة»[16]؛ أي أن التمعن ينبغي أن يكون في البربر أنفسهم، والمقارنة ينبغي أن تُجعل لهم بالبقايا المتخلّفة لنا من الإنسان القديم. وحتى ليطلق تساؤله الصارخ المنقلب به على كل ما سبقه إلى بحث أصول البربر : «وماذا لو أن البربر لم يأتوا من أي مكان»[17] أي أن تكون هذه الأقوام ترجع بأصولها إلى منطقة شمال إفريقيا نفسها، وأنها لم تهاجر إليها، أو تنتشر فيها، من أي واحدة من تلك الجهات والأصقاع المزعومة لها؟ وإذا كان البحث الإناسي – بإقرار كامب – لا يسعف في التعرف على أقل خاصية «بربرية» أصيلة في مجموع سكان جنوب البحر المتوسط، فإنه يسعف على هذا البحث في كل ما يتصل بالمكون الثقافي للبربر[18].

ولذلك فقد ارتد كامب إلى العصر الحجري الأعلى؛ أي إلى 30 000 سنة قبل الميلاد، للبحث في أصول أوائل البربر، الذين استوطنوا منطقة شمال إفريقيا. وإن في هذا المسعى لما يشهد لكامب بالجراءة المعرفية؛ خاصة والرجل يُقْدم على الحفر في موضوع قد كشفت المصادر الكثيرة فيه عن نقص كبير في المعلومات، وخلط كبير في العناصر والمكونات. فلقد ارتد إلى الحدود التي كانت تنحدّ بها الأبحاث التاريخية والإناسية، بتعبير لوسيان گولڤان[19]؛ أي إلى الإنسان العاقل؛ وقرينه في شمال إفريقيا؛ إنسان مشتى العربي. فسعى إلى الإحاطة بخصائصه، وتتبّع تكوينه وتحولاته في الزمان والمكان. لكنه نفى عنه مع ذلك أن يكون السلفَ المباشر للبربر؛ فقد تدخّل في وقت من الأوقات المكوّن «المتوسطي»، متمثلاً في «أوائل المتوسطيين» الذين استوطنوا هذه المنطقة في الألف التاسعة، فقاموا باحتواء سكانها «المشتويين»، ليقوم فاصلاً بينهم وأن يكونوا الأسلاف المباشرين للسلالة البربرية. ذلكم هم القفصيون الذين استوطنوا ما يُعرف حالياً بتونس، خلال القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد. فإن لهم خصائص إناسية تقرّبهم إلى البربر كما نعرفهم في الوقت الحاضر[20]. وكامب يعود بأصول القفصيين إلى المشرق، ويعتبرهم الأسلاف الحقيقيين لقدامى البربر، والذين صاروا في انتشار في منطقة شمال إفريقيا، ثم

16 - هنا بالذات، ص. 58.

17 - هنا بالذات، ص. 57.

18 - هنا بالذات، ص. 72.

19 - Lucien Golvin, *Op. cit.*, pp. 163-166.

20 - Lucien Golvin, *Op. cit.*

تعرضوا لشتى المعيقات، ومن جملتها المعيقات الجغرافية، واصطدموا بغير قليل من الأقوام، ومن أسماهم «القادمين الجدد» إلى هذه المنطقة. لكن أمكن لهم أن يتغلبوا عليها جميعاً؛ فلم يمنعهم مضيق طارق، ولا مضيق صقلية، عن أن يشكلوا جسراً واصلاً بين ساكنة أوروبا وساكنة إفريقيا في ذلك الزمان. وإن في مخلفات المصنوعات الخزفية وشتى أنواع الأثاث المقابري لما يشهد على وثاقة الصلة التي كانت تقيمها هذه الأقوام بين سائر تلك المناطق والجهات.

ويتمم المؤلف هذا المجهود الإناسي في التعرف على أصول البربر ببحث آخر في اللغة. لكنه بحث محفوف هو الآخر بالكثير من الصعاب؛ بحكم القابلية المعروفة في البربرية للاقتراض من اللغات الأخرى. ولذلك اختلف الدارسون كثيراً في بحث أصول هذه اللغة؛ فمن زعم لها قرابة إلى المصرية (شامبوليون)، ومن جعل قرابتها إلى الهلينية (بيرثولون)، ومن زعم لها تلك القرابة إلى السومرية، والطورانية والباسكية... لكن من ينحو هذا المنحى لا يبعد أن يجد للبربرية كذلك قرابة إلى اللهجات الهندية الأمريكية، وحتى الفنلندية! ولعل هذا الهذيان قد بلغ بالمنكرين له حد الشك في أن تكون للبربرية وشيجة حتى بالليبية نفسها (وهو الرأي الذي قال به أندري باسي[21])، على الرغم من كثرة الشواهد الناطقة بتلك العلاقة. وظهرت طروحات أخرى أكثر تماسكاً؛ كالتي جاء بها مـ. كوهين، في رد البربرية إلى الأسرة الحامية السامية، التي تلتقي فيها ولغات أخرى كالمصرية والقبطية[22]. وكامب يشدد خاصة على أن أسباب الزلل في مقاربة أصول اللغة البربرية يعود إلى الاستخفاف الذي كان من الدارسين بالنقائش الليبية، التي تخلّفت لنا من العصور القديمة. فالذي يجدر بالإشارة ههنا أن في العصر الحجري الوسيط اجتاحت الصحراء أقوامٌ من البيض («البقريون، ثم «الخيليون»)، فاكتسحت ساكنتَها من أشباه الزنوج الذين عُرفوا بصناعة للخزف سابقة على العصر الحجري الحديث، ولم يكن لها من جذور خارجية متوسطية، وأدخلت إليها «الخيول» و«العربات الصحراوية» واستعبدت الساكنة السوداء، وصارت تُعرف عند مؤرخي العصور القديمة باسم «الجيتول» و«الجرمنتيين»، وهم الذين يعتبرهم كامب الأسلاف المباشرين للبربر (الطوارق). وإليهم ينسب الأنصاب المقابرية التي تعمر وسط الصحراء وغربها[23].

21 - هنا بالذات، ص. 90.

22 - هنا بالذات، ص. 91.

23 - هنا بالذات، ص. 91.

الفصل الثاني

عقد المؤلف هذا الفصل للبحث خلال الحقبة قبيل التاريخية في الآثار التي خلّفها أوائل البربر في منطقة شمال إفريقيا، واتجه اهتمامه خاصة إلى مقابرهم ومدافنهم في هذه المنطقة، وهي فيها كثرة كثيرة. ومن الخلاصات التي انتهى إليها من نظره في محتويات تلك البازينات (ذات الأصل المحلي)، والدلمنات والنواويس (ذات الأصل الخارجي المتوسطي) من الفخاريات المنزلية والحلي النحاسية والبرونزية اتفاقُ المناطق المشتملة عليها مع ما لا يزال يُصنع منها في المناطق نفسها في الوقت الحاضر، واتفاقُها مع مناطق زراعة الحبوب. ليخلص إلى يقين بأن من عمروا هذه المناطق كانوا من السكان المقيمين.

هذه الخلاصة قادت المؤلف إلى البحث في الخصائص الإقليمية لبلاد البربر وهي بلاد يجتمع الدارسون على أنها لم تشهد وحدة ثقافية أو سياسية[24]. وكامب يرى أن ما أعاق من تلك الوحدة السياسية والثقافية إنما يعود إلى عوامل جغرافية وإلى افتقار بلاد البربر إلى مركز جاذب لكل الأطراف. ولقد اعتمد كامب على الآثار المقابرية التي حفلت بها هذه البلاد في نظره إلى اختلافها بين الجهات، التي جعلها ثلاثاً.

فشرق بلاد البربر، وهي المنطقة التي اعتبرها قد كانت خلال حقبة قبيل التاريخ بوابةَ هذه البلاد المفتوحةَ على الحضارات المشرقية، على الرغم من تضاريسها الوعرة وغاباتها، خاصة في شرق الجزائر. وتتميز هذه الجهة بمقابرها المعروفة باسم «الحوانيت». وغرب بلاد البربر، وهي منطقة أقل وضوحاً بكثير؛ وتمتاز بمناخها وقربها إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، كما تمتاز باحتوائها نوعاً آخر مختلفاً من المقابر هو المتمثل في «الجثوات الكبيرة». والمنطقة شبه الصحراوية، وتتميز بـ «المصليات ذات الجثوات». ويظهر من خصائص هذه المنطقة ضعف التأثيرات المتوسطية، الذي يعوّض عنه حضور إفريقي. ومنطقة وسط بلاد البربر، وتتميز بوجود ما يُعرف بـ «البازينات»، التي تجتمع فيها تأثيرات الجنوب وتأثيرات البلدان المتوسطية.

وكامب ينوّه من خلال هذا التقسيم لبلاد البربر إلى أطروحته القائمة على اعتبار ذلك التنوع العرقي في البربر، وأنهم لم يشكلوا في يوم من الأيام عرقاً واحداً تكون له صفة التجانس والانسجام. كما وأن بلاد البربر لم تشهد على مر تاريخها وحدة

24 - هنا بالذات، ص. 114.

سياسية أو ثقافية، وإن عرفت شيئاً من الوحدة الجغرافية (كما في بلاد الأطلس) وشيئاً من الوحدة العرقية، كما تجلت في اللهجات البربرية.

وانتقل كامب إلى العصور القديمة، فقلّب النظر في اسم «البربر»، ونفى عنه أن يكون تحريفاً للصفة اللاتينية «بارباروس»؛ أي الأجنبي عن الثقافة الكلاسية عمدته في ذلك أن الأقوام البربرية ظلت، وهي تحت السيطرة الرومانية، تتسمى باسمه، ويجمعهم الجغرافيون على «النوميديين»، فـ «الجيتول»، ثم «الموريين». وكان هيرودوت يجمع سائر الأقوام البيض من غير الفينيقيين والإغريق تحت اسم «الليبيين». وأما الاسم الحقيقي للبربر فهو عنده «الأمازيغ»، الوارد كذلك عند هيرودوت نفسه (بصيغة «المازييس») وعند هيكاتي (بصيغة «المشوَش»)، وكامب يرجح أن يكون اسماً عرقياً، بحكم الانتشار الكبير الذي كان له في منطقة شمال إفريقيا في صيغ كثيرة.

وانتقل المؤلف إلى الحقبة التاريخية، فنوّه إلى أن فترة الأوج التي بلغها البربر في شمال إفريقيا إنما كانت الحقبة «الموريتانية»، السابقة على الحقبة الرومانية، والممهدة في القرن الرابع قبل الميلاد لقيام ثلاث ممالك رئيسية في بلاد البربر. ففي الشمال الغربي أي في ما يُعرف حالياً بالمغرب، قام اتحاد للأقوام والقبائل البربرية، تولدت عنه مملكة موريتانيا – أو المملكة المورية – الممتدة من المحيط الأطلسي حتى وادي ملوية. وفي المنطقة بين وادي أمساگا – الوادي الكبير – وأقليم قرطاج قامت المملكة الماسيلية. وفي المنطقة بين ملوية ووادي أمساگا قامت المملكة الماسيسيلية. وقد صارت المملكتان إلى اتحاد في القرن الثالث قبل الميلاد في مملكة واحدة؛ هي المملكة النوميدية.

ومما يجدر ذكره من الناحية السياسية أن ماسينيسا، رئيس الماسيليين، قد صار في 148 ق. م. حليفاً لروما؛ فهذا مكن له أن يوحد المملكة النوميدية، بضمه المملكة الماسيسيلية. وأما في أقصى الشرق فقد بقيت موريتانيا لبعض الوقت في استقلال. وفي 113 ق. م. انخرطت روما في حرب شاملة ضد الملك النوميدي يوغرطة أمّنت لها السيطرة على قسم كبير من المغرب الكبير. ثم عرفت موريتانيا تحت حكم يوبا الثاني (25 ق. م- 23 م)، وتحت حكم ابنه بطليموس (23 ق. م- 40 م) شأناً عظيماً. وقد كانت عاصمة المملكة يومئذ هي قيصرية – شرشال حالياً – فيما ارتقت وليلي إلى مرتبة الإقامة الملكية. ثم اندلعت الثورات في 40 م، فقام الإمبراطور كلود بسحقها، وتقسيم التراب الموريتاني إلى قسمين؛ فكانت موريتانيا القيصرية – في القسم الغربي مما يُعرف حالياً بالجزائر؛ أي أنها قامت في موضع ما كان يُعرف

بالمملكة الماسيسيلية – وموريتانيا الطنجية، الموافقة للمغرب الحالي، ومركزها مدينة طنجة. ثم لم يمض وقت طويل على إفريقيا حتى تعرضت للغزو العربي الإسلامي.

ولذلك فقد تتبّع كامب رحلة البربر في العصور الوسطى؛ فأبرز الاختلاف في النظر إلى هذه الأقوام بين مؤرخي العصور القديمة ومؤرخي العصور الوسطى خاصة من العرب. فبينما نظر الأوائل إلى البربر بأنهم انتقلوا من أماكن إلى أخرى يرجعهم المؤرخون العرب (النسابة) إلى جد واحد؛ وهو تصور أبوي يرجعه كامب إلى الفينيقيين. وقد اهتم من هذه الحقبة خاصة بما أسماه «خطر الجمالين»[25]؛ الذي وقع على منطقة شمال إفريقيا في القرن الرابع الميلادي، كما اهتم بالغزو العسكري العربي الذي وقع على المنطقة في القرن السابع. فلقد كانا عاملين في زعزعة هذه المنطقة، والقضاء فيها على حياة الاستقرار، وتقويض الحدود الرومانية التي كانت تقوم سداً منيعاً يصد زحف الرحل. وانتهى إلى الغزو الهلالي الذي وقع على المنطقة في القرن الحادي عشر، ومعه زالت تلك الحدود والترسيمات. فهذه قبيلة لمتونة، إحدى قبائل الرحل، قد أقامت دولة المرابطين، وهذه مصمودة، الصنهاجية قد أقامت دولة الموحدين. ثم صارت هذه الممالك إلى تآكل، بما داخلها من عوامل التفكك (مداخلة العناصر الإسبانية الموريسكية للمملكتين). وعبثاً سيسعى المرينيون بعد ذلك في إعادة توحيد المغرب الكبير. وانضاف إلى هذا التآكل الداخلي الخطر الخارجي، متمثلاً في الحملات الصليبية، فالبرتغالية، ثم الخطر التركي. وتلك كانت نهاية سلطان البربر، ودخولهم مرحلة الانكماش، والسعي المستميت للحفاظ على استقلال ذاتي (قبلي) مهدد على الدوام[26].

الفصل الثالث

هذا الفصل عقده المؤلف للتمعّن في طبيعة العلائق التي قامت بين البربر ومن اتصل بهم من الأجانب، وما جمعهم وإياهم من صنوف الصراع، وألوان الاختلاط والتثاقف. واهتم كامب كذلك برصد مختلف ردود الفعل التي كانت من البربر تجاه الثقافات الوافدة عليهم بالمسالمة والإكراه. وتوقف عند أربع محطات كبرى في هذا الباب؛ علاقة البربر بالبونيقيين، وعلاقتهم بالرومان، علاقتهم بالوندال والبيزنطيين وعلاقتهم في الأخير بالعرب المسلمين. ومن الأمور التي خالف فيها كامب مؤرخين

---

25 - هنا بالذات، ص. 162.

26 - هنا بالذات، ص.180.

كثراً؛ ذلك التنويه منه إلى الاتصال الذي كان للبربر بالبونيقيين؛ فهو لم يكن في رأيه بالاتصال العابر، بل كان تداخلاً مكيناً؛ حتى إن البربر قد كانوا على عهد البونيقيين يدينون بالديانة البونيقية، ويتكلمون اللغة البونيقية (وحتى إن بعض أسماء آلهة قدامى البربر لا يمكن تفسيرها إلا بالرجوع إلى هذه اللغة)، وأنهم قد استمروا على تلك الديانة، وعلى تلك اللغة خاصة، لقرون مديدة من بعد التخريب الذي وقع على قرطاج؛ وحتى إن «إفريقيا الرومانية قد ظلت تسبح طوال قرون في جو يغلب عليه الطابع الديني السامي والبونيقي»[27]. فما قام بين البربر والبونيقيين لم يكن سيطرة محكمة، بل «نسيجاً فضفاضاً من العلاقات بين ثلاثة أقطاب : المستودع القرطاجي (أو المدينة الفينيقية القديمة الخاضعة لقرطاج)، والحاضرة البونيقية والممالك المحلية». فلذلك وصف كامب المثاقفة بين البربر والبونيقيين بأنها كانت «ناجحة»، لكن لا تزال «مجهولة»[28].

و كذلك خالف كامب معظم المؤرخين بشأن رؤيتهم لعلاقة الرومان بالبربر من حيث يُجمعون على تسفيه الحقبة الرومانية في منطقة شمال إفريقيا، والانتقاص من أهميتها. فكأنما غلب عليهم في نظرهم إلى السيطرة الرومانية استحضارُهم لقضية الاستعمار الذي وقع على بلدان شمال إفريقيا في العصر الحديث. فما كان المجتمع الروماني في هذه المنطقة بالمجتمع الاستعماري المنغلق في وجه البربر، على الرغم من كثرة الحروب التي جمعتهم بروما، وطالت بهما قرناً من الزمن، بل كان مجتمعاً منفتحاً؛ قد احتضن البربر، وأتاح لهم فيه سبل الترقّي الاجتماعي، وحتى الارتقاء السياسي. ولقد اختلفت الأنظمة الإدارية التي اتبعها الرومان في سوْس المقاطعات الإفريقية؛ فالنظام الذي اتُّبع في مقاطعة إفريقيا في الجهة الشرقية، وكان ذا طبيعة جبائية غالبة، بحيث لم يكن يتيح للوالي فرص الظفر بالمراتب العليا في سدة الحكم وهي التي لم يكن إليها سبيل غير القناة العسكرية، قد اختلف كثيراً عن النظام المتبع في ولاية نوميديا في الجهة الغربية؛ فقد غلبت عليه الطبيعة العسكرية. وعلى الرغم من تلك السيطرة «النسبية» التي وقعت على البربر من الإمبراطورية الرومانية، فلقد فشلت روما في إتمامها بالاحتواء والتذويب. وعلى الرغم من اعتماد روما في تلك العملية على الجيش، فلقد كان الجيش فيها قليلاً لا يتناسب بأي حال مع شساعة الأقاليم الإفريقية. ولذلك عزا بعض المؤرخين (شـ. كورتوا) فشل عملية الرومنة

27 - هنا بالذات، ص. 195.

28 - هنا بالذات، ص. 187.

.نى عجز روما عن التوغل في المناطق الجبلية، فصارت لذلك بؤرا للهمجية[29].
وكذلك يعود ذلك الفشل إلى عوامل اجتماعية وسياسية عديدة، وعواملٍ تدخل في الإدارة والتنظيم. فما كانت إفريقيا الرومانية بالإمبراطورية الواحدة الموحّدة، بل كانت مجموعة من المقاطعات المتمايزة أوضاعاً، والمتباينة ساكنات، والمتخالفة نوازع ومصالح. فما انخرط في عملية الرومنة، وما قبل بنزعة اللّتننة، غير النخبة المحظوظة من البربر الإفريقيين بينما قام لها السواد الأعظم منهم بالممانعة والرفض. ولذلك فما كثر الاضطرابات التي واجهت روما من البربر، وما أكثر الفسيفساءات التي تصور لأسرى الإفريقيين في مقاطعة موريتانيا وهم يُساقون إلى الوحوش في المسارح. ولكن في مقابل هذا الفشل الذي مُنيت به عملية الرومنة يستغرب المرء لذلك التحول الكبير والعميق الذي كان من البربر إلى الديانية الرومانية الرسمية. وهل دليل عليه أعظم من أولئك الآباء الكبار للكنيسة المسيحية ذوي الأصول الإفرقية سيبريانوس، وتيرتوليانوس، وأعظمهم جميعاً أغسطينوس؟ ومما يتجلى فيه اتساع نطاق عملية التمسيح التي وقعت للبربر تحت الحكم الروماني أن تلك العملية قد تجاوزت بكثير حدود السيطرة الإمبراطورية، وكذلك تجاوز التمسيح الحدود الزمنية للحكم الروماني[30]. فلقد استمر البربر على اللاتينية (أو ما أسماها الإدريسي بـ«اللسان اللّطيني الإفريقي»)، كما استمروا على المسيحية لقرون طويلة بعد زوال السيطرة الرومانية عنهم، وإلى ما بعد الغزو العربي. لكن بلاد البربر لم تصر إلى بعد لاتيني على غرار ما وقع لإسبانيا، وذلك للعامل الجغرافي الذي كثيراً ما نوّه إليه كمب في تفسير كثير من أوضاع البربر في العصور القديمة؛ فبينما ارتكزت عملية لتتنة الإيبيرية على خلفية من أوروبا الإقطاعية والمسيحية، لم يكن لها في بلاد البربر من خلفية غير السهوب، ومنها تسلّل الرحل الجمّالون، الذين استمروا على الوثنية ثم الهلاليون، والعقلية البدوية[31].

وعلى خلاف الحضور الروماني في بلاد البربر، كان حضور الوندال، ومن بعدهم البيزنطيين. فلقد غزا الوندال شمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي وساندهم الغاضبون من الحكم الروماني في الإطاحة بما تبقى من الإمبراطورية. فأمكن لهم السيطرة على نوميديا، ثم قرطاج، التي صارت العاصمةَ للمملكة

---

29 - هنا بالذات، ص. 210.
30 - هنا بالذات، ص. 217.
31 - هنا بالذات، ص. 217.

الوندالية الجديدة. ومع ما يرى كامب للعهدين الوندالي والبيزنطي من أهمية على موضوع هذا الكتاب[32]، ذلك بأنهما، وخاصة العهد البيزنطي، قد مكّنا لانبعاث التقاليد البربرية، بعد أن تعرض بعضها للطمس من الحكم الروماني، فإن القارئ لاشك يستغرب للحيّز الضيق الذي أفرده كامب لهما في هذا الفصل من كتابه بحيث لم يزد عن صفحتين يتيمتين!!

وآخر هذه المثاقفات التي وقعت للبربر هي المتمثلة في الغزو العربي، الذي تعرضوا له في القرن السابع الميلادي. وكامب يستغرب، كما يستغرب غيره كثيرون للبربر بعد طول اعتناقهم للمعتقدات الوثنية، ومن بعدها المسيحية، كيف كان منهم ذلك الانقلاب إلى الإسلام، والانقلاب من معظمهم إلى العربية. ويستغرب كذلك للبربر بأعدادهم الكبيرة، وبُعدهم عن مركز الدعوة الإسلامية، كيف لم يتأبّوا عن الدين الجديد، وإلا فالدخول في الإسلام مع البقاء على هويتهم والمحافظة على لغتهم وتنظيمهم الاجتماعي[33]. وأما الأسباب وراء ذلك الانقلاب فيُجملها كامب في الضعف الذي كان من البيزنطيين، والفوضى التي كانت تعصف بإفريقيا منذ قرنين من الزمن، والانهيار الذي وقع لخطوط الدفاع التي كانت تصد زحف الرحل والنزاعات اللاهوتية التي لم تكن عند مسيحيّي إفريقيا بأخف منها عند نظرائهم في المشرق. فهذه العوامل - وغيرها كثيرة - قد يسّرت للغزاة العرب سبيل القضاء على المسيحية، ونشر الدين الجديد بين البربر. ولكن القول بسهولة تحول البربر إلى الإسلام لا يعني أن بلاد البربر قد انقلبت عن بكرة أبيها إلى الدين الجديد؛ فلقد بقيت منها أطراف كثيرة (خاصة في المناطق الجبلية) على المسيحية، وحتى ليجزم كامب بأن التحول الأول من البربر إلى الإسلام لم تكن له من نتائج، ولربما لم يعْدُ عن خرافة. وأما النشر الحقيقي للإسلام لديهم فإنما وقع في قرن الخامس عشر!! وحتى إن بعض البربر (القونشيين في جزر الكناري) قد كانوا إلى ذلك العهد لا يزالون على الوثنية[34].

وكما وقع للبربر مع الإسلام، فكذلك وقع لهم مع العربية. فالتعريب كما الإسلام، إنما همّ في البداية الحواضر دون البوادي. وأما التعريب الحقيقي فإنما وقع لبلاد البربر مع الغزو الهلالي في القرن الحادي عشر الميلادي. وتدخل في العوامل

32 - **هنا بالذات**، ص. 219.

33 - **هنا بالذات**، ص. 223.

34 - **هنا بالذات**، ص. 230.

التي يسّرت عملية التعريب تلك الضربةُ التي وجهها هؤلاء الرحل إلى حياة الاستقرار عند البربر. ولعل في هذا الأمر تفسيراً كذلك للغلبة التي كانت من بني هلال – وهم الذين لم تكن أعدادهم تزيد عن بضع عشرات الآلاف – على ساكنة بربرية تفوقهم تعداداً بكثير. وجدير بالتنويه أن التعريب الذي همّ، في البداية، قبائل الرحل، لم يشملها جميعاً؛ فلا تزال تجد مناطق كثيرة في بلاد البربر يتنقل فيها الرحل الناطقون بالبربرية، وكذلك لا تزال البربرية هي لغة البربر سكان الجبال.

الفصل الرابع

اهتم كامب في هذا الفصل بالبحث في المعتقدات التي كانت للبربر قبل أن يتعرضوا للتمسيح من الرومان. واهتم خاصة بالمعتقدات الشعبية لديهم، مع إقراره بصعوبة البحث فيها؛ إذ لم تقيَّض لها الوسائل التعبيرية التي توفرت للدين الرسمي المسيحية. وإذا كان كامب قد عاد على السيطرة الرومانية بالتجريح، فلقد نوّه في المقابل إلى أهمية القرون التي عمّرها الحكم الروماني في منطقة شمال إفريقيا في التعرف إلى المعتقدات ما قبل المسيحية لدى البربر[35].

ولقد استند كامب في بحث تلك المعتقدات إلى مصدرين رئيسيين؛ النقائش على الرغم من قلتها، وما تعرضت له من تحريف، وإفراغ من مكونها الديني، لأنها كُتبت بغير أيدي معتنقي تلك المعتقدات. والمصدر الثاني هو الكتابات التي خلّفها لنا الكتاب المسيحيون، وهي كذلك ليست بالكثيرة، فمعظم تلك النصوص كانت من إنشاء قساوسة وآباء للكنيسة، فلا يرد عندهم ذكر لتلك العبادات في غير ثنايا المعظات والنصوص المُدينة لتلك المعتقدات.

وفي مقدمة ما خصه البربر بالعبادة والتقديس في العصور القديمة النتوءاتُ التضاريسية، ويدخل فيها خاصة الجبل، وقرينتُه المغارة؛ لاعتقادهم أنهم يصلون إلى الله بالارتقاء إلى السماء، أو الغوص في باطن الأرض[36]. والنقائش التي على جبال الأطلس، ومعظمها يعود إلى العصر البرونزي، شاهدةٌ على التقديس الذي كان من البربر لهذه الظواهر الطبيعية. والعنصر الثاني في عبادة قدامى البربر هو الماء، وتدخل فيه كذلك ممارساتهم السحرية لاستدار الأمطار، مع ضرورة التنويه إلى العلاقة الوطيدة التي كانت لتقديس الماء عند قدامى البربر وطقوس تخصيب

35 - هنا بالذات، ص. 239.

36 - هنا بالذات، ص. 241-242.

الأرض والممارسات الجنسية. والعنصر الثالث في عبادة قدامى البربر يتمثل في الكواكب والنجوم. والشواهد كثيرة (كما عند هيرودوت) على التقديس الذي كان من قدامى البربر للإله الشمس والإله القمر. والمكون الرابع في ديانة قدامى البربر تشكله الحيوانات؛ فقد عرف قدامى البربر عبادة بعض الحيوانات، ووقع المؤلف على شواهد لكن قليلة، لتقديسهم للثيران، والقرود، والثعابين. لكنه يستثني من هذه الحيوانات الكباش، وينبّه إلى الخلط الذي وقع في تفسير الرسوم التي تظهر عليها الكباش ذات الرؤوس الكروية، ونسبتها إلى قرص الشمس عند المصريين. ويرجّح كامب أن تكون الكباش عند قدامى البربر لا تزيد عن حيوانات قربانية. وأما عبادة الكباش في منطقة شمال إفريقيا فلم يتحدث بها – حسب المؤلف – غير مؤرخنا العربي البكري. وكذلك كان الثور عند قدامى البربر ضحية مهيبة؛ فهم يتقربون بها إلى الإله ساتورن. وكان للأسد لديهم إيثار خاص، وحتى ليأخذ مكان الإله ساتورن على بعض المنحوتات. غير أن كامب لا يستبعد أن يكون الصحراويون الرحل أسلاف الطوارق عرفوا بشيء من عبادة الحيوان. وكذلك كان لقدامى البربر مجموعة كبيرة (قرابة الخمسين) من الآلهة الصغار، التي ربما كان نفوذها مقصوراً على الصعيد المحلي أو الإقليمي. ومن هذه الآلهة ما يحمل أسماء تُعرف بها كذلك بعض المواقع الجغرافية، خاصة منها القمم الجبلية، وهي تُجمع باسم «الآلهة المورية». وهنالك آلهة أخرى قد تسمّت بأسماء بشرية، وهي تأتلف في مجامع من ثلاثة وخمسة أو سبعة. غير أن هذه الآلهة كثيراً ما اختلطت بالجن المحليين؛ كجن القمم، لاقتصار سلطانها على النطاقات المحدودة. وإذا كان قدامى البربر لم يقيموا لهذه الآلهة النقائش الكثيرة، فإن الرومان، الذين سعوا في استمالتها، قد جعلوا لها اسم «الآلهة المورية» ذلك بأنها قد ظلت متأبية عن عملية الرومنة، شأنها شأن أتباعها الموريين.

وعرض كامب في هذا الفصل كذلك لما أسماها «تعارضات المسيحية الإفريقية». وقد نوّه في البداية إلى فضل المسيحية في تحفيز الميول التوحيدية لدى البربر على الظهور، وهي التي كانت إرهاصاتها لديهم قد بدأت باجتماعهم على عبادة الإله ساتورن، الموحّد لآلهتهم السابقة. لكن المسيحية جاءتهم كذلك بتناقضات، لم يكن أهونَها ذلك الالتباسُ الواقع في طبيعة المسيح. كما وأن الكنيسة المسيحية قد عجزت عن القضاء على آلهة قدامى البربر والجن الذين كانوا يقومون لهم بالعبادة فصيّرتهم إلى قوى وكيانات شريرة. وجاءت هذه الكنيسة للبربر كذلك بعبادة القديسين، أو بالأحرى تقديس الشهداء، وهو الأمر الذي كان له شيوع في معظم

أنحاء إفريقيا. فقد كانت الكنيسة الإفريقية زاخرة بالشهداء؛ قد اءتلفوا من كافة الشرائح الاجتماعية. والمسيحية الإفريقية انطبعت بالمزاج البربري المتّسم بالتشدد فلم يكن لها بدّ من أن تعرف الانشقاقات الكثيرة، كما تجلت في حركات المونتانيين والبيلاجيين، والمانويين، والأريان، ومعظم هذه الانشقاقات كانت لأسباب تنظيمة وإن لم نعدم فيها الأسباب اللاهوتية. وأبرزها هي المتمثلة في الدوناتية (وقطبها الحركي «الدوارين»)، التي ظلت تقسم مسيحيّي إفريقيا لثلاثة قرون ونصف من الزمن. ثم لم يلبث ذلك النزاع اللاهوتي أن تحول إلى صراع سياسي واجتماعي خاصة بعد أن صارت الكنيسة تخضع لمشيئة الإمبراطور الروماني.

وآخر تحول ديني كان من البربر إلى الإسلام. وفضلاً عن العوامل التي أسلفنا ذكرها، والتي ساعدت على تحول البربر بكثرة إلى الدين الجديد (على الرغم مما يصمهم المؤرخون من الردات الكثيرة عنه[37])، فلقد كان في بساطة هذا الدين خاصة أكبر دافع إلى البربر إلى اعتناقه؛ فليس فيه ذلك الالتباس الذي يطبع المسيحية، ومن تجلياته مسألة الثالوث. لكن إسلام البربر لم يعدم كذلك بدعاً تشذّ عن أصوليته ولعل أبرز تلك البدع هي التي عُرف بها برغواطة. ثم وقع الانشقاق الخوارجي فكان له في نفوس البربر عظيم التأثير؛ فكأنه الوريث للدوناتية التي عرفها أسلافهم من حيث نزوعهما إلى الفردانية والانفصالية، واتسامهما بالخشونة، وميلهما إلى البوادي دون الحواضر، وانطباعهما بالطابع الثوري. وفي هذه الاعتبارات كذلك تفسير للنجاح الذي لقيته لدى البربر الممالكُ التي قامت على المذهب الخوارجي كالإباضية، والرستمية، والفاطمية. لكن المذهب الخوارجي لم يلبث أن ابتُليَ هو الآخر بالانشقاقات؛ ومن نماذجها الصفريةُ والنكارية. فالولاء عند البربر يغلب فيه جنب الأشخاص لا جانب العقيدة نفسها. ونقع على ذلك الميل الفطري إلى التشدد الأخلاقي وإلى البساطة المذهبية اللذين كانا المميزين للحركات الدينية التي قامت في بلاد البربر في تلك الصورة التي قامت بها دول كالمرابطية والموحدية، خاصة في مراحلهما الأولى، قبل أن تُبتليا بالترف من الاختلاط الذي وقع لهما بالأندلسيين.

والخلاصة أن الدين عند البربر ظل ديناً شعبياً، تتعايش فيه العقيدة التوحيدية مع معتقدات بدائية؛ كالإيمان بالجن، وتقديس الأولياء، الذي يُعتبر امتداداً لتقديس الأسلاف، والذي لا يزال ممارسة جارية في منطقة شمال إفريقيا، لدى البربر، خاصة في اليوم.

---

37 - هنا بالذات، ص. 299.

عاد كامب في هذا الفصل لينظر بمنظور تركيبي إلى جوانب عديدة من وجود البربر ماضياً وحاضراً، خاصة ما دخل منها في تقاليدهم وممارساتهم الحِرفية، وعاداتهم الاجتماعية والسياسية. وعاد كذلك يراجع ما كان لهم من ذلك الحضور المتميز في مختلف الحضارات التي تعاقبت على منطقة شمال إفريقيا، من خلال تقليب النظر في ما أسماه «الاستمرارية البربرية» عبر التاريخ، والتمعّن في معالمها، التي لا يزال بعضها قائماً إلى اليوم حيثما لا يزال للبربر وجود. وكامب يعتبر الاستمرارية البربرية قد تكونت خاصة من قابلية خارقة لدى هذه الأقوام لتقبّل المساهمات الخارجية. لكن سهولة تقبّل البربر لتلك المساهمات توازيها سهولة استيعابهم وتمثلهم لها. والاستمرارية البربرية التي يريدها كامب هي المتمثلة في محافظة البربر في الوقت الحاضر على مجموعة من المكونات التي تميز بها أسلافهم القدامى من قبل أن يتصلوا بالإسلام، لم تُبدلهم عنها ما مرّ بهم من صنوف المثاقفات، وظهر خلالها البربري كائناً منفتحاً على كل الثقافات، ومساهماً فيها في غير ما استلاب[38].

وأول تلك العناصر في الاستمرارية البربرية التي وقف عندها كامب هو المتمثل في اللغة؛ فالبربرية قد كُتب لها البقاء من خلال بقاء التيفناغات، وهي الحروف الليبية التي كانت تُكتَب بها اللغة البربرية القديمة، مع قلة استعمال البربري نفسه للغته. لكن تحديد أصول هذه الكتابة لا يزال يعتوره اللبس والخلاف، لكثرة الأبجديات الداخلة في هذه الكتابة، وتنوّعها بتنوع الجهات في بلاد البربر. كما لا يزال الغموض يحول دون الاهتداء إلى تاريخ لإدخال هذه الكتابة إلى بلاد البربر.

والشاهد الثاني على الاستمرارية البريرية يتمثل في «الفن البربري»، وهو في مجمله فن من صميم العصر الحديدي؛ أي أن الطابع البربري أكثر تجلّيه في الفنون الصغرى الزخرفية، وليس يُستثنى منها غير بناء القلاع ومخازن المؤن. كما نلحظ تلك الزخرفة على الأنسجة. وتتمثل هذه الاستمرارية الفنية كذلك في فنون الخزف؛ فصناعة الفخاريات المغاربية لا تزال جارية على أنماط لا تشذ كثيراً عن صورها المعهودة في عهود ما قبل التاريخ. وتتجلى تلك العلائق خاصة في الزخارف المزينة لهذه المصنوعات الخزفية. ومعظم القرائن تجتمع على العودة بالفخاريات

38 - هنا بالذات، ص. 320.

البربرية، والقبائلية بوجه خاص (لأن أكثر شيوع هذه الفخاريات في منطقة القبائل) إلى أصول متوسطية[39].

وتظهر هذه الاستمرارية الفنية عند البربر كذلك في فن الزخرفة على الخشب وقد اقتصر منها المؤلف على الصناديق القبائلية، بالتمعّن خاصة في الزخارف المزينة لواجهاتها وقوائمها. ومن الخصائص الدالة على الاستمرارية البربرية في هذه الصناديق تلك الزخارفُ السداسية، والصليب متساوي الأضلع، لكن المؤلف ينفي عنه أن يكون من مواريث الماضي المسيحي للبربر؛ فقد وُجِدت له في الأطلسين الكبير والصغير خاصة أشكالٌ وتصاوير ترجع إلى ألف سنة قَبل الميلاد.

ومن معالم الاستمرارية الفنية عند البربر كذلك ما نطالع لديهم في فنون الحدادة والمصنوعات الحديدية، المشتهرة منها خاصة تلك المصوغاتُ الطوارقية التي يجتمع على التحلي بها الرجال والنساء معاً. وهذه المصنوعات قليلة أنواع، ومعظمها أنواط وقُرَب للتعاويذ، وتدخل فيها كذلك الأقفال والملاقط المستعملة برسم الحلي والمطارق النحاسية. وتفوق هذه الصنوعات تنوعاً تلك الحليُّ القروية في منطقة شمال إفريقيا، وأكثرها تُتخذ من الفضة. وقد أمكنٍ بفضل أعمال هـ. كامب فابرر حصر المصوغات المغاربية في صنفين اثنين : المخرَّمة المشكلة بالأيدي والمرصعة. والصنفان يختلفان كذلك نطاقاً، من حيث عموم الأول لكافة المناطق المغاربية واقتصار الثاني منها على قرى مخصوصة. وتشترك الحلي المرصعة في كثير من زخارفها مع الفخاريات والمنسوجات البربرية، بما يجعل من الصعب التمييز فيها بين ما يرجع إلى أصول بربرية قديمة وما يدخل في الإضافات البلدية الطارئة عليها. وتلك من الخصائص العامة كذلك في مختلف عناصر الاستمرارية البربرية؛ تستوي فيها الفنون، والسياسة، والاجتماع. وللحلي البربرية وشائج لائحة بما كان يُصنَع منها في المشرق وفي أوروبا على عهود الممالك الفرنكية، والباربارية، والوزقوطية. وبعض الدارسين (خاصة جـ. مارسي وجـ. مونيي) يتفقون على أن أول دخول لهذه الحلي إلى منطقة شمال إفريقيا كان مع قدوم الوندال، ثم كان لها دخول آخر أعظم بأيدي المسلمين الملتجئين من الأندلس إلى بلدان المغرب في القرن السابع عشر[40].

والمكون الثالث الذي نظر به كامب إلى الاستمرارية البربرية هو مكوّن «السلطة». فقد نظر في أشكال الأنظمة السياسية التي عرفها البربر، وقلّب النظر في

39 - هنا بالذات، ص. 336.

40 - هنا بالذات، ص. 349.

تاريخها وفي خصائصها، ليخلص إلى أن الغالب عندهم كان نظاماً أشبه بالجمهورية القروية، وهو نظام يغلب انتشاره في القرى والبوادي دون الحواضر، وتراه عند المقيمين من البربر أكثر سفوراً مما عند الرحل. فلذلك كانت الحركات الانشقاقية والممجّدة خاصة للأشخاص (قديسين، ودعاة، وشهداء) عظيمة التأثير لديهم كما تدلنا عليها حركة «الدوارين» والحركة «الدوناتية» لديهم في الحقبة الرومانية، ثم حركة «الخوارج» لديهم في الحقبة الإسلامية. ولقد ساق المؤلف مجموعة من النماذج المبيّنة لهذا النوع من الأنظمة السياسية لدى البربر. فنظر في «الجمهورية القروية في منطقة القبائل»، وهي تنظيم تشاوري تتولى فيه الجماعة تسيير المجتمع القبائلي من خلال «لعبة محكمة من العلاقات والضغوط والمرجعيات التاريخية»[41]. فهي تقوم بشؤون القضاء، وتحدد العلاقات مع الأجانب، وتشرف على شؤون الحياة الاجتماعية اليومية. والمؤلف يرى في هذا التنظيم القبائلي بوادر للديمقراطية لكن مغلفة بإهاب تقديسي بدائي.

وعرض المؤلف لمعلَم من معالم التنظيم السياسي الذي عرفه البربر، وكان يتجاوز الصعيد الأول (صعيد الجماعة) بكثير؛ فهو تنظيم أكثر تطوراً؛ إذ يقع على الصعيد البلدي. وأهمية هذا التنظيم أنه كان بربرياً أصيلاً، ولم يكن من فعل الغزاة ذلك هو التنظيم البلدي الذي تهيأ لمدينة دقة على عهد الملك النوميدي ماسينيسا فهو نظام انتخابي سنوي، يحكم فيه الملك، يسانده قاضيان وجماعة قبلية تضطلع بالشؤون المحلية. والعبرة التي يريدها كامب ههنا أن يكون البربر عرفوا هذا التنظيم المتطور، ثم لا يكونون يدينون فيه لا للفينيقيين ولا للرومان.

وفي مقابل هذا التنظيم القديم ضرب كامب المثل بنموذج من الجمهورية الحضرية، قائم على التقاليد القروسطية، وهو نظام عرفته الجمهورية التربية المزابية. إنه نظام خماسي (بعدد مدن مزاب)، أفلح المزابيون به في صون استقلالهم. وأما وصف هذه «الجمهورية» بالتربية، فلأن السلط الفعلية فيها بأيدي رجال الدين.

والنموذج الثالث الذي توقف عنده كامب في هذا الباب هو المتمثل في ما أسماه «التنظيم المجزأ عند آيت عطا». فنظام السلطة لدى هذه القبيلة يقوم على ركيزتين؛ فواحدة أشبه بالمقاطعة الاتحادية، والثانية تتمثل في تلك الفروع الخمسة المؤلفة لهذه القبيلة؛ فهي تنتخب عنها شيخاً سنوياً بالتناوب، للحيلولة دون استئثار العشائر القوية بالسلطة. ووجه الاستمرارية السياسية في هذا التنظيم أن له شبهاً

41 - هنا بالذات، ص. 353.

بالنظام الذي عرفه هذا القسم من موريتانيا القيصرية في القرن الثالث الميلادي، في صورة ذلك التنظيم الخماسي، وله كذلك أشباه ونظائر في منطقة القبائل الجزائرية وفي جهات أخرى من المغرب (لدى آيت ورياغل في الريف، ودكالة في المغرب الأطلنتي).

والنموذج الرابع الذي عرض له كامب في سياق هذه الاستمرارية السياسية يتمثل في «الاتحادات النوميدية والمورية»، تمثيلاً للأنظمة السياسية التي تكون فيها القبائل القوية تتحكم في ما دونها قوة. فهذا تنظيم عرفته المملكة النوميدية، كما عرفته الموريتانيتان (خاصة لدى الباكوات في موريتانيا الطنجية)، وكان مما يسّر لها مقاومة عملية الرومنة، كما عرفته قبائل أخرى في العصور الوسطى، وكان لها سبيلاً إلى إنشاء ممالك عديدة (ككتامة، والمملكتين الزيرية والحمادية).

ويعتبر التنظيم «الأرستقراطي» لمجتمع الطوارق نموذجاً للتنظيمات القبَلية التي عرفها البربر، ويراها المؤلف كانت حاملة لبذور الدولة. وصفة «الأرستقراطي» التي يجعلها لهذا التنظيم مأتاها من انقسامه إلى طبقتين؛ طبقة «الإموهاق» الأرستقراطية وهي المستأثرة بالسيادة، وطبقة «التبع»، أو «الكل أولي» ويدخل عامة الشعب. فهو نظام يقوم على تراتبية محكمة لخدمة مصلحة المجموعة الغالبة. وعلى خلاف النظام التراتبي الأرستقراطي لمجتمع الطوارق، يقوم النظام الذي تسير عليه مجموعات البربر في الشمال؛ فهو نظام إقطاعي، يتولى فيه «الأمينوكال» الحكم بمعية مجلس من القضاة.

والخلاصة أن المجتمع البربري عرف استمرارية سياسية لم تُقيض للدول الكثيرة التي توالت على المغرب الكبير. وتعتبر مشكلة تناقل السلطة من أهم أسباب الضعف التي ظلت تعتور تلك الدول، وتقضي عليها بالزوال. وأما القبائل فلا تفتأ في تشكل؛ فأقوام تندغم في أخرى، وقبائل بربرية تتعرب لساناً وأسماء[42]. ومهما بدت الدول قوية في بلدان المغرب فهي لا تفتأ تتخللها انقسامات وتكتلات قبلية من قبيل «الصفوف» و«اللفوف» في المغرب. ومهما بدت تلك الدول من القوة فهي لا تقتدر على بسط سلطانها على جميع القبائل؛ فتراها تركن منها إلى بعض (قبائل المخزن) ويتأبى عنها آخر (قبائل السيبة). وما هو بالأسلوب التي استنّته هذه الدول، بل خضعت له من ميراث موغل في القدم؛ فإن له سوابق لدى الرومان، فقد كان عندها «الموسونيون» و«السوبوربور» يشكلون أشبه بقبائل المخزن، في مقابل

42 - هنا بالذات، ص. 373.

القبائل الأخرى. فيكون المجتمع البربري قد ضمن لنفسه استمرارية النظام في خضم مما أسماه كامب «فوضى متوازنة»[43].

وكذلك تتجلى الاستمرارية البربرية في ما أسماه كامب «العيش في المجتمع» يريد الحياة الاجتماعية عند البربر. وهي حياة تحكمها عادات وتقاليد لم يُجد فيها فتيلاً ما تعرّض له البربر من صنوف الغزو وألوان الهيمنة، بما فيها الإسلامية. والشواهد عليها أكثر من أن يحيط بها العد؛ فحق للمرأة في تطليق نفسها، ودخول لها في الميراث، وحرية كبيرة تتمتع بها المطلقات والأرامل في الأوراس. كما نلمس تلك الاستمرارية «الاجتماعية» في استمرار مجموعة من القوانين «العرفية» البربرية سارية في مناطق كالقبائل. ومما يبعث على الاستغراب في هذا الصدد أن يُقيض التدوين إلى الفرنسية لبعض هذه القوانين تحت الإدارة الفرنسية، وهي المخالِفة للقانون الجنائي الفرنسي. ونلمس تلك الاستمرارية واضحة في استمرار مجموعة من الأعراف القديمة تحكم حياة البربر في الوقت الحاضر؛ كالشرف، أو ما أسماه المؤلف «الأنف الأشم»، و«الدية»[44].

ثالثاً، الترجمة :

ظهر الكتاب موضوع هذه الترجمة في طبعته الأولى سنة 1980، ووسم آخر هو البربر : **أقوام على هامش التاريخ** (وهو الذي صار عنواناً للفصل الثاني في طبعاته التالية). وعاد المؤلف فأصدره في طبعة ثانية سنة 1987، وثالثة سنة 1995 ووسم آخر (هو الذي آثرناه لهذه الترجمة) : **البربر : ذاكرة وهوية**. وجاء على هذه الطبعات الجديدة بتحويرات كثيرة (كما في التصحيحات التي عاد بها على الكثير من أسماء الأعلام والأماكن، وعاد بها خاصة على متن الكتاب بالعديد من الحذوف وإن لم ينوّه إليها بشيء؛ فلم يغير في شيء من مقدمته بين تلك الطبعات الثلاث!). ثم قام تلميذه ورفيقه سالم شاكر من بعده على إصدار طبعة رابعة من هذا الكتاب سنة 2007، واعتمد فيها الصيغة المعدّلة في الطبعتين الثانية والثالثة، وجاء لها بتوطئة وقفّى عليها بملاحظتين.

43 - هنا بالذات، ص. 369.

44 - هنا بالذات، ص. 382-385.

وأما الترجمة فقد اعتمدنا فيها بادئ الأمر الطبعةَ الأولى، قبل أن نعدل عنها إلى الطبعة الرابعة، لكن من غير الاقتصار عليها، حين رجوعنا على الترجمة بالتشذيب النهائي، غير مستبعدين لاحتمال العودة إلى النسخة الأولى من هذه الترجمة وإصدارها لتكون مكافئة لطبعة الكتاب الفرنسية الأولى، ولاسيما مع كثرة التغييرات التي وقعت في الطبعات التالية عليها (وحتى لم يسلم منها كذلك حذف الكثير من الفقرات!)، لتمكين القارئ من الوقوف على صيغة التفكير الأصلية التي كانت من المؤلف في هذا الموضوع.

غير أننا وإن اعتمدنا في الترجمة النهائية الطبعةَ الأخيرة من الكتاب (فلم نشأ أن نغض الطرف عن الإضافات التي جاء بها سـ. شاكر، أو نهمل توطئته للكتاب وملاحظاته الختامية عليه، وما جاء له من تصويبات، خاصة ما دخل منها في الكلمات الأمازيغية[45])، فإننا لم نهمل من طبعته الأولى المكوّن الصُّوَري، وهو فيها عنصر رئيس؛ فلذلك أبقى عليه المؤلف في الطبعتين التاليتين، وإن تناوله ببعض التبديلات (وآثرناه بصيغته الأصلية، ولم نأخذه بتلك التبديلات، وربما استهوانا فيه حجمُه الذي تضاءل في الطبعتين الأخريين؛ فقد وجدناه يمثل أهمية كبرى على هذا الموضوع!) ثم جاء سـ. شاكر فأسقط تلك الصور بالكلية من الطبعة التي قام على إصدارها، ثم لم يأت لهذا الحذف بإشارة، أو يعضده بمسوغات! ولاشك أن في إسقاط الصور من هذه الطبعة الأخيرة انتقاصاً فادحاً من كتاب تقوم تدليلات المؤلف على كثير مما يسوق بين يديه من طروحات على العنصر الصوري، وكذلك يستمد أهميته، بل ضرورته، من المنهاج الإناسي الذي اتبعه فيه.

ولامندوحة من التنويه إلى العنَت الشديد الذي لاقيناه في هذه الترجمة؛ خاصة أنها تقلّب في موضوع لا يزال الاختلاف، بل التضارب، يغلب فيه على الاتفاق والانسجام، والمستجداتُ الطارئة تغلب فيه على الأعراف والمسلّمات. فهذا مما يورد المترجم المشتغل بموضوع على هذا القدر من التجدّد والتغيّر مواردَ الاضطرار وتكلّف الابتكار الدائم في كل ما يتصل باللغة الواصفة له، ومن أجلى مظاهرها

---

45 - لم تسلم طبعة شاكر كذلك من هنات كثيرة، بلغت أحياناً إلى حد البتر من متن الكتاب؛ كما في سهوه عن العنوان «**تطور إنسان مشتى العربي**»، الوارد في ص. 39 من الطبعة الأصلية الأولى، وفي ص. 27 من الطبعة الثانية. وانتقاصه من العنوان الفرعي «**أصول إنسان مشتى العربي**»، كلمة «**أصول**». انظر الطبعة الأولى، ص. 36 وطبعة شاكر ص. 53. كما أننا خالفناه في التغييرات التي جاء بها لبعض الأسماء.

المعضلة المصطلحية، وأسماء الأعلام[46]. ولقد اجتهدنا في تذليل هذه الصعاب والعقبات الكأداء ما وسعنا الاجتهاد، دون ادعاء البلوغ من هذا الكتاب إلى كل ما كنا ننتوي منه ونؤمل.

ولئن كان المجال يضيق عن استعراض ألوان الصعاب وصنوف المضايق مما أوردتنا هذه الترجمة، فلا أقلَّ من التنويه إلى بعض الأمور التي لاشك أنها ستستفز القارئ وتستثيره في قراءته لهذه الترجمة. ومن ذلك أننا جعلنا معظم أسماء الأعلام وفق الصيغ العربية (الجرمنتيون، والقونشيون، والأوستوريون، والأوسيسيون والأولبيون، والأولوليانيون، والماسيسيليون، والماسيليون، إلخ.)، مع ما قد يبدو فيها من تمحّل. وتوخينا التيسير على القارئ في إيراد تلك الأعلام، وقد حفل الكتاب منها بالشيء الكثير؛ فأوردناها بأصلها الأجنبي، تعريفاً للقارئ بأصولها وتوخياً للدقة في إيراد مقابلاتها (وإتاحة المجال للمخالفة والانتقاد!). وميّزنا في تلك الكلمات الأجنبية بين ما يعود إلى الأعلام، وما يدخل في العبارات من اللغات الأجنبية (اللاتينة، والليبية، والبربرية، إلخ)، فنقلنا هذه الأخيرة ببنوطها المائلة أو جعلناها بين أقواس، مراعاة لصيغها الأصلية في الورود.

وواجهتنا صعاب أخرى، ربما بدت للقارئ هيّنة لا تستحق التنويه، لكنها لم تخلُ من إكراهات، بعضها ثقيل وجسيم، حتى ما همّ منها أسماء في «بساطة» Maghreb فالقارئ يرانا نراوح في ترجمتها بين «المغرب الكبير»، إذا كان المؤلف يريده في زمن سابق على انقسامه، و«بلدان المغرب»؛ متى كان يريده في الوقت الحاضر! وميّزنا بين Paléoberbères، فجعلناها «أوائل البربر»، وAnciens Berbères فجعلناها «قدامى البربر»، إلخ. وميّزنا بين «Préhistorique» فجعلناها «الحقبة قبل التاريخية» و«Protohistorique» فجعلناها «الحقبة قبيْل التاريخية» (بدلاً عن مقابلها الشائع «الحقبة شبه التاريخية» الذي لا نرى له من معنى!)، مع ما فيها من استثقال و«Historique» «الحقبة التاريخية». وواجهتنا صعابٌ أخرى من قبيل الأولى، كما في ترجمة الكلمتين «Punique» و«Phénicien»؛ فقد وجدنا الكثيرين يحملونهما

46 - لعل من أبرز ما وقفنا عليه في هذا الصدد ذلك الخلاف في كتابة اسم علم في أهمية الإله «ماكورتام» Macurtam في تلك النقيشة الشهيرة، فيجعله «ماكورتوم» Macurtum. انظر في هذا الصدد:
Alfred MERLIN, «Divinités indigènes sur un bas-relief romain de la Tunisie», *Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, Année 1947, Vol. 91, N° 2, pp. 355-371.

على مقابل واحد؛ «فينيقي». والحال أن بينهما فروقاً؛ فباللفظ الأول نريد الأصل الفينيقي المشرقي لهذه الأقوام، وبالثاني حضورها وحضارتَها في منطقة شمال إفريقيا. فلذلك توخينا الدقة في نقل المصطلحين، وراعينا فيهما كذلك التمييز الذي يقيمه المؤلف. وراوحنا في مصطلحات أخرى بين المعنيين العام والخاص ومن قبيلها مصطلح «Culte»، فقد جمعنا فيه بين «العبادة» و«التقديس» مراعاة لمقتضى السياق. وخالفنا في مصطلحات أخرى عديدة مألوفَها في الترجمة ومن قبيل ذلك أننا جعلنا «مقابري» مقابلاً لـ «Funéraire»، ولم نُبق لها على مقابلها الشائع «جنائزي»؛ لأنها إنما تهم المؤثثات المقابرية، ولا صلة لها بمراسيم الجنائز!

وجئنا على النص في ترجمته بمجموعة من الإحالات؛ فميّزنا فيها بين الإحالات إلى المصادر، التي كان المؤلف يعود إليها، فيدرجها في بطن الكتاب (وكأننا أردنا، من حيث لم نقصد، أن ندفع عن المؤلف المؤاخذة التي نالته من بعض القراء المتسرعين بترخّصه في تبيان مصادره!)، وتلك التي جئنا بها للشرح والتفسير، والتعريف، والتصحيح. فجعلنا الأرقام للأولى، والنُّجيمات للثانية (ونوّهنا في خاتمة هذه المقدمة إلى أن الإحالات من النوع الثاني كلها من وضع المترجم). وأزلنا من النص المعقوفات التي جاء بها المؤلف، واستبدلناها بنقاط الحذف، وجعلناها بين قوسين، وجعلنا تلك المعقوفات لزياداتنا التوضيحية، وهي كما سيرى القارئ، إنما كانت تدعونا إليها الضرورة، وما كانت من الفضْلات التي يمكن عنها الاستغناء.

ولم نجد بداً من التوسع في ثبت الأعلام، الذي قفّينا به على الترجمة، بعد أن كان في أصل الكتاب مختصراً لا يُحيط القارئ بالزخم الهائل لما اشتمل عليه من أعلام (أشخاصاً، وقبائل، وأعراقاً، وجماعات، ولغات، وثقافات، إلخ.). وما حفل به من أماكن (ممالك، وبلداناً، ومدناً، ومناطق، وجهات، وآثاراً، إلخ.). وجئنا كذلك بفهرس للصور التي اشتمل عليها هذا الكتاب؛ لقناعة لدينا أن المكوّن الصوري في هذا اللون من الدراسات يمثل لوحده عنصراً عظيم الأهمية وحتى ليستحق أن يُفرد بالبحث والتحليل!

وارتأينا في الأخير أن نزيد إلى هذه الترجمة ملحقاً يتمثل في الثبت الشامل بأعمال غابرييل كامب[47]، وقد كان ثمرة قيّمة لمجهود كبير من تلامذته ورفاقه، وهو يمثل أفضل نافذة يطل منها القارئ على اهتمامات المؤلف؛ فهو يحيطه بالإسهام الباهر الذي كان منه على درب التأسيس لصرح المعرفة الرصينة بجوانب عديدة من تاريخ الإنسان، وثقافته، واجتماعه؛ والبربر يتبوأون في ذلك الصرح المعرفي مكانة مرموقة.

عبد الرحيم حزل

مراكش في نونبر 2013

تنويه :

الإحالات النجمية (*) كلها من وضع المترجم.

47 - عدنا في هذا الثبت إلى الكتاب الجماعي الذي وُضع في تكريم كامب :
L'Homme méditerranéen, Université de Provence — Aix-en-Provence.1995 ,

توطئة
(غابرييل كامب، رجل الاستمراريات البربرية)

يتبوأ غابرييل كامب في حقل الدراسات المهتمة بمنطقة شمال إفريقيا مكانة خاصة ومتفرّدة. فمما لاشك فيه أن الرجل قد فتح بأعماله العلمية* عهداً جديداً ومهّد السبيل لمقاربة مبتكرة لتاريخ الوقائع الثقافية، ستظل لها صحة ووجاهة لزمن طويل. ومؤلّفه الذي بين أيدينا عن «البربر» يمثل محطة رئيسية في سياق تلك المقاربة الأصيلة. فقد جاء فيه بتركيب لأبحاثه ودراساته في عالم البربر لما يقرب من نصف قرن، وهو العالِم الذي ضرب فيه طولاً وعرضاً، وقلّب النظر فيه من سائر الأزمنة والأمكنة، وتوسل إليه بمختلف العلوم والتخصصات. وقبل أن يطلق كامب مؤلّفه هذا عن البربر كان قد لمع بمجموعة من الأعمال الحاسمة، نذكر من جملتها : «**أصول بلاد البربر : أنصاب وطقوس [مقابرية] من الحقبة قبيل التاريخية**»* سنة 1961 و«**أصول بلاد البربر : ماسينيسا أو بدايات التاريخ**»*، سنة 1962... فما فتئ يؤسس لمرحلة بعد أخرى وجميعها على انسجام وتكامل، لإعادة بناء الاتصال والاستمرارية البربرية في منطقة شمال إفريقيا.

وقبل غابرييل كامب كان مجموع المعارف حول البربر في منطقة شمال إفريقيا في سائر أبعادها – التاريخية والعرقية واللغوية... – يشكل في أصله متناً لا يُستهان به. فابتداء من الاستيلاء على الجزائر (سنة 1830)، صارت الأبحاث الغربية

---

* - أنشئت العديد من الشهادات والمقالات التأبينية في حق غابرييل كامب على أثر وفاته في 6 شتنبر 2002. ويمكن العودة في التعرف على المسار العلمي للرجل إلى **الموسوعة البربرية** في عددها الخامس والعشرين :

Encyclopédie berbère, t. XXV (Aix-en-Provence, Edisud, 2003).

فقد اشتمل على أربع شهادات على اتساق وتكامل، لكل من مارسو گاست، وجيهان ديسانج وإدمون بيمو، وأنا نفسي.

* - *Aux origines de la Berbérie : Monuments et rites protohistoriques*

* - *Aux origines de la Berbérie : Massinissina ou les Débuts de l'Histoire*

وخاصة، منها الفرنسية، تراكم كماً هائلاً من المعارف، والإفادات، والوثائق بشأن هذه المنطقة وساكنتها. ثم ما كاد ينتهي الغزو العسكري وطور الاستكشاف، حتى صار النظام الأكاديمي الفرنسي يولي اهتماماً كبيراً إلى هذه المجالات. فصُعُداً مع أواخر القرن التاسع عشر أخذ جهاز علمي هائل بالتكون - خاصة من حول المدرسة العليا للآداب في الجزائر، التي لم يمض على إنشائها وقت طويل حتى تحولت إلى كلية للآداب - في جميع التخصصات، وأخذ ينتج أولى تركيباته الكبرى. ولا تزال أسماء [أدولف] حانوتو و[إميل] ماسكيراي، وروني باسي، وستيفان كَزيل وسواهم كثر – ممن أصدروا أعمالهم في الفترة ما بين 1860 و1930 – تُعتبر إلى اليوم مصادر لازمة ليس عنها استغناء.

بيد أن تلك المعارف بقيت إلى حين مجيء غابرييل كامب - وفي ما عدا بعض المساهمات لباحثين متفرقين، لم تسلم كذلك من أوجه نقص عديدة - مطبوعة كلها بالتجزيء، وإقامة الحواجز بين العصور التاريخية الكبرى وبين العلوم والتخصصات.

ومن أبرز ما يدلنا على تلك الحواجز أن منطقة شمال إفريقيا كانت تبدو من خلال هذه المعرفة الأكاديمية في صورة وكأنها مكونة من أقسام مفككة ومتنافرة وأنها لا تزيد عن مجموعة قد ضمت عوالم متباعدة إلى بعضها؛ تجتمع فيها عصور ما قبل التاريخ، والعصور القديمة - التي يجزئونها هي نفسها إلى قطع متمايزة – والعصور الوسطى... والعالم القرطاجي... ثم يجمعون هذا الشتات كله في تعاقب ومجاورة فيهما الكثير من التمحُّل والتعسف. فتبدو هذه العصور المختلفة وهذه العوالم المتباينة في صورة وكأن بين عناصرها انفصالاً لا اتصالاً، وكأننا بمنطقة شمال إفريقيا في حقبة ما قبل التاريخ، وفي الحقبة القرطاجية، والحقبة الرومانية والحقبة المسيحية، والحقبة الوندالية، والحقبة البيزنطية، والحقبة العربية الإسلامية والحقبة العثمانية، والحقبة الفرنسية، كانت تعود في كل حقبة من هذه الحقب إلى التشكل فوق فراغ بشري، أو كأنها في كل مرة كانت تقوم في لمح البصر، ومن غير أي طور انتقالي، أو من غير أي وشيجة بما يسبقها، بتجديد لمحيطها البشري جملة وتفصيلاً.

وكانت الوضعية نفسها تسود بين العلوم والتخصصات؛ فقد عرفت علوم التاريخ تطوراً هائلاً في ظرف قرن من الزمن، فكان ينبغي أن يحدث الشيء نفسه

في كل ما يتصل باللغة البربرية، على اختلاف تنوعاتها، ويحدث الشيء نفسه في العراقة المتوسلة إلى دراسة البربر. غير أن المعارف المتصلة بدراسة تلك اللغة والمعارف الداخلة في تلك العراقة قد ظلت تتشكل وتتطور في استقلالية شبه كاملة عن بعضها؛ وما ذلك لأن الأفراد، ومعظمهم من كبار العلماء، كانوا يجهلون بما يحدث خارج مجالات اختصاصهم، بل لأنهم كانوا في أعمالهم يكادون ينعزلون عن بعضهم ولا يتصلون فيها بشيء. فالمؤرخون، وعلماء الحفريات، واللغويون وعلماء العراقة... كانوا يسيرون كلٌّ في سبيله، من غير أن يقوم اتصالٌ بين تلك التخصصات. ولا نزال نرانا مذهولين للجهل التام الذي يسود بين سائر المؤرخين المهتمين بتلك العصور والحقب؛ جهلٌ بالبيئة البشرية واللغوية لدى البربر. وبالموازاة ولذلك فلن تجد - إلا في ما ندرَ - من إحالات إلى التاريخ، أو إلى السياق العراقي عند أكبر اللسانيين الدارسين للبربر، أمثال أندري باسي...

ومن المؤكد أن هذه الوضعية قد نجمت عن أسباب عديدة، نذكر منها جملة من الإكراهات الموضوعية التي أملاها ذلك العصر؛ فقد كان التجزيء الموسوم به هذا المجال يوافق طور الانتقال إلى الدراسة الأكاديمية؛ فكان أمراً لازماً ليس منه مناص، مثلما كان يدل على تضارب وتنافر عميقين في المصادر وفي أدوات العمل. فقد كان «المهتمون بالعصور القديمة» متقيدين بالمصادر الكلاسيَّة، لاتينية ويونانية وكان المهتمون بعصور ما قبل التاريخ متقيدين بالحفريات لعصور ما قبل التاريخ وكان المهتمون بالعصور الوسطى متقيدين بالمصادر المكتوبة باللغة العربية، وأما المهتمون بالبربر فقد كان كل انشغالهم بضرورة وضع جرد ووصف بمادة على هذا القدر العظيم من التنوع.

بيد أن هذا الوضع ساهمت فيه كذلك، وبطبيعة الحال، مجموعة من الإكراهات الإديولوجية : إفراط في تقدير المصادر الخارجية، ومغالاة في تقييم العوامل الأجنبية وصعوبة في التعرف على البربري من حيث هو فاعل في التاريخ... لقد تشكلت تلك الفترة من تأكيدات قاطعة عن «هامشية البربر»، وعن «عدم قدرتهم على تشكيل دولة لهم»، وعن «غيابهم التام بالمعنى التاريخي»... فالبربر إذا ما قيسوا إلى قرطاجة وروما، أو قيسوا إلى العرب، بدوا أقواماً غير ذات شأن أو أهمية، فكأنهم لا يزيدون عن «مادة سالبة»، كانت تُشكَّل ويُعاد تشكيلها بما يقع عليها من غزو الغزاة. وجملة القول إن المرتكز والأدوات المعول عليهما في فهم تاريخ شمال إفريقيا وثقافته قد ظلا غائبين...

وليس من شك في أن المقاربة العلمية التي جاء بها غابرييل كامب تعتبر على هذا الصعيد أكثر المقاربات أصالة، وأن مساهمته هي الأكثر نفاذاً وإقناعاً - ولقد كانت أكثر ما أثر فيّ شخصياً من المساهمات الداخلة في هذا المضمار. فكامب قد كان بجبلّته دارساً مختصاً بعصور ما قبل التاريخ، بيد أنه لم يكن ينأى بنفسه عن كل ما يتصل بعالم البربر، وحتى ليذهب بي الاعتقاد إلى أن حياته كانت كلها مجهوداً موصولاً للمّ شتات المساهمات الداخلة في تخصصات ذات صلة ببعضها ووصلها بغيرها من المعارف، ومجهود موصول لتحطيم الحواجز التي ظلت تفصل بين العلوم والتخصصات، وتفرق بين العصور، وظلت إلى اليوم تُعمل التجزيء في منطقة شمال إفريقيا وفي عالم البربر.

ولم يكن غابرييل كامب بالعالم اللساني ولا المهتم باللغة البربرية بمعناها الضيق غير أنه كان أول من تنبّه ببصيرته النفاذة (منذ أن أطلق مؤلفه **ماسينيسا** سنة 1962) إلى كل ما يمكن للمهتم بعصور ما قبل التاريخ أن يفيد من المعطيات البربرية، على الصعيد الاجتماعي اللغوي بطبيعة الحال، ولكن كذلك في ما يتعلق بأصل الثقافة والممارسات البشرية وانتشارها. فلقد كان سباقاً للتنبيه إلى أن في وجود قاموس واحد لدى البربر على امتداد مجال ترابي شاسع يصطلحون به على الحبوب قرينةً على القِدَم المكين لهذه الزراعة في شمال إفريقيا، وقرينة من دون شك على أنها زراعة أصلية في هذه المنطقة. وإذا كنا لا نرى ما يوحي إلينا بتأثر مباشر من صاحبنا بجورج دوميزيل، فإن مقاربته للعلاقات بين اللغة والثقافة والمجتمع تتلاقى والمقاربة التي جاء لها بها هذا العالم الكبير، وإنها لمقاربة في غاية الغنى والثراء، على عالم يندر أن نقع فيه على الآثار المكتوبة. فلقد كانت اللغة والآثار المتعددة التي تحملها وتشفّ عنها أداة أساسية عند كامب لبناء المعارف بشأن البربر.

وما كان غابرييل كامب كذلك قد حاز تكويناً في علم العراقة، بيد أن اهتمامه بالعراقة المادية وبالتقنيات التقليدية التي كانت عند البربر معاً، قد أتاحا له أن يمد الجسور مع العراقات المهتمة بعصور ما قبل التاريخ، في مجال الخزف والممارسات الزراعية والعدانة وسواها. مثلما أن انتباهه إلى التقليد الشفاهي والطقوس التقليدية لدى البربر قَد تأدَّيا به إلى الكشف عن شبكة واسعة من الاتصالات والعلائق بين العصور القديمة وعالم البربر كما نعرفه في الوقت الحاضر. فلقد مكّنت له دراسة الطقوس المقابرية عند البربر في عصور قبيْل التاريخ من تسليط الضوء على بعض

الممارسات والمعتقدات التي لا تزال متداولة لديهم في الوقت الحاضر، أو التي كان لا يزال لها عندهم وجود إلى عهد قريب. وفي المقابل فإن تمعنه في ممارساتهم [المتعددة] في الوقت الحاضر قد مكّن له أن يسلط الضوء على شعائرهم القديمة وكانت له فائدة عظيمة.

وكذلك – وهذا موقف مؤسس لمسار غابرييل كامب العلمي- فإن أعماله الكبرى التي تناول بها الطقوس المقابرية في عصور قبيْل التاريخ لدى البربر، وقيام ممالك بربرية في العصور القديمة، واهتمامه بالفترات المفصلية، والفترات «المظلمة» التي لا نجد بشأنها من مصادر تاريخية كلاسية، وإلا فالمصادر بشأنها يعتورها الكثير من العيوب والنواقص، تمثل أجلى صورة لتلك الإرادة التي كانت تحرك الرجل لوصل الخيوط الجامعة للُحمة التاريخ والأرض والإنسان ببعضها. وهي أمور تدلنا عليها كتاباته الكثيرة والحاسمة؛ تلك التي تناول بها الممالك والأمراء البربر في أواخر العصور الوسطى وبدايات الحقبة العربية الإسلامية، خاصة ما تعلق بعملية التعريب الذي وقع لمنطقة شمال إفريقيا.

وهي في الأخير استمرارية ووحدة في المجال؛ لأن غابرييل كامب قد اشتغل بصورة موصولة ومعمقة، باعتباره دارساً لعصور ما قبل التاريخ، وعالِمَ عراقة، على المناطق المتوسطية والتلية من منطقة شمال إفريقيا، مثلما عُني بالمناطق الصحراوية حتى أبعدها وأقصاها، مؤكداً، من ثم وبصورة قاطعة، على الوحدة الجغرافية لعالم البربر.

إن أعمال غابرييل كامب، بما تحفل من وشائج واتصالات عبر الأزمنة، ووحدة جغرافية في مجال الاهتمام، وتعبئة جامعة للعلوم والتخصصات، تؤكد مجتمعة على الاستمرارية والوحدة البربرية لشمال إفريقيا. ففيها يطالعنا البربر بلغتهم وثقافتهم من قديم الزمان، ومن عهود ما قبل التاريخ؛ فهم المعالم المحددة على الدوام لشمال إفريقيا. فمن وراء جميع الإسهامات الخارجية، البونيقية، والقرطاجية واللاتينية، والعربية الإسلامية، وبجانبها... يوجد على الدوام، وفي كل مكان خيط رابط واحد: البربري، أو اللغة البربرية.

ونزعم أن كامب هو الباحث الذي وضع البربر في المركز من تاريخ شمال إفريقيا وثقافته، على مديد الأزمان، وعبر كل التحولات وتحت شتى أنواع الأقنعة.

***

هذا التموقع وهذه المقاربة يتجليان بقوة في العمل الذي شكل الخاتمة لمسار غابرييل كامب الحياتي [والعلمي]، وأعني **الموسوعة البربرية**، التي كان يريد لها أن تكون محفلاً بجميع المعارف التي تهيأت حول البربر، عبر العصور واختلاف المجالات التخصصات العلمية.

ولقد شرفني، قبل وفاته، بأن طلب إليَّ أن أعمل على ضمان الاستمرارية لهذه الموسوعة، في حال عرض له ما يُقعده عن القيام بنفسه على هذا الأمر. وقد كنت لدى وصولي* إلى إكس أون بروڤونس في سنة 1970، وتعرّفي على غابرييل كامب، وأنا بعدُ طالب مبتدئ، أقبل بجُماعي على تحصيل تكوين في اللسانيات العامة واللسانيات البربرية. ومع ذلك فسرعان ما أصبح غابرييل كامب من بين الشخصيات* العلمية القلائل المتميزين في جامعة بروڤونس، الذين وجدت منهم التشجيعَ والتوجيهَ. فلم يتردد في أن يفسح مكاناً في مختبره لشؤون ما قبل التاريخ والإناسة لهذا الدارس اللغوي الشاب المهتم باللغة البربرية. وكان الرجل من قبل احتضن العراقةَ في بيئته العلمية؛ فكان يومئذ يحتضن بالقدر نفسه من الانفتاح اللسانيات البربريةَ، بالتوسيع لي بين فريقه.

لقد اضطلع غابرييل كامب، بالنسبة إليّ، في تلك السنوات؛ سنوات التكوين وسنوات الاستعداد لمهنة الباحث، بدور خاص ومتفرد، بل كان دوراً حاسماً في توجيهي الوجهة التي صرت إليها.

فهو من جهة، باحتضاني في مختبره، قد أتاح لي الظروف المادية، وهيّأ لي بيئة ثقافية وعقلية متميّزة من كل الوجوه، كان لها الفضل الكبير على باحث شاب في بداية مساره، ومكّن لي سبُل الوصول إلى وثائق قيمة ونفيسة في وقتها، عن عالم البربر.

وأما من جهة أخرى فإنني باشتراكي في مشروع **الموسوعة البربرية**، منذ ظهور طبعتها المؤقتة سنة 1970، والتي كان كامب يشجعني على الكتابة لها ببعض الإفادات اللغوية، قد ساعدني على أن أشرع في استجماع أولى مكونات العدة اللازمة لي في مجال البحث.

---

*- لم تكن لي عن غابرييل كامب في الجزائر، قبل سنة 1969، غير صورة غامضة وملتبسة على الرغم من أنني كنت أتردد على «مركزالبحوث الأنثروبولوجية وماقبل التاريخ والإثنوغرافية Crape» في تلك الفترة، وكنت على اتصال وثيق بمارسو كَاست، الذي ساعدني في الإعداد لرحلتي الأولى إلى الصحراء، وأنا بعدُ تلميذ في المستوى الثانوي. ثم إن مارسو كاست هو من شجعني على مغادرة باريس للالتحاق بالفريق في إكس.

* – أفكر ههنا كذلك وخاصة في كل من جورج مونان وماريو روسي.

ثم إنه بتمكينه لي من الاندماج في نسيج علمي متعدد التخصصات من العلوم الاجتماعية، مكرس لعالم البربر، والاستمرار فيه لوقت طويل، قد كان يسند خطاي صوب العلوم التاريخية وصوب العراقة. فلقد مكن لي غابرييل كامب أن أضرب لأعمالي في اللسانيات بجذور في تلك التربة الإنسانية والاجتماعية التي بدونها قد لا يلبث كل بحث لساني أن ينحط إلى شكلانية جافة وعقيمة.

وكانت لي **الموسوعة البربرية**، ولغيري متخصصين كُثْر في عالم البربر، على امتداد السنين الثلاثين الأخيرة، مجالاً للتعاون والتلاقي الدائمين بين المؤرخ وعالم العراقة واللغوي...

***

لقد ظل غابرييل كامب يبثّ في أعماله الشخصية، كما في عمله الجماعي - باعتباره مديراً لفريق وموجهاً لمشاريع - من فكره وروحه ونحيزته التركيبية، حتى أواخر أيامه، كما بث فيها ثقافة علمية موسوعية، وهي أمور نراها أجلى ما يكون في كتابه هذا عن **البربر**، الذي سيظل، لزمن طويل، المنهلَ لكل من يرغب في الاطلاع على مصدر محكم رصين عن هذه الأقوام وهويتها عبر العصور.

سالم شاكر

إينالكو، باريس



1 . رأس محارب ليبي. نحت مصري من عصر رمسيس الثاني (متحف اللوڤر).

تمهيد
عالم متشظ

نحن في سنة 1227 قبل الميلاد؛ السنة الخامسة من حكم منيبتاح Mineptah. وقد أمر الفرعون بإقامة الصلوات في سائر أنحاء المملكة، وتقديم قرابين لم يسبق لها نظير إلى الآلهة التي تقوم على حماية أرض بتاح Ptah، وتقديمها إلى بتاح نفسه وتقديمها خاصة إلى آمون رع Amon Râ وإلى الإلهتين الطيبتين؛ الساحرة الكبيرة إزيس Isis والخيِّرة نفتيس Nephtys.

لم يسبق للأرض المحبوبة من رع أن تعرضت لخطر بذلك العظم. فلأول مرة يتحالف باربار Barbares الشمال القادمون من الجزر والأراضي التي يغمرها تري فرت Très-Verte [البحر الأبيض المتوسط]، وبرابرة الغرب قاطنو الصحراء؛ حيث يسود التيفون المهلك، تحت قيادة مُري Meryey، ابن دد Ded، ملك الليبو Lebou (الليبيين Libyens) الملعون من آمون، ويجتاحون أراضي حورس Horus. فقد صعدت سفن الشماليين الفرعَ من النيل حيث خوابي الأموات، وانتشر الآخرون بأعداد هائلة كأنهم حبات رمل الصحراء في الدلتا، مرادهم ممفيس Memphis.

لم يكن مُري وأتباعه من الليبو أولَ البربر الذين ورد ذكرهم في التاريخ. فمنذ قرون، بل منذ آلاف السنين، اتصل المصريون بعلاقات من المحاربة وعلاقات من المسالمة بجيرانهم من الغرب، أولئك الليبو أو الليبيين، من التحنو Tehenu والتمحو Temehu والمشوَش Meshwesh، المنقسمين إلى قبائل عديدة. لكن اجتياح الدلتا والانتصار الذي تلاه مكّنا لنا سبيل الوصول إلى معلومات موثوقة بشأن هؤلاء الليبو، وجاءانا لهم بأسماء لشخصيات، وتمثيلات عن طريق الصور، أو الكتابات الهيروغليفية ذات قيمة تاريخية وعراقية. وقد كنا توصلنا من خلال بعض الوثائق أقدم عهداً ببيانات واضحة، كأنها صور فوطوغرافية، عن الجوانب الجسمانية لليبو، وعن

معدّاتهم ولباسهم وأسلحتهم؛ بل جاءتنا كذلك بتصاوير لما كانوا يصطنعون من أوشام.

وعلى الرغم من مرور آلاف السنين، والتقلبات التي شهدها تاريخ قد حفل من صنوف الغزو، والاحتلال، ومحاولات الاحتواء والتذويب التي وقعت على البربر فلا تزال ترى لأقوام من هذه المجموعة وجوداً في إقليم شاسع مترامي الأطراف مبتدؤه من غرب مصر. ففي الوقت الحاضر تنتشر أقوام من متكلمي البربرية في اثني عشر بلداً إفريقياً تمتد على نطاق من البحر الأبيض المتوسط إلى جنوب النيجر ومن المحيط الأطلسي إلى مشارف النيل.

لكن هذه المنطقة، التي تغطي الربع الشمالي الغربي من القارة الإفريقية ما عاد جميع سكانها يتكلمون البربرية، بل العكس هو الصحيح! فاليوم قد صارت اللغة العربية في هذه المنطقة هي اللغة السيّارة؛ فهي لغة التجارة، ولغة الدين، ولغة الدولة، إلا في الطرف الجنوبي الممتد من تشاد إلى السنغال؛ حيث الفرنسية هي اللغة الرسمية. فالناطقون بالبربرية يكونون مجموعات منعزلة عن بعضها، وتسير في تطورها على صور شتى وأوجه عديدة. وهي تتباين كثيراً في أعدادها، كما تتفاوت في أهميتها. فالمجموعات القبائلية في الجزائر، ومجموعات البرابر *braber* والشلوح في المغرب يُقدر أفرادها بمئات الآلاف، وربما عُدوا بالملايين، بينما لا يزيد عدد المتكلمين ببعض اللهجات البربرية في الواحات الصحراوية عن بضع عشرات الأفراد. ولذلك فالخرائط المبيِّنة لانتشار اللغة البربرية لا تفيدنا شيئاً ذا بال. فالمجال الصحراوي الناطق باللهجات الطوارقية (التماشق)*في الجزائر، وليبيا، ومالي والنيجر مجال شاسع، لكن عدد الرحل المتنقلين خلاله، والمزارعين القليلين المقيمين فيه والناطقين جميعاً بالبربرية لا يكاد يزيد عن 000 250 إلى 000 300، بما لا يزيد إلا قليلاً عن سكان مزاب، الذين يشغلون في شمال الصحراء مجالاً أقل بما لا يُقاس عن النطاق الذي يشغله الطوارق. كما أن منطقة القبائل تضم ساكنة تزيد بعشرة أضعاف عن ساكنة منطقة الأوراس، التي تفوقها اتساعاً بكثير، ويتكلم أهلها لهجة بربرية مختلفة.

والواقع أنه لا توجد اليوم لغة بربرية، بمعنى أن تكون هذه اللغة انعكاساً لجماعة بشرية واعية بوحدتها، كما لا يوجد شعب بربري، وأحرى أن يكون وجود لعرق

---

* - Tamahaq، ويقال لها كذلك «تماشق» و«تمازيغت».

بربري. وإن جميع المختصين لمتفقون حول هذه الجوانب السالبة... ومع ذلك فالبربر موجودون.

إن المجموعات والمجتمعات الناطقة حالياً بالبربرية، ونُدخل في جملتها الأقوام الناطقة بلغتين، ليست سوى بقايا من عالم متشظٍّ.

ومن المحتمل أن اللغة البربرية، تلك اللغة المشتركة بين البربر، والموغلة في القدم، والتي لم توجد في غير أذهان اللغويين، والأرجح أنها لم تكن تزيد عن مجموعة من اللهجات المتقاربة في ما بينها، بخلاف اللهجات البربرية الحالية، قد كانت تُتداول في مجموع المجال الترابي الذي بيّنا نطاقه وحدوده، لا نستثني منه غير تيبستي Tibisti، التي تسودها التيدا Téda (لغة التوبو)*.

وقد استعمل قدامى الإفريقيين في المغرب الكبير نظاماً في الكتابة، هو النظام الليبي، وعنه تولدت أبجدية التيفناغ المتداولة عند الطوارق. والحال أنه قد تم الوقوف على الكثير من الكتابات الليبية ومن التيفناغات القديمة في مناطق باتت اليوم معرّبة بالكامل (في تونس، والشمال الشرقي من الجزائر، وفي الغرب ومنطقة طنجة من المغرب، وفي شمال الصحراء...). وقد تعرضت هذه الكتابة في بلدان الشمال للمنافسة من اللغة البونيقية ثم من اللغة اللاتينية. ويسلّم البعض بأن هذه الكتابة كانت قد صارت إلى إهمال ونسيان من قبل أن يكون دخول الكتابة بالعربية في القرن السابع الميلادي. وفي المقابل بقي للكتابة الليبية وجود، وعرفت التطور مع المحافظة على خصوصيتها وفرادتها في البلدان الصحراوية؛ حيث لم يكن لها أن تلقى من منافسة. بل إن نطاق هذه الكتابة قد سار إلى اتساع، وصولاً إلى جزر الكناري، التي كان سكانها القدامى، القونشيون Guanches، يتكلمون لهجة أقرب إلى البربرية.

فيمكننا التأكيد بأن أسلاف البربر كان لديهم في وقت من الأوقات نظام في الكتابة أصيل، وأن هذا النظام قد سار، كما ساروا هم أيضاً، في انتشار من البحر الأبيض المتوسط إلى النيجر.

والحجة الأخرى التي يمكن أن ندفع بها في مواجهة أولئك الذين ينكرون ضداً على كل الأدلة، عن اللغة البربرية أن تكون عرفت الانتشار منذ القدم، أو الذين

* - Tebou، مجموعة عرقية تقيم شمال تشاد، وحول جبال تيبستي، وفي أقصى جنوب ليبيا والسودان، والنيجر.

هم أحذق منهم، فيتساءلون عن القرابة الفعلية بين اللغة بربرية واللغة الليبية التي كانت متداولة عند قدامى الإفريقيين، هذه الحجة نجدها في أسماء الأماكن؛ فحتى البلدان التي عُرّبت بالكامل لا يزال فيها وجود لأسماء أماكن لا يمكن تفسيرها إلا باللغة البربرية.

وعليه فإن اللغة البربرية التي كان لها من قبلُ ذلك الانتشار الواسع قد صارت بمضي القرون إلى تراجع أمام اللغة العربية، لكن هذا التعريب اللغوي، الذي ساعد عليه دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا والصحراء، قد صاحبه ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي تعريبٌ اجتماعي وثقافي أدى إلى تذويب حقيقي لغالبية سكان الدول المغاربية. ولقد كان تذويباً هائلاً إلى درجة أن سكان بعض هذه البلدان (كتونس وليبيا) أصبح السواد الأعظم منهم يقولون ويعتقدون أنهم عرب؛ فهم لذلك يُعدّون في العرب. والحقيقة أن القلة القليلة منهم من يجري في عروقهم شيء من الدم العربي؛ ذلك الدم الجديد الذي جاءهم به الغزاة في القرن السابع الميلادي، أو نقله إليهم البدو الذين اجتاحوهم في القرن الحادي عشر الميلادي؛ بنو هلال، وبنو سليم وبنو معقل، وهم الذين لم تكن أعدادهم تزيد عن 200 000 في أكبر تقدير.



2. رؤساء من التمحو (الليبيين)، في رسم من قبر سيتي الأول (الأسرة التاسعة)، حوالي 1300 ق. م.

لكن المغاربيين، وإن عُرّبوا، لا يزالون يتمايزون عن عرب شبه الجزيرة العربية وعن عرب الشام الذين عُرّبوا قبلهم بكثير. فالواقع أن المجتمع المسلم في شمال إفريقيا وفي الصحراء يوجد ضمنه مغاربيون يتكلمون العربية، أو بربر من المستعربة ومغاربيون ناطقون بالبربرية لا يزالون يُعرفون باسم البربر الذي سماهم به العرب.

والبربر المستعربة، الذين لا يشكلون كياناً مجتمعياً كمثل ما هم البربر، نميّز فيهم مجموعة قديمة، من الحضر، معظمها مختلط الأصول؛ إذ ينبغي أن نعتبر في المدن بالعناصر التي انضافت إليهم قبل الإسلام واللاجئين المسلمين من إسبانيا (الأندلس) والقادمين الجدد الذين جرت العادة على تسميتهم بالأتراك من غير تمييز، وهم الذين كانوا في معظمهم من البلقانيين، والإغريق سكان الأرخبيل اليوناني. كما وينبغي أن نعتبر بمجموعات أخرى من المزارعين المقيمين. وينبغي أن نعتبر في الأخير بالرحل وهم يعدوّن في شمال الصحراء (الركَيبات، والشعانبة، وأولاد سليمان) الأقرب لغوياً وثقافياً إلى قبائل البدو العربية. فبين ظهرانيّ هؤلاء يمكننا أن نقع على الأحفاد الحقيقيين لبني سليم وبني معقل.

وإلى جانب هذه الأقوام من العرب، أو المستعربة، تعيش مجتمعات بربرية هي، مثلها، مسلمة كلها، باستثناء قدامى القونشيين ساكني جزر الكناري وهم الذين تمسّحوا ثم اندمجوا في الإسبان، وبعض الأسر القبائلية القليلة التي انقلبت إلى المسيحية في أواخر القرن التاسع عشر. وإن هؤلاء البربر لأكثر تنوعاً وتعدداً من مجموعات البربر المستعربة. ويمكننا أن نميّز لدى هذه الأقوام الناطقة بلهجات شتى لكن لها ببعضها وشائج وعلائق، بما يجيز نعتها بالبربرية من غير تردد، شتّى أنماط العيش التقليدية الشائعة في البلدان المتوسطية والبلدان شبه الاستوائية. فأنت تجد بينهم المشتغلين بزراعة الأشجار، وهم فلاحون حقيقيون شديدو ارتباط بأراضيهم كما تجد بينهم سكان الجبال في منطقة القبائل وفي منطقة الريف [في المغرب]، وهم المشتغلون بأشجار الزيتون والكروم، وتجد بينهم المزارعين في الواحات المشتغلين بأشجار النخيل، وأشجار المشمش، وأحواض الخضار، كما تجد بينهم المشتغلين بزراعة الحبوب في الجبال الجرداء، كمطماطة في الجنوب التونسي، والشلوح في الأطلس الصغير في المغرب، وهؤلاء خبيرون ببناء المدرجات في السفوح شديدة الانحدار ليحفظوا بها التربة والرواء. وهنالك

مناطق أخرى يقطنها المشتغلون بزراعة الأشجار والرعي من أشباه الرحل، أمثال الشاوية في الأوراس، الذين استمدوا تسميتهم العربية من حياتهم الرعوية (فالشاوية هم الرعاة). فما أعظمه من تعارض نراه بين هؤلاء الجبليين الأجلاف وهذه المجتمعات الحضرية الصحراوية التي اختصت بالتجارة الصحراوية الكبرى والتجارة الصغيرة في منطقة التل الجزائري؛ وأولئك المزابيين الذين يعود السبب في انعزالهم وتخصصهم الاقتصادي إلى تفرّدهم الديني (الإباضية)! وهنالك رعاة جبليون آخرون يقومون بتنقلات طويلة، كما يفعل التجمع القبلي القوي لآيت عطا من حول جبل صاغرو (جنوب المغرب)، أو بني مكَيلد في الأطلس المتوسط. وهنالك في الأخير كبار الرحل الصحراويين، وبأيديهم القطعان السَغِبة من الإبل والماعز، وهؤلاء كانوا يعتبرون الغزوات، وحتى مطلع القرن العشرين عند الطوارق، هي المكمل الطبيعي للموارد الفقيرة ينتزعونها من براثن طبيعة قاسية ضنينة بأسباب الحياة.

فأي رابطة تجمع بين الجمّال ذي اللثام الأزرق النيلي، والضامر كأنه فرع من السنط الشائك، وبين البقال المزابي، الربيل المرح الحسّاب، وبين البستاني القبائلي والراعي البرابري؟ يربط بينهم أكثر مما يُقال أو يُعتقد.

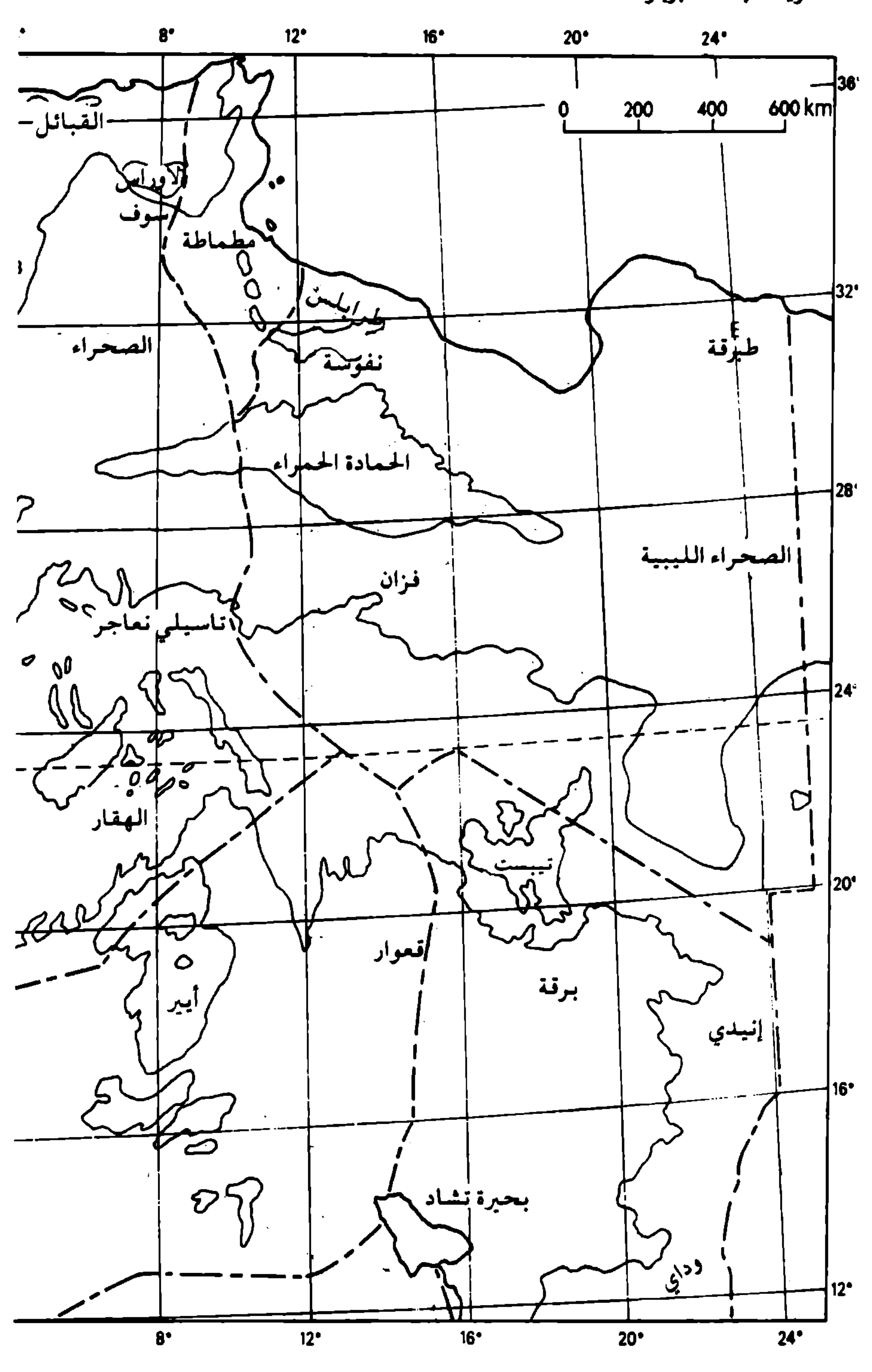
تربط بينهم أولاً اللغة، التي إليها تنتسب لهجاتهم المختلفة. فالوحدة المعجمية بين هذه اللهجات شيء ليس فيه مراء؛ تستوي فيها المناطق من جزر الكناري إلى واحة سيوة في مصر، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى [نهر] النيجر. وقد صمدت المبادئ الأساسية لهذه اللغة من نحو وحتى جَرس مجرد، بصورة لافتة، لتفرقة موغلة في القدم، كما صمدت للتباين الحاصل في أنماط العيش. والحال أن الوحدة الأساسية في اللغة تكون توافق بالضرورة تقارباً شديداً في أنماط التفكير، ولو مع الاختلافات الظاهرة في السلوك. وهذه القرابة المكينة نجدها كذلك في التنظيم الاجتماعي. وفي الأشكال الفنية توجد قواعد مشتركة، وهي في الحقيقة شديدة البساطة، قد زينت للبعض الاعتقاد بوجود فن بربري، لكن تلك القواعد نلاقيها كذلك لدى الناطقين بالعربية. إنه فن قروي مغاربي وصحراوي شديد انطباع بالأشكال الهندسية وتغليب للمستطيلات على المقوسات وعلى الأحجام. والأشكال لا تخضع للتقنيات، بل تخضع للقواعد نفسها المتبعة في الهندسة الصارمة، والمعقدة أحيانا؛ وهي أشكال نراها على الخزف كما نراها على النسيج، والجلد، وعلى الخشب، والحجر. والحال

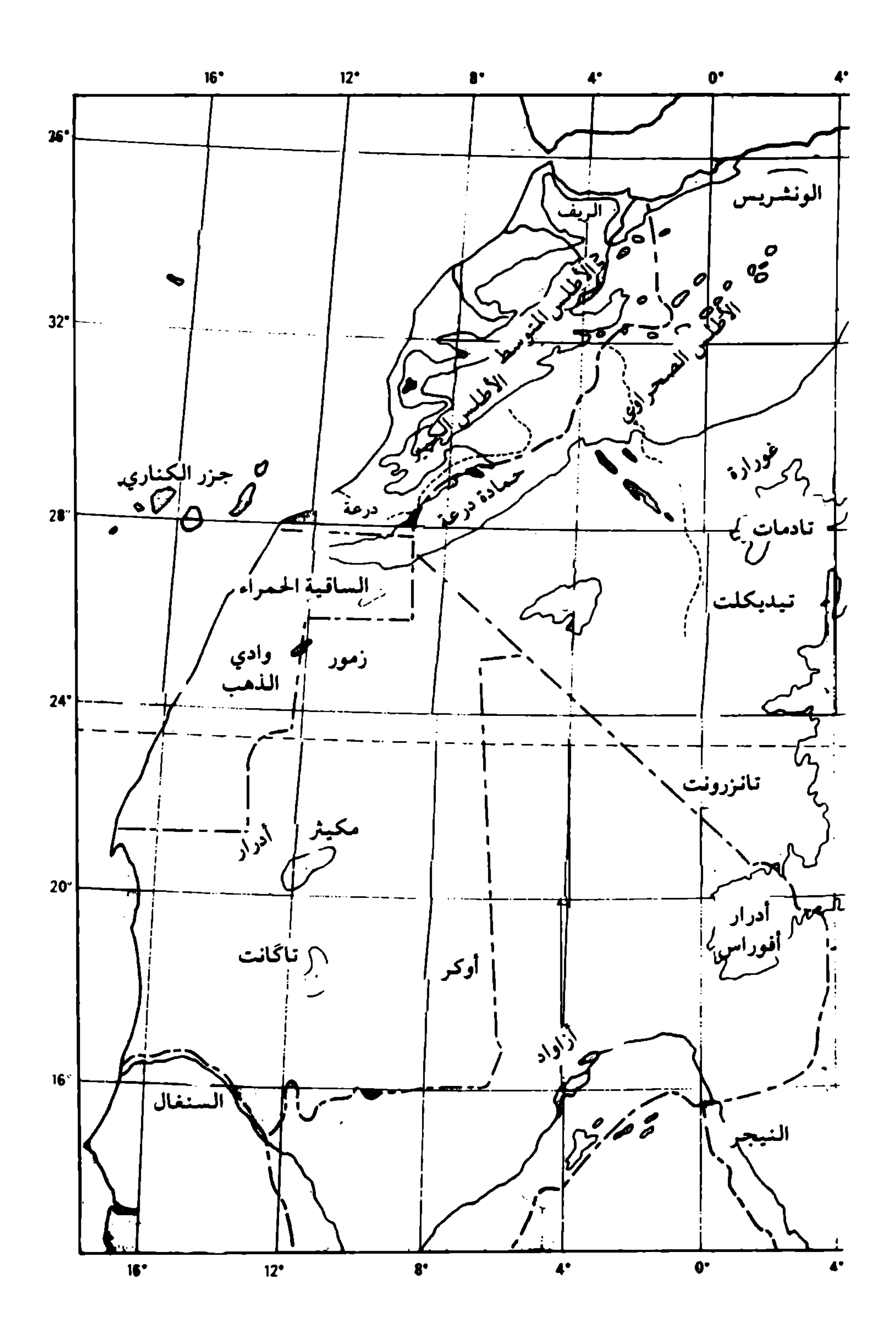
أن هذا الفن الموغل في القدم يبين عند المقيمين عن استمرارية لافتة؛ فهو مرتبط بهذه الأقوام لا تُبدله عنهم القرون، ولا التقلبات الدينية، ولا أشكال الاحتواء الثقافي. فهو دائم الحضور في لاوعي المغاربيين، أشبه بنهر قوي يجري تارة على وجه الأرض وتارة أخرى يكون غويراً. وما أكثر ما تحجبه الغلبة تتحقق للثقافات الوافدة عند المقيمين، لكنه قادر على الانبثاق في صور مثيرة، وربما بدت شاذة وغريبة، ما أن يضعف العنصر الخارجي، في أشكال فنية شديدة التعقيد. فهو فن يتأبى عن التاريخ.

وعلى الرغم من أن الجنس البربري شيء ليس له وجود، وأن هذا الجنس لم يوجد في يوم من الأيام، فإن علماء الإناسة يسلمون اليوم بأن السكان البيض في الشمال الغربي من إفريقيا، سواء منهم الذين استمروا على اللغة البربرية، أو الذين عرّبوا كلياً في لغتهم وتقاليدهم، يعودون جميعاً إلى أصل واحد أساسي؛ فمعظمهم ينحدرون من المجموعات ما قبل المتوسطية التي جاءت من المشرق في الألف الثامنة وربما قبلها، ثم أخذت بالانتشار رويداً رويداً في المغرب الكبير وفي الصحراء.

ولا يبدو أن البربر حصل عندهم الوعي في أي مرحلة من تاريخهم الطويل بأنهم يشكلون وحدة عرقية ولغوية. والحقيقة أن تلك الوحدة البربرية لا يمكن أن نقع عليها إلا في مجموع السمات السالبة. فالبربري هو ما لا يعود إلى أي أصل أجنبي؛ فما هو بالبونيقي، ولا اللاتيني، ولا الوندالي، ولا البيزنطي، ولا العربي ولا التركي ولا الأوروبي (الفرنسي، والإسباني، والإيطالي). فلتزيلوا هذه الطبقات الثقافية العديدة، وبعضها زهيد القيمة، وبعضها عظيم الأهمية والتأثير، وستجدون النوميديين *Numides*، والجيتول *Gétules*، الذين استمر المنحدرون منهم بعناد ماكر، وتحت أسماء أخرى، وبمعتقدات مختلفة، يسيرون على أسلوب واحد في العيش، ويحافظون على تقنيات قد تحققت لها استمرارية مثيرة في مغالبة طبيعة شحيحة بمصادر العيش. ولهذه الاستمرارية تفسير بسيط جداً؛ وهو أن المزارعين والرحل من البربر لم يعرفوا الثورة الصناعية التي تقلب العادات والتقنيات إلا في نطاق ضيق من مجالهم الترابي. غير أن هذه الثورة قد صارت منذ بضعة عقود إلى استشراء، حتى عمّت أقصى القرى والصحاري، فإذا الخصوصيات المائزة قد آلت بفعل ذلك إلى تلاش وزوال، ووقع الشيء نفسه في عادات ترجع بأصولها إلى ما قبل التاريخ.

3 - خريطة بلاد البربر




الونشريس
الريف
الأطلس المتوسط
الأطلس الصحراوي
الأطلس الكبير
جزر الكناري
درعة
حمادة درعة
غورارة
تادمات
الساقية الحمراء
تيديكلت
وادي
الذهب
زمور
تانزرونت
مكيثر
أدرار
أدرار
أفوراس
تاگانت
أوكر
أزاواد
السنغال
النيجر

وفي الوقت نفسه، وكما لو بفعل تعويض زائف، صرنا نرى مشاهد من الفولكلور تقيمها مجموعات قد جُردت من آدميتها، وتُساق عند الحشود من الحضر كأنها حيوانات خبيرة قد جرى تدريبها بصبر وأناة. ألا ما كان أجمل تلك الموسيقى البسيطة النفاذة، المنبعثة من بين الصخور يطلقها الراعي من مزماره الأغن!

ويميل البعض إلى الاعتقاد بأن تاريخ شمال إفريقيا والصحراء إن هو إلا تاريخ من الغزو والاحتلال الأجنبي الذي وقع على البربر، [وتلقوه] بدرجات متفاوتة من الصبر والتحمّل. أو يرى أن دورهم في التاريخ قد اقتصر على «مقاومة» كان أفضل ما توّجت به الحفاظُ على اللغة، والقانون العرفي، والأشكال العتيقة في التنظيم الاجتماعي. لكن التاريخ يرفض التبسيط، خاصة عندما يكون هذا التبسيط تعسفياً يُفرغ على القرون الماضية من المفاهيم السياسية الراهنة.

فيمكننا أن نقلب تلك المقدمات، ونتساءل كيف لهذه الأقوام، وهي شديدة التأثر بالثقافات الأجنبية؛ حتى إن من البربر من صاروا بونيقيين، ومن صاروا روماناً إفريقيين، ومن صاروا عرباً، قد استطاعت أن تستمر على وفائها لعاداتها ولغتها وتقنياتها التقليدية؟ وصفوة القولإن البربر بقوا هم أنفسهم. وهذا هو معنى أن تكون بربرياً.

إن الحكم على البربر بأن دورهم في التاريخ كان سلبياً، أي كأن لم يكن لهم من دور، من حيث يُختزلون في جنود بواسل وفرسان صناديد في خدمة المتسلط الأجنبي، حتى وإن سلمنا بأن مقاتليهم قد كانوا هم الفاتحين الحقيقيين لإسبانيا في القرن الثامن، ولمصر في القرن العاشر، هذا الحكم لا يعدو عن خطإ شنيع لا يخلو من عنصرية. فينبغي طرحه بالكلية.

إن تلك القرون المديدة من التاريخ لم يكن كل ما فيها ديمومة بربرية فاقدة للمعالم بل كان بين البربر رجال ونساء من ذوي العزم، قد وسموا زمنهم في أماكن كثيرة بميسم مكين، لكن التاريخ الذي يكتبه الأجانب لم يحتفظ لهم دائماً بالذكر الذي يستحقون.

وهذا الكتاب يروم الكشف عن معالم تلك الديمومة وتسليط الضوء على تلك الشخصيات البربرية.

الفصل الأول

الأصول

أساطير قديمة وحديثة

يندر أن تجد أقواماً قد جرى البحث في أصولها من الاجتهاد والتلفيق بقدر ما حدث مع البربر. فقد كانت الروايات تُتداول من أقدم العصور في أوساط العلماء ولدى رواة الأساطير عن أصول سكان إفريقيا. وأكثر ما يعرف الناس من هذه الروايات هي تلك التي جاء بها سالوستيوس Salluste؛ لأن تلاميذ الثانوي كانوا لا يفتأون طوال أجيال يطالعونها على صفحات [روايته] **حرب يوغرطة***.



هرقليس وأسطورة الأصلين الفارسي والميدي

كان سكان إفريقيا الأوائل، حسب ما يفيدنا سالوستيوس، هم الجيتول والليبيون وقد كانوا برابرة أجلافاً، يطعَمون لحوم الوحوش، أو يعيشون على أعشاب المراعي أشبه بالبهائم. وانتقل بعض الميديين Mèdes، والأرمن Arméniens والفرس Perses في وقت لاحق، تحت قيادة هرقليس Hercule إلى إسبانيا، ثم جازوا إلى إفريقيا، واختلط الميديون والأرمن بالليبيين، واختلط الفرس بالجيتول. فأما الميديون والليبيون فسرعان ما صاروا يعرَفون بالموريين Maures دون تمييز، وأقاموا لهم في

---

*- *De bello Jugurthino*

نظر طبعة منه ثنائية اللغة :

Salluste (bilingue latin-français, trad. Alfred Ernout et Jean Hellegouarc'h), *La Conjuration de Catilina. La Guerre de Jugurtha. Fragments des histoires*, Les Belles Lettres, Paris. 2003 (1re édition 1941).

وقت مبكر بعض المدن، وصاروا يتبادلون منتجاتهم مع إسبانيا. وأما الجيتول والفرس فقُدّر عليهم أن يظلوا يحيون حياة الترحال، فسُموا بالرحل Nomades. لكن سرعان ما تعاظمت قوة هؤلاء الأخيرين، فأمكن لهم أن يبسطوا سيطرتهم على سائر تلك البلاد، وصولاً إلى مشارف قرطاج، وصاروا يُعرفون باسم «النوميديين» Numides.

أورد سالوستيوس هذه الأسطورة حسب ترجمة قيل نُقلت إليه عن الكتب البونيقية للملك هيمبسال Hiempsal. وأما سـ.كَسيل S. Gsell فيعتقد أن الملك هيمبسال هو مؤلف تلك الكتب، ولم يكن مجرد ممتلك لها؛ فلم يكن هنالك ما يمنع ملكاً نوميدياً أن يهتم بتوثيق بعض الروايات الأسطورية بالكتابة، أو يقتصر فيها على النقل الحرفي من الأرشيفات القرطاجية التي استنكف منها العسكر الروماني وتركها بين أيدي أسلافه.

لقد جاء سالوستيوس للحقبة الأولى، السابقة على هرقليس، أو هو على وجه للدقة ملقرت Melqart، الإله الفينيقي الذي اختلط على الناس بابن ألكمينا Alc-mène بالصورة المعتادة التي يرسمها الباحث غير الخبير بطريق الخطإ للعهود البدائية. فأولئك الليبيون والجيتول المشتغلون بالصيد والقطاف ينتمون بطبيعة الحال إلى ما قبل التاريخ، وأما سالوستيوس، أو هو بالأحرى هيمبسال، فيردّهم إلى الأزمنة الأسطورية. غير أن الذي ينبغي لنا أن نأخذ عن هذه الرواية أن سكان إفريقيا كانوا في الأزمنة الغابرة من عنصرين. وأي شيء قد أجاز القول بهذا التمييز غير الاختلاف في أنماط العيش، الناجم هو نفسه عن الظروف الجغرافية، وبالتالي عن المواطن التي عاشت فيها هذه الأقوام؟ والحال أن المؤرخين القدامى والمحدثين يجمعون على أن الجيتول كانوا رحلاً، لا تزال تجد لهم بقايا وآثاراً دارسة، بدءاً من شواطئ المحيط وحتى خليج سرت. وحيث إن الجيتول كانوا رحلاً، فهذا يدفعنا إلى استنتاج أن من أسماهم هيمبسال بالليبيين، وقال عنهم إنهم «أقاموا لهم في وقت مبكر بعض المدن»، كانوا هم أسلاف السكان المقيمين.

هذا التمييز البسيط والشائع يعود إلى ما قبل سالوستيوس وهيمبسال بوقت طويل فقد وجدنا أبا التاريخ هيرودوت Hérodote[1] نفسه جاء بوصف لسلسلة طويلة من الأقوام كانت تقطن في المناطق من مصر وحتى بحيرة تريتون[*]. ثم عاد يكتب موضحاً:

---

1 – Hérodote (IV, 181, 186, 191).

*- Tritonis، وهي بحيرة كانت توجد في ليبيا القديمة، أو ما كان يقوم مقام الجنوب التونسي اليوم. ومن المحتمل أن تكون هي شط الجريد. وهيرودوت يجعل مساحتها 300 2 كلم².

«لقد تحدثت عن الليبيين الرحل القاطنين على امتداد البحر. ومن فوقهم في الأراضي الداخلية توجد ليبيا حيث الحيوانات المتوحشة... لكن في غرب بحيرة تريتونيس (أي في الشمال، بسبب من الخطإ الواقع في تحديد الساحل من أراضي قرطاج) يسكن الليبيون المقيمون؛ فقد تركوا حياة الترحال وتخلوا عن عادات الرّحل... بل صاروا من المزارعين... فهم يُؤوون إلى منازل، ويُعرفون بالمكسيس Maxyes». وجاء هيرودوت بحديث آخر على اختصار وابتسار شديد، لكنه حديث صحيح، يقابل فيه بين «ليبيا الشرقية (حيث) يقطن الرحل، (وهي) أرض منخفضة ورملية تمتد حتى نهر تريتون، وليبيا الواقعة غرب هذا النهر، ويسكنها المزارعون و(هي) أرض كثيرة الجبال والغابات...».

والجملة الأخيرة بالغة الدلالة؛ فهي لا تنطبق على أراضي قرطاج الساحلية وحدها، وهي سهول شديدة استواء، بل تصح كذلك على سائر أراضي شمال إفريقيا، وهي بلاد الأطلس.

والافتراضات الأكثر استساغة تجعل موقع بحيرة تريتون في منطقة محدودة جداً نعرف أن هيرودوت نفسه حصر موقعها بين كنبس Cinyps* (وهو نهر يوجد في شرق لبسيس ماكّنا Lepcis Magna*) وجزر قرقنة (جزيرة كيرونيس Cyraunis).

وما زلت ترى الجغرافيين إلى اليوم يجعلون الحد الجنوبي لمنطقة شمال إفريقيا عند شط الجريد التونسي؛ وقد كان هذا التوافق سيكون شيئاً يدعو إلى الاستغراب لو لم يكن هو ما أملت الطبيعة على وجه التحديد.

لكن ما الذي أتى بالفرس، والميديين، والأرمن في رواية تدور حول أصول النوميديين والموريين؟ لقد جرت العادة في النصوص القديمة على العودة بأصول [سائر] الأقوام إلى المشرق؛ للاعتقاد الذي كان لدى القدامى بأن لحضارتهم جذوراً في شرق المعمور Oekoumène، وأن في غربه كان يمتد المحيط حتى حدود العالم غير المعروفة على وجه اليقين. ولكن ما شأن الفرس والميديين [في هذا المقام]؟ فلنعد لنزيد تمعناً في نص سالوستيوس، فنحن نقرأ فيه: «جاز الميديون والفرس والأرمن الذين كانوا (في جيش هرقليس، هو الذي ستكون وفاته في إسبانيا) إلى إفريقيا على المراكب واحتلوا البلدان المجاورة لبحرنا. واتخذ الفرس مستقرهم أبعد من الآخرين، بإزاء المحيط (...) ثم أخذوا يختلطون رويداً رويداً عن طريق الزواج

*- وادي كعام حالياً.

*- لبدة حالياً.

بالجيتول». وإن في استيطان من يُزعم لهم أنهم الفرس في المناطق الجنوبية ما يحمل لنا، ويا للغرابة، تفسيراً لوجودهم غير المتوقع في الجزء الغربي من موريتانيا. وقد تحدث العديد من المؤلفين الإغريق والرومان، كسترابون Strabon، وبلين Pline نقلاً عن بوليبوس Polybe، وبومبونيوس ميلا Pomponius Mela، وبطليموس Ptolémée وجغرافي رافينا المجهول* وبريسيانوس القيصري Priscien de Césarée، نقلاً عن دونيس البيريجي Denys le Périégète ، وسواهم كثر ممن أعاد ج. ديسانج J. Desanges قراءتهم بكثير من التمعن، تحدث هؤلاء المؤلفون عن وجود قومين؛ هما الفاروسيون *Pharusiens* والبيرورسيون *Perorsi*. وقد كان التشابه، في أسميهما وتقارب مكانيهما مما دفع ببعض المؤلفين - خاصة منهم س. كَسيل - إلى التسليم بأن هذين القومين إن هما في الحقيقة إلا قوم واحد.

وليس من المحقق، لكن من المسوغ من كل الوجوه، أن يكون التشابه أو التجانس المصطنع بين الكلمات «فاروسيون» *Pharusii*، و«بيرورسيون» *Perorsi* و«بيرسيون» *Persae* هو الذي كان من وراء الزعم بوصول الفرس إلى موريتانيا. فهذا بلين الأكبر يذكر عرَضاً أن الفاروسيين، وهو يسميهم أحياناً بيروسيين *Perusii*، قد كانوا «قبلئذ من الفرس»[2].

وهنالك جناس آخر، وهو طريقة قياسية في التفكير كانت أثيرة على المؤلفين القدامى، قد انبنى عليه التفسير نفسه الذي جيء به لوجود الميديين في إفريقيا. وكما سنرى في ما يُقبل من هذا الكتاب، فإن الكثير من القبائل البربرية القديمة كانت تُعرف في العصور القديمة باسم المازيس *Mazices*، وهو في الحقيقة اسم يطلقه أغلب البربر على أنفسهم : إمازيغن *Imazighen* (مفردها أمازيغ *Amazigh*). وقد نقل الأجانب لهذا الاسم في صور شتى؛ فجعله المصريون مشوَش، وجعله الإغريق مازييس *Ma-zyes*، أو ماكسيس *Maxyes*، وجعله اللاتين مازيس *Mazices* وماديس *Madices*. وذكر المؤرخ الكبير ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي أن فرعاً من البربر هم البرانس، ينحدر من مازيغ *Mazigh**. وليس من الغريب في شيء أن يكون

---

*- L'Anonyme de Ravenne، اسم جغرافي من القرن السابع، وتشتهر به دراسة جغرافية في خمسة أجزاء وُجدت مخطوطاتها في رافينا، وقام على نشرها لأول مرة دوم بيرشيرون dom Porcheron باسم «d'Anonymi Ravennatis de geographia libri V» في سنة 1688.

2 - Pline L'ancien (V, 46).

*- كتب ابن خلدون في هذا المعنى : «وقال سالم بن سليم المطماطي وصابي بن مسرور الكومي وكهلان بن أبي لو، وهم نسابة البربر : البرانس بتر، وهم من نسل مازيغ بن كنعان»، عبد الرحمن بن خلدون **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهل بكار، دار الفكر القاهرة، 2000، ج. 6، ص. 117.

بعض سكان إفريقيا في العصور القديمة قد رجعوا بسلاسل أنسابهم إلى أسلاف يتسمون بمازيغ أو ماديغ؛ ذلك بأنهم قد كانوا يتخذون لأنفسهم هذا الاسم من قديم الزمان. وليس ببعيد أن تكون هذه التسمية هي التي جاء منها اسم «الميديين» أسلاف الموريين، ومعهم الفرس الذين أصبحوا يُعرفون بـ«الفاروسيين».

الأصول الكنعانية

الروايات السابقة تفوقها شهرةً تلك الروايةُ، الأقرب منها عهداً بكل وضوح إذ تعود إلى القرن السادس الميلادي، وهي التي جاء بها بروكوبيوس Procope، عن أصل الموريين. و«الموريون» لفظ عام كان يُطلَق في ذلك العهد على سائر الإفريقيين الذين حافظوا على تقاليدهم وأسلوبهم في العيش، بمعزل عن الثقافة الحضرية التي أشاعتها روما. فبروكوبيوس يذهب إلى إن غزو يوشع Josué للأرض الموعودة أدى إلى رحيل الأقوام التي كانت تقطن على الساحل. وقد سعى هؤلاء إلى الاستقرار في مصر، لكن وجدوها كثيرة السكان، فتوجهوا صوب ليبيا، فاحتلوها وما حولها من المناطق إلى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، وأنشأوا لهم مدناً عديدة. ويزيد بروكوبيوس مبيّناً: «ولبث فيها خلَفهم، وما زالوا يتكلمون لغة الفينيقيين حتى اليوم. ولقد أقاموا لهم كذلك حصناً في نوميديا Numidie، في الموضع حيث تقوم مدينة تيجيسيس Tigisis. وهنالك، بإزاء العين الكبيرة، تنتصب مسلتان من حجر أبيض نُقشت عليهما كتابة بأحرف فينيقية، وفي لغة الفينيقيين، بما معناه : نحن الذين هربنا بعيداً من وجه الشرير يوشع Jésus (=Josué) ابن نافيNavé»[3].

وقد كان بروكوبيوس رافق إلى إفريقيا الجنرال البيزنطي بيليزير Bélisaire وخلَفَه سولومون Solomon، اللذين كانت لهما حروب في منطقة تيجيسيس جنوب سريتا Cirta (قسطنطينة). وليس ببعيد أن يكون رأى بعض المسلات البونيقية، أو هي على الأرجح ليبية، أو سمع بوجودها؛ ذلك بأن هذه المنطقة (سيقوس Sigus وسيلا Sila وتيجيسيس) عامرة بالمسلات الكبيرة، وبعضها مناهير* حقيقية منحوتة كُتبت عليها تكريسات بالليبية. هذه الحجارة العظيمة (يوجد منها اثنان في متحف

3 – Procope (II, 10, 22).

*– Menhir، وهي صخور ذات أشكال عامودية ضخمة مرتفعة.

قسطنطينة) الحاملة لكتابات غامضة، أو أساء فهمها رجال الدين المساكين في وسط نوميديا، ربما كانت هي المصدر للرواية «التاريخية» التي جاء بها بروكوبيوس.

وتستند هذه الرواية كذلك إلى معطى آخر وجدنا له أثراً، قرناً قبلُ، في رسالة للقديس أغسطينوس Saint Augustin.

فقد جاء في تلك الرسالة: «اسألوا فلاحينا من يكونون، وسيجيبونكم بالبونيقية أنهم شنانيون *Chenani*. أفلا يكون هذا الشكل المحرّف في طريقة نطقهم يتفق وشنانيسي *Chananeci* (الكنعانيين)؟».

ولقد تداول الدارسون طويلاً في ما إذا كان الفلاحون الإفريقيون سكان المناطق المجاورة لهيبون Hippone* قد استمروا يتكلمون اللغة البونيقية إلى القرن الخامس الميلادي؛ أي بعد ما يزيد عن خمسمائة سنة من تخريب قرطاج. وتساءل سـ. كورتوا C. Courtois هل كان القديس أغسطينوس يريد باللفظ «بونيقي» «*pu-nice*» لهجة من لهجات البربر. غير أن الحجج التي جاء بها كورتوا في هذا الصدد لم تكن بالمقنعة. وإنني لأعتقد، مثل شـ. سومان Ch. Saumagne، وأ. سيمون A. Simon، أن القديس أغسطينوس إنما كان يريد في الحقيقة لهجة سامية، غير أنني لن أستغرب إذا ما جيء في يوم من الأيام بالبرهان على أن اللفظ «بونيقي» كان يُجعل في التراث الثقافي الإفريقي في ذلك العصر، ومن غير تمييز، لوصف كل ما ليس رومانياً أو إغريقياً. وسنرى [في ما يُقبل من كتابنا] كيف أن الحضارة البونيقية كانت شديدة التأثير على أسلاف البربر. ومن المرجح أن يكون الفينيقيون هم أنفسهم الذين أدخلوا اسم «الكنعانيين» إلى إفريقيا، مع أننا لا نجد نصاً واحداً يعزز هذا الافتراض. بل إن علماء كُثراً أمثال أ. دي ڤيتا A. di Vitta، يعتقدون أن رواية بروكوبيوس ينبغي ردها إلى ذكرى مشوشة عن أقدم تغلغل كان للفينيقيين في الغرب، وهو الذي وقع قبل تأسيس قرطاج بوقت طويل.

أصول أخرى أسطورية من العصور القديمة

إن الأصل الذي ذكرنا للبربر لم يكن هو الوحيد الذي جاءنا من العصور القديمة. ويعود الفضل في تصنيف هذه الأصول إلى سـ. گسيل وسعة معرفته

*-عنابة حالياً.

وخبرته. فلنتوقف عند أهم تلك الأصول. فهذا سترابون يقول إن الموريين كانوا هنوداً قدموا إلى ليبيا تحت قيادة هرقليس Héraklès، الحاضر على الدوام. وسنرى أن بعض المؤلفين قد سعوا في تعضيد هذا الأصل الأسطوري بالحجج العلمية. وجاء المؤرخ اليهودي فلاڤيوس جوزيف Flavius Josèphe للجيتول بأصل مشرقي أقرباً عهداً. فقد أكد جازماً لدى تعليقه على الإصحاح العاشر من سفر التكوين أن حويلة Euilas، أحد أبناء كوش Koush، هو أبو الأويلايوا *Euilaioi*، الذين أصبحوا يُعرفون اليوم بالجيتولوا *Gaituloi*، أي الجيتول».

لكن جيء للبربر بأصول أخرى، خاصة من لدن المؤلفين الإغريق. فهذا هيرودوت يقول إن المكسيس، الذين يمكن اعتبارهم من البربر المقيمين والمزارعين يزعمون أنهم ينحدرون من الطرواديين Troyens. وقد كانت لهذه الرواية الشائعة في العالم الكلاسي أصداء في تأكيدات كثيرة. فهذا هيكاتي Hecatée يتحدث عن مدينة تسمى كوبوس Cubos بناها الأيونيون Ioniens على مقربة من هيبو أكرا Hippou Akra، في منطقة عنابة حالياً. وفي المنطقة نفسها جُعل موقع مدينة مشالة Meschela*، التي قال ديودوروس الصقلي Diodore de Sicile إن من بناها الإغريق. ولقد توسَّمت أن في إمكاني اقتراح تفسير لهذا الوجود الأيوني للى الساحلين الجزائري والتونسي. ففي شمال نوميديا، وفي غرب تابراكا Tabra-ca (طبرقة حالياً) - أي في المنطقة نفسها - يموضع بطليموس قبيلة إيونتي *Iontii* فليس ببعيد أن هذا التشابه في الأسماء كان سبباً في وقوع شيء من الخلط جعل الرجحان لدى بعض نسّاخ هيكاتي لأشهر تلك الأسماء، ويكون هذا الخلط زيّن لديودوروس بوجه من الوجوه أن يقول إن هذه المدينة، التي توجد في موطن من يُزعم لهم أنهم أيونيون، تعود إلى الإغريق. ويبدو أن هذا التقارب بين «إيونتي» و«أيونيون» يدخل في سلسلة من الاستيهامات والأخلاط التاريخية واللغوية التي تكاثرت منذ العصور القديمة حول أصول البربر.

ومن ذلك أن بلوتارك Plutarque في ما استوحى، حسب ما يبدو، من يوبا الثاني Juba II، ملك موريتانيا؛ ذلك الملك العالم الذي كان معاصراً للإمبراطور أغسطس Auguste، قد قال إن هرقليس - مرة أخرى! - ترك في شمال موريتانيا الطنجية Tingitaine بعض الأولبيين Olbiens والميسينيين Mycéniens. والحال

---

* - كتب شاكر: Merchela، بخلاف اسمها الصحيح عند المؤلف!

أن بطليموس يذكر من بين الأقوام التي سكنت هذه الناحية الموسونيين *Muceni* الذين يبدو أن اسمهم كان السبب في نشوء هذه الأسطورة الأخرى. ولست أجرؤ على الدفع بتقريب آخر... وهو الذي يطالعنا بين الأولوليانيين Ouoloubiliani* (سكان ڤوليبليس Volubilis* الذين ورد ذكرهم عند بطليموس نفسه) والأولبيين الذين ذكرهم بلوتارك.



4. جرة مزوقة من تيرميتين في القبائل (الجزائر).

أساطير قروسطية عن أصول البربر

لقد استمر مؤرخو القرون الوسطى على هذه الطريقة القديمة في التفكير من خلال صور وأشكال عديدة، وجاءوا، وهم المشرقيون المحكومون بالنظام الأبوي والمولعون كثيراً بسلاسل الأنساب اللامتناهية، بأساطير كثيرة حول أصول البربر أو اقتصروا على ترديدها. فهذا ابن خلدون، وهو أعظم هؤلاء المؤرخين، قد أفرد فصلاً كاملاً من كتابه الكبير **العبر** للعديد من سلاسل أنساب البربر التي أوردها قبله

*- كتبها شاكر Ouolouliani، فأهمل ذلك الجناس مع كلمة Volubilis، والذي عليه مدار حديث كامب.

*- وليلي حالياً.

*- يكتبها كذلك *Musuni*. انظر في ما يقبل ص. ص 374.

كتّاب باللغة العربية معظمهم من أصول بربرية. وجميع هؤلاء المؤلفين قد جاءوا لمختلف أقسام البربر وفروعهم بأصول مشرقية. وأشهر تلك السلاسل من الأنساب هي التي تدخل في ما سبق أن ذكره بروكوبيوس. فهذا البكري يقول إن اليهود طردوهم من سوريا وفلسطين بعد موت جالوت Goliath*. وهو يتفق والمسعودي في القول إنهم أقاموا فترة قصيرة جداً في مصر*.

وابن خلدون نفسه يتخذ له موقفاً قاطعاً [بهذا المعنى] قال فيه: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم [البربر] أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليقة، وأن اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحيم بن مصرايم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة لهم. وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة. وكان بنو كنعان وواكريكيش شيعاً لفلسطين فلا يقعنّ في وهمك غير هذا، فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه»*.

وعلى الرغم من هذا الجزم من ابن خلدون، فينبغي لنا أن نأخذ في الحسبان كذلك رأياً آخر عنده، لأنه لا يخلو من توابع، وقد ساقه إلينا في كثير من البيان، إذ كتب:

«ولا خلاف بين نسّابة العرب أن شعوب البربر التي قدّمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة. فإن بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية وأن أفريقوش لما غزا أفريقية أنزلهم بها. وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب، مثل لواتة يزعمون أنهم من حميَر...»[4].

وكذلك بقي المؤلفون المعاصرون من الأوروبيين في انقسام شديد لوقت طويل حول أصول البربر. ومهما اصطنع هؤلاء المؤلفون من الحجج العلمية في دعم ما جاءوا به من فرضيات، فإنهم لبثوا على قدر سابقيهم في العصور القديمة والقرون الوسطى ركوناً إلى الخيال، وربما فاقوهم جموحاً فيه.

---

*- يريد قول البكري: «وأما البربر فإن ديارهم كانت فلسطين من بلاد الشام وكان ملكهم جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم إلى أن قتل داود جالوت، فساروا إلى بلاد المغرب إلى موضع يعرف بالونية ومراقية...»، كتاب **المسالك والممالك** لأبي عبيد البكري، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الجزء الأول، الدار العربية للكتاب، قرطاج، 1992، ص، 328.

*- يفهم من قول المسعودي: «واشتد سلطان جالوت وكثرت عساكره وقواده وبلغه انقياد بني إسرائيل إلى طالوت؛ فسار إلى جالوت من فلسطين بأجناس البربر إلى مصر»، انظر المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، عُنيَ بتنقيحه وتصحيحه شارل بيلا، انتشارات الشريف الرضي، الجزء الأول بيروت 1380-1422، ص 61.

*- ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، م.ذ.، ج. 6، صص. 127-128.

4 - نفسه.

ويمكن تصنيف مختلف الشروح والمقترحات التي جاء بها المؤلفون خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى نوعين من الأبحاث؛ فأما النوع الأول فتكونه أبحاث ذات طبيعة فقهية لغوية، ويمثله خاصة البحاثة الألمان، وأما الثاني فتكوّنه أبحاث ذات طبيعة أثرية وإناسية، وهي من إنجاز فرنسيين.

كنعانيون أم هنود؟

سعى فقهاء اللغة والمستشرقون إلى تعزيز قولهم بالأصل المشرقي للبربر بحجج جديدة؛ فبعضهم اعتمدوا على الروايات الإغريقية واللاتينية، وبعضهم اعتمدوا على النصوص العربية. فهذا [ف. ك.] موفرز [F. K.] Movers قد كان كل تعويله على روايات سالوستيوس وبروكوبيوس. فهو يرى أن الكنعانيين الهاربين [من سوريا وفلسطين] قد جازوا إلى إفريقيا على مراكب الفينيقيين، واختلطوا بالليبيين البدائيين، وأنهم علموهم الزراعة وصاروا الليبيين الفينيقيين Libyphéniciens الذين ورد ذكرهم في العديد من النصوص القديمة. ورأينا أن بعض المؤلفين من العصر الحاضر أمثال أ. دي ڤيتا يعتقدون بالفعل أن الرواية الكنعانية تحتفظ بذكرى قد باتت باهتة لتوسع فينيقي وقع في وقت سابق على تأسيس قرطاج.

ولقد ساهم تطور علم المصريات كذلك في تعزيز القول بالرواية المشرقية ذلك بأن علماء كثراً قد ذهبوا إلى الاعتقاد بأن قسماً من الهيكسوس Hyksos، وهم المنحدرون من سوريا ومن آسيا الصغرى، قد التجأوا بعد طردهم من مصر إلى إفريقيا، واختلطوا بالليبيين.

وأما [د.] كالتبرونر [D.] Kaltbrunner و[ك.] ريتر [C.] Ritter فقد جاءا من «الحجج» بما يعضِّد القول بالأصل الهندي للموريين، وهو الأمر الذي كان قال به سترابون. فهما يريان أن اسم البربر نظير لاسم الوارليڤارا Warlevara، وهي أقوام سكنت منطقة دكان (Dekkan) في قديم الزمان. ورأى هذان المؤلفان في اسم «بربيرا» Berbera، وهو ميناء في الصومال واسم «باربارا» Barbara (مفردها «بربري» Berberi) وهي أقوام تقطن بين الشلالين الأول والرابع على النيل، واسم الموضع «بربير» Berber في السودان إشارات لغوية على الاتصال الذي كان بين شبه القارة الهندية والمغرب الكبير.

*- Dekkan أو Deccan، وهي منطقة من الهند جنوب سهل الغانج.

وفي المقابل دافع الدكتور [لـ.] بيرثولون Bertholon [.L] بكثير من الحماس في بداية القرن العشرين عن القول إن للبربر أصلاً إغريقياً أو إيجياً* . وقد انبرى في غير تروٍّ يعدّد الأسماء والكلمات البربرية التي يراها تعود إلى أصول إغريقية أو ما قبل هلّينية. ولقد أنشأ بيرثولون بتعاون مع إ. شانتر E. Chantre كتاباً كبيراً أسمياه **أبحاث إناسية في شرق بلاد البربر** (1913)*، وفيه عزز رأيه الذي قال به في أصول هذه الأقوام من الحجج الإناسية، وحتى العرقية، وحتى لم يتورع المؤلفان عن كتابة ما يلي : «ينقسم الخزف البربري إلى ثلاث مجموعات كبرى : 1 - خزف خشن يُصنع بالأيدي، ويذكرنا بالخزف الذي على الدلمنات*، وهو نوع أكثر ما تختص به القبائل من العرق الطويل مستطيل الرأس، ويتوافق المجال الذي انتشر فيه هذا النوع من الخزف والمجالَ الذي عاش فيه هذا العنصر العرقي. و2 - خزف يُصنع بالأيدي، ويذكرنا بالنماذج البدائية التي عُثر عليها في بحر إيجة... وهذا النوع من الخزف يتوافق والتوزيع الذي عرفته الأقوام المشتملة على نسبة لا يُستهان بها من ذوي الرؤوس المستطيلة قصار القامة. و3 - خزف ذو حواش ومزيّن بحزوز، يعود بأصله إلى جربة، وهي الموطن لقصار الرؤوس، وقد انتشر إلى نابل ثم إلى مدينة تونس، وهو مستوحى من الخزف القبرصي، ويقل خشونة عن الخزف من النوع الثاني»[5].

فما أغربها من استنتاجات خلصت إليها أبحاث تقوم على افتراضات وعلى يقين باستمرارية ثابتة لأنواع بشرية وتقنيات لآلاف السنين!

البربر، والغاليون، والدلمنات

كان يمكن للبحث في أصول البربر في ما يبدو أن يفيد فائدة من التطور الذي تحقق للأبحاث الأثرية المتناولة لمنطقة شمال إفريقيا، خاصة التنقيب

---

*- نسبة إلى بحر إيجة.

*- *Recherches [anthropologiques dans la Berbérie orientale]*

والعنوان الكامل لهذا الكتاب هو :

Bertholon (L.) & Chantre (E.), *Recherches Anthropologiques Dans La Berbérie Orientale - Tripolitaine, Tunisie, Algérie*, Lyon, A. Rey, 1912-1913, 2 vol.

*- dolmens، وهي أنصاب من الحجارة الكبيرة المسطحة توضع فوق حجارة منصوبة، تعود إلى ما قبل التاريخ.

5- Bertholon (L.) & Chantre (E.), *op. cit.* p. 560.

الذي وقع على الأنصاب المقابرية العظيمة، الموجودة بكثرة في شرق الجزائر وفي وسط تونس. لكن ويا للأسف! ففي هذا المجال أكثر مما في أي مجال آخر أدت الأحكام المسبقة العرقية، وحتى القومية، إلى أفدح الأخطاء. ولقد أثارت الدلمنات التي في منطقة شمال إفريقيا إليها اهتمام الرحالة من الأوروبيين منذ وقت مبكر. فهذا [جـ. كـ. مـ.] شو Shaw [J. C. M] قد أشار منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى الدلمنات التي في بني مسوس، بالقرب من مدينة الجزائر. وهذا القبطان [كـ. أ.] روزي Rozet [C. A.] قد تحدث عنها في سنة 1843 بقوله : «الأنصاب الدرويدية بجوار سيدي فرج»*. وكان الجرّاح [جـ. لـ. جـ.] گويون Guyon [J. L. G.] أول من باشر التنقيب عنها في سنة 1846. وقد رفع تقريراً على قدر كبير من المعقولية إلى أكاديمية المخطوطات والآداب جاء فيه : «إنها أشبه ما تكون بالأنصاب الدرويدية التي رأيتها في سومور Saumur وفي مواضع أخرى من فرنسا. ولذلك ينسب بعض علماء الآثار هذه الأنصاب إلى الغاليين Gaulois الذين كانوا قد جُنِّدوا في الجيوش الرومانية، لكن يجوز لنا كذلك أن ننسبها إلى الوندال....».

وإن هاجس البحث عن أشياء أثرية متماثلة على جانبيّ البحر الأبيض المتوسط قد كان هو المفسر والمبرر بوجه من الوجوه للقول بالوجود الذي كان للسلتيين* ثم للفرنسيين في الجزائر. وهذا أمر يقول به كذلك واحد من أفضل علماء الآثار والمستعربين من الإمبراطورية الثانية؛ ذلك هو لـ. شـ. فيرو L. Ch. Féraud، الذي كان ابتدأ أبحاثه في سنة 1860. وثلاث سنين بعدُ باشر فيرو رفقة عالم الحفريات والمستحثّات القديمة الأنجليزي [هـ.] كريستي Christy [H.] (وقد كان هو نفسه قد شرع بمعية إ. لارتي E. Lartet في التنقيب عن آثار ما قبل التاريخ في وادي لاڤيزير La Vézère) بالتنقيب في المقبرة الميغاليثية* الشاسعة في رأس عين بومرزوق بجوار قسطنطينة، وتولدت لديه قناعة بأن الدلمنات كانت مقابر لـ «الغاليين الرومان» Gallo-romains الذين استوطنوا إفريقيا.

*– «monuments druidiques voisins de Sidi Ferruch».

*– Celtique، وهي قبائل بدائية استوطنت في 700 ق. م. أرجاء متفرقة من وسط أوروبا وشمالها وغربها. ومنها ينحدر البريطانيون والبلجيكيون.

*– mégalithique، وهي مقابر صخرية كبيرة.

وفي هذا العصر الذي شهد أكبر ازدهار لعلم آثار ما قبل التاريخ، جيء بكل الحجج، حتى أشدّها مدعاة للشك والارتياب، للتأكيد على الأصل السّلتي للدلمنات الجزائرية؛ بما يعني أنها ذات أصل فرنسي. وظهر في سنة 1862 ضمن سلسلة مرشدات جوان* الشهيرة كتيّب «المسار التاريخي والوصفي للجزائر»* لصاحبه لـ. بيس L. Piesse. وقد اشتمل هذا الكتيّب في صفحته 71 على وصف مختصر لدلمنات بني مسوس، التي نسبها المؤلف إلى «فيلق أرموريكي*». فلذلك نرى أن التقريبات التي جاء بها لـ. بيس اعماداً على كتابة لاتينية في أومال Aumale لم تكن تعدو عن سلسلة مضحكة من التناقضات.

أصول «شمالية»

أخذت الفكرة القائلة إن الدلمنات سابقة زمناً على السلتيين والغاليين في الانتشار رويداً رويداً، لكن هذه الفكرة، وإن كانت أدق من الناحية الزمنية، فإنها لم تُرفق بافتحاص متمعن للوقائع . فهذا أ. بيرتران A. Bertrand (1863)، كما عدد كبير من معاصريه، يعتقد بوجود «شعب الدلمنات»، الذي طُرد بالتدريج من آسيا ومن شمال أوروبا، ومن الجزر البريطانية، و من بلاد الغال، وإسبانيا، ثم جاء ليستقر في شمال إفريقيا. ويدخل في هذا التيار نفسه من الآراء ما قال به هـ. مارتان H. Martin؛ هو الذي استند إلى علم المصريات الوليد حينذاك، ووجد أن بين الأقوام الليبية التي هاجمت مصر على عهد منيبتاح ورمسيس الثالث Ramsès III، كان هنالك بعض للتمحو الشقر. فقد بيّن هـ. مارتان أن بعض «الغاليين» جاوزا جبال البرانس Pyré-nées، ومروا بإسبانيا، ثم غزوا شمال إفريقيا، وأقاموا هنالك الحضارة الميغاليثية قبل أن يهاجموا مصر.

وإن الوجود المحقق لأقوام، أو بالأحرى أفراد، من الشقر ذوي العيون الفاتحة في كثير من المناطق الجبلية القريبة إلى الساحل والناطقة اليوم بالبربرية، قد أعطى لزمن طويل مصداقية للأسطورة القائلة إن هذه الأقوام ذات أصول شمالية؛ ففريق

---

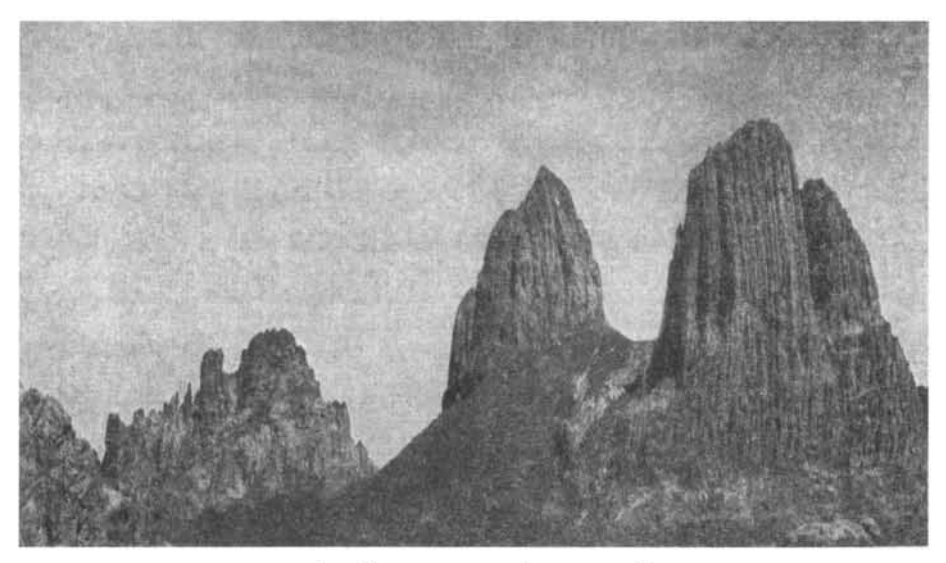
*- *Guides Joanne*، وهي سلسلة مرشدات للسفر أشرف عليها أدولف جوان Adolphe Joanne، وأصدرها لوي هاشيت Louis Hachette في إطار Bibliothèque des chemins de fer.

*- L. [ouis] Piesse, *Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie [(: comprenant le Tell et le Sahara)]*, L. Hachette, Paris, 1862.

*- Armorique، الاسم الذي عُرفت به في العصور القديمة المنطقة الساحلية من بلاد الغال الواقعة بين بورنيك Pornic وديب Diep.

قال إنهم أوروبيون بناة للميغاليثات، وفريق آخر قال إنهم مرتزقة غاليون من قرطاج وفريق ثالث قال إنهم غاليون رومان جُنِّدوا في فيالق الإمبراطورية، وقال آخرون كذلك إنهم أحفاد للقراصنة الفرنجة، الذين كانوا في القرن الثالث يغيرون على نواحي مضيق جبل طارق. وقال سواهم إنهم من الوندال، الذين لا يُتصور أنهم زالوا ولم يتركوا أثراً في السكان بعد سيطرة طالت قرناً من الزمن.

وجيء بحجج إناسية أخرى، قد زاد بها أصحابها إمعاناً في هذا الهذيان التاريخي الأثري؛ ومن ذلك أن جـ. بورگينات J. Bourguignat قد أقر، إسوة بعالم الإناسة [ف.] برونر بي [F.] Bruner-Bey أن الدلمنات التي في الركنية هي من إنشاء قبائل بربرية اختلطت بالمصريين والزنوج «وكان يسوسها جنس من أرياس Arias نزل من إيطاليا إلى صقلية وانتقل من صقلية إلى إفريقيا» (1868).



5. صخور بازلتية في تيجمايين (الهقار).

من القوقاز إلى الأطلنتيد

استأثر شبه الجزيرة الإيبيرية بمكانة مرموقة في الأبحاث التي اهتمت بالأصول الأوروبية للبربر. وإن بعض التطابقات الباعثة على الحيرة في أسماء المواقع بين ضفتيّ المضيق كأسماء الأنهار والمدن، لمما يدعم هذه الحجة. وتسمح بعض التقريبات، وإن تكن أوهى منها بكثير، مع اللغة الباسكية بالتذكير بأن البربر والإيبيريين متقاربون في الاسم بقدر ما هم متقاربون في الجغرافيا. وبما أن العصور القديمة قد عرفت

كذلك إيبيريين سكنوا القوقاز، وهم الذين يعتبرهم بعض المؤلفين أسلافاً لإيبيريّي الغرب، فربما كان في هذا أصلٌ آخر محتمل للبربر. وجاء فقهٌ للّغة يقوم على المقارنة والتقريب، وعرف الازدهار خاصة في أوساط أنصاف البحّاثة في المغرب، بدعوى شديدة الحماسة، بالاعتماد على تقريبات ومقارنات شديدة التهافت.... ومفادها أن البربر ينحدرون من... السومريين!

وبذلك يكون الحديث عن أصول البربر قد نسبهم إلى المشرق بمعناه الواسع (الميديين، والفرس)، وسوريا، وبلاد كنعان، والهند، وجنوب شبه الجزيرة العربية وطراقيا Thrace، وبحر إيجة، وآسيا الصغرى، كما نسبهم إلى شمال أوروبا، وشبه الجزيرة الإيبيرية، وجزر الكناري، وأشباه الجزر الإيطالية... والأصعب من ذلك كله بكل تأكيد أن نبحث عن البلدان التي لم يأت منها البربر!

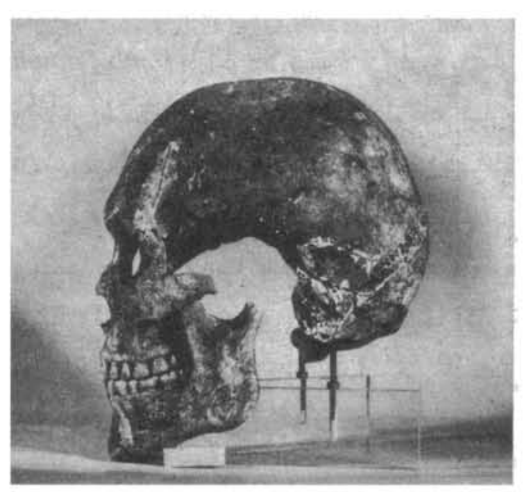
والحقيقة أن بعض المتعالمين يتأدون بسهولة إلى حل لهذه المسألة، إذ يقولون إن البربر هم بكل بساطة بقايا الأطلنتيين Atlantes. ولم تعوزهم «الحجج» على هذا القول؛ فقد كانت الأطلنتيد Atlantide تقع في القسم من المحيط القريب إلى ليبيا، وما جزر الكناري إلا بقايا منها. ثم ألم يكن السكان الأوائل لهذه الجزر، وهم القونشيون، يتكلمون اللغة البربرية؟

ويُؤثِر آخرون أن يجعلوا موقع تلك الإمبراطورية الأسطورية في قلب الصحراء في الهُقار Hoggar الملغز (فالهقار كان ملغزاً على الدوام، وإلا لما كان هو الهقار) وهو بلد آخر للبربر.

المعطيات الإناسية

لا يزال تكوّن الساكنة البربرية، أو بتعبير أدق، تكوّن مختلف المجموعات البربرية، موضوعاً لخلاف وجدال، بسبب من طرحه المغلوط. وقد كان للنظريات القائلة بانتشار البربر من شتى الأماكن تأثير قوي منذ البداية على الأبحاث الداخلة في هذا الباب، حتى لقد صارت كل محاولة للتفسير تستند تقليدياً إلى الاجتياحات والهجرات، والغزوات، وأشكال الهيمنة [التي وقعت على البربر]. وماذا لو كان البربر لم يأتوا من أي مكان؟

فبدلاً من البحث عن تشابهات مبهمة من شتى الأصناف والألوان، وهو بحث قليل توفّق، أو الجمع والدمج بين معطيات متباينة في دلالاتها، بل متناقضة، أليس يحسن البدء بالتمعن في البربر أنفسهم، وتفحّص البقايا البشرية المتخلّفة من العصور السابقة على الحقبة ما قبل التاريخية؛ وهي الحقبة التي كانت الساكنة [البربرية] كما تُعرف في الوقت الحاضر، حسبما نعلم، قد توطنت قبلها [في منطقة شمال إفريقيا]؟

6 و7. جمجمة إنسان من نوع مشتى العربي (من موقع باسمه، شرق الجزائر)، من قبُل ومن جنب.

وباختصار فالمنطق يقتضي أن نجعل الأولوية للإناسة. غير أن هذا العلم لايسعف اليوم في التعرف على أقل خاصية «بربرية» أصيلة في مجموع سكان جنوب البحر الأبيض المتوسط. وأما ما لا يزال يسعف إلى اليوم في التعرف على الوجود الذي كان لبعض المجموعات البربرية في الربع الشمالي الغربي من إفريقيا فهو من خاصية أخرى؛ إنها خاصية ثقافية أكثر مما هي خاصية جسمانية. ويظل العنصر الأساس بين هذه المعطيات الثقافية هو اللغة.

ولذلك سيكون مبتدؤنا بالحديث عن المعطيات الإناسية، ثم نقفي عليها بالمعطيات اللغوية.

الإنسان العاقل في المغرب الكبير : الإنسان العاتيري*

ليس علينا أن نتكلف البحث عن أصول الإنسان نفسه في منطقة شمال إفريقيا بل حسبنا أن نرتد بسرعة إلى الوراء آلاف السنين، لنفهم كيف تكوّن سكان هذه المنطقة الشاسعة، التي باتت اليوم محصورة بين الصحراء والبحر الأبيض المتوسط. وليكن مبتدؤنا من مستهل العصر الذي يسميه مؤرخو ما قبل التاريخ في أوروبا بالعصر الحجري الأعلى Paléolithique Supérieur؛ أي حوالي 30 000 سنة قبل الميلاد. ففي تلك الحقبة تأكد بشكل نهائي وجود نوع الإنسان العاقل الأول *Homo Sapien Sapien* وشكله الأكثر شيوعاً، وربما كان الأقدم، في أوروبا هو إنسانُ كرومانيون Cro-Magnon. وقد ظهر إنسان كرومانيون من بعد إنسان نياندرتال Neandertal، الذي يُدخله علماء الحفريات اليوم في نوع الإنسان العاقل *Homo Sapien*؛ لكن لا يبدو، في أوروبا على الأقل، أن منه كان انحداره المباشر. وأما في شمال إفريقيا فلا يبدو أن الوقائع سارت على الرسيمة نفسها. فههُنا لا يمكن أن ننسب الصناعات والزراعات التي ظهرت في الفترة نفسها إلى العصر الحجري الأعلى، كما وقع تحديده في أوروبا الغربية. ففي تلك الفترة كانت التقنيات التي يسميها مؤرخو ما قبل التاريخ بالتشذيب الرقائقي والتهذيب غير المتناسق لا تزال قليلة ونادرة [في هذه المنطقة]، بينما كل التقنيات الموستيرية moustérienne والليڤالوازية Levalloisiennes* من العصر الحجري الأوسط Paléolithique moyen كان لا يزال لها فيها وجود.

---

*-نسبة إلى مدن ومواقع في فرنسا.

ومع ذلك ففي سائر البلدان التي سيقطنها البربر، وليس في أي مكان آخر ستنتشر صناعات أصيلة، سيكون فيها امتداد وتجويد للتقنيات الموستيرية، سُميت بالعاتيرية *Atérien*. وقد تم في الشمال الغربي من إفريقيا، وربما على الساحل القريب من وهران على وجه التحديد، ابتكار شكل من أشكال وضع المقابض مميّز لهذه الصناعة، وهو المتمثل في إبراز ما يشبه الرُّجَيْل، أو السويق، بلمسات متتالية في الجزء الأسفل من الأداة الحجرية. وهذه التقنية في تثبيت الأداة إلى مقبضها وهي شيء غير معروف في الصناعة الموستيرية الأوروبية، تم إعمالها في سائر أنواع الأسلحة والمعدّات، من أسنة، ومكاشط، ومحاك، وأزاميل، ومثاقب...

ولقد بقينا إلى هذه السنين الأخيرة لا نعرف إلى أي نوع بشري تنتمي هذه الصناعة. فمظهرها العام، الشبيه بما في المنتجات الموستيرية، قد دفع بالمتخصصين إلى الاعتقاد بأن لها صلة كذلك بإنسان نياندرتال، ذي الشبه الكبير بالإنسان الذي تم اكتشافه في وسط موستيريٍّ واضح؛ وذلك في جبل إرحود Irhoud (في المغرب). وقلة قليلة من العلماء (كامب، 1974) من قالوا إن الإنسان العاتيري قد يكون يشكل البداية لإنسان عاقل من النوع الحديث. وقد كان في الاكتشاف الذي قام به [أ.] ديبينات [A.] Debenath في دار السلطان (منطقة الرباط) سنة 1975 دليل على أن الإنسان العاتيري هو بالفعل نوع من الإنسان العاقل الأول *Homo Sapien Sapien* أقدم من إنسان كرومانيون، وله قواسم شبَه كثيرة مع الإنسان الموستيرى من جبل إرحود؛ بما يحمل على التسليم بأن منه كان انحداره. وأكثر أهمية مما ذكرنا كذلك أن نتعرف على صلة لهذا الإنسان العاتيري بخلَفه الذي عُرف منذ زمن بعيد في المغرب الكبير باسم إنسان مشتى العربي.

أصول إنسان مشتى العربي*

لإنسان مشتى العربي شبهٌ بإنسان كرومانيون، فهو يشترك وإياه في الملامح الجسمانية المائزة: طول القامة (1,74 متر في المتوسط عند الرجال)، وشدة سعة الجمجمة (1 650 سم^3)، وانعدام التناسق بين الوجه العريض والقصير بمحجريه المستطيلين، اللذين يفوق عرضهما ارتفاعهما، وبين الجمجمة ذات الشكل المستطيل إلى متوسط الطول.

*- أسقط سـ. شاكر كلمة «أصول» من هذا العنوان.

ولقد ارتبط إنسان مشتى العربي في بداياته بنوع من الصناعة، هي المسماة «الإيبيرية المورية» Ibéromaurusien، كان له انتشار في سائر المناطق الساحلية والتلية. وكانت الصناعة الإيبيرية المورية، المعاصرة للصناعتين الأوروبيتين المگدلينية Magdalenien والأزيلية Azilien، تتمثل فيها خصائص صناعية مما يدخل في العصر الحجري الأعلى، بحكم صغر قطعها الحجرية. فأكثر هذه القطع نُصيلات قد طُرِّق* أحد جانبيها، بحيث يشكل ظهراً، وأُبقي على الجانب الآخر حاداً قاطعاً. وقد كانت هذه الأشياء عبارة عن أدوات، من قبيل قطع الغيار؛ فهي تُثبَّت إلى أذرع من الخشب أو من العظام، فتصير أدوات أو أسلحة فتاكة.

ولقد درج الناس على الاعتقاد بأن إنسان مشتى العربي، القريب إلى إنسان كرومانيون، يعود إلى أصول خارجية. فقد خُيِّل إلى البعض أن إنسان مشتى العربي جاء من أوروبا، ثم اجتاز إسبانيا، ومضيق جبل طارق، لينتشر بالتزامن في المغرب الكبير، وفي جزر الكناري، وهي التي ظل سكانها الأوائل، القونشيون، يحتفظون بمعظم خصائصه الجسمانية، قبل أن يختلطوا بالغزاة الإسبان.

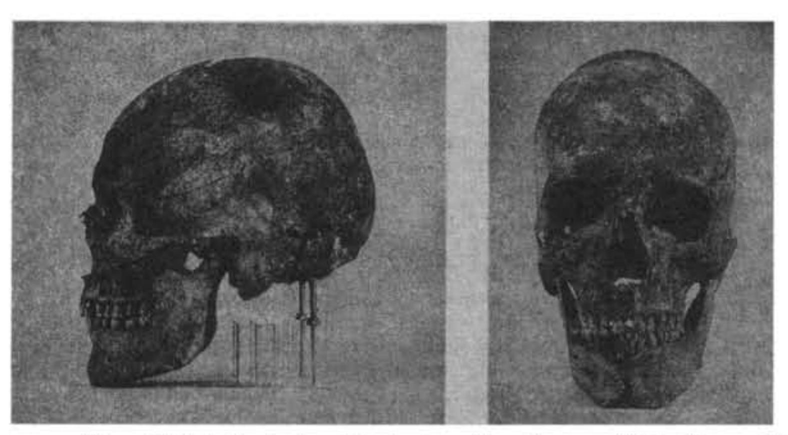
وحسب آخرون أن إنسان مشتى العربي ينحدر من الإنسان العاقل الذي ظهر في المشرق (إنسان فلسطين Homme de Palestine)، وأن من هذا الموطن الأصلي خرج فرعان؛ ففرع أوروبي، نشأ عنه إنسان كرومانيون، وفرع إفريقي، نشأ عنه إنسان مشتى العربي.

إن الأصل المشرقي والأصل الأوروبي عنصران لا يمكن الاعتداد بهما هما الاثنان، وقد سبق لنا أن تعرّفنا عليهما في الروايات الأسطورية للعصور القديمة وفي الشروح الارتجالية التي ظهرت في الزمن الحديث، كما نلاقيهما في الفرضيات العلمية التي يؤتى بها في الوقت الحاضر. ومما يؤسف له أن الأطروحتين تعانيان اثنتاهما من عيوب ونواقص تجعل من الصعب القبول بهما. فلا سبيل إلى ترسّم هجرة إنسان كرومانيون عبر إسبانيا. وليس يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل إن الجماجم التي تعود إلى العصر الحجري الأعلى في أوروبا تُبين عن خصائص أقل بروزاً من تلك المميزة لجماجم من يُقال إنهم أحفادهم المغاربيون. ويمكن أن نسوق الحجج نفسها في رد الفرضية القائلة إن إنسان مشتى العربي يعود بأصله إلى الشرق الأدنى

* – كتب «abattre»، والصواب : «battre»!! فقد جاء في أصل هذه الفقرة :
«Ce sont très souvent de petites lamelles dont l'un des tranchants a été abattu pour former un dos», p. 37.

فليس هنالك وثيقة إناسية واحدة من المنطقة ما بين فلسطين وتونس من شأنها أن تدعم هذه الفرضية. ثم إننا نعرف بسكان الشرق الأدنى في أواخر العصر الحجري الأعلى؛ فهم النطوفيون Natoufiens* من النوع ما قبل المتوسطي، وهو نوع يختلف أيما اختلاف عن إنسان مشتى العربي. ولو سلّمنا بأن إنسان مشتى العربي يعود بأصوله إلى الشرق الأدنى فبمَ نفسر أن يكون أسلافه رحلوا جميعاً عن هذه المناطق من دون أن يتركوا فيها أي أثر من طبيعة إناسية؟

يتبقّى لنا إذاً الأصل المحلي؛ [أي أن يكون إنسان مشتى العربي يعود إلى منطقة شمال إفريقيا نفسها]، وهي الفرضية الأبسط (ولربما تكون بساطتها هي التي منعت من الأخذ بها!)، لكنها اليوم قد صارت الأكثر بداهة؛ منذ أن وقع اكتشاف الإنسان العاتيري. ويسلم اليوم علماء الإناسة المتخصّصون في منطقة شمال إفريقيا؛ أمثال د. فيريمباخ D. Ferembach ومـ. كـ. شاملا M. C. Chamla بوجود نسب مباشر وموصول بين النياندرتاليين في منطقة شمال إفريقيا (ومثالهم إنسان جبل إرحود) وأشباه الكرومانيون (ومن جملتهم إنسان مشتى العربي). ولا يبعُد أن يكون الإنسان العاتيري المكتشَف في دار السلطان هو الوسيط بينهما، لكن بعد أن اكتسب خصائص الإنسان العاقل الأول.



8 و9 جمجمة إنسان قفصي من النوع المتوسطي شبه القديم (موقع المجاز إثنان) من قبُل ومن جنب.

*- نسبة إلى وادي النطوف شمال غربي القدس، وتعتبر الخطوة الأولى للإنسان على طريق بناء أولى المجتمعات الزراعية في التاريخ.

تطور إنسان مشتى العربي*

بين أيدينا عدد وافر من بقايا إنسان مشتى العربي، ويمكن تقدير العدد [المتبقّى لدينا من] الأفراد الداخلين في هذا النوع البشري لما قبل التاريخ بخمسمائة فرد وقد تم أخذ تلك البقايا أو التعرّف عليها في مواضع شتى من منطقة شمال إفريقيا. ولا يعود هؤلاء جميعاً إلى العصر الإيبيري الموري؛ فحوالي المائة منهم قد عاصروا صناعات أحدث عهداً، وأعمارهم دون العشرة آلاف سنة. وقد كان الأفراد المنتمون إلى إنسان مشتى العربي كثيري العدد في العصر الحجري الحديث*، خاصة في غرب الجزائر وعلى الساحل الأطلنتي. ففي تلك الحقبة عبرت إحدى المجموعات الشرم الذي يفصل القارة الإفريقية عن جزر الكناري واستوطنت هذا الأرخبيل.

وقد عرف إنسان مشتى العربي التطور في عين المكان. فأما الأفراد منه الذين استوطنوا الساحل (كما في كهوف وهران، ونواحي مدينة الجزائر) فقد ظلوا أشداء، إلى أن صاروا إلى اندثار وزوال، وأما أولئك الذين استقروا في المناطق الداخلية (كما في كولومناتا Columnata، وجبل فرطاس، والداموس الأحمر) فهم يُبينون عن ميل واضح إلى النحافة، وكذلك نقصت قاماتهم، وصارت عظامهم أقل سمكاً، وجماجمهم أقل استطالة، والنتوءات العظيمة لديهم أقل بروزاً، والأسنان أصغر حجماً. وأظهرت الأبحاث التي قامت بها مـ. كـ. شاملا منذ وقت قريب أن تلك النحافة ليست نتيجة للاختلاط مع أنواع بشرية أحدث عهداً، بل هي بفعل تطور داخلي. وهذه ظاهرة ليست مقصورة على إنسان مشى العربي ولا على منطقة شمال إفريقيا.

وما يزيد في الاستغراب اكتشاف أ. ديتور O. Dutour لقوم من العصر الحجري الحديث بملامح من إنسان مشتى العربي واضحة ومحقّقة، وذلك في حاسي الأبيض، في أغوار الصحراء المالية*.

ولقد أخذ نوع إنسان مشى العربي في الاندثار رويداً رويداً أمام أنواع أخرى من البشر، لكنه لم يزُل بالكلية؛ فقد وجدنا نسبة 8% من الجماجم الشبيهة بما عند إنسان مشتى العربي بين مجموع الجماجم التي وصلتنا من مقابر قبيْل التاريخ والمقابر

---

* – هذا العنوان سقط من طبعة سـ. شاكر !!

* – Neolithique، وهي الفترة المحصورة بين الألف الخامسة والألف الثالثة قبل الميلاد.

* – هذه الفقرة لم نجدها في طبعتي المؤلف لسنتي 1980-1987، فربما يكون ألحقها بطبعة 1995 التي لم يتسن لنا الاطلاع عليها !.

البونيقية (شاملا، 1976). وكذلك نتعرّف في العصر الروماني، الذي لطالما لقيت البقايا البشرية التي تعود إليه التجاهل والاستخفاف من علماء الحفريات «الكلاسيين» على بعض الجماجم في شرق الجزائر لها خصائص شبيهة بما كان عند إنسان مشتى العربي. ولا نزال إلى اليوم نستبين بعض العناصر النادرة من نوع مشتى العربي بين سكان [هذه المنطقة]؛ هم الذين تنتمي غالبيتهم العظمى إلى مختلف أجناس النوع المتوسطي. وتمثل هذه العناصر نسبة لا تكاد تزيد عن 3% من سكان بلدان المغرب وهم أكثر عدداً بكثير في جزر الكناري.

غير أننا لا نستطيع مع ذلك أن نُدخل إنسان مشتى العربي في أسلاف البربر المباشرين.

المتوسطيون الأوائل القفصيون:

أكلة الحلزونات

ابتداء من الألف الثامنة ظهر في القسم الشرقي من المغرب الكبير نوع جديد من الإنسان العاقل قد تمثلت فيه خصائص بعض السكان المتوسطيين كما نعرفهم في الوقت الحاضر، وهو كذلك [نوع] طويل القامة (1,75م للرجال في المجاز إثنان Medjez II، و1,62م للنساء)، لكنه يتمايز عن إنسان مشتى العربي في أنه يقل عنه صلابة بكثير، وأنه يفوقه تناسقاً في جمجمته ووجهه؛ فهي جمجمة مستطيلة تتناسب والوجه المرتفع والمائل إلى الضيق، وأن محاجره يغلب عليها شكل المربع وأنفه أضيق. والنتوءات العظيمة لدى هذا النوع البشري الجديد غير بارزة؛ وأخص ما يميّزه أن زاوية الفك لديه ليست بمنحرفة إلى الأمام، وهذه خاصية كانت شديدة الشيوع، بل ربما كانت خاصية ثابتة، لدى إنسان مشتى العربي.

أطلقتْ على هذا النوع صفة ما قبل المتوسطي Protoméditerranéen. وقد وُجدت مجموعاتٌ على شبه كبير به من الناحية الإناسية في الحقبة نفسها، أو قُبيلها في المشرق (أولئك هم النطوفيون)، وفي مختلف البلدان المتوسطية، وهي تنحدر في ما يبدو من نوع كومب كابل Combe-Capelle (الذي يسمّى في وسط أوروبا إنسان برنو Brno)، وله تمايُز واختلاف عن إنسان كرومانون.

ومن المستبعد في ما يبدو أن يكون من إنسان مشتى العربي تحدّر الإنسان ما قبل المتوسطي. فهذا الإنسان، الذي سيأخذ يخلُفه بالتدريج، قد ظهر أولاً في الجهة الشرقية، وأما إنسان مشتى العربي فقد كان إلى العصر الحجري الحديث لا تزال

أكثر أعداده في الجهة الغربية. وإن في هذا التقدم المتدرج من الشرق صوب الغرب ما يدعو بالفعل إلى ضرورة أن نبحث عن ظهور هذا النوع البشري ما قبل المتوسطي في ما يتعدى نطاق المغرب الكبير. ويقع اليوم إجماع لدى المتخصّصين من إناسيّين ومهتمين بما قبل التاريخ على أن إنسان مشتى العربي إنما كان مقدَمه من الشرق الأدنى.

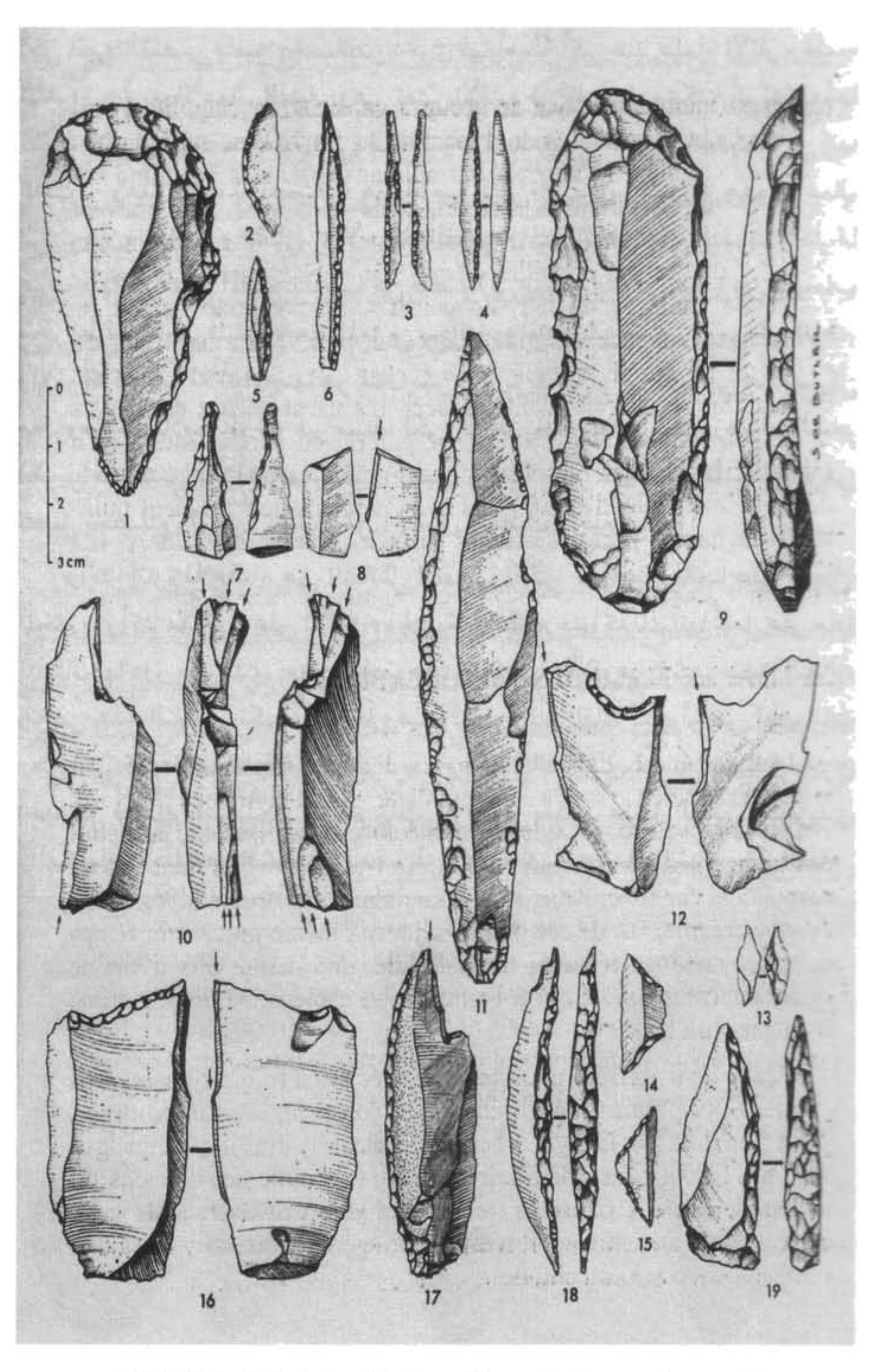
ويمكن أن نتعرف اليوم في الإنسان ما قبل المتوسطي، وحسب ما ترى مـ. كـ. شاملا، على نوعين اثنين. فأما أكثرهما شيوعاً فهو النوع الفرعي من المجاز إثنان ويتميز بجمجمة مرتفعة، وهو نوع يغيب لديه الانسياب في الفكين، وأما النوع الثاني وهو أقل انتشاراً، فيمثله إنسان عين الدكّارة Aïn dokkara، ويتميز بجمجمة شديدة انخفاض القحف، وبعضه يكون طويل الفكين، لكن دون أن يبين عن خصائص أشبه بما عند الزنوج، وهي الخصائص التي أخطأ الباحثون بالتنويه إليها.

الحضارة القفصية

عُرف هذا الإنسان بصناعة ما قبل تاريخية جُعل لها اسم القفصية Capsien نسبة إلى الاسم القديم لكَافصا (قفصة Capsa) التي عُثر بالقرب منها لأول مرة على العناصر المكوّنة لهذه الثقافة. والعصر القفصي يمتد على ما دون العصر الإيبيري الموري زمناً؛ فهو يمتد من الألف الثامنة إلى الألف الخامسة.

ولقد أتاحت لنا المواقع الكثيرة التي عُثر فيها على تلك المكونات، والتي سُميت على سبيل التلطّف بالمحلزات (escargotières)، كما أتاحت لنا التنقيبات الجيدة التي أُجريَت في تلك المواقع، أن نكوّن معرفة مُرضية بالقفصيين وأنشطتهم. فيمكننا أن نتحدث في ما يخصهم عن حضارة تُبين لنا مكوناتها المحلية العديدة، التي تم التعرّف عليها في أنحاء تونس والجزائر، عن بعض الملامح والخصائص الثابتة. ومن غير أن نطيل التوقف عند صناعة الحجر، وهي التي تتميز باستعمال أدوات ذات شفرات، أو نُصيْلات مطرَّقة أحد الجانبين*، ومناقيش، وهياكل ذات أشكال هندسية (فيها الأهلة، والمثلثات، والمربعات المحرَّفة)، تجدر الإشارة إلى أنها في غاية الجمال ومثيرة للاهتمام بجودة التقطيب الذي كان يُنجز أحياناً خلال العصر القفصي الأعلى عن طريق الضغط، فتتحصل عنه نصيلات متقنة خالية من أي نشاز. وهي تلفت الأنظار كذلك بما فيها من دقة تنميق، كما نراه على بعض القطع فائقة الصنع.

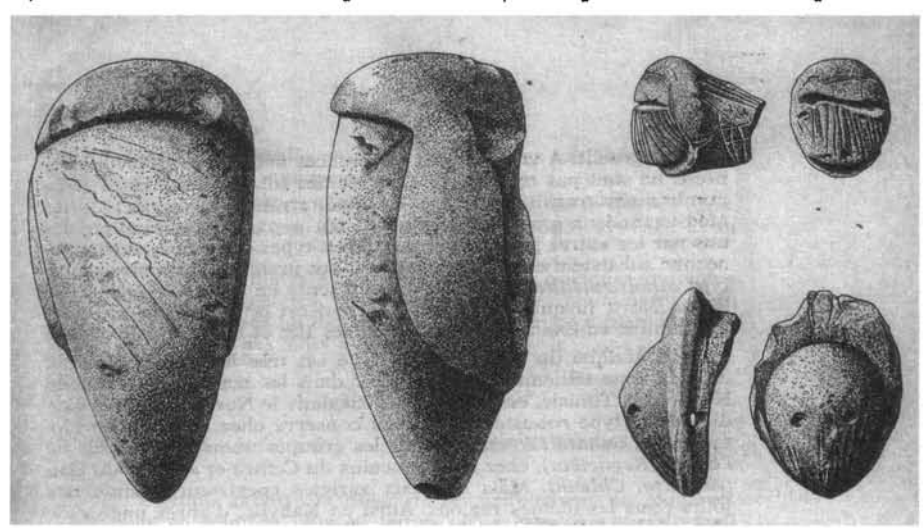
*- الملاحظة نفسها كما في ص. 74.



10. مصنوعات حجرية من العصر القفصي النموذجي (موقع الواد، شرق الجزائر).

لكن الفن القفصي يتميز بخصائص أخرى لها أهمية أكبر عند علماء الآثار وعلماء الأعراق؛ أريد الأعمال الفنية. وهي تعتبر الأقدم في إفريقيا، ويمكننا أن نؤكد أنها كانت الأصل للتحف الفنية التي ظهرت خلال العصر الحجري الحديث. بل إنها كانت - وهذا شيء له أهميته - هي الأصل للفن البربري. وتتوزع هذه الأعمال إلى نوعين؛ النحت والنقش. والأحجار القفصية المنحوتة في غاية الندرة، وأكثر ما عُرف منها في موقع المقطع بالقرب من قفصه (في تونس). وهي عبارة عن لويحات مخروطية من الجير الناعم، بعضها مزيّن بحزوز، وأقنعة بشرية، أو رؤوس لحيوانات. والأثر الأكثر لفتاً للانتباه بينها هو تمثال بشري لا يزيد عن رأس، وينتهي عنقه بشكل مخروطي، وملامح الوجه غير مبيّنة، لكن الوجه يحمل بعض الحزوز، وأما الشعر فطويل قد اعتُني بمعالجته، ومن فوق الجبين خصلة شعر كثيفة مقطعة بعناية، وهي تتصل بخصلتين ثقيلتين تتدليان من الجانبين وتغطيان الأذنين.

وأكثر إثارة للاهتمام هي النقائش القفصية، التي نادراً ما تُطالعنا على حيطان المخابىء، وأكثر ما تكون على الألواح الجيرية. والشائع فيها كذلك أنها تُجعل على مادة قد كان لها دور مهم لدى بعض المجموعات القفصية؛ ألا وهي قشور بيض النعام. وبعض هذه النقائش تكون رسوماً وصوراً على غير إتقان كبير لبعض الحيوانات وهي التي كانت ممهدات للفن الكبير لرسوم الحيوانات الذي تميّز به العصر الحجري الحديث في إفريقيا، لكن معظم تلك الرسوم يغلب عليها الطابع التجريدي والهندسي. وذلك هو الشأن في معظم الزخارف التي تُرى على قشور بيض النعام.



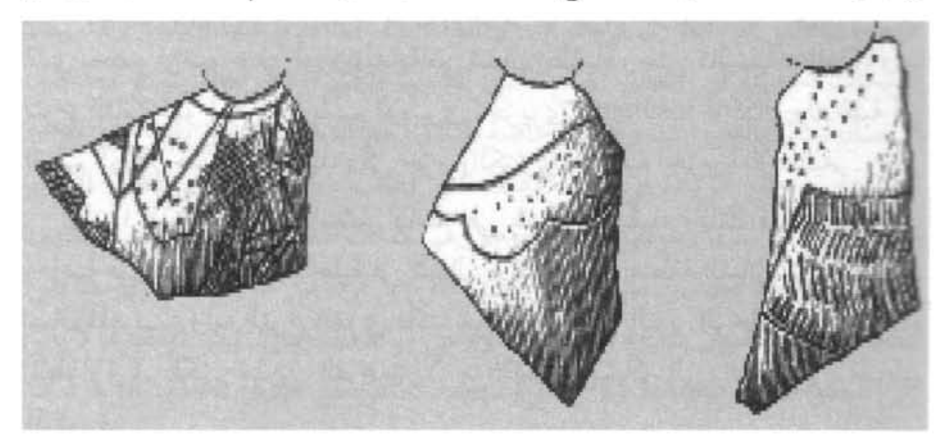
11. منحوتات قفصية صغيرة من المقطع.

فنحن نلاحظ بين مجموعات الخطوط المستقيمة والمنحنيات والمنقّطات كثرةَ التربيعات والشاريات، والمثلثات. ويلوح أن هنالك قرابة معيّنة بين بعض هذه الزخارف القفصية، أو الزخارف التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، والزخارف التي لا تزال متداولة لدى البربر إلى اليوم في ما يصطنعون من أوشام وأنسجة، أو يأتون من رسوم على الفخار، أو على الجدران؛ بحيث نستبعد ألا يكون هنالك من استمرارية في هذا الميل الفطري إلى الديكور الهندسي، ولاسيما أننا لا نعدم الشواهد الدالة على وجود تلك الاستمرارية من عصور قبيل التاريخ إلى العصر الحديث.

استقرار أوائل البربر

لا تكاد العناصر البشرية القفصية تختلف من الناحية الإناسية إلا قليلاً عن سكان شمال إفريقيا في الوقت الحاضر؛ من بربر و«عرب»، وهم الذين أهمل علماء الحفريات، في بداية أبحاثهم، أن يحتفظوا لنا بهياكلهم العظمية المكتشفة في المحلّزات، لاعتقاد منهم أنها لدخلاء ومتطفلين دُفنوا في زمن متأخر. بل إن إحدى تلك الجماجم قد بقيت لبعض الوقت في قلم محكمة عين مليلة، وهي مدينة صغيرة في شرق الجزائر، إذ اشتُبه في أنها إنما تعود إلى عملية دفن سري أُجريت لقتيل!

ومهما يكن من أمر فإننا نُدخل في ما قبل المتوسطيين القفصيين أوائلَ المغاربيين وهم الذين يمكن لنا في غير ما تهوّر أن نجعلهم على رأس سلسلة النسب البربري في إلى 9 000 سنة تقريباً! وجميع المعطيات تتفق على التسليم، وكما ذكرنا من قبلُ



12. قطع من قشور بيض النعام مزينة بنقوش هندسية من العصر القفصي الأعلى (مواقع كف المزاوي، وبئر الحمايرية، وخبية كلاريون، شرق الجزائر وفي تونس).

بأن هؤلاء القفصيين يعودون بأصولهم إلى المشرق. ولكن وصولهم إلى المغرب الكبير يعود إلى غابر الأزمان؛ بحيث لا يبالغ في شيء من يصف أحفادهم في هذه المنطقة بالسكان الأصليين الحقيقيين.

فإذا ما انتقلنا إلى العصر الحجري الحديث لم يعد في الإمكان أن نقف على أي تغير واضح في سياق التحول الإناسي الذي عرفه المغرب الكبير. فنحن نلاحظ استمراراً لنوع مشتى العربي في جهة الغرب، بل نلاحظ كذلك تقدّمه صوب الجنوب، بطول السواحل الأطلنتية، وأما ما تبقى من الصحراء، أو على الأقل المنطقة الواقعة جنوب مدار السرطان، فلم يكن يقطنه حينئذ غير أشباه الزنوج. وقد سار أوائل المتوسطيين في انتشار حثيث. فإذا جئنا إلى فجر التاريخ لاحظنا أن المدفونين من بني البشر تحت الجثوات*، وغيرها من الأنصاب الصخرية العظيمة هم من النوع المتوسطي، مهما اختلفوا مواقع، ما عدا في المناطق الجنوبية؛ وهي التي يمكن أن نميّز فيها العناصر من ذات الأشكال الزنجية. فيكون المغرب الكبير من الناحية الإناسية قد «توسّط» بل تبربَر، منذ ذلك الزمان.

لكن هنالك ملاحظة أخرى تفرض نفسها في الحال؛ وهي أن بعض هؤلاء المتوسطيين أقصر قامات، وخصائصهم العضلية أقل بروزاً، وعظامهم أقل سمكاً وصفوة القول إن هياكلهم أكثر نحافة. والحقيقة أن اختلافاتهم عن أوائل المتوسطيين ليست بالاختلافات البيِّنة؛ فهنالك أشكال وسيطة ومراحل انتقالية عديدة بين المتوسطيين الأشداء والمتوسطيين الضعاف. كما وأنه لم يقع زوال في بعضهم بسبب من البعض الآخر؛ فلا يزال لهذين النوعين الفرعيين من العرق المتوسطي هما الاثنان وجود إلى اليوم. فأما الأوائل فيكوّنون النوع الفرعي المتوسطي الأطلنتي الذي يحضر بوضوح في أوروبا بداية من شمال إيطاليا، وحتى گاليسيا Galice، وأما النوع الثاني فهو المعروف باسم الإيبيرى الجزيري ibéro-insulaure، وله غلبة في القسم الواقع جنوب إسبانيا، وفي جزر [الكناري]، وشبه الجزيرة الإيطالية.

ولهذا النوع الفرعي انتشار واسع في شمال إفريقيا، وذلك في منطقة التل وخاصة في المرتفعات الساحلية في شمال تونس، وفي منطقة القبائل، وفي الريف شمال المغرب. وأما النوع القوي فأكثر من حافظ عليه البربر الرحل في الصحراء (الطوارق). لكن هذين الفرعين لا يزالان يتعايشان إلى اليوم في المناطق المذكورة.

---

*- Tumulus، وهي ركام من التراب، أو بناء حجري مخروطي، كان يُجعل فوق القبور.

ففي منطقة القبائل، وحسب ما تفيدنا دراسة حديثة لـمـ. كـ. شاملا، يمثل النوع المتوسطي 70% من السكان، لكن ينقسم إلى ثلاثة أنواع فرعية : النوع الأول هو الإيبيرى الجزيرى، وهو الغالب، ويتميز بقامة بين قصيرة ومتوسطة، ووجه ضيق وطويل. والنوع الثاني هو الأطلنتي المتوسطي، ويحضر كذلك بأعداد كثيرة، وهو أقوى من الأول، وأطول منه قامة، وله رأس متوسطة الطول. والنوع الثالث هو النوع الفرعي الصحراوي، وهو أقل عدداً (15%)، ويتميز بقامته الطويلة، ورأسه المستطيلة، ووجهه الطويل. وهنالك عنصر ثان يسمى بالألبيني Alpin، بسبب من ضيق جمجمته ووجهه، والقصر النسبي في قامته، وهو يمثل حوالي 10% من السكان. ولكن مـ. كـ. شاملا ترفض أن تُدخله في الألبينين الحقيقيين، وتميل بالأحرى إلى أن تضمه إلى فرع «قصار الرؤوس» من النوع المتوسطي. وهنالك عنصر ثالث ذو صلة بالشكل الأرمينى وعلى قدر العنصر الثاني تواتراً؛ وهو يتميز بطول وجهه وقصر جمجمته. وينضاف إلى هذا الخزان بعض الأفراد المعدودين الذين حافظوا على خصائص من إنسان مشتى العربي، وبعض المولّدين المنحدرين من عنصر زنوجي قديم نسبياً وبعض الأفراد من ذوي اللون الفاتح في البشرة والعينين والشعر.

تعقد وتنوع

هذا المثال يبين لنا التنوع في سكان المغرب الكبير. لكننا ما عدنا بعدُ في الزمن الذي كانت فيه الصّنافة العرقية هي الهدف النهائي للبحث الإناسي. وقد كان الباحثون حينها يُغرون بحمل «الأنواع» أو «الأعراق» على مجموعات بشرية قد اندمجت على مر القرون في نوع، أو أنواع كثيرة، أقدم منها عهداً. ولقد بيّنت الأبحاث الحديثة في العالم أجمع مدى القابلية الكبيرة التي كان يتمتع بها جسم الإنسان للتأثّر بالتغيّرات، وقابليته خاصة للتلاؤم مع التحسّن الذي يطرأ على ظروفه المعيشية. وتعتبر الزيادة في طول القامة التي وقعت خلال الأجيال الثلاثة الأخيرة ظاهرة عامة قد لمسها وعرفها الرأي العام، وهي كذلك ظاهرة بالإمكان قياسها بسهولة بفضل سجلات مجالس المراجعة. فخلال أقل من قرن من الزمن زاد متوسط طول القامة عند الفرنسيين بسبعة سنتيمترات، وهي زيادة مهمة، ولا يمكن تفسيرها لا بغزو [من أناس طوال القامة]، ولا بهجرة منظمة لأناس من قصار القامة. إن مردّ هذا النمو إلى التحسّن الذي طرأ على ظروف العيش، وإلى تغذية قد صارت أغنى من ذي قبل، وهو يعود خاصة إلى زوال الأعمال الشاقة التي كانت تقع على الأطفال

واليافعين. ولذلك فهذه الزيادة في القامة غير متناسبة بين الأمم، ولا هي متناسبة في صلب الأمة الواحدة بين الجهات، بل إن لها علاقة مباشرة بالتنمية الاقتصادية. ومن قبيل ذلك أن متوسط الطول في تيزى أوزو (منطقة القبائل، الجزائر) قد زاد خلال بضع سنين، وتحديداً من 1927 إلى 1958، من 164,6 سم إلى 167,4 سم، بينما لم يزد متوسط الطول في المنطقة المجاورة، الأخضرية (بالسترو Palestro سابقاً)، وهي منطقة أفقر من الأولى، إلا بـ 1,2 سم خلال الفترة من 1880 إلى 1958، وهي في ما يبدو زيادة غير ذات أهمية.

وأظهرت أعمال أخرى أن شكل الجمجمة قد أخذ في التباين بفعل «حيْد وراثي» كما يسميه الحياويون، وليس في الإمكان تفسير هذه الظاهرة بأي مساهمة أجنبية مهما تكن زهيدة.

هذه المرونة، وهذه القابلية للتأثر بالعناصر الخارجية، كالظروف المعيشية وتوجّه غير متوقع وليد للصدفة الوراثية، عوامل تبدو لغير قليل من الإناسيين المعاصرين كافية لتُغنيهم عن الأخذ بالهجرات والاجتياحات الوهمية الكثيرة التي يُقال إنها كانت من وراء تكوّن الأقوام القديمة في العصور التاريخية. ويبدو لنا اليوم من الراجح أن يكون هذا التطور وليد المكان نفسه، وليس خارجيّ المنشإ.

على هذه الصورة تفسر مـ. كـ. شاملا ظهور الفرع الإيبيري الجزيري في صلب المجموعة المتوسطية الإفريقية بمجرد حدوث عملية ضمور في هذه المجموعة. فلم يظهر أي اختلاف في أشكال الجماجم بين تلك التي تعود إلى العصور القفصية والتي تعود إلى عصور قبيل التاريخ*، والتي تعود إلى العصور الحديثة؛ وما تتباين في غير الأحجام، وفي مظهر عام هو وليد ذلك الضمور.

وأما أن يظل التغيّر المجرد، والمقصور على عين المكان، هو العامل الأساس فذلك شيء لا يمكن أن يتفق ومجموعة كبيرة من المعطيات الثقافية والأثرية التي لا يمكن الجدال في أنها ذات منشإ خارجي.

ضغط مستمر من المشرق

إذا كان القفصيون ما قبل المتوسطيين هم الأساس لسكان بلدان المغرب في الوقت الحاضر، فإن الحركة التي جاءت بهم من الشرق الأدنى إلى شمال إفريقيا ظلت

*- انظر مقدمة الترجمة، هنا بالذات، ص 33.

موصولة لم تتوقف، ولو للحظة طوال عصور ما قبل التاريخ. فما أولئك القفصيون ما قبل المتوسطيين غير أسلاف لسلسلة طويلة من المجموعات، بعضها قليلة العدد، وبعضها كثيرته. وقد جرى تقسيم تلك الحركة الموصولة لآلاف السنين، للاستجابة إلى حاجات البحث الأثري أو التاريخي، إلى «اجتياحات» أو «غزوات»، وما كانت إلا لحظات في ديمومة ليس فيها انقطاع.



13. إناء من نوع الزخرف الصدفي من أشقار (المغرب).

فقد أُدخلت إلى منطقة شمال إفريقيا في ما بعد العهد القفصي، وخلال العصر الحجري الحديث، الحيواناتُ الأليفة؛ كالأغنام والماعز ذات الأرومات الغريبة، كما أُدخلت إليها أولى الأغراس، وكانت كذلك خارجية المصدر. لكن تلك الحيوانات والنباتات لم تصل لوحدها، حتى وإن كان يُحتمل للأناسي الذين جاءوا بها أن يكونوا قلة قليلة. وقد كان القسم الأكبر من الصحراء يعمُره في ذلك العصر رعاة من أشباه الزنوج. ومن المحتمل أن تكون مجموعات منهم انتقلت نحو الشمال وصولاً إلى المغرب الكبير، بدفع من الجفاف الذي حدث بعد الألف الثالثة. وقد تم التعرف على بقايا لبعض النماذج من أشباه الزنوج في المواقع التي تعود إلى العصر الحجري الحديث في الجنوب التونسي. ووجدنا ديودوروس الصقلي، حتى القرن الرابع، يتحدث في روايته، التي صوّر فيها حملة أكَاتوكل Agathocle، عن أقوام تشبه الإثيوبيين (أي أنها أقوام من سود البشرة) في منطقة التل التونسية، في ما يُعرف حالياً بكروميري Kroumirie. لكن هذه المساهمة الإفريقية الخالصة تبدو شيئاً زهيداً بالقياس إلى الحركة الكتيمة، لكنها ظلت جارية؛ تلك الحركة التي تواصلت في عصر المعادن بظهور المربّين للخيول، («الخيليين» Equidiens، في الفن الصخري) وسائقي العربات، ثم الفرسان الذين غزوا الصحراء واستعبدوا الإثيوبيين.

بل نحسب أنه وقعت خلال الحكم الروماني، ثم الوندالي والبيزنطي، كذلك تسللات طويلة لقبائل على شيء من المشاغبة إلى خارج خطوط التحصينات

الرومانية*، بل وصلت إلى الأراضي المكونة لما كان يُعرف بالإمبراطورية. فالاتحاد القبلي الذي أسماه الرومان «لڤاتة» *Levathae* (ونطقه «ليواتة» Leouathae) والذي كان يوجد خلال القرن الرابع في طرابلس الغرب، قد صار في العصور الوسطى يتسمى «لواتة» Louata، ويستوطن المناطق بين الأوراس والونشريس. ولواتة هؤلاء، كمثل قبائل أخرى عديدة، ينتمون إلى مجموعة زناتة، وهي الأحدث بين المجموعات الناطقة بالبربرية، والمختلفة بلغتها كثيراً عن لغة المجموعات الأقدم والتي يمكن تسميتها أوائل البربر Paléoberbères. وقد كان في الاضطرابات التي أثارها ظهور زناتة، كما كان في الاضطرابات السياسية والدينية والاقتصادية التي نابت المقاطعات الإفريقية، ما ساعد كثيراً على نجاح مشاريع الغزو العربية في القرن السابع . ثم وقعت الاجتياحات المتعاقبة من البدو، من بني هلال، وبني سليم، وبني معقل، أربعة قرون بعدُ، وقد حفظها لنا التاريخ بسبب ما كان لها من نتائج لا تعد ولا تحصى؛ وما كانت تزيد عن لحظات في حركة واسعة، ابتدأت قبل ذلك بعشرة آلاف سنة.

المساهمات المتوسطية

إذا كان سكان المغرب الكبير قد حافظوا على أصالة محقّقة عن سكان الشرق الأدنى؛ سواء من الناحية الجسمانية أو من الناحية الثقافية، فلأن تياراً ثانياً قد جاء من الشمال والجنوب وتداخل مع التيار الأول، وترك بصماته بارزة على هذه الأراضي الغربية.

يعود ظهور هذا التيار المتوسطي إلى العصر الحجري الحديث. وقد عرف الساحل المغاربي يومئذ كمثل الزراعات وأساليب الخزافة التي كانت متداولة في المناطق الأخرى من غرب المتوسط. وبينما ظهرت في جنوب مضيق جبل طارق تقنيات مائزة؛ كالزخرف الصدفي الذي يُستعمل فيه صدف الرخويات البحرية وهو أسلوب أوروبي امتد إلى شمال المغرب، فإن في شرق المضيق انتشرت صناعات السبج* التي جيء بها من [أشباه] الجزر الإيطالية. وإن عودة الأنصاب

---

*- *limes*، الاسم الذي أطلقه المؤرخون المعاصرون على التحصينات التي أقامها الرومان على حدود إمبراطوريتهم. ولهذه التسمية معنيان : معنى الحد، أو السور الفاصل للإمبراطورية عن سواها، ومعنى الطريق التي تقود إلى الأراضي حديثة غزو من الرومان.

*- حجز زجاجي أسود.

المقابرية كالدلمنات والنواويس المكعبة، للظهور في عصور أقرب إلينا شيءٌ لا يمكن تفسيره إلا بالاستقرار الدائم في هذه المنطقة لمجموعة أو مجموعات متوسطية جاءت من أوروبا. والحقيقة أن تلك المساهمة المتوسطية الخالصة كانت لها أهمية ثقافية تفوق أهميتها الإناسية. لكن إذا كان يمكن لبعض العناصر الثقافية، إذا جاز لي التعبير، أن تتنقل لوحدها، فإن الأنصاب والطقوس المقابرية تبدو لي أوثق ارتباطاً بالمجموعات العرقية، بما لا يمكن أن نتصور لبناء الدلمنات أو حفر النواويس أن يجوزا مضيق صقلية، وينتشرا في شرق المغرب الكبير من دون أن تكون جاءت بهما أقوام على قدر كبير من الانسجام.

وإذا لم يكن في نيتنا أن ننتقص من شأن الأسبقية التي كانت لمجموعة أوائل المتوسطيين، وهي مجموعة قارية تعود بأصولها إلى الشرق، ثم اغتنت بما داخلها من مساهمات متعاقبة، فلا ينبغي لنا كذلك أن نهمل تلك المساهمات المتوسطية الخالصة وهي أحدث منها عهداً وأقل أهمية من الناحية الإناسية، لكن تفوقها ثراء من الناحية الثقافية.

ومن تداخل هذين العنصرين الأساسيين، وما انضاف إليهما من مساهمات ثانوية من إسبانيا ومن الصحراء، نشأت بتوالي القرون الساكنة والحضارة القروية للمغرب الكبير.

المعطيات اللغوية

لا يمكن أن نغض الطرف عن المساهمة التي كانت من الدراسات اللغوية في الجهود الرامية إلى التعرف على أصول البربر، بحكم أن اللغة تعتبر اليوم الخاصية الأكثر أصالة والأشد تميزاً للمجموعات البربرية المتناثرة في الربع الشمالي الغربي من القارة الإفريقية.

تحوط لازم

ما أسهل ما تتبنى اللهجات البربرية الكثير من الكلمات الأجنبية وتسبغ عليها الطابع البربري. فنحن نجد اللغة البربرية قد احتوت على كلمات لاتينية وعربية (تمثل المفردات العربية نسبة 35% في لغة منطقة القبائل)، وفرنسية وإسبانية... ويبدو أن اللغة الليبية كانت على القدر نفسه من سهولة التأثر بالغزو اللغوي.

ولذلك ينبغي لنا أن نتحفظ كثيراً بشأن التقريبات الكثيرة والعشوائية التي يؤتى بها للبربرية مع مختلف اللغات القديمة، والتي جاء بها دارسون من الهواة أو باحثون من غير المتمرسين. فهذا بيرثولون يرى أن اللغة الليبية كانت لهجة هلينية أدخلها الثراسيون Thraces. ويرى آخرون أن هذه اللغة تعرضت لتأثيرات من اللغة السومرية sumérienne أو اللغة الطورانية touranienne. وظهر في وقت أقرب من يعتدّ بالنموذج الباسكي، الجامع ويستند فيه إلى حجج أقل سخافة. فقد حسب بعض الدارسين من الهواة في بداية القرن العشرين أنهم أقاموا علاقات القرابة التي جاءوا بها على أساس مكين من خلال تكوينهم لقوائم طويلة من مفردات اللغة الباسكية ومقابلتها بمفردات من اللغة البربرية. وإن من اليسير أن نأتي بمثل هذه التقريبات ومن ذلك أن في الإمكان أن نسجل وجود توافقات غريبة للمفردات اللغوية البربرية مع اللهجات الهندية الأمريكية، كما توجد تلك التوافقات بينها واللغة الفنلندية.

وإن هذا الهذيان الثقافي لهو المفسر للموقف المتحفظ المغالي الذي كان من المتخصصين في البربر؛ فهم يذهبون أحياناً إلى حد التشكيك في وجود علاقة بين اللغتين البربرية والليبية، بل إن التحوط بلغ بهؤلاء المتخصصين حداً جعلهم يتوخون التأكد من أن اللغة المكتوبة بحروف ليبية هي بالفعل شكل من أشكال البربرية القديمة.

يظهر هذا الموقف الحذر في نص شهير لـ. أ. باسي A. Basset جاء فيه : «وعلى وجه الإجمال فإن التصور السائد القائم على اعتبار اللغة البربرية كانت لغة محلية، واللغة المحلية الوحيدة حتى فترة معينة ممّا قبل التاريخ (...) يستند في المقام الأول إلى حجج سالبة؛ فلم تُقدَّم لنا البربرية أبدًا بكونها لغة دخيلة ولم يؤت لنا أبداً بما يثبت وجود أي لغة محلية أخرى أو اختفاءها»[1].

14. نصب ليبي من منطقة هيبون (عنابة، الجزائر).

الكتابات النقوشية الليبية

لا تزال معظم الكتابات النقوشية الليبية عصية على القراءة والفهم، على الرغم من الأبحاث الكثيرة التي تناولتها على امتداد قرن من الزمن. وهذا، كما أشار س. شاكر S. Chaker منذ وقت قريب، وضعٌ في غاية الغرابة؛ ولاسيما بعد أن تهيأ للغويين الكثير من الإمكانيات المساعدة، كالكتابات النقوشية ثنائية اللغة التي تجمع بين البونيقية والليبية، أو بين اللاتينية والليبية، والمعرّفة بالشكل الحديث للغة. ذلك

1 - A. Basset, *La Langue berbère. L'Afrique et L'Asie*, 1956.

بأننا إذا كنا لا نملك الدليل القاطع على الوحدة اللغوية لدى الأقوام التي استوطنت شمال إفريقيا قديماً، فإن المعطيات التاريخية، والمعطيات المتعلقة بأسماء الأماكن وأسماء الأعلام، والمفردات اللغوية، وشهادات المؤلفين العرب تثبت مجتمعةً وجود قرابة بين اللغتين الليبية والبربرية. وبالعودة إلى الحجة النافية التي يُنكرها أ. باسي لكنني أراها قاطعة حاسمة!، فإذا لم تكن الليبية شكلاً قديماً من البربرية فكيف يا ترى ومتى تكون نشأت اللغة البربرية؟

ولسوء الحظ فلا يسعفنا النظام الكتابي للغة الليبية، المتكوّن من الحروف الصامتة وحدها، في إعادة تكوين اللغة التي ينقلها بالتمام والكمال.

قرابة البربرية [إلى لغات أخرى]

على الرغم مما تَقدّم، فإن وجود وشائج قرابة للغة البربرية مع لغات أخرى قريبة إليها من الناحية الجغرافية أمرٌ قد ظهر القائلون به في وقت مبكر جداً، بل ربما أمكننا القول منذ بداية الدراسات [التي اهتمت بالبربر]. فهذا شامبوليون Champollion قد قال منذ 1838 بوجود قرابة بين البربرية واللغة المصرية القديمة، وذلك في سياق المقدمة التي وضعها لـ**معجم اللغة البربرية** لصاحبه ڤينتور دي بارادي*. وقال آخرون، وهم أكثر عدداً، بوجود علاقة للغة البربرية باللغة السامية sémitique. ولزم أن ننتظر التقدم الحاسم الذي تحقق في دراسة اللغة السامية القديمة ليخرج علينا مـ. كوهين M. Cohen في سنة 1924 باقتراحه اعتبار البربرية تدخل في أسرة كبيرة، هي المسماة الحامية السامية chamito-sémitique، والتي تضم كذلك اللغة المصرية [القديمة] (والقبطية copte وهي شكلها الحديث)، والكوشية couchitique والسامية. ولكل واحدة من هذه المجموعات اللغوية مميزات تشكل أصالتها، لكن توجد بينها عناصر قرابة كثيرة، بما حمل مختلف المتخصصين في هذا المضمار على الانحياش الى الأطروحة التي قال بها مـ. كوهين.

---

*- [Jean-Michel de] Venture de Paradis, *Dictionnaire de la langue berbère*.

وعنوانه الكامل هو:

Grammaire et dictionnaire abrégés de la langue berbère composés par feu Venture de Paradis (a cura di Amédée Jaubert), Paris, Impr. royale, 1844.

ولا تقتصر تلك التقاربات على التشابهات المعجمية، بل تتعداها إلى بناء اللغة نفسه، ما تعلق بنظام الأفعال، والتصريف، والهيأة الثلاثية في جذور الكلمات وذلك على الرغم من أن الكثير من الجذور في البربرية هي جذور ثنائية، لكنه مظهر مصدره «البلى» الصوتي الذي وقع بشكل بالغ القوة في البربرية، وهو أمر يقر به جميع المتخصصين.



15. منظر نموذجي لتاسيلي نعاجر.

ومهما يكن من أمر، فإن القرابة التي لاحظها البعض في صلب المجموعة الحامية السامية بين اللغة البربرية واللغة المصرية واللغة السامية، لا يمكنها إلا أن تؤكد المعطيات الإناسية، وهي التي تزيد كذلك في تعزيز الفكرة القائلة إن البربر يعودون بأصولهم البعيدة إلى المشرق.

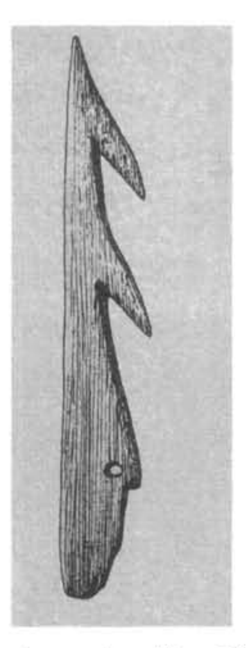
غزو أوائل البربر للصحراء

تحدّ بلدان المغرب اليوم أكبر صحاري العالم. وفي الوقت الذي بدأت المغامرة البربرية بوصول أوائل المتوسطين القفصيين قبل حوالي سبعة آلاف سنة من ميلاد المسيح إلى الصحراء، كانت هذه المنطقة لا تزال لم تصر بعد قاحلة ماحلة، بل كانت في الوسط منها مركزاً لحضارة أهم مما كان في شمال بلاد البربر.

الصحراء في العصر الحجري الحديث

بدأت الظواهر الثقافية شديدة التعقيد، التي يجمعها مؤرخو ما قبل التاريخ في عبارة «الحياة في العصر الحجري الحديث» Néolithisation، في الظهور في مرتفعات وسط الصحراء قبل قرابة ألفي سنة من ظهورها في الجهات الشمالية. ولئن كانت مناطق شاسعة، خاصة من أكثرها انخفاضاً، قد صارت يومذاك قاحلة ماحلة، فإن في جنوب تيبستي وجنوب تاسيلي نعاجر، وفي جنوب الهُقار وغربه، كما في الجزء الجنوبي من موريتانيا، كانت هنالك بحيرات يصل عمق بعضها إلى عشرات الأمتار وكانت تغطي مساحات شاسعة قد باتت تغمرها اليوم كثبان من الرمل وأجرافٌ من الصخر الرملي. كما توجد مواقع على ضفاف هذه البحيرات القديمة أو بطول الأودية التي كانت تغذيها بدفق موصول في معظم الأوقات، قد اشتمل بعضها على بقايا أسماك معظمها من ذات الأحجام الكبيرة وأدوات للصيد؛ كالصنانير، والمخاطيف العظمية، وهي أشياء قلما نتوقع العثور عليها في مثل هذا البحر من الرمال. ويُتبين من تحليل حبوب اللقاح، وإن كانت لا تقدم لنا نتائج محققة في الصحراء، أن في الألف السابعة كان يسود الجبال في هذه المنطقة مناخٌ شديد الرطوبة، بحيث إن القمم الجبلية، وهي بحق شديدة الارتفاع (يصل ارتفاع جبل تاهات Tahat إلى 2910م) كانت تغطيها الأشجار الوارفة؛ أشجار البلوط، والزيزفون، والجوز، والمغث والدردار، بينما كانت أشجار الصنوبر تغطي السفوح والمناطق المنخفضة، وفيها كانت تنمو كذلك أشجار الوزال، والميس، والمصطكا، والزيتون.

في هذا الإطار الطبيعي قامت أول حضارة قد تهيأت لها صناعة الخزف، ولا يبدو أنها أخذت شيئاً من مكوناتها من الخارج. إنها حضارة سابقة على العصر الحجري الحديث (فأغلب تواريخها الأقدم تقع بين 7000 و6000 قبل الميلاد*)، أو هي على الأقل في قدم العصر الحجري الحديث في بلدان حوض النيل. وفي جميع الأحوال فإن هذه الحضارة الأولى لم يكن لها من جذور متوسطية، وكانت الأقوام ساكنة وسط الصحراء حينئذ من أشباه الزنوج. وقد وُجدت لهم بقايا بشرية في جنوب خط يتراوح بين الدرجة 25 والدرجة 27 درجة الموازية ويفصل العصر الحجري الحديث ذا الطابع القفصي عن العصر الحجري الحديث الصحراوي السوداني.



16. خطاف عظمي من العصر الحجري من أراوان (مالي).



17. منظر لطقوس من الرقص والقفز البهلواني حول ثور. رسم من الأسلوب البقري. تين. هانا كاتن. (تاسيلي نعاجر).

*- جاء في الأصل «بين 6000 و7000 قبل الميلاد»، والصواب ما أثبتنا. ومن غريب أن التصحيح الذي جيء به في الطبعة الثانية للرقم الثاني، بعد أن كان 600 7، لم يُتنبه فيه إلى هذه الهفوة!



18. صيد الأسود. أسلوب بقري حديث من إيهرن (تاسيلي نعاجر).

الفنانون «البقريون»، وظهور المتوسطيين

في العصر الحجري الوسيط*، الذي يوافق في الفن الصخري الطورَ الكبير المسمى البقري، لكثرة الرسوم الممثّلة لقطعان الأبقار الأليفة فيه، وقع تغيٌّر ملحوظ في السكان. فقد ظهرت أقوام من الجنس الأبيض في تاسيلي، وإليها تعود أجمل الجدرانيات (أسلوب إهرير Ihérir). لكن الغلبة من الناحية الكمية كانت لذوي البشرة السوداء؛ فالرجال عامة ممشوقو القوام، ومعظمهم ذوو لحى صغيرة؛ فهم على شبه كبير بالفولانيين Peuls، الذين كانوا يتنقّلون في منطقة الساحل. وبعض النساء قد جعلن شعورهن على هيأة خوذة، شبيهة بتلك التي لا نزال نراها عند سكان حوض النيل إلى اليوم. لكننا نتعرّف في هذه المجموعة كذلك على زنوجٍ حقيقيين طويلي الفكين، وبارزي الأسنان، ومقلوبي الشفاه، وقصيري الشعر ومجعّديه.

في المجموعة الأخرى، التي تبدو أقرب عهداً، تطالعنا الوجوه بملامح متوسطية بارزة. فالرجال ذوو شعور طويلة، ومعظمهم ذوو لحى رقيقة ومقرّنة. وتظهر وجوه الرجال والنساء والأطفال في بعض التصاوير، كتلك التي في ناحية إهرير (أبري خين Abri Khène)، وقد اكتست رسوماً أو أوشاماً. وبينما لا يزيد الرجال في

*- Néolihique moyen، وهي الفترة الواقعة بين 5750 و 4700 ق.م.



19. متأنقات من تاسيلي، من الأسلوب البقري الحديث، في إيهرن (هذا المشهد والذي قبله مأخوذان من جدارية واحدة، وهو يمثل أشخاصاً من النوع المتوسطي).

لباسهم عن تنانير، وقد يزيدون إليها أحياناً قبعات مستديرة، ترتدي النساء أثواباً توحي زخارفها بأنها من نسيج. وتبدو النساء في بعض المناسبات وقد تزيّن على صورة باذخة، وارتدين تنانير ذات حواش، وأوشحة طويلة الأطراف. فإذا أقبلن على الأشغال المنزلية ثبّتن إلى لباسهن عند مستوى العجيزة ما يشبه الميدعة من جلد الماعز أو جلد الغزال.

إن هذه الرسوم تجيئنا بصورة واضحة لأوائل السكان المتوسطين الذين توغلوا في الصحراء. ولا يزال يصعب تحديد تاريخ معلوم لوصول هذه الأقوام إلى الصحراء، أو التثبّت من أماكنها الأصلية. وقد عمّرت المرحلة البقرية من الألف الرابعة إلى منتصف الألف الثانية، ولا نزال غير عارفين في أي لحظة من تلك الحقبة كان أول ظهور للبيض. والذي يبدو (غير أننا لا نملك من إحصائيات في هذا الباب) أنهم اشتغلوا بتربية الماشية الصغيرة وفاقوا فيها ذوي البشرة السوداء. ولما كانت تربية الماشية الصغيرة أقل تطلّباً من تربية الأبقار، فهذا يجيز لنا الاعتقاد بأن وصول البيض إلى الصحراء إنما كان في أواخر الفترة الأسلوبية لدى البقريين Bovidiens؛ مع بداية اشتداد الجفاف. وإن في وجود بعض السمات المشتركة للبيض مع الخيليين ما يعزّز هذا الر أي.

وأما عن أصول البقريين فالاعتقاد يذهب إلى أنهم ينحدرون من الشمال. فيكون هؤلاء الرعاة، حسب هذا الرأي، قد صعدوا من صحراء الجزائر وتونس



20. ثيران حمَّالة في إيهرن (تاسيلي نعاجر).

وصاروا باتجاه المرتفعات في وسط الصحراء؛ حيث قد يكونون اتصلوا بأحفاد أشباه الزنوج، الذين عاشوا في الصحراء السودانية خلال العصر الحجري الحديث.

ولكن لا يبدو أن المغرب الكبير كان مجرد محطة توقفت عندها الأقوام من البيض قبل أن تتوغل في الصحراء. ومن الممكن أن تكون هذه الأقوام جاءت رأساً من الشرق، وأنها التفّت على تيبستي من جهة الشمال، بل ربما تكون إنما جاءت إلى وسط الصحراء، عبر فزان، بعد أن سارت بطول شواطئ برقة.

«الخيليون»، سائقو العربات

لقد صارت الأهمية الاجتماعية، وربما الديمغرافية، للأقوام المتوسطية في تزايد خلال المرحلة اللاحقة، التي توافق العصر الحجري الحديث الأخير والأزمان قبْل التاريخية. وتُعرف هذه المرحلة على الصعيد الفني بالعصر الخيلي caballine وتسمى بالخيليين الأقوامُ التي صارت منذ ذلك الوقت تشتغل بتربية الخيول وتُعنى بتصويرها في رسوماتها الجدارية.

ويمثل ظهور الحصان في إفريقيا ظاهرة تاريخية سابقة بقليل على غزو الهيكسوس لمصر، وهو أمر كشفت عنه أعمال التنقيب التي وقعت في النوبة. وقد صار الحصان معروفاً على نطاق واسع في مصر ابتداء من القرن السادس عشر قبل الميلاد. ويسلّم الباحثون بأنه أخذ في الانتشار سريعاً من هناك عبر الصحراء، ليصل بعدئذ إلى



21. راع وصياد معاً من النوع المتوسطي مزين برسوم وجهية، ومسلح برمح وعصا للقذف. الخروف ينتمي إلى النوع الكبير *Ovis Longipes* على غرار الخراف الطوارقية والسودانية في الوقت الحاضر. إيهرن. (تاسيلي نعاجر).

شمال إفريقيا. ومن هذا الحصان الأول بقي نوعان متشابهان إلى اليوم، أحدهما على النيل السوداني، وهو نوع الدونجولا Dongola، والآخر في بلدان المغرب وهو النوع البربري. وهذا الحصان الإفريقي، بنوعيه الدونجولي والبربري، يمتاز ببعض الخصائص؛ فلا تزيد فقرات عنقه، مثل الحمار، غير خمس، بخلاف سائر الخيول التي تكون عندها ستاً. ورأس هذا الحصان بالغة الكبر، ومحدّبة الجانب وكفله قصير وضامر، ومنْبت الذيل واطئ. والحصان يفتقر إجمالاً إلى الرشاقة، لكن صفات التحمّل والصبر على الجوع والعطش وتأمين السير في الأراضي الجبلية قد جعلت منه رَكوبة عظيمة الأهمية. والحصان البربري كان هو الركوبة للخيّالة المهرة البارعين الذين اضطلعوا، من ماسينيسا Massinissa وإلى الأمير عبد القادر، بدور حاسم على امتداد تاريخ المغرب الكبير!

ويسلّم مدجّنو الحيوان zootechniciens وغالبية علماء الآثار بأن الحصان البربري يعود بأصوله إلى الشرق الأدنى. لكن منهم من زعم أن هذا الحصان هو ذو أصل محلي في شمال إفريقيا أو يعود إلى أصول أوروبية. وهما أطروحتان لا يمكن القبول بهما معاً. فليس هنالك ما يدل على وجود أي حصان حقيقي (*Equus caballus*) في منطقة شمال إفريقيا في بداية العهد الهولوسيني*، بينما لا نعدم فيها بقايا للحصان الحماري.

* - Holocène، وهو أحدث عهود الحقبة الرابعة.



22. رسوم من الأسلوب الخيلي في تامجرت (تاسيلي نعاجر).

ومن اليسير التعرف على الرسوم والنقائش التي أنجزها الخيليون، وذلك بفضل أسلوبهم الفريد. ومع ما تمتاز به هذه الأعمال من جودة فنية كبيرة، فإنها أقل مطابقة للواقع من المشاهد البقرية الكبيرة. فهيئات الحيوانات، وحركات الأشخاص المرسومة فيها شديدة الخشونة، وهنالك جزئية مهمة، وهي أن الوجوه فيها غير مبيّنة، بل يُستدل عليها في جميع هذه الرسوم بألواح، أو أعواد مفلوقة؛ فالأمر يتعلق بمحظور حقيقي. وأصبحت البقريات بنقص أعدادها الناجم عن اشتداد الجفاف تُصوَّر وهي واقفة على قوائم متصلبة، وأما الخيول فمعظمها مرسومة وهي في حالة «عدْو طائر»، وعلى هيأة مسكوكة لا تتبدل، لكن فيها حيوية، وقد شُدت إلى عربات خفيفة يقودها حوذي واحد.

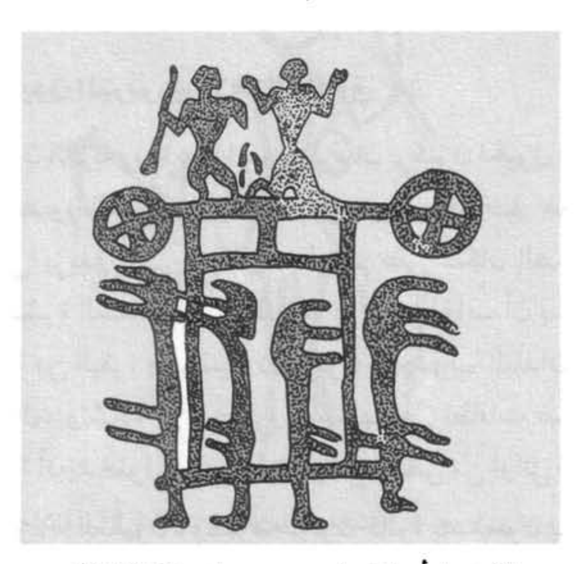
ولقد أولى المؤرخون اهتماماً إلى هذه العربات الصحراوية، ويمكننا القول إنه اهتمام يعود إلى بدايات التاريخ؛ فهذا هيرودوت قد أشار إليها مرتين؛ فمرة في قوله إن الجرمنتيين *Garamantes*، الذين استوطنوا ما يُعرف حالياً بفزان وتاسيلي نعاجر، كانوا يطاردون الإثيوبيين وهم ركوب على عرباتهم ذات الأربعة جياد. وثانية في تأكيده أن الليبيين هم من علّم الإغريق كيف يشدون إلى العربات أربعة جياد. وربما كانت هذه الدعوى الأخيرة لا تخلو من أهمية بالنظر إلى التشابهات الواضحة بين رسوم الآنية لدى الإغريق في المرحلة الهندسية (خاصة آنية ديبيلون Dipylon)، والرسوم «الخيلية»؛ بل إن الرسوم العامة غير المبيّنة لملامح الخيول وجهاز سائقي العربات لا تعدم تشابهات مثيرة.

إلا أن العربات الصحراوية أكثر ما تكون بحصانين، ولكن في فزان، وهي بلاد الجرمنتيين على وجه التحديد، توجد نقائش نادرة تظهر عليها عربات من ذات الأربعة خيول. وقد تم الوقوف منذ وقت قريب على [رسوم لـ] بعض العربات من ذات الأربعة جياد في كل من الأطلس الصحراوي وتاسيلي، وهي تبدو أحدث عهداً من العربات ذات الجوادين و«التحليق الطائر». وإن في خفة العربات الصحراوية ذات الجوادين ما يفنّد الفكرة القائلة إن هذه العربات كانت تُستَعمل في نقل البضائع؛ بل إن من المتعذر أن يركبها شخصان اثنان؛ بسبب من ضيق المقعد المصنوع من سيور الجلد المضفورة. وما يُزعَم أنها «طرق العربات» المرسومة بصورة عشوائية على الخرائط، من خلال ربط المواضع حيث توجد رسوم العربات، ليست حتى سبلاً للسير فيها على الأقدام. فالذي يبدو أن العربات قد رُسمت في مواضع لا يمكن أن تكون مرت بها؛ مثل الأراضي التي

تملؤها الأنقاض، والمرتفعات التي لا تقدر الجمال والحمير على بلوغها إلا بعسر ومشقة.

فمن هذا الذي ذكرنا يوحى إلينا أن العربة الصحراوية كانت آلة للتباهي أكثر مما كانت وسيلة للاستخدام النفعي. أوَلم يكن كذلك شأنها في **الإلياذة***؛ التي تصور لنا الأبطال وهم يركبون عرباتهم ليذهبوا إلى ميدان القتال، لكنهم يتقاتلون وهم راجلون؟

والطريقة الصحراوية في شد الخيول إلى العربة طريقة في غاية الفرادة، وهي تختلف عن الطريقتين المصرية والإغريقية. وقد كانت تلك الطريقة موضوعاً لدراسة تفصيلية منذ وقت قريب من لدن جـ. سبرويت J. Spruytte، كما جاء لها بإعادة تكوين. والطريقة الصحراوية في شد الخيول إلى العربة في منتهى البساطة؛ فالدواب ليس عليها أكاليل ولا تشدها ألبابٌ. وعريشة العربة مثبتة إلى النير المشدود إلى الرأس أو مثبتة إلى قضيب عرضاني يمر من تحت رقبة الحصان حسب جـ. سبرويت، والوثاق ليس واضحاً كفاية في الرسوم، بحيث يبدو كأنه حبل على قدر من المرونة، والأعنة تتصل مباشرة من شدق الحصان إلى يديّ سائق العربة، فهي لذلك تكون متهدلة إذ لا تمر بحلقات. ولعل هذا هو السبب في أننا نرى الخيليين (حسب ما يظهر من الرسوم) كثيراً ما يقطعون ذيول خيولهم حتى لا تشتبك أعرافها بالأعنة. وقد يكون



23. عربة بأربعة خيول من رسوم وادي زقزة (فزان).

* – *Iliade*

السبب نفسه هو ما كان يجعلهم يقصون أعراف الخيول فيجعلونها شديدة القصر. لكن ربما كانوا يقطعون تلك الأعراف كذلك ليسخّروا شعرها في بعض الأغراض.

كان هؤلاء الخيليون يتسلحون بالحراب والرماح، وكان الرجال يلبسون تنانير أو جلابيب قصيرة متصلبة تنتهي عند منتصف الفخذ وتتسع في طرفها. وتبدو هذه التنانير مشابهة في كل شيء للتبتك *Tébetik* التي كانت حتى وقت قريب يلبسها الفقراء والعبيد في الهقار. والنساء يرتدين لباساً طويلاً يتسع أحياناً، ويبقى مستقيماً في أحيان أخرى، ويستطيل حتى العرقوب. وتوحي بعض الرسوم، كتلك التي في كهف تامجرت Tamadjert، بأن الفتيات كن يلبسن تنانير قصيرة بثنيّات مثيرة!

فالذي يبدو أن الخيليين، سائقي العربات، قد كوّنوا طائفة محاربة فرضت هيمنتها على الأقوام من أشباه الزنوج، أو بتعبير أدق من سود البشرة، التي سبقتهم إلى الظهور، وكانت على عهدهم لا يزال لها وجود. ثم صارت هذه الأقوام لا تظهر في الرسوم والنقائش الصخرية، لكنه أمر ليس فيه ما يدعو إلى الاستغراب؛ فالقاعدة العامة تقوم على أن العرق الحاكم هو وحده الذي يظهر في الفن الرسمي. ولا نزال إلى اليوم نرى النقائش في الصحراء تصور جمّالين من البربر المستعربة قد تسلحوا بالحراب والبنادق، ولا يظهر عليها مزارعو الواحات السود، وهم الذين يمثلون ثمانية أعشار سكان الصحراء.

الفرسان الليبيون البربر، أسلاف الطوارق

ترك الخيليون العربة، وما عادوا سوى فرسان يركبون الخيول، وصاروا يُعرفون عند مؤرخي العصور القديمة بالجيتول والجرمنتيين. وقد صار هؤلاء الفرسان من الجنس المتوسطي يزيدون في إحكام سيطرتهم على سكان الصحراء، بينما بات أسلافهم ذوو البشرة السمراء لا يستطيعون بسبب الجفاف أن يستمروا على تربية قطعانهم العظيمة من البقر، وسيصيرون ينزلون بها صوب البلدان المنخفضة، وهي النيجر، والسنغال، وتشاد، أو انحصروا بأنفسهم في نطاقات ضيقة من الواحات القليلة، وارتضوا أن يدخلوا تحت سيطرة الرحل البيض من أوائل البربر.

لقد ترك هؤلاء الغالبون، وهم محاربون كانوا يتسلحون بالحراب والخناجر ذات المقابض، ثم بسيوف الطوارق الكبيرة، آثارَهم على صخور الصحراء. وقد كانوا أصحاب فن شديد البساطة؛ فهم يُكثرون فيه من تصوير دوابهم الرّكوبة

وعمليات صيدهم للنعام، والوعول، أو الأسود. وأكثر ما يحبون أن يرسموا أنفسهم على جبهيّات ساذجة، قد أهملوا فيها دقائق الأسلوب البقري وحتى الخيلي القديم والرأس يجعلون فوقها من ريش النعام، ويلبسون قمصاناً تضيق عند الخصور فيظهرون بها في شكل غريب؛ فكأنهم الساعات الرملية. ويكون هؤلاء السادة على الصحراء، والأسلاف المباشرون للطوارق، متسلحين دائماً، أو في معظم الأحيان.

ولن نتردد أن ننسب إلى هؤلاء الرؤساء الأنصابَ المقابرية، أو التعبّدية المهمة المصنوعة من الحجر لا يشده شيء، في تاسيلي نعاجر، والبالغ طول بعضها 300 متر. وهي بين بلاطات عظيمة على هيأة هلال مفتوح إلى الشرق وقد يزيدون إليها بعض التفرعات، وأنصاب ذات نطاقات دائرية، أو بيضاوية تكون ممراتها الموصلة إلى الجثوة المركزية موجهة كذلك ناحية الشرق وبازينات* كبيرة على تناسق كبير، قد زُوِّدت بمختلف المكونات التعبدية من ممرات، وكوى، ومذابح، وحجارة منتصبة... والأنصاب المقابرية كثيرة ومتنوعة في وسط الصحراء وغربها؛ فقد كان بسطاء الناس يكتفون بالجثوات أو ببعض الأنصاب الصغيرة الدائرية.



24. محارب وحصانه. نقيشة من إكَادن أرَرني، [جبل] أيّير (النيجر*).

---

* - Bazinas، نصب دائري خفيض، مفرغ الوسط عامة، ليسمح بالولوج إلى غرفة مقابرية تسدها بلاطات.

* - ورد «مالي» والصواب ما أثبتنا.

المزارعون السود

نصل إذاً إلى خلاصة أن السود قد سكنوا الصحراء من غابر الأزمان، لكنهم صاروا يخضعون بالتدريج لسيطرة أوائل البربر؛ من خيليين، وجرمنتيين، وجيتول وطوارق، كما خضعوا لسيطرة البربر، ثم البربر المستعربة، في شمال الصحراء. ولم يختف الصحراويون سود البشرة لما قبل التاريخ، ومن المؤكد أن أحفادهم الحراثين

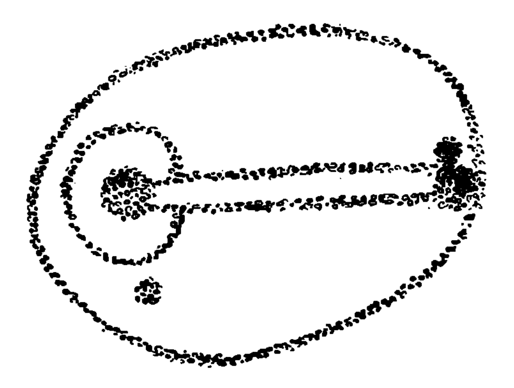


25. أدبني (نصب مقابري من الحجر لا يشده شيء) بتفرعات على المحور، من منطقة عين إيكر (الهقار).



26. أدبني بأسوار على شكل V من منطقة عين إيكر.

(الذين يسمون في التماشق «إزغارن»، ومعناها «الحُمْر») لم يكن لهم أن يحتفظوا بخصائص الإثيوبيين دون أن يلحقها تبدّل، وهي خصائص عديدة وغير واضحة. ومن المؤكد كذلك أن الحراثين اندخلوا عبر القرون بمكونات كثيرة جاءتهم خاصة من الزنوج من ذوي الأصول السودانية. وإذا كان علينا أن نبحث بين المجموعات البشرية الحالية عن تلك التي حافظت على خصائص قدامى الإثيوبيين من غير تبديل فينبغي أن نبحث عنها بين التوبو والفولانيين.



27 . نصب كبير في مسوَّر فضنون (تاسيلي نعاجر). المحور الكبير يبلغ 78 متراً.

تعيش هذه الأقوام على وجه التحديد في المنطقة الواقعة مباشرة إلى الجنوب من مدار السرطان، وهو خط وهمي يقسم الصحراء إلى جناحين، أحدهما يغلب فيه البيض والآخر يكاد قطانه يكونون جميعاً من السود. وقد ساد الاعتقاد لوقت طويل بأن هاتين المجموعتين يدخل فيهما مولَّدون تكوّنوا من الاتصال الذي وقع بين المجموعين الكبيرين؛ المتوسطيين والسودانيين، ومنهم اكتسبوا خصائصهم المائزة. وعلى هذا الوجه يُقال إن التوبو تجري لديهم دماء بربرية في أجسام سودانية. والحقيقة أن الدراسات الحديثة صارت تهتم كثيراً لفرضية قد باتت متجاوزة، وهي التي كانت تقوم على التسليم بأن هذه المجموعات على اختلافها تكون «مخزوناً بدائياً لم تطرأ عليه اختلافات لا باتجاه المكون الأسود، ولا باتجاه المكون الأبيض وأن التزاوجات بين هذين المكونين لم تقع إلا في وقت لاحق، فأدخلت التغيّر في مواضع شتى على الجنس المحلي، لتصيّره قريباً أحياناً إلى السود، وأحياناً أخرى إلى البيض»[1].

1 – Vallois (1951).



28. زوج من الحراثين، المزارعين السود في الواحات.

وعليه فنحن نعتقد أن الحراثين إنما هم من أصول إفريقية خالصة، وأنهم أحفاد الإثيوبيين، الذين تهجّنوا بنسبة معينة خلال الآلاف الأخيرة من السنين، بفعل الاختلاط الذين وقع لهم بعناصر من البيض المتوسطيين (الليبيين البربر، ثم البربر المستعربة) في شمال الصحراء ووسطها، وبأشباه الزنوج السودانيين في قسميها الجنوبي والغربي.

وليس في نيتنا أن ننكر النصيب الذي كان للدم السوداني في الصحراء على امتداد قرون أو نبخسه. لكن ينبغي مع ذلك أن نميز مناطق قد كانت لها حظوة معينة في نطاق هذا المجموع الممتد على مساحة قارة. ومهما يكن الرق بلغ عظماً وشناعة في كل من موريتانيا، وتوات، وفزان، فلا ينبغي أن ننسى أن الغالبية الساحقة من الرقيق السود إنما كانت تمر بتلك الواحات للوصول إلى المدن والموانئ في المغرب الكبير.

فيكون الجغرافيون وعلماء الأعراق بتعميمهم للفظ «الحراثين» على جميع ذوي البشرة السوداء في المناطق الصحراوية إنما كانوا يؤثرون جانب السهولة اللغوية في

تلك التسمية، وكانوا إنما يقعون في ما وقعت فيه الإدارات [الاستعمارية] من زيغ وضلال.

وأياً ما يكن الأصل في كلمة «الحراثين» فلا أعتقد أننا ينبغي لنا بالضرورة أن نجعل للفظ ذي مدلول اجتماعي واقتصادي محتوى عرقياً، فالحرثاني هو البستاني الذي وقع في ما يشبه الاستعباد من لدن الغزاة البربر، ثم من لدن البربر المستعربة. وقد اتفق أن كان هؤلاء الغزاة (الذين يقول الكثيرون إنهم غلبوا في نهاية العصر الحجري الحديث) من الجنس الأبيض، وأن المُستعبَدين كانوا ملونين يختلفون عن الزنوج الحقيقيين ساكني المناطق السودانية.

إن الحراثين، وهي أقوام مقيمة، قد قضت الظروف المناخية والسياسية عليها بالانحصار الضيق في الواحات، بينما لم يعرف أسلافهم الإثيوبيون، الذين لاشك أنهم كانوا مختلفين في ما بينهم، حياة على ذلك القدر من الاستقرار الصعب الشديد. وخضع الحراثين فضلاً عن ذلك لعمليات تهجين عديدة، فصاروا بها يتمايزون عن المجموعات الأخرى من ذات البشرة السوداء من غير الشبيهة بالزنوج في شمال القارة الإفريقية.

ولا ينبغي لنا أن نستغرب كثيراً لهذه الاختلافات البيّنة بين الحراثين والفولانيين، والتوبو، وهي مجموعات نراها ترجع ثلاثها إلى الإثيوبيين من العصر الحجري الحديث، وعهود قبيْل التاريخ، والعصر القديم؛ فالوثائق الأدبية والفنية والعظامية النادرة التي في حوزتنا تبين أن أولئك الإثيوبيين القدامى كانوا هم أنفسهم شديدي اختلاف في ما بينهم. وعلاوة على ذلك فالتباين في أنماط العيش (وبالتالي في الأنظمة الغذائية) بين الحراثين المقيمين في واحات شمال الصحراء ووسطها، والتوبو البدو في تيبستي، والفولانيين الرعاة في منطقة الساحل، لا يمكن إلا أن تكون له نتائج جسمانية متباينة على هذه المجموعات الثلاث المنحدرة من أقدم سكان الصحراء.

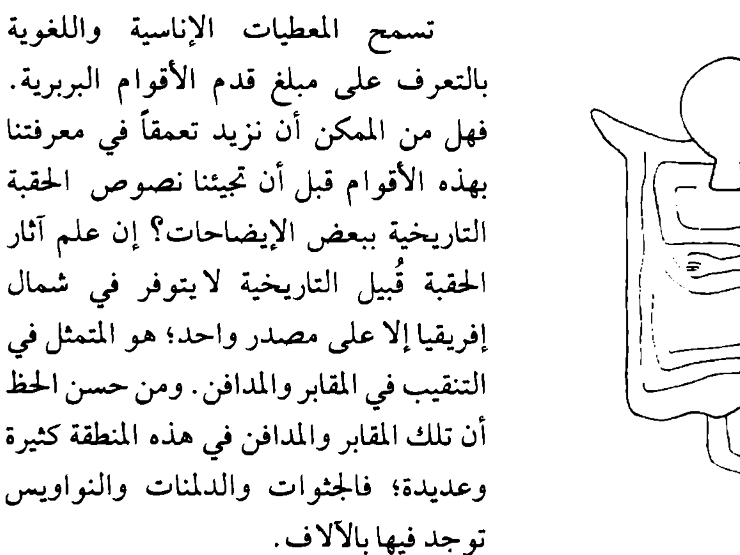


29. قواسون زنوجيون من عصر البقريين. الثيران تحمل فوق قرونها هياكل أكواخ، وهي ممارسة ظلت جارية عند الفولانيين. مخبأ جبارين (تاسيلي نعاجر).

الفصل الثاني

أقوام على هامش التاريخ

أوائل البربر
في عهود قبيْل التاريخ



تسمح المعطيات الإناسية واللغوية بالتعرف على مبلغ قدم الأقوام البربرية. فهل من الممكن أن نزيد تعمقاً في معرفتنا بهذه الأقوام قبل أن تجيئنا نصوص الحقبة التاريخية ببعض الإيضاحات؟ إن علم آثار الحقبة قُبيل التاريخية لا يتوفر في شمال إفريقيا إلا على مصدر واحد؛ هو المتمثل في التنقيب في المقابر والمدافن. ومن حسن الحظ أن تلك المقابر والمدافن في هذه المنطقة كثيرة وعديدة؛ فالجثوات والدلمنات والنواويس توجد فيها بالآلاف.

الأنصاب المقابرية

تتوزع الجثوات بانتظام في سائر مناطق شمال إفريقيا، وهي في ما يبدو ذات أصول محلية. وبعضها ذو تنسيق خاص، يضفي عليها أحياناً طابعاً معمارياً؛ فكذلك هو الشأن في «البازينات» ذات الأدراج، أو البازينات الأسطوانية المخروطية. وأما الدلمنات والنواويس فلا تجدها في غير مناطق محدودة في شرق الجزائر، وفي تونس وهي ذات أصول خارجية متوسطية. ولا تقع على أثر لهذه الدلمنات في الصحراء ولا في الجزء الأكبر من المغرب الكبير. والدلمنات التي نلاقيها على الساحل بسيطة ليس فيها غير ممر رمزي من دون غطاء، وأما في المناطق الداخلية فتجدها ملتحمة بالبازينات المحلية ذات الأدراج؛ مكونة الدلمنات ذات القاعدة، والدلمنات ذات الغطاء، وحتى «الشوشيتات»* البرجية الموجودة في الأوراس. والأنصاب الصخرية

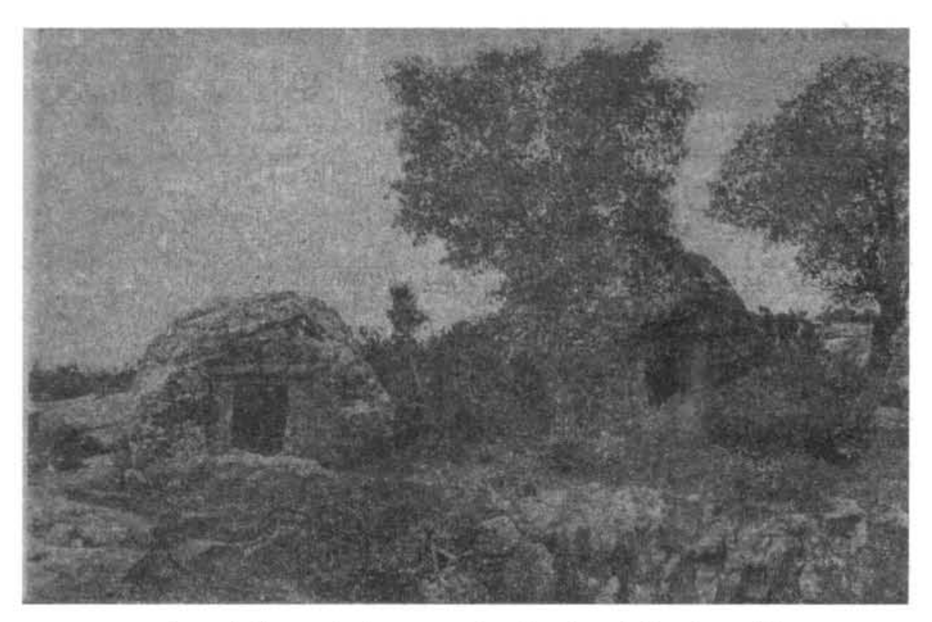
* - Chouchet، وهي تسمية محلية لهذا النوع من الأنصاب.

الكبيرة التي تعود إلى أزمنة قريبة إلينا يتصف بعضها بكثير من التعقيد؛ فالحجرات فيها كثيرة، وتتصل بأورقة ومقصورات مخصصة للتعبد، كما نلاقيها في مكثر وفي إليزي Ellez في وسط تونس.

وأما النواويس فهي ذات شكل مكعب، وتُحفر في السفوح الصخرية أو في الأجراف، وتُعرف في العربية باسم «الحوانيت» (جمع : «حانوت»). وهي شبيهة من كل الوجوه بالمدافن التي في صقلية المجاورة، ونلاقيها على الساحل من شرق بلاد البربر.

الأثاث المقابري وأساليب في العيش

سيتجه اهتمامنا إلى الأثاث الذي كان يوضع في مقابر الحقبة قبيل التاريخية أكثر مما سنهتم لأصناف هذه المدافن شديدة التنوع. فذلك الأثاث يشهد على شدة قدم ما يمكن أن نسميه بالحضارة القروية البربرية، التي كان لها وجود منذ ذلك العهد. ومعظم الأثاث الموضوع في المقابر يتألف من فخاريات مشكلة بالأيدي، علاوة على الحلي غير المألوفة، والمشتملة على الأساور، والخواتم، والأقراط المصنوعة من النحاس أو من البرونز، وبعض الأسلحة القليلة من الحديد أو البرونز، والمقتصر وجودها على المدافن التي في وهران وفي شرق المغرب.



30 . حوانيت (نواويس) محفورة في حجر صواني في سجنان (تونس).

وعلى الرغم من أن هذه الفخاريات قد جرى تشكيلها وحرقها تخصيصاً لتُجعل في بعض المدافن، فإنها تشتمل على نماذج شديدة التنوع ومختلفة التوظيفات. وسنتجاوز مؤقتاً عن الأشياء النذرية المتمثلة في القطع الخزفية الصغيرة، والتي نجد لها اليوم أشباهاً ونظائر توضع في الأضرحة القروية، والآنية الطقوسية، من قبيل الآنية البيضية التي في قسطل Gastel، والآنية الكأسية التي نجدها في تيديس Tiddis، غير أنها تتميز بزخرفة صباغية مطابقة للزخرفة التي تحملها الفخاريات الريفية في الوقت الراهن (انظر الفصلين الرابع والخامس). وسنتوقف قليلاً لتقليب النظر في أشكال هذه الفخاريات الشبيهة بالآنية المنزلية [في بلدان المغرب]. وأكثر هذه الفخاريات تكوّنها أقداح، بينها نوع ذو شكل انسيابي يسمى «جفنة»، ونوع آخر أغور يسمى «كأساً». إنها آنية بدائية لا تزال تشكل الوحدة الأساس للفخاريات المنزلية في بلدان المغرب. وهنالك صحون واسعة جداً قد جُعلت لها حواف مرتفعة، وتظهر على قيعانها نتوءات حلقية كمثل ما نرى في «الطواجين» التي تُصنع في الوقت الحاضر وتلك هي الصحون [الطينية] التي ما زالت تُستخدم إلى اليوم في إعداد الفطائر.

وهنالك عدد كبير من الصحون، والكؤوس، وأغطية الآنية، وبعض الأقداح والقصعات تتميز بأن على حوافها قد توزعت بعض الثقوب مثنى مثنى. فقد جُعلت تلك الثقوب لتعلق منها تلك الآنية، ولها عند علماء الآثار وعلماء الأعراق قيمة استدلالية. وحسبك أن تدخل أي منزل في القرى التونسية أو الجزائرية أو في جنوب المغرب، فسترى على جدرانه قد عُلقت معظم الآنية المنزلية، التي بقيت تقنياتها وأشكالها وزخارفها كمثل ما كان في أزمنة قبيْل التاريخ، لم تكد تُبدَل عنها. وهذه الجزئية، التي لا تتعدى مسألة التعليق، تجيز لنا أن ننسب القبور التي وُجدت فيها هذه الفخاريات إلى أقوام من المقيمين غير الرحل.

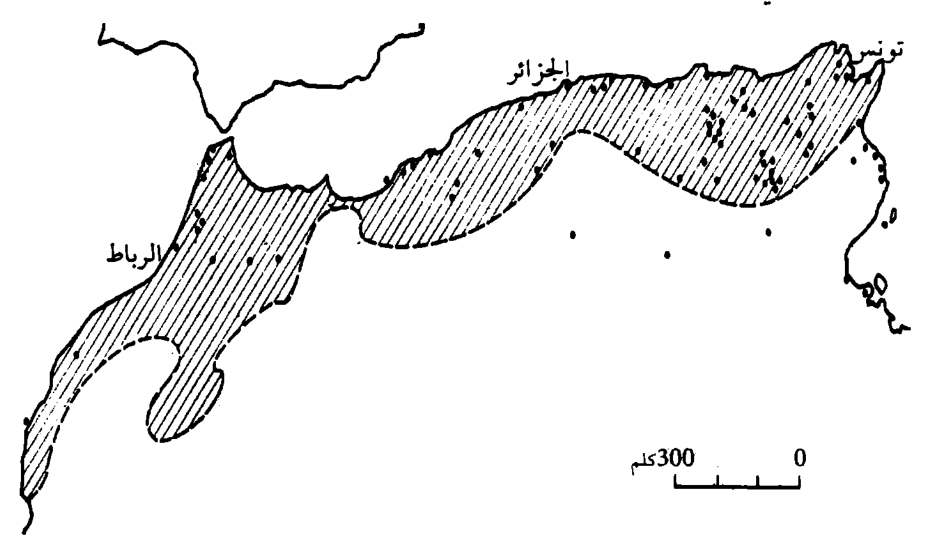
ويزيد في تعزيز هذه الملاحظة أن الأنصاب المقابرية من الحقبة قبيل التاريخية لا تشتمل جميعاً على فخاريات، وأن التي تحتوي منها على تلك الفخاريات لا تراها موزعة بصورة اعتباطية. فالمقابر الكبيرة الستون من الحقبة قبيل التاريخية التي تحتوي أنصابها على فخاريات إذا ما وضعناها على خريطة شكلت سلسلة من الأخلاط يندرج أولها في مثلث واسع؛ رؤوسه خليج الحمامات في تونس، وجنوب تمنشة على الحدود الجزائرية التونسية، ومدينة الجزائر. فإذا زدنا اتجاهاً إلى الغرب وجدنا مجموعة أقل اتساعاً تمتد من مرتفعات الشلف إلى منطقة وهران. ثم إذا تجاوزنا عن فراغ يوافق شرق المغرب وجدنا أنصاباً تحتوي على فخاريات في منطقة تحدها

تازة، وطنجة ومصب وادي سبو. فتكون هذه المقابر تقع جميعاً، في ما عدا أربعٍ كبيرة، في نطاق حدّ معلوم للجغرافيين وعلماء الزراعة؛ ذلك هو النطاق الذي تكونه الزراعة البورية للحبوب. وإنه لتوافق عظيم؛ بما يجعل من المستبعد أن يكون نتيجة للصدفة. فهذا يفرض علينا أن نخلص إلى استنتاج واضح وصريح يتأبّى عن أي تفنيد؛ وهو أن الآنية التي تم العثور عليها داخل الأنصابِ المقابرية للحقبة قبيل التاريخية تحمل خصائص الآنية المنزلية للساكنة المستقرة حالياً في هذه المناطق، وأن القبور التي تحتوي على هذه الآنية توجد داخل منطقة الزراعة البورية للحبوب ولذلك فالسكان الذين قاموا بصنع هذه الآنية، وكانوا يضعونها في قبورهم، إنما كانوا من السكان المقيمين، أو من أسماهم هيكاتي دي ميلي Hicatée de Milet أكلة القمح.

الخصائص الإقليمية لبلاد البربر قبيْل التاريخ

يُظهر علم الآثار، كما تُظهر النصوص، أن منطقة شمال إفريقيا لم تشهد وحدة سياسية أو ثقافية طوال عصور ما قبل التاريخ وقبيل التاريخ فوق ما عرفت منها خلال الأزمنة التاريخية.

ومع ذلك توجد وحدة جغرافية في بلدان الأطلس. وتوجد كذلك وحدة عرقية كما تتجلى في اللهجات البربرية.



31. تقع المقابر الكبيرة من الحقبة قبيل التاريخية المشتملة على فخاريات في منطقة الزراعة البورية للحبوب.

لكن تلك الوحدة العرقية لم يتسنّ لها أبداً أن تحقق وحدة ترابية أو سياسية إلا من بعض العقود في أواخر القرن الثاني، عشر تحت سلطان الموحدين. فماذا كان السبب الحقيقي وراء هذا العجز المتأصل؟

تبدو الجغرافيا هي وحدها المسؤولة عما يُنسب عادة إلى بني البشر. فليس لبلاد البربر مركز جاذب يقدر على أن يجمع من حوله الأقاليم الواقعة على الأطراف. فلا تزيد المنطقة الزراعية بين البلدان المطلة على شرق المتوسط والبلدان المحاذية للمحيط عن شريط ساحلي ضيق تتخلله الجبال، وما عداه مجموعة من الهضاب العليا، التي تعمرها السهوب، وتشكل سبلاً مواتية للمرور... فكان الغزاة لا يفتأون عليها يترددون. وقد كانت المسافات الكبيرة التي تفصل بين الإقليمين المتميّزين تقضي بالفشل على كل محاولة من أحدهما لاحتلال مجموع البلاد، بفعل بعد المسافات وإعاقتها لسبل الاتصال، وبسبب من العقبات المتمثلة في الخصوصيات الإقليمية، ولن يُكتب النجاح لتلك المحاولات إلا أن يكون مأتاها من الخارج. ثم إنه متى أفلحت قوة من القوى الأجنبية في بسط سيطرتها على شمال إفريقيا كله لزمها أن تحسب حساباً للخصوصيات الإقليمية فيه، بل أن تحسب حساباً للطباع المتعارضة بين مختلف أقسام المغرب الكبير.

وإذا كانت الحدود لم تعرف من ثبات عبر القرون، وكانت الأسماء تتغير بوتيرة التقلبات التاريخية، فلقد كانت هنالك منذ القدم جهة شرقية من بلاد البربر تمتد في



32. دلمن على قاعدة متدرجة في بونواره (الجزائر).

حدها الأقصى حتى الحضنة Hodna والبابور Babors، وجهة وسطى يحدها من الغرب ملوية والأطلس المتوسط، وجهة غربية تنتظم فيها السهول الأطلنتية والجبال الأطلسية العظيمة في تناسق، وجهة شبه صحراوية تتصل هضابها السُّهبية بالقارة الإفريقية.

شرق بلاد البربر

كان شرق بلاد البربر منذ العصر الحجري الحديث على علاقة ببلدان شرق المتوسط، وخاصة بالجارة المباشرة؛ صقلية.

وقد عَبَرَ من الجزر الإيطالية وجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية إلى إفريقيا نوعان من المدافن المميزة؛ ذانكما هما الحوانيت والدلمنات، وبعض الأشكال الخزفية والفخاريات المزوقة التي مازالت تُصنَع إلى اليوم بأيدي العديد من السكان القرويين.

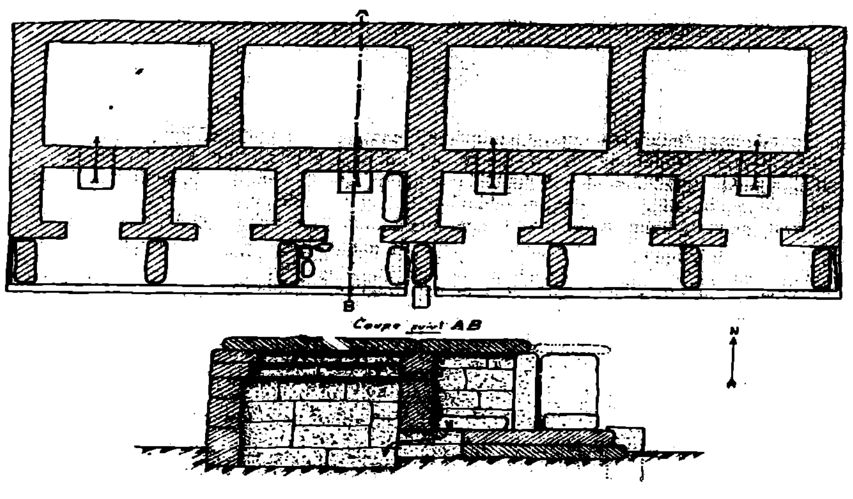
وتتميز الجهة الشرقية من بلاد البربر بالقبور المحفورة على هيأة نواويس خاصة في الوطن القبلي Cap Bon، وبلدان شمال مجردة، وفي القسم من الجزائر الواقع بين الحدود وسيبوس Seybouse. وقد ظهرت هذه القبور في صقلية وسردينيا Sardaigne، بداية من العصر الحجري النحاسي*، وكانت لا تزال تُحفر كذلك في العصر الحديدي.

والحوانيت التي في الجزائر وتونس، بأحجامها الضيقة، وأشكالها المكعبة وغياب المداخل المستطيلة فيها (أو ما يقوم مقامها من ممرات قصيرة)، تذكّرنا خاصة بقبور السيكول* من العصر البرونزي المتأخر Bronze terminal ([المقبرة الكبيرة] بنتاليكا Pantalica، و[المقبرة الكبيرة] كاسيبيلي Cassibile). ولذلك فهذه الحوانيت تفصح عن العلاقات التي كانت لبلاد البربر بصقلية إلى وقت قريب من ظهور الفينيقيين. ولقد تواصل حفر مثل هذه القبور في العهد البونيقي، وإن تكن تدخل في تقليد مقابري سابق، يختلف عن التقليد الذي درج عليه سكان المدن الفينيقية في إفريقيا. وربما كانت هذه الحوانيت تمثل قبور من كان المؤلفون القدامى يسمونهم بـ «الليبيين الفينيقيين».

---

* - Chalcolithique، وهي الحقبة التي بدأ فيها استخدام الأدوات المعدنية إلى جانب الأدوات الحجرية. وتقع بين العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي.

* - Sicules، وهو شعب قديم من صقلية، وباسمه عُرفت هذه الجزيرة. ويحتمل أن يكون من أصول هندية أوروبية.

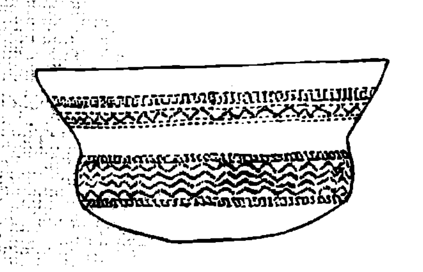
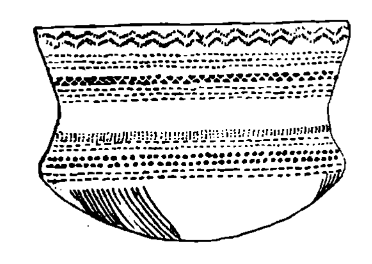


33. تصميم ومقطع لنصب مركب من الحجر الكبير من مكثر (تونس).

وإن في الإمكان استبيان عمليات مبادلة أخرى سابقة على هذا العهد كانت لبلاد البربر مع صقلية وسردينيا، وجنوب إيطاليا. فمن المحتمل أن تكون دخلت بعضُ أنواع الخزف من العصر البرونزي إلى الأوراس، لا نزال نتعرف على أشكالها المميزة إلى اليوم في الآنية المنزلية في هذه المنطقة. وبينما تتوافق الحوانيت مع قبور السيكول التي تعود إلى أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي، تُعتبر الدلمنات التي في الجزائر وتونس نسخاً من نماذج أصلية تتمثل في المدافن الصخرية الكبيرة المتوسطية من العصر الحجري النحاسي، بل ومن العصر البرونزي أيضاً.

ولقد تغلغلت الدلمنات، شأنها شأن الحوانيت، في المناطق الداخلية، لكن إنما أمكن لها بطول الساحل أن تصل إلى المواقع أبعدِها عن المنطقة التي كان منها دخولها والتي يبدو من المرجح أنها تقع على سواحل شرق الجزائر وشمال تونس. ولذلك فيمكننا أن نتعرف في «بلاد الدلمنات» على مناطق عديدة تتمايز عن بعضها بأشكال الأنصاب، كما تتمايز في التنظيم الذي يُجعل للمقابر.

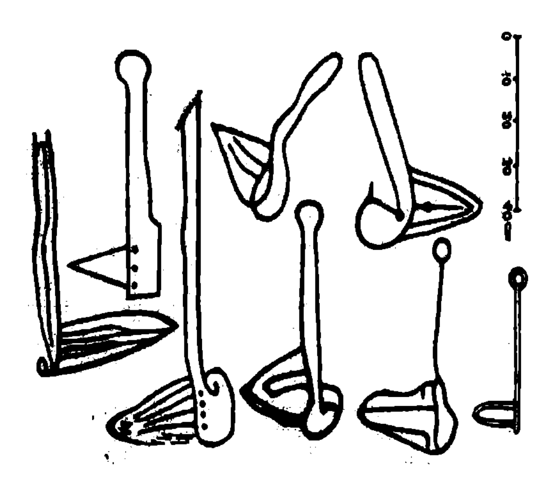
وقد كانت أول منطقة وصلت إليها الدلمنات هي منطقة النفيضة في شرق تونس والدلمنات التي في هذه المنطقة صغيرة الحجم، وتكون يتقدمها جميعاً ممرٌّ، وأكثر ما تكون متجاورة. وأما الدلمنات التي على الساحل الشمالي فهي تغطي بصورة متقطعة شريطاً يمتد من طبرقة إلى جيجل، ثم ينقطع فجأة في غرب هذه المدينة. والدلمنات التي في هذه الناحية أكبر حجماً، ومجمّعة في مقابر صغيرة. وينبغي أن ندخل المنطقة الثالثة، وهي ملاصقة للمنطقة السابقة، لنقع على المقابر الشاسعة التي تحتوي على

34. إناءان جرسيان من نوع «كازويلا». الذي إلى اليمين من ألابرايا (البرتغال)، والذي إلى اليسار من سيدي سليمان الغرب (المغرب).

آلاف الدلمنات (في الركنية وبونوارة). وتمتد هذه المنطقة كذلك إلى وسط تونس وتتميز بالأنصاب الصخرية الكبيرة ذات الحجرات العديدة والأروقة.

فإذا وجب أن نصف هذا القسم من شمال إفريقيا خلال الحقبة قبيل التاريخية بإيجاز، فيمكننا القول إنه كان البوابةَ لبلاد البربر المفتوحةَ على الحضارات المشرقية على الرغم من تضاريسه الوعرة وغاباته، خاصة في شرق الجزائر. وإذا كانت قرطاج قد وسمت بميسمها المكين الجزءَ الأبعد إلى الشرق من هذا المجموع، فلأنها وجدته مجالاً ممهداً من قبلُ. فالاتصالات التي كانت لهذه المنطقة خلال عصور ما قبل التاريخ مع صقلية، ومالطا، وإيطاليا، وسردينيا قد يسرت إليها دخول العناصر الأولى من حضارة متوسطية. وأنت ترى الفخاريات القروية البسيطة، التي ما زالت تُصنع وتُزوق إلى اليوم في قسم كبير من شمال إفريقيا، تقوم ذكرى نابضة بهذه العلاقات ما قبل البونيقية.



35. أنواع مختلفة من الأطبار محفورة على الأطلس الكبير (المغرب).

وأما صورة القسم الغربي من بلاد البربر فهي أقل وضوحاً بكثير؛ فهي منطقة تمتاز بقربها إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ومناخها الشبيه بمناخها. وقد تعرضت منطقة طنجة منذ بدايات العصر الحجري الحديث لتأثير الحضارة الكارديالية* من جنوب إسبانيا. وكذلك أدخلت في بداية العصر الحجري النحاسي آنية جرسية الشكل ذات أصل برتغالي إلى منطقة أكثر اتساعاً، تمتد حتى المغرب الأطلنتي. وشهد العصر البرونزي في مرحلة أوجه اتساع نطاق التغلغل الإيبيري إلى هذه المنطقة؛ فقد اكتُشفت الأسلحة من نوع الأركار El-Argar، من قبيل الأطبار*، والخناجر ذات الدسارات، مرسومة بالعشرات على الصخور القصية في جبال الأطلس الكبير.

وأما الأنصاب المقابرية فإن ما يميز هذه المنطقة منها هي الجثوات الكبيرة، ومن جملتها الجثوة التي في مزورة، وتتميز بالحزام الذي يحيط بها من صخور أحادية وهي تبدو الأقدم بين تلك الجثوات. وأما الجثوة التي في سيدي سليمان فهي تعود إلى القرن الرابع، وتشتمل على قبر حقيقي مستطيل الشكل ذي ممر وفناء وحجرة مغطاة بجذوع أشجار العرعر. وهنالك نوع آخر من القبور ذات الأصل الإيبيري يكثر وجودها في وهران، وهي عبارة عن خنادق مدفنية على هيأة أهراء. ولا تقع



36. جثوة ذات مصلى في الطاوز (تافيلالت، المغرب).

* - Cardiale، نسبة إلى حقبة من العصر الحجري الحديث تميزت خاصة في فرنسا وجنوب إيطاليا وإسبانيا بالخزفيات التي يدخل في زخرفتها المحار Cardium.

* - الطبر: سلاح قديم يشبه الفأس.

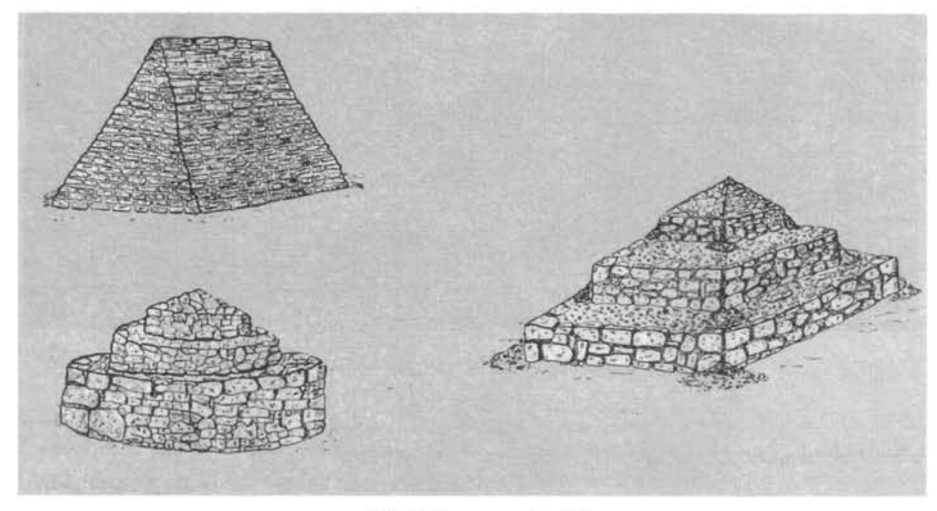
على بعض الدلمنات الصغيرة والنواويس التي تعود إلى العصر البرونزي، في غير القسم الريفي [من المغرب].

والوجود الفينيقي على سواحل المغرب يعود إلى قديم الأزمان؛ فذلك أمر كشفت عنه أعمال التنقيب التي وقعت في مدينة موكَادور [الصويرة]، كما توحي به الروايات ذات المسحة الأسطورية التي تفيدنا أن بناء ليكسوس Lixus [العرائش] يعود إلى العصور القديمة الغابرة. وكذلك ساهمت التجارة التي كان يباشرها التجار المشرقيون في تعزيز المبادلات مع إسبانيا.

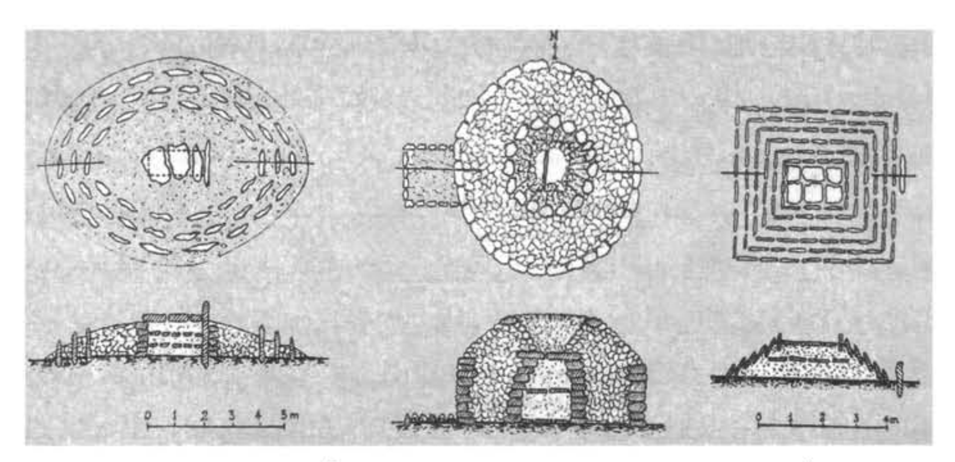
الجهة شبه الصحراوية من بلاد البربر

تمتد في جنوب منطقة التل في كل من الجزائر وتونس مساحات شاسعة ذات تضاريس بارزة، وتتوزع إلى أحواض مغلقة؛ وتجد لهذه السهوب امتدادات في جنوب المغرب وصولاً إلى مصب وادي درعة. والترحال والرعي هما نمط العيش الأكثر ملاءمة للظروف الجغرافية الحيوية لهذه المناطق، ولكن الجهود الكبيرة التي يبذلها الفلاحون، كما نراها في إعدادهم للمدرّجات على سفوح الأطلس الصحراوي ووجود عيون الماء قد ساعدت على إقامة زراعة محدودة في الجبال.

ونلمس في الأنصاب التي تعود إلى الحقبة قبيْل التاريخية في مناطق السهوب هذه تطوراً، وفي بعضها تطوراً مهماً، قد تحقق في العناصر المعمارية المخصصة



37. قبور جرمنتية (فزان).



38. أنواع مختلفة من «البازينات» في مرتفعات الشلف وفي أولاد نايل (وسط الجزائر).

للتعبّد المقابري، أو المكرسة بوجه خاص، في ما يبدو، لممارسة الحضانة* (الجثوات ذات المصليات)، وقد سبق لهيرودوت أن ذكر وجودها عند الرحل في الصحراء ولا تزال ترى لها وجوداً حتى اليوم لدى الطوارق.



39. مدخل لممر مغطى في منطقة القبائل، إباريسن (الجزائر).

*- Incubation، وهي ممارسة كانت تقضي بالنوم في مكان العبادة، أو قريب منه، للحصول عن طريق الحلم على وصفات علاجية.

وفي مقابل الغياب التام للدلمنات، والنواويس، والحوانيت، والقبور الشبيهة بالأهراء، في هذه المنطقة، تطالعنا الكثرة النسبية للأذرع، والتفرّعات، والمذابح والمشاكي، والمصليات المقرونة إلى أنصاب يغلب عليها شكل المستطيل، أو المجتمعة وإياها. وهذه هي المميزات الرئيسية لمناطق السهوب، وهي تبين عن ضعف التأثيرات المتوسطية، الذي يعوّض عنه حضورٌ إفريقي. ولم تفتأ ظاهرة التمحّل في الصحراء تحد من الدور الذي كانت تلعبه بلدان شرق إفريقيا، ووادي النيل، وليبيا، وفزان. ولكن قبل أن يصير الجمل وسيلة التنقل الوحيدة في المناطق الصحراوية، كانت النباتات المزروعة والحيوانات الأليفة قد دخلت من الجنوب الشرقي لبلاد البربر إلى السهوب التي باتت اليوم كأنها الأرض الموات.

وسط بلاد البربر

تمتد بين خط الزوال في جيجل، أو بسكرة، ووادي ملوية منطقة سنسميها وسط بلاد البربر. وهي، بعكس المناطق الثلاث الأخرى، ليست لها صبغة خاصة تميزها فكأنما هي مكان تلاقت فيه عناصر ثقافية وافدة عليها من خارج.

وإن في وجود مركز ثان للقبور الصخرية الكبيرة في منطقة القبائل ما يحمل على اعتبار هذه المنطقة ملحقة حقيقية بشرق بلاد البربر، فيما تحقق لوهران تفردٌ قوي بفضل العلاقات التي كانت لها من غابر الأزمان بإسبانيا. لكن تأثيرات مناطق السهوب الجنوبية لم تلبث أن امتدت إلى هذه المنطقة من خلال شط الحضنة ومرتفعات الشلف ووادي ملوية، واتسعت نطاقاً في السهول.

ولقد استفادت منطقة وهران، كمثل ما استفاد المغرب، من قربهما إلى إسبانيا. وتبين الفخاريات التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، والمرسومة على الكهوف في وهران، والفخاريات التي وُجِدت في جنوب إسبانيا عن تطابق كبير، بما يجعل من الصعب عدم التسليم بأن المنطقتين قد اتصلتا في ما بينهما بمبادلات مهمة ومتواترة. والشواهد على دخول الآنية ذات الشكل الجرسي، والأسلحة النحاسية والبرونزية المكتشفة في منطقة وهران تدلنا على أن تلك المبادلات بين المنطقتين ظلت مزدهرة إلى عهود قريبة. فنحن نجد في منطقة وهران القبور على هيأة أهراء، وهي التي لا يبعد أن تكون ذات أصل إيبيري. ومن الملامح الأصيلة في هذه المنطقة، التي

كانت المهد للقوة الماسيسيلية Masaesyle، شيوعُ عمليات حرق الموتى، وهو شيء يكاد يكون مجهولاً في المناطق الأخرى من المغرب الكبير، وكذلك الشأن في عملية وضع الأسلحة داخل القبور.

وهكذا، فكما في المناطق الأخرى من وسط بلاد البربر، تضافرت على هذه الناحية التأثيرات الآتية من الجنوب مع التأثيرات الآتية من البلدان المتوسطية المجاورة، لكن التضاريس القليلة انقسام وانفصال في منطقة وهران، وفي شرق المغرب بوجه خاص، قد أتاحت نوعاً من الاندماج بين تلك التأثيرات، وهي التي وقعت بصورة منفصلة على مناطق أخرى.

البربر في العصور القديمة

لقد استوطنت ساكنة من البيض من النوع المتوسطي لآلاف السنين من عصور ما قبل التاريخ، ولقرون مظلمة من الحقبة قبيْل التاريخية، بلادَ البربر، وكانت تشترك في لغة واحدة قد تفرعت دون شك منذ بداياتها إلى لهجات شتى، وهي التي نسميها البربرية.

اسم ملغز: «بربر» أم «باربار»؟

إن أصل هذه الكلمة هو نفسه مثار للخلاف؛ فهي قد انتقلت إلينا عن طريق العرب؛ إذ ميّزوا لدى وصولهم إلى إفريقية (تونس) بين عنصرين في السكان فقد ميّزوا من جهة بين الروم، أحفاد الإفريقيين المتروّمين والموظفين البيزنطيين وهم مسيحيو الديانة ولاتينيو الثقافة، والبربر من جهة أخرى؛ وهم مؤتلفون في ممالك صغيرة، أو مجمَّعون في اتحادات أو قبائل، وقد بقوا خارج الحضارة اللاتينية ومعظمهم وثنيون، وبينهم المتهوّدون، وكانت لا تزال توجد بينهم مجموعات صغيرة منعزلة من الحضريين والمسيحيين.

ولقد درج الدارسون على القول إن اسم «بربر» Berbère تحريف للصفة اللاتينية «برباروس» *barbarus* (ومعناها الأجنبي عن الثقافة الكلاسية).

ولست بمقتنع كل الاقتناع بهذا التفسير. فقد ظل الإفريقيون غير المتروّمين طوال القرون التي عاشوها في ظل الإمبراطورية الرومانية يتسمّون كلٌّ باسمه فقد كان لكل «قوم» (ولنقُلْ «قبيلة» على سبيل التيسير) اسم قد بيّنه الجغرافيون وللإدارة الإمبراطورية به علم ومعرفة. فإذا عنّ لهم أن يجمعوهم تحت اسم جماعي استعملوا التسميات القديمة، من قبيل «النوميديين» (التي سقطت من الاستعمال) و«الجيتول» وخاصة «الموريين» التي لا يفتأ نطاق القبول بها في اتساع.

ولقد سبق لنا أن لاحظنا أن اسم «البربر» كان يظهر بين الفينة والأخرى في تسميات المواقع الجغرافية وأسماء الأعلام في المجالين الحامي والسامي. وهذه الملاحظة، مقرونة إلى الملاحظة السابقة، تبعثني على التشكيك في صحة التفسير التقليدي. ومع ذلك فقد بقي البربر إلى وقت قريب جداً، وبتأثير من التعليم يضربون عن تسمية أنفسهم بهذه التسمية.

«الليبيون» : اسم بقدم التاريخ

يجمع هيرودوت سائر سكان إفريقيا، بشرط أن يكونوا من البيض، ومن غير الفينيقيين أو الإغريق، تحت اسم «الليبيين». لكنه يقسم هؤلاء الليبيين إلى مجموعتين؛ رُحّل ومقيمين. والشيء نفسه يقول به سالوستيوس، لدى حديثه عن الجيتول والليبيين، لكنه يجعل لهذه الكلمة العرقية معنى أضيق مما يجعل لها هيرودوت؛ ذلك بأنه يقصر معناها على سكان السواحل. وكما بيَّن س. گسيل، فلفظ «ليبي» له معان عديدة حسب المؤلفين وحسب العصور.

ولقد درج الدارسون منذ وقت طويل على الاعتقاد بأن لهذا الاسم أصلاً إفريقياً، وأن أول من استعمله المصريون منذ الألف الثانية، وكانوا يسمون به الأقوام المستوطنة غرب النيل.

وكان الريبو *R'bw*، أو الليبو، يقطنون في ناحية الشمال، ويشتملون على عدد من القبائل (بينها الإيموكيهيك *Imukehek*، والكيهيك *Kehek*، والإكبت *Ekbet*). وظل الريبو يستوطنون شمال ليبيا حتى العصور الكلاسية*، وقد وسع الإغريق - إغريق برقة دون شك - من اسمهم في آخر الأمر ليشملوا به سائر سكان شمال إفريقيا. ولربما يكون اسم لبسيس Lepcis (Leptis)*، الذي يُكتب في البونيقية LBKY يشترك في جذر واحد واسم peuple [السكان]. وبالفعل فالاسمان LBKY وLBT يطالعاننا في الكتابات النقوشية البونيقية والبونيقية الجديدة.

ثم لم يمض وقت طويل حتى صار هذا المعنى العام يحل محله عند الإغريق والقرطاجيين معنى آخر أضيق؛ إذ صار مقصوراً على سكان الشمال الشرقي من

*- هي الحقبة من التاريخ الإغريقي الممتدة بين الحقبة القديمة والحقبة الهلينستية ، ما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.
*- لبدة حالياً.

المغرب الكبير دون غيرهم، بما يعني أنه صار مقصوراً خاصة على الإفريقيين في المناطق الخاضعة لقرطاج. ثم صار هؤلاء السكان في ما بعد يُعرفون عند اللاتين باسم «الأفري» *Afri*، وبلدهم باسم «مقاطعة إفريقيا» *Africa*. ونحن نجهل بالأصل الصحيح لهذا الاسم، وهو الذي لا يبعد أن يكون اسماً محلياً.

بل إن كلمة «الليبي» قد اكتست في مملكة الماسيليين Massyles النوميدية معنى جغرافياً خاصاً، إذا ما اعتبرنا بالكتابة النقوشية مزدوجة اللغة في مكثر؛ فقد بيّن فيها صاحب التكريس أنه فارس في «بلد الليبيين»؛ بما يعني أن هذه المنطقة ليست بقريبة جداً إلى مكثر، بل الراجح أن تكون إقليماً خاصاً من المملكة الماسيلية، وربما كانت هي منطقة لبسيس. وأياً ما يكن المعنى الصحيح لهذه التسمية، فالذي يجدر بالملاحظة أن قسماً من رعايا الملك الماسيلي كانوا يحملون من الناحية الإدارية اسم «الليبيين» وهي التسمية التي أفرغها عليهم بعض الأجانب. ولا تزال تجد بين الأقوام ساكنة السنغال اليوم واحداً يسمى «الليبو»، والمؤكد أنها الكلمة العرقية القديمة، التي قد تكون انتقلت بالتدريج صوب الجنوب الغربي من العالم الناطق بالبربرية.

الاسم الحقيقي للبربر

لكن يوجد [اسم] عرقي آخر أوسع انتشاراً في البلدان البربرية، بل إن انتشاره واقترانه بأسماء الكثير من المواقع يجيز لنا أن نعتبره الاسم الحقيقي للبربر. نريد الجذر م.ز.گ. MZG أو م.ز.ک. MZK، الذي نجده كذلك في كل من اسم «المازيس» في العصر الروماني، و«المكسيس» الوارد عند هيرودوت، و«المازييس» الوارد عند هيكاتي، و«المشوش» Meshwesh الذي جاء في الكتابات النقوشية المصرية. ولا يزال كل من الإموهاق (Imouchar = Imushagh) في غرب فزان، والإماجيگن Imagighen في[جبل] أيّير، والأمازيغ في الأوراس، والريف، والأطلس الكبير يحافظون على هذا الاسم. و«التماشق» (tamachek = tamasek) هي لغة الطوارق وهم الذين يسمون أنفسهم كذلك إموشار Imouchar. غير أنك لا تجد القبائليين ولا الشاوية (في الأوراس) يعرفون حالياً بهذا الاسم. والمؤكد أنه اسم عرقي قد كان له في شمال إفريقيا انتشار كبير خلال العصور القديمة؛ فالكتابات النقوشية والنصوص تجيئنا له بمجموعة من الرسوم ليست كلها بالصحيحة؛ تجتمع فيها، *Mazyes* و*Maxyes* و*Mazices* و*Madices* و*Mazicei* و*Mazacenses* و*Mazazenes*.

ويمكننا أن نزيد إلى هذه القائمة الكلمتين «مازيك» Mazic و«مازيكا» Mazica كثيرتيّ الورود في الكتابات المقابرية. وإن في إطلاق المؤلفين كلمة «مازيس» على أقوام مختلفة، بعضها من البدو الرحل وبعضها من الجبليين، وفي عصور مختلفة ومناطق متنائية، لما يدلنا بالفعل على أن هذه تسمية محلية كان لها معنى عام وشائع.

وقد كان الأصل في اسم «أمازيغ»(وجمعه : «إمازيغن») مثاراً لبعض الجدال كما هو الشأن في كل ما له صلة بالبربر. فقد درج الناس على أن يأخذوا هذه الصفة بمعنى «النبيل» و«الحر»؛ فهي معادل لكلمة «franc» التي كان يتحلى بها الجرمان، ثم جعلوها اسماً لشعبنا [الفرنسي]. وهذه ترجمة صدَّق عليها س. كَسيل، واستند فيها إلى نص للحسن الوزان؛ فهي الترجمة التي جاء بها لاسم «المازيس»*. وجاء تـ. سارنيلي T. Sarnelli بمحاولة أخرى في هذا الباب؛ فقد رد هذا الاسم إلى الجذر ZWG، الدال على الحمرة. وإذا كان هذا الجذر يسمح بتفسير اسم «الزوكس» Zaueckes، الذين كانوا يستوطنون تونس في قديم الزمان إذ ورد ذكرهم عند هيرودوت، واسم «إزاكَارن» Izaggaren في الهقار، فإن كـ. جـ. براس K. G. Prasse يرى من المستحيل أن تكون لهذا الجذر صلة باسم «إمازيغن» وذلك لأسباب صوتية وصرفية على حد سواء.

ويرى شـ. دو فوكو Ch. De Foucauld أن الكلمة الطوارقية «أماهق» *Amaheg* (وجمعها «إموهاي» *imouhay*) تعود إلى الفعل «أها» *ahaa* ومعناه «سَلَبَ» فتكون «أمَهي» *amahey* تعني «السلاب»، أي الغازي؛ وبالتالي فهي تدل على المحارب والنبيل والحر (franc). ومن سوء الحظ أن هذا التفسير التقليدي، الذي قد يكون فيه تسويغ للترجمة التي جاء بها الحسن الوزان [لكلمة «المازيس»]، لا يتوافق والمعطيات الصوتية؛ ففي لهجات الشمال يُفْترض أن يكون الفعل الموافق لـ (*ahey*) هو (*awey*)، بما يفترض أن تكون تلك الكلمة *amawy* لا *amaziy*، وهذه الأخيرة هي الوحيدة المحققة. وعليه فالتحوّط يقتضينا أن نعزو كلمة *amahey* الطوارقية إلى نطق خاص عند بربر الجنوب، وأن نرد الاسم *amaziy* (حسب ما يرى سـ. شاكر) إلى الجذر *iziy* الذي زال واندثر وما فضل منه غير هذه الكلمة العرقية.

---

*- كتب الحسن الوزان : «إن هذه الشعوب الخمسة المنقسمة إلى مئات السلالات وآلاف المساكن تستعمل لغة واحدة تطلق عليها اسم أوال أمزيغن أي الكلام النبيل»، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.2، ج. 1، ص. 39.

أصل اسم «النوميديين»

كان النوميديون يقطنون مناطق شاسعة بين إقليم قرطاج وأرض الموريين، وهي المناطق التي سميناها شرق بلاد البربر ووسطها. ولذلك فليس من المستغرب أن يكون النوميديون يشكلون مملكتين وقت أن تكونت الممالك في الحقبة التاريخية : المملكة الماسيلية التي كانت تقوم في المناطق الأقرب إلى الإقليم القرطاجي، وتمتد حتى منطقة سيرتا (قسطنطينة)، وهي تتوافق تقريباً وشرق بلاد البربر، والمملكة الماسيسيلية وهي أكثر اتساعاً، إذ كانت تمتد على ما تبقى من القسم الشمالي مما يُعرف حالياً بالجزائر؛ أي أنها كانت تشمل وسط بلاد البربر. ولقد رأينا كيف أبرز علم الآثار للحقبة قبيل التاريخية الأساس المكين الذي قام عليه هذا التقسيم.

وتجيئنا بعض الكتابات النقوشية ذات اللغتين اللاتينية والبونيقية، أو اللاتينية والليبية، التي تعود إلى محاربين في الجيش الروماني بالشكل اللاتيني للكلمة العرقية أو الصفة «نوميدا» *Numida* (ومعناها «النوميدي»).

ومن سوء الحظ أننا ليست لنا معرفة بالاسم الليبي ولا الاسم البونيقي الموافق لكلمة «نوميدا» اللاتينية. ومع ذلك فليس هنالك مسوغ للاعتقاد بأن هذه الكلمة كان مأتاها من الكلمة الإغريقية *Νομαδες* (Nomades-الرحل). فلو كان الرومان أخذوا هذه الكلمة رأساً عن الإغريق لكانوا أدخلوها في النظام الإعرابي بالحروف من الصنف الثالث. وإذا كان اللاتين قد سموا «نوميديين» *Numidae* الأقوام نفسها التي أسماها الإغريق «نوماد» Nomades بفعل تجنيس [على الكلمة الأولى] فلأنهما كانا يتّبعان معاً نموذجاً من شمال إفريقيا يبدو أنه كان نموذجاً بربرياً أكثر مما هو بونيقي. فنحن نعرف عدداً كبيراً من أسماء الأعلام الليبية تبتدئ بالحرفين NM. ثم إن هنالك اليوم مجموعة فقيرة من الصيادين البدائيين في موريتانيا تُعرف باسم «نيمادي» Nemadi. وعلى الرغم من الاحتمال الكبير لأن يكون اسم «النوميديون» يعود إلى أصل بربري، فسوف لا نأخذ بالتفسير القديم الذي جاء به [لـ.] رين [L.] Rinn في منتصف القرن التاسع عشر، فقد أراد أن يترجم هذه التسمية العرقية بالعبارة *N'Middeln*، ومعناها «من الرّحل».

ومهما يكن من أمر، فلا يمكن أن نعتد بالتفسير الذي جاء به سترابون، وقال فيه: «تمتد هذه البلاد من قرطاج إلى أعمدة هرقل، وهي تتسم عامة بالغنى والخصوبة



40. نصب كبير بممر مكشوف في إليزي (تونس).

لكن بدأت تغزوها الحيوانات المتوحشة، كشأن كل المناطق الداخلية في ليبيا. وحتى لنحسب أن اسم «نوماد» (Nomades من «النوميديون» Numides) الذي يحمله قسم من هذه الأقوام إنما جاءها من واقع أن الحيوانات المفترسة الكثيرة كانت قديماً لا تترك لها سبيلاً إلى الاشتغال بالزراعة»[1]. وقال كذلك : «وقد فضلت هذه الأقوام أن تشتغل باللصوصية وقطع الطرق، وتركت الأرض للهوام والحيوانات المتوحشة وآثرت حياة التيه والترحال، تماماً كفعل الأقوام التي أكرِهت على هذا الأسلوب في العيش بالبؤس ووعورة الأرض وقسوة المناخ»[2].

وإن في تمييز هيرودوت في الليبيين رحلاً nomades (وهم لا يمتون بصلة إلى النوميديين Numides بأي حال) وفلاحين (وهم يسكنون مناطق نعرف أن قطانها من النوميديين)، ما يثبت أن التسمية الإغريقية لم تأت بأي حال نتيجة لملاحظات عراقية لأساليب هذه الأقوام في العيش. وعندما يتحدث هيرودوت عن *Λιβυες νομαδες* فمن الواضح أن لاأحد يفكر بأي حال أن يترجم ذلك الاسم بـ «الليبيين النوميديين». وإنما كان التشابه الحاصل بين الكلمة الليبية والكلمة الإغريقية *νομαδες* هو دون شك ما دفع بالكتاب الإغريق، واللاتين من بعدهم، إلى أن يسعوا في تفسير الكلمة العرقية الليبية بحياة الترحال التي كانت تُنسب إلى هذه الأقوام.

1 – Strabon (II, 5, 33).

2 – Strabon (XVII, 3, 15).

وقد كان سترابون يحيط علماً بأن الماسيليين والماسيسيليين كانوا يشتغلون بالفلاحة في أجود الأراضي[1]، فتراه يجهد كثيراً ليفسر حياة الترحال المفترضة لهم بكثرة ما ضمت أراضيهم من حيوانات متوحشة. وسنلاحظ أن الحيوانات المتوحشة إنما تعيق من حياة الرعي وتربية الماشية أكثر مما تعيق من الزراعة.

مملكة ماسينيسا ويوغرطة الماسيلية

يبدو أن مملكة الماسيسيليين كانت هي الأقوى بين المملكتين المعروفتين لدينا في بداية التاريخ، وهو الذي يبتدئ عند النوميديين مع الحرب البونيقية الثانية. غير أن هذه المملكة لم تقوَ على البقاء لما بعد الفشل الذي مُنيَت به السياسة التي كانت من ملكها سيفاقس Syphax في إفريقيا. فبعد أن حاول هذا الأخير أن يلعب دور الحكَم بين روما وقرطاج، لم يلبث أن آثر في نهاية الأمر جانب البونيقيين، ثم استولى على المملكة الماسيلية، فأمكن له أن يحقق لبضع سنين الوحدة النوميدية تحت حكمه. لكن قُيّض للمملكة الماسيلية في آخر الأمر أن تخرج معززة الجانب من تلك المحنة، وأقام ماسينيسا، ملك الماسيليين، دولة نوميدية موحدة.

بلاد الماسيليين، بلاد الدلمنات

هل يعود نجاح الماسيليين إلى القوة التي كانت لشخصية ماسينيسا، وإلى الرفق الذي كان من الرومان فقط؟ ألم تكن هنالك من قبلُ عوامل قوة وروابط تلاحم مكنت للماسيليين أن يصمدوا للضغط الذي كان يقع عليهم من جيرانهم القرطاجيين والماسيسيليين بشيء من النجاح؟ فنحن نلاحظ بداية أن بلاد الماسيليين الممتدة على شرق الجزائر وغرب تونس كانت أكثر اتحاداً من الجزء من بلاد البربر الذي احتله الماسيسيليون بالتدريج. كما وأن بلاد الماسيليين تملؤها الجبال والغابات بما يجعلها ملائمة لتربية المواشي الكبيرة، لكنها تشتمل كذلك على هضاب وسهول في سفوح جبلية ذات تربة مواتية لزراعة الحبوب. وقد كشفت لنا المقابر النوميدية الكبيرة أن هذه المناطق ضمت ساكنة من الفلاحين من المؤكد أنهم كانوا أكثر ارتباطاً بالأرض من النوميديين في البلدان الغربية. وإذا كانت الظروف الجغرافية عاملاً ذا شأن وأهمية، فإن الظروف التاريخية كانت عاملاً أقوى وأهم. فقد كان الماسيليون

---

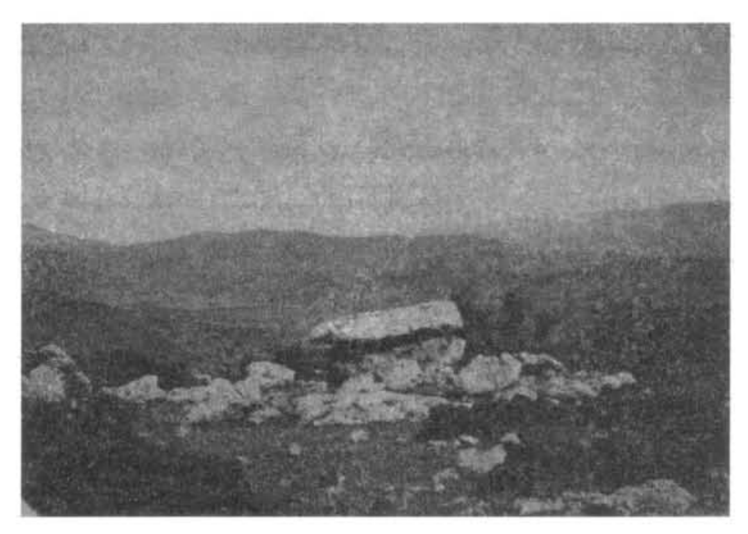
1 – Strabon (XVII, 3, 11).

جيراناً للقرطاجيين، وما أكثر ما تعرضوا منهم للتعدِّي، لكنهم اقتبسوا منهم من عناصر الحضارة الشيء الكثير. فقد ورد الحديث منذ القرنين الرابع والثالث عن وجود مدن في شرق بلاد البربر؛ فخارج إقليم قرطاج، الذي كان لا يزال قليل اتساع كانت هنالك دقة Dogga، وتبسة Tébessa، وربما كانت هنالك قسطنطينة أيضاً. وتدفع المقابر الصخرية الكبيرة التي في منطقة مكثر إلى الاعتقاد بأن بناء هذه المدينة النوميدية يعود إلى ما قبل سقوط قرطاج. ومن المحتمل أن الماسيليين كانوا يسيطرون على سيرتا، وقد كانت مركزاً مهماً للحضارة البونيقية في القرن الثالث. وما وقعت هذه المدينة تحت حكم سيفاقس إلا قبل وقت قصير من حكم ماسينيسا.

وإن ما ذكر تيت ليف Tite-Live وأبيانوس Appien من محاولات ماسينيسا لاستعادة مملكة والده يدلنا على التعلّق الموثوق الذي كان من الماسيليين بملوكهم. لكن إذا لم يكن لنا أن نبالغ في الحديث عن ذلك الإخلاص - فهذا ماسينيسا لم يسلم من الخيانات - فلا يمكن أن ننكر أنه قد كان من عناصر التلاحم لدى الماسيليين.

الأسرة الماسيلية ومدينة دقة

قد يكون هذا التلاحم ووجود بعض التطابق بين الأقاليم التي كانت تؤلف المملكة الماسيلية هما ما جعل من الصعب معرفة الموضع الأصلي لقبيلة الماسيليين [بين تلك الأقاليم]. وكذلك تعيقنا التعدّيات القرطاجية عن معرفة إلى أي نطاق كان



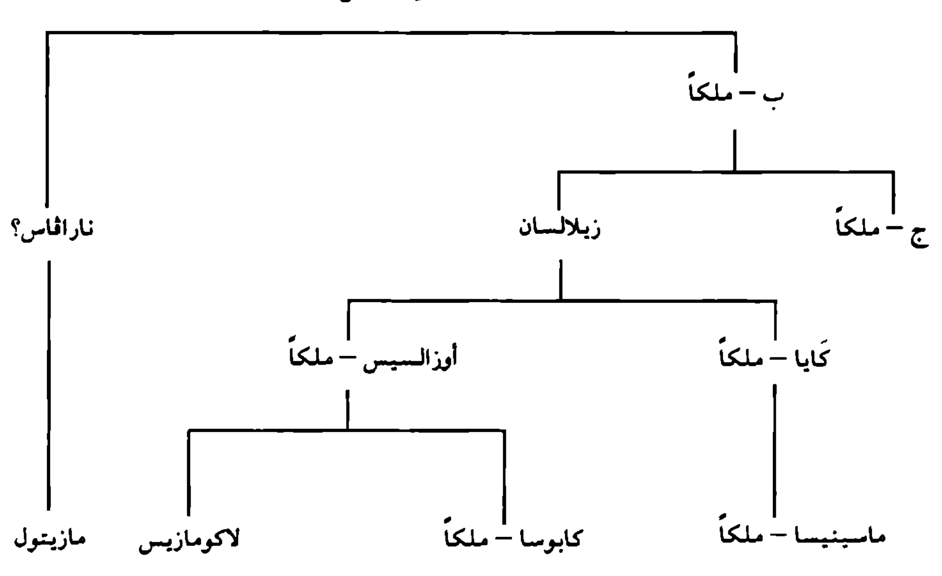
41. دلمن في الركنية، شرق الجزائر.

حكم الماسيليين يمتد ناحية الشرق، على افتراض أنه كانت هنالك مملكة ماسيلية سابقة على التوسع البونيقي في وسط تونس وغربها. ومع ذلك فإن دقة Τωκαι لم تكن داخلة تحت نفوذ القرطاجيين في عصر أگاتوكل. فقد كان في ذلك الوقت لليبيين ملك يسمى إيليماس Ailymas، يبسط سلطانه على هذا الإقليم. لكن هنالك مؤشرات أخرى تجيز لنا الاعتقاد بأنه قد كان للأسرة الماسيلية وجود قبل ذلك العهد. فمن المعلوم أن أسلاف ماسينيسا قد كانوا حكموا الماسيليين، وأن أميراً نوميدياً هو مازيتول Mazetule، وقد كان منافساً لكابوسا Capussa وماسينيسا، لم يكن يشاركهما الانتماء إلى السلالة الواحدة، بما يحملنا على البحث عن جدهم المشترك قبل أجيال عديدة سابقة. وإن مطامع مازيتول، والعروض التي قدمها له ماسينيسا بعد أن تغلب عليه، لتظهر بجلاء أن هذا الأمير كان بين أسلافه كذلك بعض الملوك. ولقد بيّن تيت ليف[1] أن هذا الأمير ينتمي إلى فرع من الأسرة الملكية مُعاد للسلالة الحاكمة. وكانت قواعد توارث الملك في المملكة الماسيلية، كما وقف عليها كَسيل، تجري بحق على منوال نظام تانيستري* : «كان المُلْك تختص به أسرة، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة؛ أي مجموع أنسباء يرجعون عن طريق الذكور إلى جد مشترك... ورئيس هذه الأسرة يكون هو الأكبر سناً بين الذكور الأحياء المولودين من زواج شرعي وإليه يعود الملك. فإذا توفي انتقل الملك إلى الذي صار الأكبر سناً في مجموعة الأنسباء». وتسعفنا الكتابة النقوشية مزدوجة اللغة في دقة، وهي التي تفصح لنا عن اسم والد گايا Gaïa، ومعرفتنا بالقواعد التي كان معمولاً بها في توراث الملك عند الماسيليين، في وضع الجدول النظري التالي، الذي أقمناه على الإمكانات أشدّها بساطة في الوارثة :

---

1 – Tite-Live (XXIX, 29, 7).

* – Tanistry، وهو نظام عُرف في إيرلندا القديمة، في توارث الألقاب والأراضي، ويقوم على جعل الميراث للأكبر سناً بين أفراد الأسرة.



وهذه الاعتبارات تقودنا إلى الاعتقاد بأن الأسرة الماسيلية كانت على عهد ماسينيسا تسود منذ ما لا يقل عن أربعة أجيال. فليس ببعيد عن الاحتمال أن الملك الليبي إيليماس، الذي تحالف مع أ كَاتوكل، ثم انقلب عليه بالعداء، قد كان أحد أجداد ماسينيسا. وربما كانت دقة، التي استولى عليها أوماك Eumaque بعد سنتين من موت هذا الملك، هي عاصمة ملكه.

سيرتا مهد القوة الماسيلية

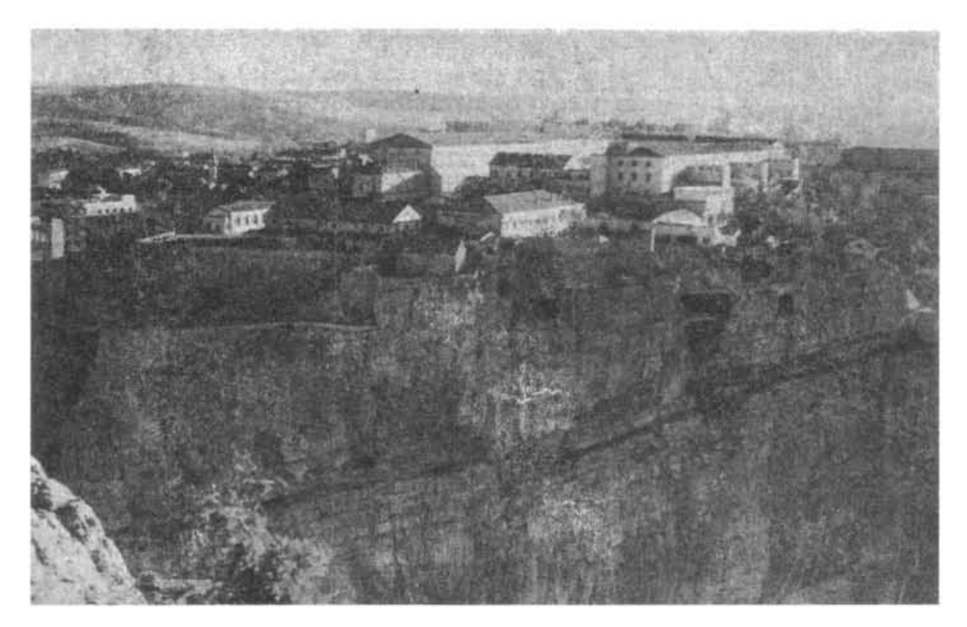
يبدو من الصعب أن نأخذ بالاعتقاد أن دقة ومرتفعات التل كانت هي المهد للقوة الماسيلية. فقد كانت هذه المنطقة تحت نفوذ القرطاجيين منذ الحرب البونيقية الأولى في أقل تقدير. ويصعب علينا أن نذهب إلى الاعتقاد بأن المملكة الماسيلية قد أمكن لها البقاء والاستمرار بعد احتلال الإقليم الأصلي للقبيلة التي كانت تنتمي إليها الأسرة الحاكمة. ومع أن قرطاج كانت تمارس نوعاً من الحماية على المملكة الماسيلية، فإن حاكماً مثل كَايا قد ظل، على الرغم من انحسار أقاليمه، بسبب التعديات التي كانت تقع عليه من جيرانه، يحتفظ لنفسه بقدر من الاستقلال، ولا يولي حلفاءه البونيقيين إلا ولاء مشروطاً. وما كان يمكن لكَايا ولا لابنه ماسينيسا بأي حال أن يستمرّا على مثل هذه السياسة لو كان إقليم الماسيليين قد وقع في أيدي القرطاجيين.

وإنني لأميل إلى البحث عن أصول أسرة ماسينيسا في الطرف الغربي من المملكة [الماسيلية]؛ أي في منطقة سيرتا. ومن المؤكد أن هذه المدينة قد صارت العاصمة لماسينيسا وميسيبسا Micipsa، وأما كَايا فلم يكن له أي حكم على هذه المدينة؛ فقد كانت يومها تابعة لسيفاقس. وأن يكون ميسيبسا - وربما هو ماسينيسا نفسه - دُفن في الخروب عنصرٌ يرجّح أن تكون أصول هذه الأسرة تعود إلى سيرتا. وتجيز لنا الأنصاب الكثيرة من الحجارة الكبيرة التي توجد في منطقة سيرتا الاعتقاد إلى حد ما، بأن ساكنة كثيرة العدد كانت تقيم من حوالي جبل فرطاس؛ وهو على وجه التحديد المكان الذي اكتُشفت فيه مسلات كبيرة مبيّنة عليها صور الرؤساء المحليين في وادي الخنقة وفي سيلا. ويُتبين من بعض الوثائق الأثرية أن النوميديين في هذه المنطقة كانوا منذ القرن الرابع أو الثالث، وبما كانوا قبل ذلك، على علاقة بالتجار البونيقيين.



42. الضريح النوميدي في دقة (تونس).

لكن هنالك وقائع أخرى تدعونا إلى البحث عن الموطن الأول لهذه القبيلة في موضع أبعد قليلاً إلى الجنوب. وربما يدلنا المدراسن Medracen، وهو قبر لشخصية عظيمة، أو لملك لم تكن ذكراه قد تلاشت في العهد الروماني، على أن أسرة الملك الذي أقام هذا النصب في القرن الرابع أو الثالث تعود بأصولها إلى الأوراس. فيكون عاصر الأسرة الماسيلية، ويصعب علينا تصور أن يكون خدم أميراً من أسرة حاكمة أخرى.



43. قسطنطينة، سيرتا القديمة، تشرف على الحلوق العميقة في الرمل.

ولقد أفرغ المهندس الذي قام ببناء المدراسن على هذا النصب عناصر معمارية كان لها إيثار لدى القرطاجيين، مع المحافظة على تقاليد البناء في المقابر البربرية. فمن ثَم نستنتج أن الأمير الذي أقيم لأجله المدراسن كان على علاقة بالقرطاجيين على الأقل، وأن إقليمه كان يمتد حتى قريب من إحدى المدن البونيقية. وتظل أقرب مدينة إلى هذا الإقليم استوطنها الفينيقيون في القرن الثالث هي سيرتا، ولكن من المشكوك فيه أن تكون الأسر القليلة ساكنة هذه المدينة استطاعت أن تنجب مهندساً يقتدر على إقامة هذا النصب. وعليه فيمكننا التسليم بأن الملك الذي دُفنت رفاته في المدراسن كان يبسط حكمه حتى سيرتا في أقل تقدير، والأرجح أنه كان يبسط حكمه إلى ما بعدها، ناحية الساحل وناحية الشرق.

فهذا يقودنا إلى استنتاجٍ أن الماسيليين كانوا يستوطنون إقليم سيرتا، وأن القوة الماسيلية تكونت في ما بين هذه المدينة والأوراس.

وكان الاسم «ماسول» Massul (نسبة إلى ماسيليا Massyle) لا يزال متداولاً في العصر الروماني. فقد أمكن التعرّف عليه في كتابة نقوشية تأبينية في سيلا وفي كتابتين نقوشيتين أخريين على مقربة من وادي جرمان Djermane. ومن اللافت للنظر أن هذا الاسم لم يكن كثير الرواج خارج هذه المنطقة؛ فما وُجد إلا في كتابة نقوشية واحدة في سيليوم Cillium (القصرين). ولا يزال هنالك واد صغير في جنوب قسطنطينة يحمل الاسم مْسِيل M'syl.



44. مسلة كبيرة لرئيس ماسيلي في عين الخنقة، منطقة قسطنطينة.

وقبل أن تصير المملكة الماسيلية إلى شريط ضيق محصور بين إقليم قرطاج والمملكة الماسيسيلية كانت هذه المملكة تشمل في جهة الغرب منطقة سيرتا؛ ولا يبعُد أن يكون إليها يعود أصل الأسرة الحاكمة. وإلى جهة الشرق حيث الظهير التونسي، الذي يبدو أن القرطاجيين تخلوا عنه، كانت هذه المملكة تغطي القسم الأكبر من حوض بگردا Bagrada (مجردة). ولا يبدو أن النزاعات الطويلة التي قامت بين ماسينيسا وقرطاج كان السببَ إليها الطمعُ من جانب الملك النوميدي بل كانت تعود في الواقع إلى مطالبات ترابية لها مبرراتها، قد ظل ماسينيسا يعبّر عنها بما يزداد قوة وبأساً.

كانت المملكة الماسيلية ضيقة نسبياً في قسمها الشمالي، لكنها ضمت في مناطقها الجنوبية أقاليم شاسعة، كانت تتنقل فيها بعض قبائل الجيتول، وكانت تمتد إلى ما يعرف حالياً بطرابلس الغرب، وتشمل مدينة لبسيس. وليس لنا من علم بالعلاقات التي كانت بين الملك وهؤلاء الرحل، ولا نعرف كيف كان هؤلاء يقرون عليهم بالسيادة النوميدية. لكن هذه المسائل الدقيقة تصير تتضح لنا قليلاً متى سلمنا بأن مفهوم السيادة عند البربر يقوم على السيطرة على الأشخاص أكثر مما يقوم على حيازة الأرض. ولذلك فلم يكونوا يهتمون كثيراً لضياع الأراضي إذا ما ظلت القبيلة السائدة تحافظ على تلاحمها.

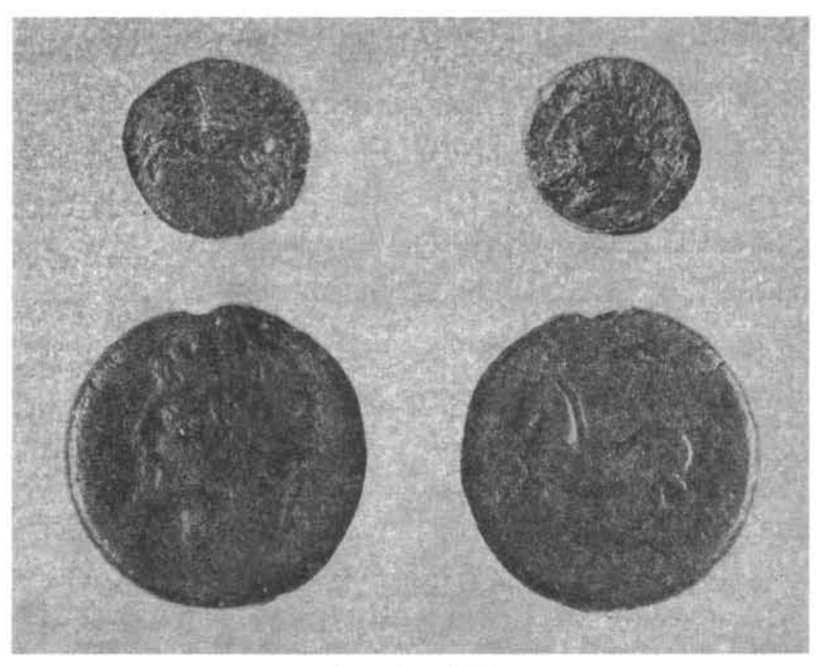
مملكة سيفاقس الماسيسيلية

خلال الحرب البونيقية الثانية، وقت أن كان سكيبيون Scipion يحارب الجيوش القرطاجية في إسبانيا، كان سيفاقس، ملك الماسيسيليين، هو أقوى الملوك الإفريقيين.



45. مسلة بونيقية من الحفرة (قسطنطينة) تمثل مجموعة أسلحة تطابق الأسلحة الموجودة في ضريح الخروب (مقبرة ميسيبسا؟).

وإن أوضح نص وُضِعَ في هذه المملكة هو الذي أنشأه سترابون، فقد جاء فيه: «من بعد إقليم الموريين يأتي إقليم الماسيسيليين، فمبتدؤه من وادي ملوية Molochath ومنتهاه عند رأس تريتون Cap Trêton[1]».



46. نقود ماسينيسا.

سعة المملكة

لن أعود إلى مسألة المطابقة بين مولوشا Mulucha وملوية. فموقع سيجا Siga عاصمة سيفاقس، على الضفة الشمالية لتافنا Tafna يجعل من اللازم أن نبحث عن مولوشا على الضفة الغربية من هذا الوادي؛ فلا يمكن أن يكون الاختيار إلا بين ملوية وواديين ساحليين صغيرين (وادي كَيس ووادي الثلاثاء). وقد رأينا في ما سبق أن ملوية وإن لم يكن يشكل حداً طبيعياً حقيقياً، إلا أنه كان يقوم فاصلاً على قدر كبير من الوضوح بين المقاطعتين الأثريتين؛ غرب بلاد البربر ووسطها. ومما لا جدال فيه أن رأس تريتون يطابق رأس بوقارون Bougaron في شبه جزيرة كولو Collo. وسيصير الحد الفاصل بين نوميديا وموريتانيا القيصرية يقع في ما بعدُ على مقربة من شبه جزيرة كولو، عند الوادي الكبير (أمساكَا Amsaga).

1 - Strabon (XVII, 3, 9).

وقد كان هذا الممر المائي يشكل الحد الشرقي لمملكة يوبا الثاني، ويطابق كذلك من الناحية الأثرية الحدَّ الغربي لبلاد سيرتا الغنية بالأنصاب الصخرية الكبيرة، وهي التي لا تلبث أن تختفي فجأة في غرب هذا الوادي. ولذلك فالتحديد الذي جاء به سترابون لا يعدو أن يكون تقريبياً؛ فمن غير المحتمل أن الحد الفاصل بين الماسيليين والماسيسيليين كان حداً ثابتاً ومبيَّناً في وضوح لا لبس فيه.

وعليه فإن الماسيسيليين كانوا يقيمون على مساحة شاسعة تغطي ثلثيّ الجزائر وقسماً من شرق المغرب. بل إن بعض النصوص وكتابة نقوشية باللاتينية تفيد وجودهم حتى في الريف. ومنذ أن جاء ذكر سيفاقس، ملك الماسيسيليين، للمرة الأولى، في رواية تيت ليف، وحتى سنة 203، وهو التاريخ الذي تحدد فيه مصير هذا الملك ومصير ماسينيسا أيضاً، ظلت الأراضي التابعة لسيفاقس في امتداد واتساع على حساب الماسيليين؛ فلذلك يكون من الصعب وضع رسم بالحدود الأصلية لمملكته. والذي يبدو أن الحد المتمثل في ملوية من جهة الغرب، والذي سيظل قائماً بين بوخوس الأول Bocchus I وميسيبسا، ثم بين بوجود Bogud وبوخوس الثاني Bocchus II، لم يطرأ عليه تغيّر من عهد باجا Baga وعهد سيفاقس المعاصرين لبعضهما. وقد اتجه هذا الأخير في التوسيع من نفوذه ناحية الشرق في سنة 205. واهتبل النزاعات التي قامت بين الأمراء الماسيليين، فحسم لصالحه خلافة كابوسا بطرده لماسينيسا وملاحقته له بواسطة قادته العسكريين. فهل في ذلك الوقت تم له ضم سيرتا، أم أنها كانت قبل ذلك قد صارت معدودة في أراضي الماسيسيليين؟

وفي المقابل فإن الشواهد التي تعود إلى ما قبل سنة 205 تبيّن لنا كيف أن سيفاقس كان منحصراً في غرب ماسيسيليا، وأنه كان مهتماً للمسائل الإسبانية بقدر اهتمامه بالشؤون النوميدية. وعليه فإن ظهور سيفاقس في المناطق القريبة إلى بلاد ماسيليا قد جاء في وقت متأخر، وكان على صلة بالاضطرابات التي تفجرت في هذه المملكة بعد اغتيال كابوسا. ويغلب عليّ الاعتقاد أن العاصمة الحقيقية لسيفاقس كانت هي سيجا، وما صارت سيرتا له العاصمةَ إلا بعد ضمه أراضي الماسيليين.

سيجا والمدن الماسيسيلية

كانت سيجا أهم مدن ماسيسيليا، والحديث يرد عنها دائماً بكونها عاصمة سيفاقس. ففي هذه المدينة استقبل في سنة 206 سكيبيون وأسدروبال Asdrubal معاً. وفيها قام دون شك بضرب جزء من نقوده، وقد ظلت التقاليد في ضرب النقود جارية في هذه المدينة؛ ثم زاد إليها بوخوس الأصغر ورشة جديدة.

والقطع النقدية التي تعود إلى سيفاقس، والتي تم العثور عليها بأعداد كبيرة نسبياً في هذا الموقع، تبين بجلاء أن سيجا كانت، على عكس سيرتا، هي الرأس الحقيقية للمملكة الماسيسيلية. وعلى مقربة من سيجا كانت تقوم الجثوة الملكية لبني رنان. ولم يشر سترابون، الذي كان يتوسل بوثائق سابقة على عصره بكثير، في شرق سيجا إلى غير مرسى الآلهة Port des Dieux (المعروف عند الرومان باسم Portus Divini، ويُعرف حالياً باسم «المرسى الكبير»)، ومدينة إيول Iol (شرشال) وصلدا Saldae (بجاية). ومعنى ذلك أن الوثائق التي استند إليها كانت في غاية الفقر؛ فهي قد اقتصرت على المستودعات التجارية البونيقية الرئيسية. وهذا جـ. ڤويلومو G. Vuillemot قد تناول بالدراسة المرافئ البونيقية على الساحل الوهراني وهي التي يحق لنا اعتبارها المنافذَ لتجارة ماسيسيليا ومراكزها الاقتصادية. وبعض تلك المرافئ يعود إلى تاريخ ضارب في القدم؛ ومن ذلك أن المقبرة المكتشفة في جزيرة رشقون Rachgoun، قبالة مصب وادي تافنا، قد أمكن رد تاريخها إلى القرنين السادس والخامس [قبل الميلاد]. وكذلك أمكن الاهتداء إلى تاريخ بناء موقع مرسى مداخ Mersa Madakh؛ فقد كان احتله التجار الفينيقيون في عهد ضارب في القدم أيضاً، ثم هجروه في القرن الثالث، بعد أن تعرض، في ما يبدو، لتهديم أول، ثم عادوا لاحتلاله من جديد. ولقد تبيّن لنا من وثائق قريبة العهد، تم العثور عليها على مقربة من وهران، وفي الأندلسيات*، وفي سان لو Saint-Leu، مدى أهمية المبادلات التي كانت تجري مع إسبانيا. ومن جملة الأشياء التي كان يقع فيها الاستيراد ينبغي أن نذكر المنتجات المعدنية، وهي من أكثر المنتجات التي كان يُفتقر إليها في إفريقيا. وأما الأشياء التي كان يقع فيها التصدير فنعرف من جملتها اثنين: العاج وقشور بيض النعام. غير أننا لا نعرف هل كان التصدير مقصوراً فيهما على المواد الخام، أم أن الأشياء التي تم اكتشافها في إسبانيا قد كان يجري تصنيعها في إفريقيا. والذي يبدو أن تصنيع العاج كان يقع في المدن الفينيقية الكبرى في منطقة الشام، وفي قرطاج وربما كان يقع كذلك في قادس Cadès، فالزخارف التي تزين الأمشاط والمقابض المصنوعة من هذه المادة ذات طابع مشرقي من غير استثناء.

فإذا انتقلنا إلى قشور بيض النعام صار الأمر أشد تعقيداً. فهذه مـ. أستروك M. Astruc تذهب في كتاب بديع حول مقابر ڤيلاريكوس Villaricos (إسبانيا)*

*– Astruc, Miriam, *La necropolis de Villaricos. Informes y memorias*, Comisaria General de Excavaciones arqueologicas 25 (Madrid 1951).

*– منتجع جزائري في شمال وهران، كان يعرف لدى الرومان باسم كاستروم بويروروم Castrum Puerorum.

التي ضمت المئات من قشور البيض المزخرفة، إلى الاعتقاد جازمة أن الزخارف المزيّنة للغالبية العظمى من تلك القشور كانت تتم على الأرض الإسبانية. لكن هنالك عينات أخرى من تلك الزخارف تُبين عن شبه كبير بالزخارف الهندسية البربرية، كما لا تزال متداولة إلى اليوم، بما لا يُستبعد معه أن تلك القشور كان يجري تصديرها بعد أن تكون زُينت بتلك الزخارف، وأن المدن الإيبيرية والفينيقية قد صارت في ما بعدُ تفضل الحصول على قشور بيض النعام وهي بعدُ خام، ثم يتولى أهلها تزيينها حسب الأذواق المحلية، والحقيقة أنها لم تكن تختلف كثيراً عن الأذواق التي كان لها الشيوع والغلبة في المدن الإفريقية.

وهنالك منتَج آخر كان يجري تصديره من ماسيسيليا (التي صارت هي موريتانيا القيصرية في العهد الروماني)، نريد خشب العرعر (المسمى *citrus* عند المؤلفين اللاتين)، الذي كانت جذوعه تُسخَّر في صنع طاولات نفيسة. وقد كان شيشيرون Ciceron اشترى واحدة منها ودفع فيها مليون سيسترس*. وأهم مميزات خشب العرعر، بالإضافة إلى مقاومته الفائقة للبلى، أنه يحتوي على عروق عسلية اللون بين متموج (*tigrinae*) وحلقي (*pantherinae*). وقد كانت كبرى مراكز إنتاجه تقع غرب شرشال (في الظهرة، ووادي الشلف).

غير أننا لا نعرف شيئاً عن مدن الداخل؛ فقد كانت المعرفة بإفريقيا حتى العهد الروماني تكاد تقتصر منها على المناطق الساحلية. ومع ذلك فإن من الصعب التسليم بألا تكون بعض المواقع المتميزة، التي سكنها الإنسان من عهود ما قبل التاريخ، قد صارت يومها مواقع محصنة أو أسواقاً، ولربما تكون صارت إليهما في وقت واحد. وتُعتبر شقاف الفخاريات البونيقية من القرن الرابع، تلك المكتشَفة على مقربة من مدينة الأصنام Orléansville، في حدود ما نعرف إلى اليوم، أقدمَ الشواهد وأكثرها قارية على تغلغل التجارة الفينيقية في أراضي المملكة الماسيسيلية. وتدلنا بعض المنشآت من القرن الثالث في منطقة تيارت على عظم ذلك التغلغل.

وأما في أقصى الشرق، في وسط الجزائر، فلم نقع على شواهد تدلنا على زمن سيفاقس أو على ما قبله، في غير الحواضر البونيقية على الساحل.

---

*- Sesterce، وهي عملة ووحدة عد رومانية قديمة.

تنظيم المملكة الماسيسيلية

لا نعرف شيئاً عن التنظيم السياسي والإداري للملكة الماسيسيلية. وكل ما نعرف أن الملك وحده هو من كان يضرب النقود، ولم يكن لأي تابع أو مرؤوس آخر، أو حتى لأي مدينة من المدن، أن يحظيا بهذا الامتياز، في ذلك العصر على الأقل. ومن جملة سلسلتيّ النقود الحاملة لرأس سيفاقس فإن السلسلة التي تبدو الأقرب عهداً هي التي يظهر عليها الملك متوجاً بإكليل، كصنيع الملوك الهلينستيين hellénistiques. وكذلك هي نقود ابنه ڤيرمينا Vermina (ڤيرميناد : *Verminad*) وهي نقود مضروبة كذلك بعناية؛ فهي تُظهر الملك الشاب أمرد ومتوجاً بإكليل. ومن المحتمل أن نقود ڤيرمينا كانت من زمن السلسلة الثانية من نقود سيفاقس، وقت أن كان ڤيرمينا يتولى قيادة الجيوش الماسيسيلية. غير أننا لا نملك أن نذهب بعيداً في هذه الاستنتاجات فنقول إن سيفاقس قد أشرك ڤيرمينا في مُلكه.

وإن تنوع المناطق التي تكونت فيها المملكة الماسيسيلية شيءٌ يدفع إلى ترجيح الرأي القائل إن هذه الدولة كانت تأتلف من مجموعة من القبائل التابعة التي أخضِعت بالقوة لسلطة رئيس الماسيسيليين. ومن المعلوم أن هؤلاء ينحدرون من وهران ومن شرق المغرب، وفي هذه المنطقة بقيت إلى العهد الروماني قبيلة تُعرف باسمهم[1]. وفي هذا الموضع كانت تقع عاصمتهم سيجا، ومن هذه المقاطعة الغربية كانوا يأخذون القوات التي مكّنت لسيفاقس أن يضطلع بدور تاريخي لا يُستهان به. ويتذكر سترابون، نقلاً دون شك عن بوسيدونيوس Posidonius، هذا التفوق الذي كان من قبلُ للمقاطعات الغربية؛ فقد كتب عن ماسيسيليا : «في وقت من الأوقات كان القسم من البلاد المجاور لموريتانيا *Maurusie* يمد المملكة من النقود ويدفع إليها من الجنود بأكثر [مما يأتيها من المناطق الأخرى]. وأما اليوم فقد صارت المعازل المتاخمة لحدود قرطاج وبلاد الماسيليين فوق غيرها من المناطق ازدهاراً وأوفر مؤونة في جميع الأشياء».

فهل كانت السياسة الطموحة والتوسعية التي انتهجها سيفاقس هي السبب في الانحطاط الذي تردّت إليه المناطق الغربية؟ إن هنالك قاعدة عامة بيّنها ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر، وهي تقوم على اعتبار المجموعات القتالية الكبيرة المؤسسة

1 – Pline (V, 17, 52); Ptolémée (IV, 2, 5).

لإمبراطوريات سريعاً ما تسير إلى الاضمحلال. فبعد الفشل الذي انتهى إليه سيفاقس استمر ابنه يحكم لبعض الوقت على جانب من غرب ماسيسيليا، وباكتمال عملية التراجع [الماسيسيلي] سيصير الماسيليون؛ ماسينيسا وأولاده من بعده، يبسطون سلطتهم حتى قريب إلى بلاد الموريين.

الموريون، غربيو إفريقيا

إذا ذكر المؤلفون الإغريق والرومان السكانَ الليبيين الأبعد إلى الغرب أسموهم بالموريين، ولم يسموهم بالنوميديين. لكن هذا التمييز لم يتحقق له الرسوخ النهائي إلا عندما علم الرومان بوجود مملكة محلية في المغرِب. وقد كان أرتيميدوروس Artémidore، في القرن الثاني قبل الميلاد، لا يزال يُدخل الليبيين القاطنين إلى جوار أعمدة هرقل في النوميديين. غير أن من المحتمل أن يكون التمييز بين النوميديين والموريين أقدم عهداً، إن صح أن اسم «الموريين»، كما هو مسلّم به عامة، لم يكن يزيد عن اسم جغرافي ذي أصل فينيقي.

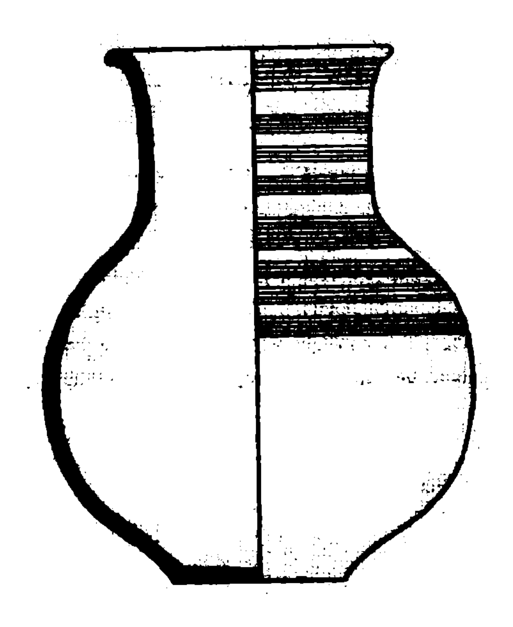
ولقد صار المؤرخون منذ القرن السابع عشر، وإسوة بما فعل بوشار Bochart إلى تفسير الأصل في اسم الموريين بأنه اختصار لكلمة سامية: «ماهوريم» *Mahaurim* ومعناها «الغربيون». وقد يكون هو الاسم الذي أطلقه الفينيقيون على سكان شمال إفريقيا من القاطنين في الغرب (المغرب عند المؤلفين العرب). ثم إنهم لما تحققت لهم معرفة أفضل بالليبيين في شرق بلاد البربر صاروا يقتصرون بهذه التسمية على الأقوام ساكنة الطرف الأقصى من الغرب؛ أي ساكنة المغرب (المغرب الأقصى عند المؤلفين العرب).

ولقد نبّه سـ. كَسيل، بحذره المعهود، إلى عدم وجود سبب ليلاّ نأخذ بالدعوى التي جاء بها سترابون في أن كلمة «موري» *Mauri* ذات أصل محلي. وليس يقف الأمر عند هذا الحد؛ فهذا بلين قد كتب أن القبيلة الرئيسية بين القبائل التي سكنت موريتانيا الطنجية كانت هي قبيلة الموريين، وأن الحروب لم تُبق منها على غير أسر معدودة[1]. وسعى بعض المؤلفين بالاعتماد على هذه النصوص إلى البحث لاسم

1 - Pline (V, 17).

الموريين عن أصل بربري. فقد رد رين هذا الاسم إلى الجذر Our، الذي يوجد في اسم جبل عمور Amour، فيكون معناه «الجبل»، ومن ثم يكون «الموريون» بمعنى «الجبليين»؛ أي المقيمين، في مقابل الرعاة، وهي الكلمة التي يجعلها رين ترجمة لكلمة «النوميديين». غير أن هذا التفسير المبتسر، وما يرافقه من ترجمة خاطئة من لدن سترابون، ليس له [عندنا] من اعتبار.

وقرَّب آخرون بين اسم «الموريين» والاسم الحالي (والقديم) لجبال الأوراس (أورس Aoures، وأوراسيوس Aurasius)؛ فيكون في ذلك تفسير للحرف الصافر الذي يرد في الاسم الإغريقي *Μαυρουσιοι*. وقد اعتقد المتكئون على هذه الافتراضات أنهم أقاموا البرهان على أن مملكة بوخوس المورية - وقد كان بوخوس معاصراً ليوغرطة Jugurtha - لم تكن تقوم في المغرب بل في الأوراس.



47. إناء مصنوع باستعمال الدولاب الدوار،
وُجِدَ في الجثوة الكبيرة للا غنُّو - المغرب.

هذا الانزلاق الهائل بجغرافية إفريقيا القديمة كلها إلى جهة الشرق يصطدم بتناقضات تاريخية صارخة لاسبيل إلى القبول بها. فلا يمكننا، في حدود المعارف المتوفرة لدينا اليوم، أن نموضع الموريين - الذين نعرف أنهم كانوا يمتدون وجوداً حتى المحيط - إلا في غرب بلاد البربر.

مملكة شبه مجهولة، من باجا إلى بوجود

لا نعرف الشيء الكثير عن مملكة الموريين، بل إن اللايقين الذي يسم معارفنا يمتد إلى فترة أقدم منها في التاريخ. ومع ذلك فالاسم الواحد الذي ظل يُجعل للجهة الغربية من بلاد البربر حتى وفاة بوجود، والتشابه في الأسماء التي حملها سادتها المتعاقبون (باجا، وبوخوس، وبوجود) يحملانني على الاعتقاد بأن الأسرة الواحدة قد حكمت منذ القرن الثالث وحتى اضمحلالها وتلاشيها بوفاة بوخوس الأصغر.

كانت أسرة بوخوس في القرن الأخير قبل الميلاد تسيطر على أقاليم تمتد حتى جبال الأطلس في أقل تقدير. وحتى لقد [قيل إن] بوجود ذهب لمحاربة الإثيوبيين. لكن هذه الدعوى التي جاء بها سترابون[1] لا تسمح بالتأكيد على أن مملكة باجا كانت قرنين من الزمن قبلُ، على هذا القدر من الاتساع. غير أنني لا أعتقد أنها كانت منحصرة بجوار المضيق؛ فقد كان هذا الملك يهتم بالشؤون النوميدية، فلقد دعم مطامع ماسينيسا في وراثة الحكم على ماسيليا وأمده بـ 4 000 من الرجال قاموا له بالخفر والحراسة. وتسمح لنا هذه الإشارة المختصرة من تيت ليف[2] بالتأكيد على أن باجا لم يكن ملكاً صغيراً، بل كان ملكاً قد امتد سلطانه على الأقاليم الواقعة بين المضيق وماسيسيليا في أقل تقدير. وفي جوار ماسيسيليا تم تحديد موقع قبيلة الموريين، التي عُرفت باسمها المملكة [المورية][3]. وخلال الصراع النهائي الذي جمع بين سكيبيون وهانيبال Hannibal أرسل باجا، الذي كان لا يزال حليفاً لماسينيسا بسوقات عسكرية كان لها إسهام في إلحاق الهزيمة بالقرطاجيين[4].

ولقد تأكد أن المملكة المورية لم يُقيَّض لها في ما بعدُ تنظيم مُمَركز؛ فهذا أسكاليس Ascalis، وهو ملك صغير كان حليفاً أو تابعاً لملك موريتانيا - الذي كان وقتها هو بوخوس، أو سوسوس Sosus - قد كان في حوالي سنة 80 ق. م. يسود على طنجة وضواحيها. ثم كان أن أطاح به سيرتوريوس Sertorius. وليس من الحكمة القول إن المملكة المورية قد تحقق لها قبيل بذلك التنظيم على عهد باجا. لكن المؤكد أن الممالك كانت أقل من ذلك تمركزاً في الأزمنة البدائية؛ فما كان الملوك يزيدون عن رؤساء لتجمعات تتفاوت في ما بينها اتساعاً.

1 - Strabon (XVII, 3, 5).

2 - Tite-Lite (XXIX, 29,7).

3 - Pline (V, 17).

4 - Tite-Lite (XXIX, 30, 3).



48. كتابة نقوشية بونيقية في وليلي (المغرب).

وقد كان الفينيقيون أقاموا منذ قرون عديدة مستودعات تجارية مهمة على السواحل الأطلنتية من جانبيّ مضيق جبل طارق. وفي إفريقيا كانت ليكسوس (العرائش) هي أقدم وأقوى مدينة تجارية في أقصى الغرب، والحكايات الأسطورية تعود بتاريخ بنائها إلى سنة 1000 قبل الميلاد. والواقع أن المعطيات الأثرية لا تسمح في الوقت الحالي بالرجوع بتاريخ بناء هذه المدينة إلى أبعد من نهاية القرن السابع. وفي المقابل فإن جزيرة موكَادور Mogador قد كان يُقبل عليها البحارة المشرقيون منذ القرن الثامن، وربما تكون هي المقصودة بجزيرة سرني Cerné التي ورد ذكرها في رحلة حانون Hannon، وفي رحلة سكيلاكس Scylax، وفي رحلة بوليبوس وفي رحلة بطليموس. وقد كانت توجد بين هذه الجزيرة والمضيق مرافئ من قبيل سالا Sala (Salé) [سلا]، التي ستصير مدينة ذات شأن تحت حكم يوبا الثاني، ومن قبيل بناصة Banassa على وادي سبو.

وتبقى العلاقات بين المملكة المورية وهذه المدن الفينيقية على الساحلين المتوسطي والأطلسي غامضة إلى حد كبير. لكن النفوذ البونيقي، وما كان من النفوذ الإيبيري الأقدم منه، والذي زاده قوة وتعزيزاً، قد كان له أثر عميق؛ صارت معه

هذه المدن، وحتى المدن الأخرى الواقعة في الداخل، كمراكز للثقافة البونيقية، قبل أن تغدو مراكز للرَّوْمنة. ومنذ القرن الرابع كانت الجرار الكبيرة المصنوعة في هذه المدن تُباع للموريين في القرى ولأمرائهم، الذين ربما كانوا قد بسطوا سيطرتهم على هذه المدن أيضاً.

وتوجد في وليلي كتابة نقوشية تبين سلسلة النسب لكبير القضاة القرطاجيين سويتنكن SWYTNKN، وفي هذه الكتابة الدليل على أن المدينة كان لها وجود منذ القرن الرابع، وأن وظيفة القاضي قد تقررت فيها منذ بداية القرن الثالث، وربما قبله.

الاسم الذي كُتب له البقاء

لاشك أن مملكة الموريين، واسم الموريين بشكل خاص، قد سارا بالتدريج إلى اتساع وانتشار. فأما المملكة فقد تحقق لها ذلك الاتساع في أعقاب حرب يوغرطة. فقد سلم بوخوس الأول صهرَه وحليفه يوغرطة إلى سيلا، وحصل في مقابل خيانته وتحالفه الجديد على الجزء الغربي من المملكة النوميدية، الذي كانت تكونه ماسيسيليا سابقاً.

وجرياً على قاعدة معلومة، صار رعايا بوخوس، ملك الموريين، الجددُ موريين والبلاد التي كانت من قبلُ نوميدية صارت تسمى موريتانيا، إسوة ببقية المملكة. غير أن التقسيمات القديمة التي تعود إلى ما قبل التاريخ ظل لها وجود. وفي هذا تفسير لأن يكون الرومان بعدما أعدموا بطليموس، آخر الملوك الموريين (في سنة 40) قاموا بتقسيم المملكة [المورية] إلى قسمين؛ موريتانيا القيصرية (ماسيسيليا سابقاً) وموريتانيا الطنجية (أول مملكة للموريين).

كان التَروُّم في هاتين المقاطعتين أقل رسوخاً مما في مقاطعة إفريقيا، التي كانت محكومة من وال روماني، وجُعلت منطقتها العسكرية في وقت لاحق على تنظيم خاص وصارت تُعرَف باسم نوميديا. وفي هذا الاختلاف من حيث التعمير والتثاقف الذي وقع بين المجموعتين من المقاطعات تفسيرٌ للتحول التدريجي الذي صار إليه اسم «الموريين»؛ فقد صار، خلال القرون التي عمرتها السيطرة الرومانية، تغلب في معناه الدلالةُ على أولئك الذين لبثوا في إفريقيا خارج الثقافة [الرومانية] السائدة، وخارج الهياكل السياسية [الرومانية]. فقد كان الموري بالنسبة إلى الروماني أو الإفريقي المتروّم كمثل ما سيكون البربري بالنسبة إلى الغازي العربي على وجه التقريب. وهكذا ستظهر آلهة مورية *dii Mauri* (انظر الفصل الرابع) – وسيشتهر ذكرها

في نوميديا ومقاطعة إفريقيا أكثر مما في الموريتانيتين - وستصير العادة عند المؤلفين خلال القرون الأخيرة من السيطرة الرومانية، وعلى عهد الوندال، أن يتحدثوا عن عصابات، ثم عن ممالك «مورية»، في البلدان النوميدية سابقاً، وسيذكرون وجودها حتى في قلب ما يُعرف حالياً بتونس!

ولقد حافظ الإسبان في زمن حروب الاسترداد، وحافظ الأوروبيون من بعدهم على هذا الاسم، بل إنهم زادوا توسيعاً لدلالته؛ إذ صار يدل على سائر من نسميهم اليوم «مغاربيين»، أو سكان شمال إفريقيا. وقدم الموريون المطرودون من إسبانيا للاستقرار في المدن الإفريقية؛ حيث احتفظ لهم البربر المستعربة باسم «الأندلسيين».

لكن ذكريات العصور القديمة الكلاسية، بالإضافة إلى الإيحاء «الانتقاصي» الذي تنطوي عليه الصفة الإغريقية، *μαυρος* (*Mauros*) قد أعادا الحياة على عهد الاستعمار إلى اسم الموريين Maures واسم موريتانيا Mauritanie (بدلاً من Maurétanie)، فصارا يدلان أحدهما على السكان الرحل، وغالبيتهم من المستعربة والثاني على البلاد الواقعة في جنوب المغرب؛ والمراد بها موريتانيا الطنجية سابقاً.

الجيتول

سمّى المؤلفون القدامى الجنس الثالث الذي استوطن شمال إفريقيا باسم «الجيتول». وتحديد موقع الجيتول أمر يغلب عليه التكهن والتخمين؛ فقد ورد الحديث عن وجودهم في المغرب، والجزائر، وتونس في وقت واحد، فكأننا بالليبيين سكان هذه المناطق كانوا عند نطاق معين من خط العرض يُجعل لهم تلقائياً اسم «الجيتول». لكن هذا الاسم لم يظهر إلا في وقت متأخر في الأدبيات؛ وكان سالوستيوس هو أقدم من ذكره من المؤلفين، وقد نَسب إلى الجيتول أنهم اضطلعوا بدور مهم في تكوّن الشعب النوميدي. وذكر تيت ليف أن بعض الجيتول كانوا جزءاً من جيوش هانيبال[1].

والذي يبدو أن الجيتول كانوا فيَ موريتانيا الطنجية شديدي التهديد [لجيرانهم]. وقد كان لبعض قبائل الجيتول، من «البانيور» *Baniures* و«الأوتولول» *Autololes* اندفاعة صوب الشمال، فقامت خلالها باحتلال البلاد التي لا يبعد أن يكون منها أصل قبيلة الموريين. ثم سار هؤلاء الجيتول في توسع صوب الجنوب، حتى جاءوا إلى

1 – Tite-Live (XXIII, 18, 1).

بلاد الإثيوبيين. ووقع الأمر نفسه كذلك في المقاطعات الرومانية الأخرى في إفريقيا. ولقد عمَّر الخلاف بشأن دلالة الكلمة «الإثيوبيين» *Ethiopien* وقتاً طويلاً، بما تعذر معه الاتفاق حول تحديد لموقعهم. فهل كان الجيتول يعمُّون السهوب والصحراء معاً أم كانوا يقتصرون على الأطراف الجنوبية من بلدان الأطلس، فيما الصحراء قد تُركت لأقوام من الملوَّنين؟ ولقد صرنا نعرف اليوم أن سكان الصحراء كانوا خلال العصور القديمة على شبَه بسكانها في الوقت الحاضر، فلم يعد سبب لذلك الخلاف فالجيتول الرحل كانوا يتنقلون في الصحراء وفي السهوب المجاورة، كفعل الرحل في الوقت الحاضر، وأما الأثيوبيون فقد كانوا يستوطنون الواحات، كما الحراثين. وربما جاز لنا القول كذلك إن مبتدأ إثيوبيا في شمال الواحات، أو إن جيتوليا تمتد في الجنوب إلى الحدود التي كان ينتهي إليها الرحل من البيض.

ويحق لنا من كل الوجوه أن نذهب إلى الاعتقاد بأن الجرمنتيين، وهم شعب من الرحل، كانوا يعيشون في فزان وفي تاسيلي نعاجر، قد كانوا من البربر ولم يكونوا من الإثيوبيين، بخلاف ما يذهب إليه سـ. گسيل، وقد كانوا على علاقة موصولة بالجيتول. وإذا زدنا إمعاناً في ناحية الشرق وجدنا الليبيين الرحل الذين ذكرهم هيرودوت يتوغلون بعيداً في الصحراء؛ فقد كان الناسامونيون Nasamons يخرجون إلى واحة أوجلة ليجنوا منها التمور، أو بالأحرى ليأخذوا نصيبهم من محصولها. وقد ربما شط بعضهم في المسير حتى جاءوا عند الأقوام من السود المجاورين في تشاد أو النيجر[1]. وفي أقصى الغرب كان الفريسيون الرحل، الذين



49. فارس يصطاد المها. نقيشة من تينزولين (جنوب المغرب).

1 – S. Gsell (IV, 172, 182, II, 22).

يميّزهم سترابون عن الإثيوبيين، يقطنون بلداً «يعرف وفرة الأمطار في الصيف»[1] ولا توجد مثل هذه الظروف المناخية في الوقت الحاضر إلا في جنوب وادي الذهب.

وليست حدود الأقاليم الجيتولية في الشمال بمعروفة أكثر مما هي في الجنوب. وقد رأينا عدم اليقين الذي يسود في تحديد المواضع في المغرب الأطلنتي، وهو شيء يزداد تفاحشاً في الوسط من بلاد الربر؛ فهذا سترابون لم يزد على القول إن بعض الأراضي [هنالك] كان يقوم على فلاحتها الجيتول. ومن الثابت لدينا أن قفصة أبعدَ إلى الشرق، كانت معدودة على عهد يوغرطة في بلاد الجيتول. وهذا ماريوس Marius قد ضم إلى جنده بعض السوقات من الجيتول، وأعطاهم أراضي في نوميديا ومقاطعة إفريقيا، وبقي أحفاد الجيتول ماريوسيين مخلصين خلال الحروب الأهلية. وبعد نصف قرن من الزمن تم لسيتيوس Sittius الاستيلاء، خلال الحرب الأهلية، على «مدينتين جيتوليتين»، وذلك بعد احتلاله لسيرتا؛ ولكن ليس معنى ذلك أن هاتين المدينتين كانتا قريبتين إلى المدينة النوميدية.

ويولي سـ. كَسيل أهمية كبيرة إلى دعوى أبوليوس Apulée، الذي يعرّف نفسه بأنه نصف نوميدي ونصف جيتولي، وأن موطنه مداوروش Madaure كان يقع إلى جوار نوميديا وجيتوليا[2]. وفي المقابل يكتب سترابون أن بين جيتوليا والساحل المتوسطي «يوجد الكثير من السهول والجبال، بل توجد كذلك بحيرات عظيمة وأنهار، وبعض هذه الأنهار ينقطع فجأة ويختفي في جوف الأرض»[3]. وهذا وصف صحيح للمناطق الواقعة جنوب قسطنطينة، لكن لا يبدو أن فيه ما يؤكد صحة دعوى أبوليوس. وسـ. كَسيل يدرج قبيلة المزالمة Musulames الكبيرة في الجيتول وأعتقد أنه يعتمد في هذا القول على نص أبوليوس. وإذا ما علمنا بأن حدود إقليم المزالمة كانت على عهد الإمبراطورية [الرومانية] لا تكاد تبعد بأربعة كيلومترات عن مداوروش، وأبوليوس يذكر أن هذه المدينة كانت تقع على تخوم نوميديا وجيتوليا يكون من المغري أن نقوم بهذه التقريب. لكننا لم نجد تاسيتيوس Tacite، ولا أياً من المؤلفين الذين عرضوا للمزالمة، ذكروا قط أن هذه الأقوام تدخل في الجيتول. وليس يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل إن تاسيتيوس، الذي أسهب في الحديث عن المزالمة في سياق تناوله لثورة تاكفاريناس Tacfarinas، يصفهم دائماً بالنوميديين. ثم إننا

1 – S. Gsell (XVII, 3, 7).
2 – Apulée (*Apologia*, 24, 1).
3 – Strabon (XVII, 3, 19).

لا يمكننا حتى أن نعترض بالقول إنه يستعمل هذه الكلمة بمعناها العام والواسع ذلك بأنه يميز بكل عناية بين النوميديين (المزالمة) الخاضعين لتاكفاريناس والموريين المؤتمرين لمازيبا Mazippa، ويفرق بينهم والجرمنتيين. وهذا بول أوروس Paul Orose يجمع في جملة واحدة بين المزالمة والجيتول؛ بما يعني أن المزالمة يتمايزون في اعتقاده عن الجيتول. ولو كان المزالمة من الجيتول فسيكون علينا أن نسلم بأن بعض الجيتول لم يكونوا من الرحل بأي حال، وأنهم كانوا لا يكادون يتمايزون عن المزارعين النوميديين فمن الواضح أن المقابر الكبيرة التي في قسطل وفي جبل مستيري Mistiri ضمن بلاد المزالمة، قد كانت مدافن للسكان من المزارعين المقيمين، ولم تكن بأي حال مدافن للرعاة الرحل.

فمن هذا الذي ذكرنا يتضح أن كلمة «جيتول» ليس لها من معنى سياسي وليس لها كذلك من معنى عرقي، فقد كانت تُستعمل على الدوام يُراد بها السكان الجنوبيون من المحيط إلى سرت، بل وحتى جنوب برقة[1]؛ أي أنها كانت تُطلق على أقوام هي بالضرورة من الرحل.

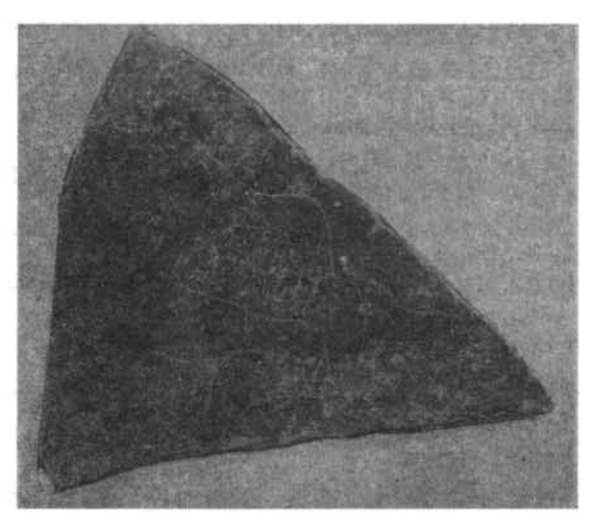
وقد كان الجيتول على اتصال بالجرمنتيين، الذين يصعب تمييزهم عنهم، وعلى اتصال بالإثيوبيين في الواحات وفي السودان، وعلى اتصال كذلك بإخوتهم في العرق النوميديين والموريين في بلدان الشمال السعيدة، بما يعني أنهم كانوا يستوطنون السهوب الشاسعة في الجهة شبه الصحراوية من بلاد البربر. وربما جاز لنا أن نُدخل المزارعين الذين تتحدث بعض المصادر عن وجودهم في مناطق متفرقة من جيتوليا في مجموعات السكان المقيمين، الذين كانوا يستوطنون معظم الأودية الرطيبة في الأطلس، وأما الجيتول فكانوا في غالبيتهم العظمى من الرعاة الرحل. وكان هؤلاء الفرسان، أحفاد «البقريين» البيض الذين عاشوا في أواخر العصر الحجري الحديث وأسلاف الجمّالين، تعلموا من قبلُ كيف يصعدون في الأصياف صوب المراعي التي في الشمال. وقد أمكن لهم خلال ذلك الصعود المتواتر في الصحراء وسط بلاد البربر أن يُدخلوا إلى المناطق الواقعة بطول تلك الطريق بعض أشكال الأنصاب التي يغلب فيها الطابع الإفريقي على الطابع المتوسطي. فالذي يبدو أن هؤلاء الرحل المحبين لحياة العزلة والتوحد كانوا يهتمون للعبادة المقابرية أكثر مما اهتم لها جيرانهم في الشمال. فالمذابح، والمعالم، والسراديب، والمصليات الملحقة بالقبور تدل عندهم على ممارسات لم يكن عهدٌ بها لدى النوميديين أو عند الموريين.

---

1 - Strabon (XVII, 3, 19, 23).

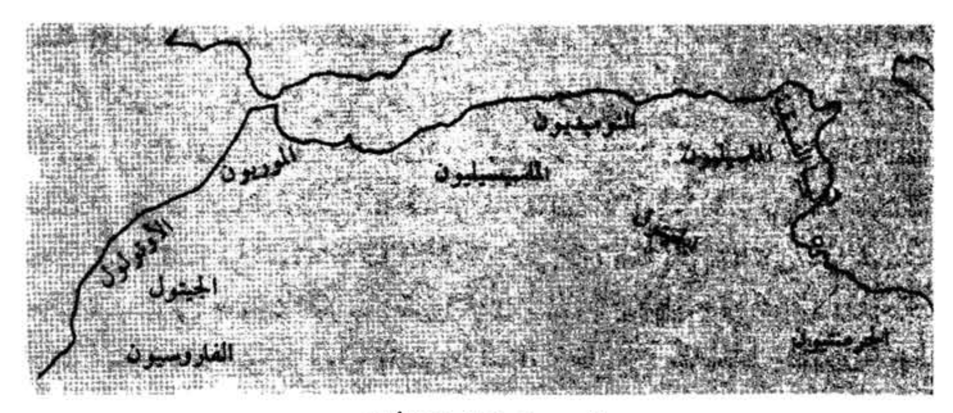
استمرار التقسيمات الإقليمية

لقد ظلت الساكنة البربرية، طوال العصور القديمة، أي إلى الغزو العربي، أو بالأدق إلى اللحظة التي صارت المصادر العربية تصور لنا إفريقيا في صورة مختلفة ظلت - ولو لم تتهيأ لها أسس وقواعد ترابية حقيقية - تتوزع بقدر من الاستمرارية تبعاً لرسيمة ثابتة من عهود ما قبل التاريخ. فهي بين رحل في المناطق التي تُعرف حالياً بليبيا، وفي جنوب المغرب الكبير حيث سُمّوا بالجيتول، وفي شرق الصحراء حيث سُمّوا بالجرمنتيين، وبين مقيمين وأشباه رحل في مقاطعات الشمال؛ فهم الليبيون الفينيقيون، والأفري في إقليم قرطاج، وهم النوميديون في غرب تونس وفي الجزائر، وهم الموريين في المغرب. وكما سبق لنا أن رأينا، فهذه التسمية الأخيرة صارت في الأخير تُطلَق على سائر الأقوام من غير المتروّمة، حيثما وُجدت من منطقة شمال إفريقيا.



50. مسلة منقوشة من قبر بمصلى في جرف التربة، قرب بشار (غرب الجزائر).

والحقيقة أن التفريق بين الأفري والنوميديين والموريين يبدو حتى للمؤلفين القدامى شيئاً مستقى من الكتابات أكثر مما هو انعكاس لواقع عرقي. فهذه التسميات ترتكز إلى المواقع الجغرافية للقبائل الرئيسية التي اشتُقت من أسمائها في بادئ الأمر أسماءُ الممالك الإفريقية، ثم أسماء المقاطعات الرومانية. وقد كان في السياسة التي ظلت من ثوابت العمل الإداري الروماني طوال قرون عديدة، والقائمة على حصر القبائل في نطاقات معلومة، سببٌ في تقوية هذا الأساس الترابي، حتى وإن كان قد تُرجم في انحسار كبير في المجال المخصص لكل قبيلة من تلك القبائل.



51. بربر شمال إفريقيا الأوائل.

ولقد كان الإفريقيون على شيء من الاستعداد لهذا الأمر، بفعل الاتصال الذي كان لهم منذ آلاف السنين بالقرطاجيين. فبعد أن زهد القرطاجيون في أن تكون لهم سيادة ترابية حقيقية (فقد كانوا حتى القرن الخامس يدفعون جزية، أو كانوا بالأدق يدفعون إيجاراً، عن المجال الترابي الذي تقوم عليه مدينتهم، إلى بعض الملوك المحليين الصغار)، لم يلبثوا أن كوّنوا لهم مجالاً ترابياً أول، انحصر في بادئ الأمر عند النواحي القريبة إلى تلك المدينة، ثم صار إلى اتساع حتى شمِل القسم الأكبر من تونس، وامتد في وقت من الأوقات حتى منطقة تبسة في الجزائر. وقد جرى هذا التوسع على حساب النوميديين الماسيليين، فكان رد فعل هؤلاء أن صاروا يبذلون الحرص الشديد على ما تبقى لهم من أراض. فالسياسة التي انتهجها ماسينيسا والقائمة على استعادة الأراضي على حساب قرطاج، ودأب عليها طوال نصف قرن من الزمن (201–150 ق. م.)، إنما كانت ترمي إلى التقليص من نطاق هذه المدينة إلى مجالها الترابي الذي كانت عليه في البداية، ولكنه قام في الوقت نفسه بالتوسيع من مملكته في ناحية الغرب، بضمّه مملكة سيفاقس ومملكة ابنه ڤرمينا، أي ماسيسيليا.

لقد كان في زوال الممالك النوميدية والمورية فائدة لروما، وكان زوال تلك الممالك على مراحل عديدة؛ فقد مرت قرابة القرنين من الزمن بين تدمير قرطاج (146ق. م.) وضم موريتانيا (40م). فلا يمكننا البتة أن نتحدث عن طمع [من جانب روما]، ولا أن نتحدث ولو عن تعجل [منها] للسيطرة على إفريقيا. فبعد إعدام بطليموس، آخر ملوك موريتانيا، جرى تقسيم البلاد إلى مقاطعتين وفقاً لثابتة ترابية من المهم التنويه إليها؛ فكانت إحدى تينك المقاطعتين، نريد موريتانيا القيصرية، تطابق بالتمام والكمال المجال الترابي الذي كان من قبل لماسيسيليا (وسط

الجزائر وغربها)، والمقاطعة الثانية هي موريتانيا الطنجية، وهي تطابق بالتمام والكمال المملكةَ المورية الأصلية.

إدارة القبائل في العهد الروماني

صارت الإدارة الرومانية حينئذ وليس أمامها غير قبائل تكون أحياناً شديدة بأس متى كانت تنزعم تجمّعات قبلية حقيقية؛ كما هو الشأن عند الباكوات* في موريتانيا الطنجية، وكما المزالمة في مقاطعة إفريقيا، والباڤار Bavares في موريتانيا القيصرية. وقد عرفت القبائل، أو «العشائر»، أوضاعاً إدارية شديدة اختلاف وتباين؛ فبعضها كان يخضع للحكم الشديد المجحف من ولاة (*praefectus gentis*) يكونون في معظمهم من الضباط الثانويين في الجيش الروماني ذوي الأصول المحلية. وكان هؤلاء الولاة يلجأون حين الاضطرابات إلى تكوين «قوم» goum من الجنود المساعدين.

وكانت أراضي القبائل المحكومة من هؤلاء الولاة تقع داخل المقاطعات الرومانية لكنها ظلت تحتفظ بتنظيمها السابق؛ فما أسهل ما كانت تستعيد روح الاستقلال لديها حين تنشب الاضطرابات، أو حين تضعف السلطة الإمبراطورية، فتتخلص من «قياد»ها، ما لم يكن هؤلاء هم من يطلقون تلك التمردات.

وبعض التجمعات القبلية تكون، حسب الأمكنة والأزمنة، يحكمها رؤساء يُمنح لهم اللقب الملكي المعترف به رسمياً من لدن الولاة الرومان، الذين كانوا يوقعون وإياهم معاهدات تحالف، ويسلمونهم في محافل رسمية شارات السلطة. وقد كان هؤلاء الرؤساء، على عهد بروكوبيوس (في القرن السادس) يحصلون على تاج وصولجان من الفضة، ومعطف، وسترة أبيضين، وحذاء مذهب. والحالة المعروفة لدينا أكثر من سواها، لأنها وردت في تكريسات عديدة اكتُشفت في خرائب وليلي (في موريتانيا الطنجية)، تتعلق بالملوك و«الأمراء» الباكوات. وإن في كثرة «هياكل السلام» التي تعود إلى القرن الثالث لما يدل في الحقيقة على ضعف ميثاق السلم الروماني (*Pax Romana*) في تلك المنطقة. وكذلك كان للجرمنتيين في الصحراء ملكٌ وكانت لهم به علاقات موصولة ورسمية.

---

*- Baquates، ويقال لهم كذلك الباغطيون.

غموض الوظائف الإدارية، والرئاسات البربرية في أواخر الإمبراطورية

لقد كان من الطبيعي أن يترافق الضعف الذي ران على سلطة الإمبراطور في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية مع انبعاث لقوة الرؤساء المحليين. فقد شهدت أواخر القرن الرابع صعود أسر كبيرة جمعت بين مناصب إدارية في المقاطعات الرومانية وقيادات تقليدية كبيرة. وأفضل مثال عليها تقدمه لنا تلك الأسرة الأميرية في منطقة القبائل؛ فالأب فلافيوس نوبل Flavius Nubel كان يملك أرضاً شاسعة ودارة محصّنة، أو ما يمكن أن نسميه اليوم «برجاً»، في منطقة بلاد كَيتون Blad Guitoun (منرفيل Ménerville سابقاً)، وأغلب الظن أن يكون لأجله شُيّد الضريح الجميل في تلك الناحية. ثم كان أن تزعم ابنه الأكبر فيرموس Firmus في سنة 372 تمرداً واسعاً امتد إلى قسم كبير من موريتانيا القيصرية، ولقي القائد البربري الدعم من قبائل كثيرة في منطقة القبائل، ومن الونشريس، والظهرة. وحتى لقد استولى على عاصمة المقاطعة؛ قيصرية Caesarea (شرشال Cherchel) وأحرق الإكوزيوم Icosium (في مدينة الجزائر). وتطلب الأمر إرسال مدير الجنود (*magister militum*) ثيودوس Théodose، والد الإمبراطور المقبل، الذي تسمى بالاسم نفسه، على رأس حملة حقيقية للقضاء على ذلك التمرد. والحال أن التاريخ عرف أربعة إخوة لفيرموس قد تقلدوا هم الآخرون أرفع المناصب؛ وهم: ساماك Sammac، الذي حاز قلعة بترا Petra في وادي الصومام Soummam جنوب بجاية، وجيلدون Gildon، الذي شارك إلى جانب ثيودوس في محاربة أخيه فيرموس، وصارت له على عهد هونوريوس Honorius صفة الكونت على إفريقيا، وهي أكبر سلطة عسكرية في سائر المقاطعات الإفريقية. ثم لم يلبث أن تمرد بدوره على السلطة الإمبراطورية، وكان تمرده خاصة على ستيليكون Stilicon الوزير القوي لهونوريوس الضعيف. ثم أعلن جيلدون ولاءه للإمبراطور الآخر (الأبعد) أركاديوس Arcadius، وكان مقر حكمه في القسطنطينية، فأوقف توريد الزيت والقمح الإفريقيين، فكان بذلك يستعمل سلاحاً اقتصادياً رهيباً قد أوشك يجوّع روما في بضعة أسابيع. وجُعِل أخوه ماسيزيل Mascezel على رأس القوات التي أرسِلت لمحاربته، فتم له القضاء عليه في ربيع 398. لكن ماسيزيل سيُعدَم بدوره بُعيد ذلك، وسيُقتل معه ديوس Dius آخر أبناء نوبل.

تبين هذه القصة المأساوية إلى أي مبلغ من القوة وعلو المقام وصلت أسرة إفريقية حديثة عهد بالتروُّم، لكن مسيحية، كان معظم أفرادها يحملون أسماء بربرية (نوبل، وجيلدون، وساماك، وماسيزيل). بل وجدنا دوقاً (*dux*) سابقاً هو المسمى ماستيس Masties يقوم، في أواخر القرن الخامس تحت حكم الوندال يُعلن نفسه إمبراطوراً في الأوراس، ويصدع بولائه لروما، ويشهر صفتَه المسيحية.

وإذا كانت هذه الأمثلة معروفة أكثر من غيرها، فإنها لا تمثل حالات معزولة. ففي تلك الفترة نفسها أُقيمت في البوادي والقرى الإفريقية فنادق *fondus* وقلاع *castellum* خاصة ودارات وبيوت محصنة، وكلها شواهد على التفكك الذي وقع في السلطة [الرومانية].

وسوف تؤدي هذه السلطات الإقليمية التي صارت للزعماء البربر في القرون التي بعدُ، وتحت حكم الوندال ثم البيزنطيين، إلى نشوء ممالك حقيقية مستقلة لكن لم تكن أسسها من القوة التي تؤهلها للصمود طويلاً للغزو العربي. ولا تعوزنا الشواهد الأدبية والمعمارية، وحتى النقائش الكتابية في هذا الباب، وهي تساعدنا على تصور إلى ما كان يمكن أن تصير هذه الممالك، التي جمعت في غير تنسيق أخلاطاً من بقايا ثقافة لاتينية، ومسيحية بسيط، وتقاليد بربرية راسخة. وكان ماسونا Masuna واحداً من هؤلاء الأمراء [البربر]، وقد أعلن نفسه في غرب الجزائر ملكاً على المورين و«الرومان». أوَليست هي الصفة ذاتها التي أعلنها كلوفيس Clovis لنفسه خلال الفترة نفسها في شمال بلاد الغال؟

البربر في العصور الوسطى

الحصول على سلف

يبدو أن مختلف الأقوام والإمارات البربرية التي عاشت في العصور القديمة كونت مجموعة من الأعراق بقيت أسماؤها، وحتى بعض مواضعها، ثابتة لم يكد يطالها تغيّر على مر العصور. وها قد رأينا أن في العهد الروماني كان التصور الإقليمي للسلطة عاملاً في ظهور توجه واضح جليّ عند الإفريقيين إلى تكوين أقاليم خاصة بهم، آلت بعد ذلك إلى القبائل (*gentes*) ثم إلى الأمراء.

وشتان ما بين هذه الصورة وتلك التي يأتي بها المؤرخون العرب من القرون الوسطى للبربر. وصحيح أن هؤلاء الكتاب، خاصة منهم ابن خلدون، وهو المصدر الرئيس، لم يكتبوا إلا بعد الغزو العربي بقرون عديدة، وأنهم إذا كانوا يرجعون إلى نصوص سابقة عليهم بكثير، بعضُها من إنشاء بحاثة من البربر قد تلقوا علومهم باللغة العربية، فإنهم يصدرون عن تصورات مختلفة كلياً عن تصورات من كتبوا في العصور القديمة. فقد كان هؤلاء يصدرون عن رؤية شمولية وإقليمية معاً فكان عندهم أن كل شعب يقطن منطقة من المناطق يمكن أن يكون جاء إن جزئياً أو كلياً من بلاد أخرى. وحسبنا أن نعود في فهم هذه الآلية إلى الأسطورة التي نقلها سالوستيوس بشأن أصول النوميديين والموريين، أو نعود إلى نص بروكوبيوس الذي أنشأه بعد ذلك بستة قرون عن تلك الأصول.

وفي المقابل فإن المؤرخين العرب يغلب عليهم في ما كتبوا منحى النسابة. فالذي يهتمون له في أبحاثهم، ويشكل مصدر المتعة في كتاباتهم، إنما هو السعي الحثيث لتكوين أنساب، يسيرون معها ارتداداً في الزمان للانتهاء إلى الجد الذي منه جاء اسم النسب من الأنساب. وهذا تصور أبوي نراه ثابتاً عند المشرقيين وقد كان الفينيقيون أدخلوه من قبلُ لدى البربر. فبعض المسلات في قرطاج، وفي بعض المدن الإفريقية ذات الثقافة البونيقية، وحتى في وليلي القصية، تطالعنا بسلاسل

أنساب لامتناهية، ومن قبيلها المسلة التي تخص القاضي سويتنكن في وليلي، وقد سلفت إشارتنا إليها؛ فهي تبيّن أسماء أجداده على امتداد ستة أجيال. ولقد ضربت هذه العادة الفينيقية بأطنابها لدى الليبيين، لكنها خفّت في العهد الروماني، فأصبح يُقتصر عامة على ذكر الأب.

وأما مؤرخو العصور الوسطى فما عادوا يتحدثون عن أقوام، بل صار حديثهم عن أسر أبوية كبيرة. فالفخدات، والعشائر، والقبائل تعرف قرابتَها إلى بعضها - أو تقول بتلك القرابة - عن طريق الاعتراف بوجود جد مشترك بينها، أو من خلال الوجود الثابت لذلك الجد. ومن الواضح أن هذا التصور النَّسَبي لا يستند إلى أي أساس ترابي، ولذلك فبعض المجموعات تزعم انحدارها من جد واحد تتسمى باسمه، وتكون تتوزع على مواضع تبعد عن بعضها بآلاف الكيلومترات. فهؤلاء صنهاجة أحفاد برنس*، تجدهم في منطقة القبائل الكبرى، وفي الهقار، وعلى مقربة من السنغال (الذي منهم جاء اسمه)، فتكون لهم لذلك أساليب وأنماط في العيش في غاية التباين والاختلاف.

والتفرق، بل التشتت، نراه أكبر وأعظم في «أسرة» أخرى؛ ذلكم هم زناتة أحفاد ضاري Dari، وهو نفسه حفيد لمادغيس Madghis. كتب هـ. تيراس H. Terrasse : «كانت زناتة تمتد متوسعة حيثما لم تلق مقاومة كبيرة، ثم تتراجع أو تنتقل عن مواضعها متى مُنيت بالفشل». فنحن نجد لهذه القبيلة أحفاداً في سائر مناطق المغرب الكبير وشمال الصحراء.

إن هذه الأنساب العديدة التي ظلت محفوظة في الذاكرة الجماعية [دون أن يطالها نقصان]، وكانت تزداد تشعباً، بما يتحتم عليها من تحالفات سياسية، أو ضم أفخاد جديدة إليها، تبعثنا على شعور ممض بالتفرّق والالتباس يقوم على طرفيّ نقيض مع التوزّعات الجغرافية في العصر الكلاسي. وليست هذه التوزّعات بأصح [من تلك الأنساب]، لكنها تقوم على ثابتة ترابية تتأبى كلياً عن إدراك النسابة العرب.

صحيح أننا إذا ما وضعنا أنفسنا في عهد ابن خلدون، مصدرنا الرئيس؛ أي في القرن الرابع عشر، سنجد أن هنالك ثلاثة أحداث ذات أهمية كبيرة قد هزت المعطيات الجغرافية السياسية والعرقية لإفريقيا القديمة. أول تلك الأحداث وأشدها

*- هو صنهاج بن برنس بن بربر.

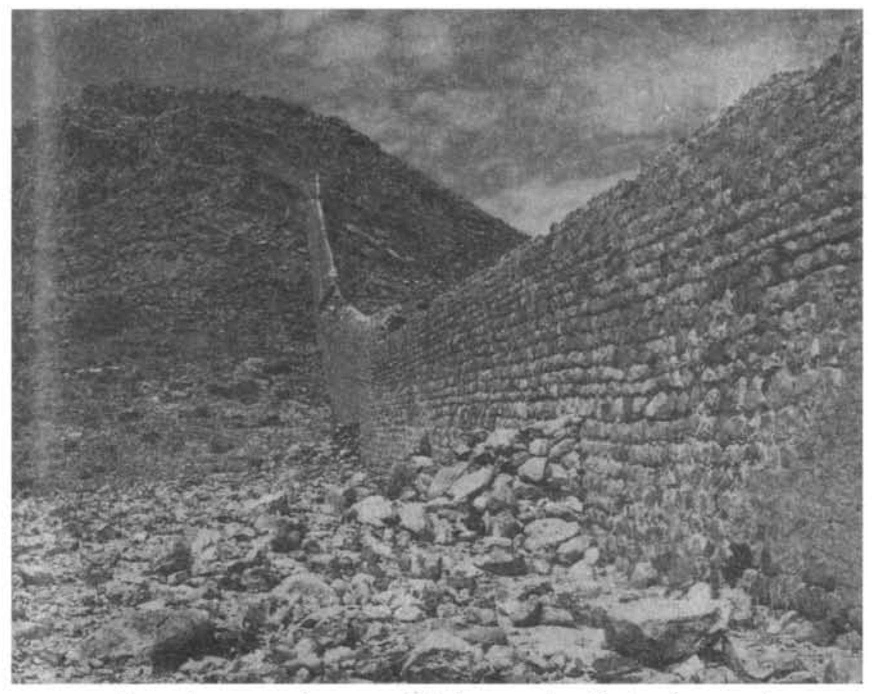
غموضاً يتمثل في ظهور قبائل كبيرة من الرحل الجمَّالين على الطرف الجنوبي الشرقي لإفريقيا الرومانية، وذلك ابتداء من القرن الرابع . والثاني هو الغزو العسكري العربي الذي وقع في القرن السابع . والثالث هو المتمثل في وصول قبائل عربية عديدة من الرحل في القرن الحادي عشر، أو ما يسميه المؤرخون بالاجتياح الهلالي.

قبل الإعصار، صحراء هادئة

لم تبدأ قبائل الجمَّالين الكبيرة في ممارسة ضغط مقلق حقاً على طرابلس الغرب إلا في القرن الرابع . وقد كانت روما أقامت في القرنين الثاني والثالث شبكة من الطرق وعزّزتها بكثير من المواقع الحصينة، سُميت بقصد التبسيط خطوطاً للتحصينات. وما كانت مجرد خطوط حدودية، بل كانت مناطق عسكرية تتسع في بعض الأحيان إلى مائة كيلومتر أو نحوها، فمكنت من توطين مزارعين على أراضي كانت من قبل مناطق للتنقل، كما أتاحت الاتساع لنطاق تجارة للقوافل عبر الصحراء، وسمحت بمراقبة تنقلات الأقوام من أشباه الرحل. وبين أيدينا شواهد كثيرة على هذه العملية من احتلال الصحراء وتعميرها. وإن روعة مدينة مثل لبدة الكبرى Lepcis Magna وثراءها ليعتبران نتيجة مباشرة لذلك الاحتلال وذلك التعمير. وقد تكون الأكثر إثارة [في هذا الصدد] تلك الوثائقُ البسيطة التي عُثر عليها في بونجيم وهي نقطة عسكرية في صحراء طرابلس قد اشتغل ر. ريبوفا R. Rebuffat بالتنقيب فيها سنين عديدة. وما كانت هذه الوثائق سوى شقوف من الفخار القديم *ostraca* مسجلة عليها في بضع كلمات كلُّ الأحداث [حتى الصغيرة منها والزهيدة] : «إرسال جندي مرتزق في مهمة عند الجرمنتيين»، أو «مرور بعض الجرمنتيين يقودون أربعة جحوش» (*Garamantes ducentes asinos IV...*). فمنذ القرن الثاني كان الجرمنتيون يستوردون المنتجات الرومانية، من قبيل الجرار والآنية الزجاجية والحلي حتى إلى قصورهم البعيدة في فزان، وكان مهندسون من الرومان يقومون على بناء الأضرحة للأسر الأميرية في جاراما Garama (Djerma).

لفاتة ولواتة : خطر الجمّالين

تطالعنا هذه الأقاليم في أواخر الإمبراطورية الرومانية في صورة من عدم الاستقرار. فهذا أمين مارسولين Ammien Marcellin يفيدنا أن إحدى قبائل الرحل، هي المسماة أوستورياني *Austoriani* (وتُعرف كذلك باسم أوستور *Austur*، وأوستوريي *Austurii*، وأوسوريانى *Ausuriani*، فاللاتين والإغريق كانوا على الدوام يشوّهون اسم البربر أيما تشويه)، حاصرت* في سنة 363 لبدة الكبرى وأويا Oea* ، وربما تكون حاصرت كذلك صبراته، وهي المدينة الثالثة في طرابلس الغرب. واضطر الكونت على طرابلس الغرب إلى أن يعود لمحاربة القبيلة المذكورة في سنتي 408 و423. وفي الوقت نفسه كان ظهور هذه القبيلة في برقة، حسبما يفيدنا سينيسيوس Synesius، الذي لم يترك مجالاً للشك بشأن هوية هذه الأقوام فهو يصفهم بأنهم رُحل خبيرون بتربية الجمال، ويقدرون على التنقل لمسافات طويلة على أطراف الصحراء. وقرناً بعد ذلك، تحت حكم الوندال، وفي أثناء الغزو الثاني



52. كلوسترا بئر أم علي، أحد مكونات خطوط التحصينات الرومانية في الجنوب التونسي.

*- الاسم القديم لمدينة طرابلس الليبية.

*- كتب: «une tribu nomade (...) assiègent» !!

البيزنطي، توغل هؤلاء الأوستوريون أنفسهم، ومعهم قبائل أخرى، في بيزاسين Byzacène (في وسط تونس وجنوبها)، بل تحالفوا مع بعض الموريين، كانوا دون شك من سكان الجبال في منطقة الظهير التونسي، وهم الذين كوّنوا لهم مملكة تحت حكم المدعو أنطالاس Antalas*. ومن جملة هؤلاء الرحل الذين توغلوا يومئذ بعيداً في البوادي الإفريقية، كانت هنالك قبيلة سنؤثرها بالحديث فوق غيرها. وتُعرف هذه القبيلة بتسميات شتى؛ الأكَواس Ilaguas، ولاكَواتان Laguatan ولڤاتة Levathae، وهي الأقوام نفسها التي تُعرف عند المؤلفين العرب باسم «لواتة». ويذكر بروكوبيوس وكوريبوس Corippus أن في سنة 544 توغل لواتة في بيزاسين، وبعد أربع سنين حاصروا الأعراش Lares (Lorbeus)؛ تلك المدينة المهمة الواقعة واسطة بين قرطاج وتبسة. وقد وجد البكري وابن خلدون لواتة هؤلاء أنفسهم في جنوب الأوراس وحتى قريب من تيارت*. فكأننا بهذه القبائل الكبيرة من الرحل ظلت تتقدم ببطء طوال قرون من برقة باتجاه وسط المغرب الكبير. فكانت واحدةً من تلك الحركات التي كنا نراها من قديم العصور تدفع أقواماً من الشرق صوب المغرب الكبير.

وتحكي القصيدة الملحمية حنّا*، التي أنشأها كوريبوس، وهو آخر الكتّاب اللاتين في إفريقيا، عن المعارك التي لزم حنا تروگليتا Jean Troglita، قائد القوات البيزنطية، أن يخوضها ضد هؤلاء الخصوم الأشداء، حلفاء الموريين في الداخل. فقد بقي هؤلاء البربر الرحل على الوثنية؛ فهم يعبدون إلهاً يمثلون له بثور، ويسمونه گورزيل Gurzil، وإلهاً للحرب، يسمونه سنيفير Sinifere. وكانوا يجعلون جمالهم، التي كانت تخيف خيول الفرسان البيزنطيين، على هيأة دائرة؛ فتقوم للنساء والأطفال الذين يتبعون هؤلاء الرحل في تنقلاتهم بالحماية.

*- من أبطال المقاومة الأمازيغية المورية، ومن أهم ملوك إمارة الفركسيس في الظهير التونسي.

*- يريد قول ابن خلدون : «وكان منهم بجبل أوراس أمة عظيمة ظاهروا أبا يزيد مع بني كملان على أمره. ولم يزالوا بأوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكتامة، ويدهم العالية عليهم تناهز خيالتهم ألفاً وتجاوز رجالاتهم العدة. وتستكفي بهم الدولة في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة فيحسنون الغناء والكفاية»، **تاريخ ابن خلدون**، م. ذ.، ج. 6، ص 153. ولعله يريد كذلك قول البكري : «وهذه تيهرت الحديثة (...) وبقبليها لواتة»، **المسالك والممالك**، م. ذ.، ص. 734.

*- *Johannide*



53. الطوارقي، وهو المتسلح برمحه المعدني (إلير) وسيفه (تاكَوبا) بمقبضه ذي الشكل الصليبي لا يكاد يختلف عن الجمّالين الرحل الذين دخلوا إلى المغرب الكبير ابتداء من القرن الخامس الميلادي.

الجمل في الصحراء: استجلاب أم استكثار؟

تداول الدارسون طويلاً في الظهور المفاجئ الذي كان للجمل، أو على وجه التحديد الجمل وحيد السنام، في تاريخ البربر. وقد كان هذا الحيوان شيئاً نادراً جداً في زمن القفصيين، لكنه لم يكن منعدماً بالكلية. كما وأننا لا نقع له قط على تمثيلات في النقائش أو في الرسوم التي تعود إلى العصر الحجري الحديث. وإذا كان بلين الأكبر لم يذكره بين حيوانات إفريقيا، فإنه لم يذكر الحمار كذلك بشيء، وهو الدابة الركوبة بامتياز في بلدان المغرب. وفي المقابل كان الجمل في القرن الأول قبل الميلاد حيواناً واسع الانتشار [في إفريقيا]، كما يدلنا عليه استيلاء قيصر César على خمسين من الجمال كانت تخص الملك النوميدي يوبا الأول Juba I. كما وأننا نعلم عرَضاً أربعة قرون بعدُ، أن جثمان المتمرد فيرموس قد حُمل إلى ثيودوس موثوقاً فوق ظهر جمل. غير أن هذه الوثائق الأدبية، وما يعززها من تماثيل صغيرة نادرة مصنوعة من الطين أو يسندها من صور على الفسيفساء، لا تجيز لنا أن نجزم بأن الجمل كان حيواناً واسع الانتشار في إفريقيا خلال القرون الأولى من زمن الإمبراطورية. وإن بين هذا الذي ذكرنا وبين الاعتقاد الذي يذهب أصحابه إلى أن الجمل أدخِل إلى إفريقيا

خلال القرن الثالث على أيدي السوقات السورية في الجيش الروماني، والاعتقاد بأن البربر أمكن لهم، بعد أن تحولوا إلى مربين للجمال تأسيّاً [بأولئك السوريين] أن يغزوا الصحراء بفضل هذه الدابة الركوبة المتوائمة مع البيئة الصحراوية بين هذين التصورين مسافة لم يتردد مؤرخون كثر في تخطيها، إسوة بما فعل إ. ف. گوثيي E. F. Gauthier.

فلا يقوم هذا الرأي على أي حجة صحيحة. فمن المعلوم (انظر الفصل الأول) أن المتوسطيين المربِّين للخيول قد كانوا يسيطرون على الصحراء قروناً عديدة قبل أن يقع عليها ذلك الاحتلال المزعوم من البربر الجمَّالين. والحكمة تقتضينا أن ننظر في الاتساع الذي تحقق لتربية الجمال في طرابلس الغرب منذ القرنين الرابع والخامس وأن نتتبع التقدم الذي كان من هذه القبائل صوب الغرب، وربما كان منها ذلك التقدم كذلك صوب الجنوب.

البتر والبرانس، صنهاجة وزناتة

قضى هؤلاء الرحل الجمالون في السهول الجنوبية على حياة الاستقرار والزراعة التي لم يكن لها أن تتحقق بغير النظام الذي جُعلت عليه خطوط التحصينات. وإن



54. جمَّال في تمثال صغير من الطين المحروق في متحف سوسة (تونس). وهو واحد من الشواهد النادرة على وجود الجمل في إفريقيا القديمة.

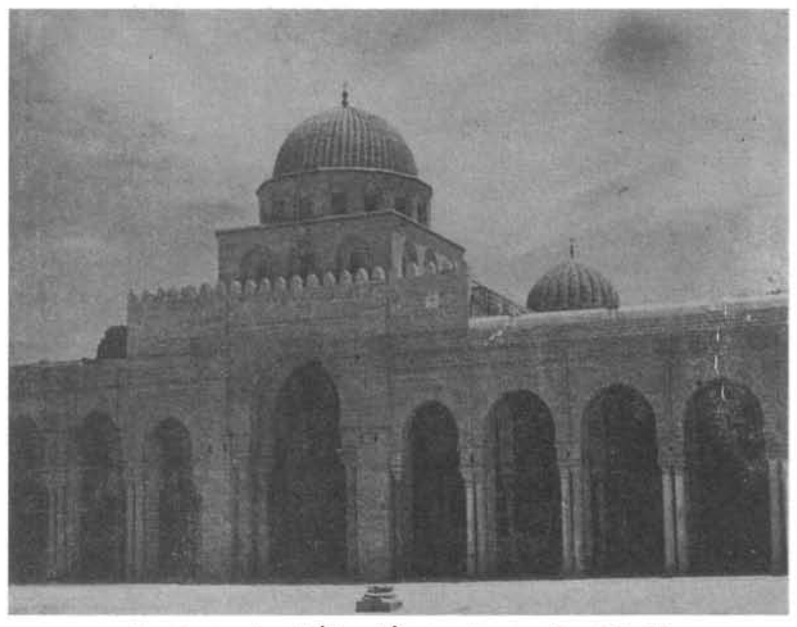
ظهور رحل حقيقيين في عالم إفريقي كانت الإدارة الملكية، ثم الرومانية، قد دفعت منذ قرون بالبربري إلى حصر مجاله فيه في ما يغرس من صفوف البصل، وما يُقيم من خطوط أشجار الزيتون، قد كانت له نتائج عظيمة على البلاد وعلى السكان. فلما زال ذلك الخط الفاصل، إذا أشباه الرحل الذين كانوا من قبلُ يخضعون لمراقبة وتصفية شديدتين أثناء ما كانوا يرتادون من مواطن الكلإ بين السفح الصحراوي والهضاب التي تنتشر فيها زراعة الحبوب، قد صاروا يومئذ يتأبون عن أي حصر أو تضييق. فلقد صاروا يزيدون توغلاً في الأراضي الزراعية الغنية، مدفوعين بضغط الرحل الجمالين، أو مختلطين بهؤلاء القادمين الجدد. وترافق هذا التوغل من الجمالين ابتداء من القرن السادس، كما ترافق الغزو العربي في القرن السابع بتغيُّر مناخي، أصبح شيئاً مسلماً به عند غالبية المختصين [في البربر]؛ تمثل في الجفاف الذي حاق بالأراضي في الشرق الأدنى، كما حاق باليونان وتونس. وفي هذا الأمر تفسير للضعف الذي صارت إليه تجمّعات المزارعين التي وطّنت في الأطراف الجنوبية من المجال الزراعي. كما كان لهذا الأمر نتيجة أخرى تمثلت في إدخال مجموعات بربرية جديدة قادمة من الشرق في هذا الوسط من أوائل البربر، وما كان هؤلاء يتميّزون بنمط عيشهم ودوابهم الرّكوبة، وحتى حيواناتهم فحسب، بل إن أكثر ما كان يميزهم لغتُهم. فاللغويون قد تعرفوا على مجموعة خاصة، هم زناتة، وإليها ينتمي هؤلاء القادمون الجدد. فليس لزناتة هؤلاء نسب إلى النوميديين والموريين، ولقد اكتسحوا الجيتول، واحتووهم في تجمعات قبيلة جديدة، وجعلوا لهم، من خلال عملية الاستيعاب بغرض التحكم والسيطرة نسباً جديداً.

وأهم مجموعة بين هؤلاء القادمين الجدد هي صنهاجة، فقد أقامت لها في مناطق مختلفة من المغرب الكبير والصحراء ممالك وإمبراطوريات عديدة. ولقد وقع [الباحثون] في تبسيط شديد بالمعارضة القاطعة التي أقاموها بين زناتة وصنهاجة. فعلى الرغم من تلك النزاعات المتواترة بينهما، فإن من الخطإ الاعتقاد أن البربر الرحل كلهم زناتيون وسائر الصنهاجيين مقيمون. فنحن لا نكاد نجد في الوقت الحاضر من رحل ينتمون إلى المجموعة اللغوية الزناتية؛ فقد كانوا أول المستعربة من البربر. وفي المقابل فإن ما بقي اليوم من لهجات البربر الرحل (الطوارق) إنما ينتمي إلى المجموعة الصنهاجية.

الغزو العربي : الحملات الأولى

كان الغزو العربي ثاني أكبر حدث تاريخي هز البنيان الاجتماعي للعالم الإفريقي. وبعكس الرأي الشائع في أوروبا، والذي لا تزال ترى له وجوداً في مقرراتها المدرسية، فإن هذا الغزو لم يكن محاولة استعمارية؛ أي لم يكن مشروعاً استيطانياً. لقد تمثل الغزو العربي في سلسلة من العمليات العسكرية الخالصة، ما أسهل ما يختلط فيها الطمعُ في الغُنْم مع الروح الدعَوية. وبخلاف صورة أخرى تُجعل لهذا الغزو، فإنه لم يكن كذلك بالجولة البطولية على ظهور الخيل، تكتسح أمامها كل مقاومة ببساطة متناهية.

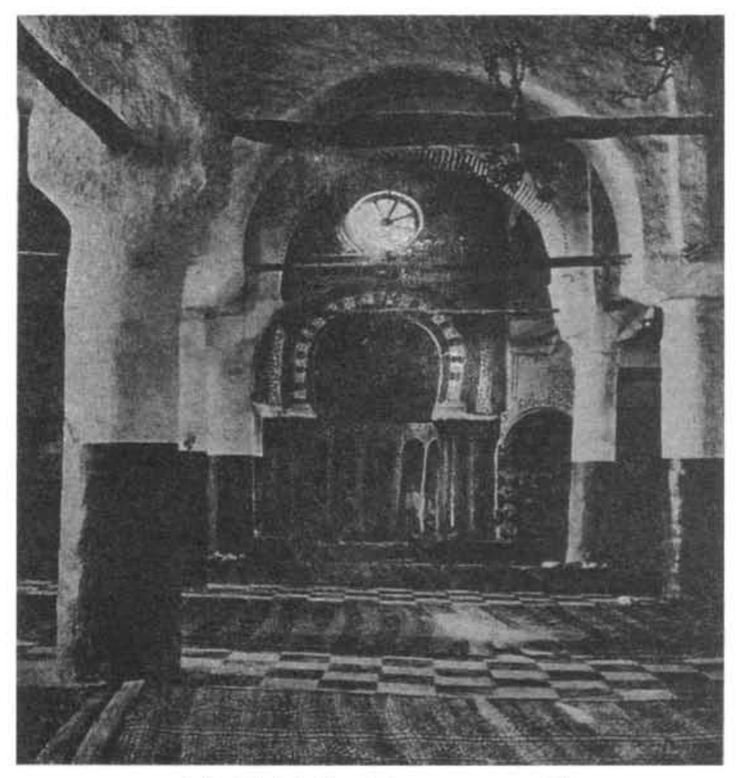
كانت وفاة النبي محمد سنة 632، وبعد عشر سنين احتلت جيوش الخلافة مصر وبرقة. وفي سنة 643 توغلت هذه الجيوش في طرابلس الغرب. وقد أرسِل بحملة من الفرسان تحت قيادة ابن سعد* حاكم مصر وأخي الخليفة عثمان من الرضاعة على إفريقية (وهو تحريف عربي للاسم القديم «مقاطعة إفريقيا» *Africa*)، وكانت يومئذ مسرحاً لمواجهات طاحنة بين البيزنطيين والبربر المتمردين، وفي ما بين البيزنطيين بعضهم ضد بعض. ولقد كشفت هذه العملية عن ثراء البلاد، وكشفت كذلك عن



55. الجامع الكبير في القيروان، أول منشأة للمسلمين في إفريقية.

* - يريد عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

أوجه الضعف فيها. كما وأنها قد حركت إليها المطامع المتأججة. ويصور لنا المؤرخ النويري* السهولة التي تم بها يومئذ إعداد جيش عربي صغير من سوقات ساهمت بها معظم القبائل العربية. وكان خروج هذه القوات من المدينة في شهر أكتوبر من سنة 647، وربما لم يكن عددها يتجاوز خمسة آلاف رجل، ولكن في مصر زاد إليها ابن سعد، الذي تولى قيادتها، جيشاً من عين المكان، بما رفع تعدادها إلى عشرين ألفاً من المقاتلين المسلمين. ووقع الصدام الحاسم مع الروم (البيزنطيين) بقيادة البطريق گريگوار Grégoire على مقربة من سبيطلة (Suffetula) في تونس، وكان فيها مقتله ولكن العرب انسحبوا راضين، بعد نهبهم البلاد المنبسطة، وتحصلهم على جزية عظيمة من مدن بيزاسين (سنة 648). ولم يكن لهذه العملية من غرض آخر.



56 . مسجد سيدي عقبة من الداخل (الجزائر).

*- أحمد بن عبد الوهاب النويري، **تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (إفريقية والمغرب. الأندلس. صقلية وأقريطش)**. من كتاب **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.

عقبة، الفارس المغامر في سبيل الله

لم يبدأ الغزو العربي الحقيقي إلا في زمن الخليفة معاوية، الذي أعدّ جيشاً جديداً بقيادة معاوية بن خديج في سنة 666. وبعدها بسنين ثلاث* أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان، فكانت أول مدينة إسلامية في المغرب الكبير. وتفيدنا الروايات التي تناقلها المؤلفون العرب، مع ما فيها من اختلافات كثيرة، أن عقبة قد زاد خلال ولايته الثانية من تكثيف الغارات وتوجيهها ناحية الغرب؛ مكنت له الاستيلاء على مدن مهمة، مثل لمبيز Lambèse، التي كانت هي المقر للفليق الثالث والعاصمة لنوميديا الرومانية. ثم توجه بعدها صوب تاهرت، على مقربة من مدينة تيارت الجديدة ووصل حتى طنجة؛ حيث صوّر له شخص يسمى يوليان Yuliân (أو يوليانوس Julianus)، بربَر سوس (في جنوب المغرب) في صورة فيها الكثير من التحامل. فقد حدثه عنهم بقوله: «إنهم قوم لا دين لهم، يأكلون الجيف، ويشربون من دماء مواشيهم، ويعيشون عيشة الحيوانات، لأنهم لا يؤمنون بالله، بل لا يعرفونه». فأوقع فيهم عقبة مذبحة عظمية، وسبى نساءهم، وقد كن آية في الجمال. ثم تقدّم حتى غاصت حوافر حصانه في البحر المحيط، وهو يُشهد الله أنه لم يعد من أعداء للدين فيحاربهم ولا كفرة فيقتّلهم.

إنها رواية يغلب عليها الطابع الأسطوري. وتوجد بإزائها روايات أخرى تقول إن عقبة تقدم حتى أغوار فزان، قبل أن يشن معاركه في المغرب الأقصى، وفيها استهانة كبيرة بالمقاومات التي وقفت في وجه تلك الحملات. والحال أن الحملة التي قادها عقبة نفسه قد انتهت إلى كارثة ظلت تهتزّ لها السيطرة العربية على إفريقية خمس سنين. فقد أعطى القائد البربري كسيلة، وإن يكن تحول قبلها إلى الإسلام انطلاقةَ الثورة. فكان أن سُحقت قوات عقبة وهو في طريق العودة، جنوب الأوراس وقُتِل هو نفسه في تهودة، على مقربة من المدينة التي تحمل اليوم اسمه وتضم قبره سيدي عقبة. وزحف كسيلة على القيروان، فتم له الاستيلاء عليها. وتراجعت بقايا الجيش الإسلامي حتى برقة. ثم توالت الحملات والغارات، فكانت لا تكاد تخلو منها سنة من السنين. وكان مقتل كسيلة في سنة 686، وما أمكن الاستيلاء على قرطاج إلا في سنة 693*، ثم كان بناء مدينة تونس في سنة 698. وتزعمت المقاومة لبضع سنين امرأة من جراوة، إحدى قبائل البتر سادة الأوراس. وقد كانت هذه المرأة

*- بل في سنة 693 تمت السيطرة على إفريقية. وأما قرطاج فتمت السيطرة عليها سنة 695.
*- بل بعد أربع سنين. فبناء القيروان كان في سنة 670. انظر ههنا، ص. 227.

تسمى «الداهية»، وقد بات معلوماً لدينا الآن أنها كانت على المسيحية. لكنها صارت تشتهر بالكنية التي جعلها لها العرب؛ «الكاهنة». ويمكن القول إن وفاتها حوالي سنة 700* كانت فيها نهاية للمقاومة المسلحة من البربر للعرب. وبالفعل فعندما جاز طارق المضيق، الذي صار يُعرف باسمه (جبل طارق) لغزو إسبانيا، كان معظم جيشه يتألف من مقاتلين بربر، من الموريين.

نشر الإسلام وزوال الممالك البربرية المسيحية

كانت النتيجة الرئيسية للغزو العربي أن تحول معظم البربر إلى الإسلام، وهو تحول قد تم بوتيرة أخف مما يُقال. وما تبقى من المسيحية غير جزر صغيرة في المدن وحتى من تلك التي كانت حديثة إنشاء؛ مثل القيروان وتاهرت. وكانت بعض القبائل التي تهوَّدت في ظروف غير معلومة، هي التي كونت بداية التجمع السكاني للأهالي اليهود في شمال إفريقيا. ولقد تحول البربر بأعداد كبيرة إلى الإسلام على الرغم من «الردات» الكثيرة التي وصَمَهم بها المؤلفون العرب. وكان في هذا التحول مبتدأ الحرص الذي صار من معظم الأسر البربرية الكبيرة على الدخول في سلسلة نسب مشرقية. ومع أن النسابة البربر يعرفون أن البربر مختلفون عن عرب الحجاز، فلقد بحثوا لهم عن أصول حميرية (من شبه الجزيرة العربية)، أو بحثوا لهم، كما سبق لنا أن رأينا، عن أصول كنعانية؛ وهو الأمر الذي يجزم به ابن خلدون*. وقد كان في وجود تقليد مماثل ابتداء من العهدين الروماني والبيزنطي قائم على ذكرى بعيدة لأصول بونيقية، ما شجع رجال الدين على ركوب هذه المحاولة الأولى ليطمسوا بها هويتهم البربرية.

وكان للغزو العربي في القرن السابع نتيجة أخرى أبيَن وأوضح؛ فلقد حال دون تطور هذه الممالك المورية، التي كانت تعتمد على قوة القبائل، وعلى ما تبقى من الثقافة اللاتينية في المدن، وتختلط بالمسيحية التي كانت مزدهرة في سائر نطاقات إفريقيا الرومانية القديمة. ولقد بقيت من هذه الممالك البربرية المسيحية، التي لم تعمر طويلاً، آثارٌ، بعضها هائل عظيم؛ من قبيل الأجدار العظيمة (ومن نماذجها تلك التي في فرندة، غرب الجزائر)، والتي يعود أحدثها عهداً إلى ما بعد القرن الخامس

*- هي الملكة ديهيا بنت تابنة. ولدت سنة 585م. وتوفيت 712م.

*- يريد قوله: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم [البربر] أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح»، **تاريخ بن خلدون**، م. ذ.، ج. 6، ص.117.

بكثير، وتلك التي في الگور بالقرب من مكناس (المغرب)، والتي أمكن تحديد تاريخ بنائها في منتصف القرن السابع (640 ± 90 باستعمال كربون 14). وبين هاتين المقبرتين، اللتين تقومان شاهدين على إمارات قوية [كان لها وجود في الماضي] تم العثور في مدينة ألتاڤا Altava (أو حجر الروم، لامورسيير Lamorcière سابقاً) ومدينة بوماريا Pomaria (تلمسان) على شواهد لقبور مسيحية، كما عُثر فيها على الكتابة النقوشية الشهيرة للملك ماسونا. وفي أقصى الغرب تم الكشف في مدينة وليلي على مجموعة فريدة من النصوص النقوشية المسيحية، وكانت لا تزال تحمل تواريخ العهد الروماني الأسقفي؛ فتواريخها تقع ما بين 595 و655.

القرن الخوارجي

صاحَب تحول البربر إلى الإسلام تفاحشٌ في الانقسامات، فكانت أشبه بتلك الاضطرابات المتواترة التي رافقت دخول المسيحية إلى إفريقيا. وكانت أهم تلك الحركات هي التي نجمت عن مشكلة تداول الولاية بين الخلفاء، خاصة ما تعلق منها بعزل عليٍّ صهر النبي، وتولية معاوية وبني أمية. فلقد ضاق بعض المؤمنين المتشبثين بنقاء الإسلام بتلك النزاعات، وما كان يرافقها من أعمال القتل والتنكيل، فخرجوا عن جمهور المسلمين (فسُموا بالخوارج: الخارجين أو المنشقين)، يدعون إلى مذهب ديمقراطي [تشاوري] يقوم على اختيار الخليفة. والمذهب الخوارجي، الذي نشأ في المشرق، لقي نجاحاً كبيراً لدى البربر. وما رأى أغلب مؤرخي العهد الاستعماري في هذا النجاح إلا أنه مظهر من مظاهر مقاومة البربر للحكم العربي. وقد كان جيء بالتفسير نفسه كذلك للانتشار الذي عرفته الدوناتية* أثناء الحكم الروماني على إفريقيا. وأما تصوري الشخصي فهو أن الطابع الصارم المتشدد والديمقراطي النسبي للمذهب الخوارجي كان يوافق العقلية البربرية إلى حد كبير (انظر الفصل الرابع). ولقد بلغت هذه الحركة من النجاح شأواً بعيداً في المغرب الكبير، بما جعل هذه المنطقة تظل مضطرمة ردحاً كبيراً من القرن الثامن. فهذه واحدة من تلك الانتفاضات الخوارجية قد أطلقها سقّاء من المغرب الأقصى، فأمكن لها تمتد بتأثيرها حتى إفريقية. وهذه انتفاضة بربرية أخرى للطائفة الصفرية قامت في جنوب إفريقية، فشكلت تهديداً خطيراً للحكم العربي؛ فقد تمكنت بها الطائفة المذكورة من الاستيلاء على

*- حركة قامت لمناهضة المسيحية والمسيحيين في نوميديا، وتزعمها أسقف قرطاج دوناتوس Dunatus في القرن الرابع الميلادي.

القيروان (سنة 757). ثم تحققت الغلبة سنتين بعدُ في تلك المناطق نفسها لمذهب خوارجي آخر؛ هو المذهب الإباضي، الذي لا تزال تجد له بقايا إلى اليوم في مزاب وجربة، وجبل نفوسة. وفي الأخير جاءت حملة جديدة من مصر، فأمكن بها إعادة المذهب السني إلى ما يعرف حالياً بتونس، وهي التي بقيت حتى بداية القرن العاشر تحت حكم الأمراء الأغالبة، الممثِّلين للخلفاء العباسيين. وأما ما تبقى من المغرب الكبير فقد كان له سادة آخرون؛ فإمارة خوارجية، هي المملكة الرستمية في تاهرت وسط الجزائر، وعلى رأسها إمام من أصل فارسي، وأخرى في تافيلالت تتحكم بتجارة القوافل في وادي الساورة وبالتجارة البعيدة مع السودان (مالي حالياً) وعاصمتها سجلماسة. وقامت مملكة أخرى في شمال المغرب على أساس ديني بزعامة أحد الشرفاء (من النبي) واسمه إدريس، من الأحفاد المتأخرين لعلي وفاطمة، فنزل بمدينة وليلي. ثم أسس ابنه، إدريس الثاني، مدينة فاس سنة 809. وقد استمرت هذه الأسرة قائمة حتى نهاية القرن العاشر.

ملحمة كتامة والخلافة الفاطمية

في تلك الأثناء كانت تجري في وسط المغرب الكبير أولاً، وبعد ذلك في إفريقية مغامرة عجيبة. فبينما ظل البربر البُتْر، زناتة، يسيرون إلى توسع في السهول العليا كان البربر من الفرع الآخر، صنهاجة، يحتفظون بالأقاليم الجبلية في وسط الجزائر وشرقها. وقد اتفق لإحدى هذه القبائل، تلك هي كتامة، التي كانت تستوطن منطقة القبائل الصغرى منذ العهد الروماني، أن استقبلت داعية شيعياً. والشيعة هم أنصار علي، صهر النبي، الذي كان قد أُقصيَ من الحكم ثم قُتل. وكان هذا الداعية، واسمه أبو عبد الله، يبشر بظهور الإمام المهدي، الذي لا يمكن أن يكون إلا من ذرية علي وفاطمة. وخلال بضع سنين تمكنت السوقات الكتامية ذات التنظيم المحكم تحت قيادة أبي عبد الله، الذي ظهر أنه كان مخططاً حربياً محنكاً من الاستيلاء على سطيف، فباجة، ثم قسطنطينة. وفي شهر مارس من من سنة 909 تم للشيعة الاستيلاء على القيروان، فأعلنوا عُبيد الله الفاطمي إماماً عليهم، وكان لا يزال سجيناً في الطرف الآخر من المغرب الكبير، في سجلماسة القصية. وقد وجّه إليه كتامة حملة، بقيادة الداهية أبي عبد الله، فعادوا به ظافراً إلى القيروان (في دجنبر من تلك السنة)، وقاموا في طريقهم كذلك بتقويض الإمارات الخوارجية. وفي سنة 916 أسس المهدي عاصمة جديدة، هي المهدية، على الساحل الشرقي لتونس

ووجّه أتباعه كتامة في حملة على صقلية، ووجههم في السنة التي بعدها في حملة على مصر. وبعد أربع سنين قامت هذه العصابات الصنهاجية تحارب من جديد في المغرب الأقصى؛ حيث أمكن لها أن تقوض المملكة الإدريسية بمساعدة قبائل مكناسة.

وعليه فقد نجحت الأسرة الفاطمية، المنتسبة إلى عبيد الله، لبعض الوقت، في بسط سيطرتها على القسم الأكبر من شمال إفريقيا، ولكن تمردات طاحنة كانت لا تفتأ تهز البلاد. وأخطرها كانت تمردات الخوارج التي قادها مخلد بن كيداد الملقب بأبي يزيد صاحب الحمار. ولكن كُتبت النجاة للأسرة [الفاطمية] مرة أخرى بفضل التدخل الذي كان لصنهاجة في وسط المغرب الكبير، بقيادة زيري. ولذلك فلما قام الفاطميون باحتلال مصر بمساعدة صنهاجة، واتخذوا لهم القاهرة عاصمة (سنة 973)، تركوا حكم المغرب الكبير لقائد [صنهاجة] العسكري؛ بولوقين بن زيري. وقد كان هذا القرار، الذي بدا قراراً حكيماً، بترك إدارة البلاد لأسرة بربرية، سبباً في أسوإ نكبة ستحيق بالمغرب الكبير.



57. أطلال قصر المنار، قلعة بني حماد، عاصمة المملكة الصنهاجية الحمادية.

عقاب الزيريين، والكارثة البدوية

لقد تحلل الزيريون خلال ثلاثة أجيال من روابط التبعية التي كانت تربطهم بالخليفة الفاطمي. ففي سنة 1045 تحلّل المعز من المذهب الشيعي، وأعلن ولاءه للخليفة العباسي في بغداد. وبالفعل فالغالبية من المغاربيين قد بقيت على المذهب السني. وكان عقاب الخليفة الفاطمي للزيريين عن هذا الانفصال بأن «سلّم» المغرب الكبير إلى القبائل العربية، المشاغبة، التي كانت منحصرة في سايس شرق النيل، في صعيد مصر. وهذه القبائل، وهي جشم، والأثبج، وزغبة، ورياح، وربيعة، وعدي تنتسب إلى جد مشترك؛ هو هلال، ومنه كان اسم الغزو الهلالي، الذي صارت تُعرف به هذه الهجرة الجديدة لمشرقيين إلى شمال إفريقيا. وقد دخل بنو هلال إلى إفريقية، ودخلها في أعقابهم بنو سليم، في سنة 1051.

وسيكون من الخطإ أن نتصور وصول هذه القبائل في صورة جيش زاحف يحتل كل ما يقع عليه من الأراضي فلا يفلت منها شيئاً، ويحارب بدون هوادة الزيريين، ثم بني عمومتهم الحماديين، الذين كانوا أقاموا لهم مملكة مستقلة في الجزائر. كما سيكون من الخطإ أن يذهب بنا الاعتقاد إلى أن ما وقع بين العرب الغزاة والبربر كان مواجهة شاملة من طبيعة عرقية أو قومية. فالقبائل التي دخلت إلى المغرب الكبير إنما قامت باحتلال بلد مفتوح، ثم أعادت تجميع قواتها للاستيلاء على المدن؛ فكانت تنبري تنهبها حتى لا تبقي منها على شيء، ثم تتفرق من جديد، وتصير تتقدم في سائر الأنحاء، وتمعن في النهب وإشاعة الخراب.

ولم يتردد الأمراء البربر من الزيريين والحماديين، والموحدين من بعدهم، في استعمال القوة العسكرية، التي كانت متوفرة بين أيديهم على الدوام، متمثلة في هؤلاء الرحل؛ الذين صاروا بذلك يمعنون توغلاً في البوادي المغاربية.

ولئن قام بنو هلال وبنو سليم، وبنو معقل من بعدهم، بنهب القيروان والمهدية، وتونس، وأهم المدن في إفريقيا، وأن ابن خلدون قد وصف جيوشهم بالجراد المنتشر الذي يأتي في طريقه على كل شيء*، فإن هذه الأقوام كانت بما بثت من بذور الفوضى في المغرب الكبير أعظم خطراً مما كانت تأتي فيه من أعمال السلب والنهب.

---

*- يريد قولة ابن خلدون : «وسارت قبائل دياب وعوف وزغب، وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه»، تاريخ ابن خلدون، م. ذ.، ج. 6، ص. 20.

وسنرى في الفصل القابل كيف أن وصول العرب البدو قد أحدث، كما يُقال تغييراً جذرياً في صورة بلاد البربر، وأدى إلى تعريب القسم الأكبر منها. غير أننا لا نستطيع أن نحمّل بني هلال، الذين لم يكونوا يزيدون تعداداً عن مائة ألف المسؤوليةَ عن الفوضى والخراب اللذين استشريا إلى كل البوادي، من إفريقية إلى المغرب الأقصى، ونُخلي منها مسؤولية البربر، خاصة زناتة. والحقيقة أن هؤلاء كانوا لدى وصولهم في القرن الحادي عشر، قليلين تعداداً، لكنهم عزّزوا بحضورهم من جانب السكان الرحل، فصاروا يضطلعون بدور حاسم على الأصعدة الثقافي والاجتماعي والاقتصادي [للمغرب الكبير].

مغامرة المرابطين،
البربر الصحراويون في إسبانيا

ها هي ذي مفارقة جديدة، من قبيل تلك المفارقات التي يعج بها تاريخ المغرب الكبير؛ فبالموازاة لذلك العامل الخطير من عوامل الفوضى والانشقاق، الذي كنا نراه في انتشار مخيمات البدو، كنا لا نفتأ نرى كيف تقوم الإمبراطوريات البربرية الكبرى



58. الكتبية، مئذنة المسجد الموحدي في مراكش.

قفْوَ بعضها. ففي الوقت الذي كانت المملكتان الصنهاجيتان؛ الزيرية في إفريقية والحمادية في وسط المغرب الكبير، تسيران إلى انهيار واضمحلال بفعل ضربات القبائل الهلالية، والاتساع البطيء الذي صار إليه ذلك العامل الخطير المتمثل في الترحال، بسبب من تكالب الخطرين الزناتي والعربي، كان المغرب الأقصى مسرحاً لمغامرة حربية جديدة قامت على أساس ديني، كان نتيجتَها السريعة قيامُ الإمبراطورية المرابطية، التي امتدت من السنغال إلى إسبانيا ومن المحيط الأطلسي إلى خط الطول عند مدينة الجزائر. والمفارقة تتمثل في أن المؤسِّسة لهذه الإمبراطورية كانت قبيلة بربرية من الرحل في الصحراء الغربية؛ هي لمتونة، إحدى قبائل صنهاجة. فقد كان السعي إلى إحياء إسلام نقي وصارم دافعاً لبعض وجهاء لمتونة إلى دعوة رجل مصلح من سجلماسة؛ هو ابن ياسين، فكان أن جمع أتباعه في رباط (ومنه جاءت تسميتهم : «المرابطون»). ثم قام اللمتونيون الشجعان يقودهم يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش، ويلقنهم أفانين القتال، فغزوا المغرب، والقسم الأكبر من الجزائر، وأخضعوا لهم إسبانيا المسلمة.

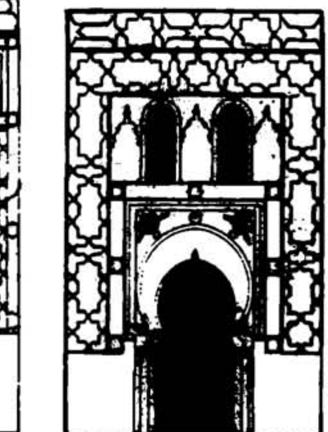
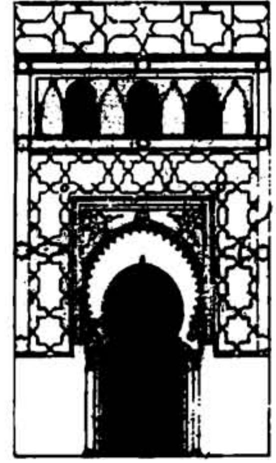
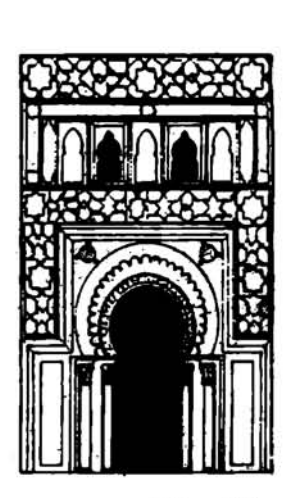
وهاك مفارقة أخرى؛ فالمرابطون قد أقاموا هذه الإمبراطورية بدافع من الإصلاح الديني، فقاموا أولاً بالقضاء على المبتدعة برغواطة، ثم أخضعوا لهم الملوك المسلمين الصغار في إسبانيا، وهم الذين كانوا يعيشون في ترف واختلاط بالمسيحيين لاتجيزهما الخشونة والتشدد اللذان كانا صفة للمرابطين. ولكن بسبب من هذه السيطرة على إسبانيا كان المرابطون هم أنفسهم من أدخل إلى المغرب الأقصى بذور الثقافة الأندلسية، بعد أن كان يركن إلى حياة من الشظف والخشونة. فعلى أيدي هؤلاء الصحراويين الأجلاف عرف المغرب حضارة هي الأكثر تميزاً بين الحضارات المدينية التي قامت في أرض الإسلام.

وفي أقل من ثلاثة أجيال لم يلبث أبناء هؤلاء المحاربين الأشداء الملثمين (فقد كان اللمتونيون كأغلب الصحراويين ملثمين) أن استلانوا بحياة الترف، وجرفتهم ريح أخرى إصلاحية من طبيعة عسكرية وقبلية.

الإمبراطورية الموحدية

كانت هذه الحركة الإصلاحية تستمد أصولها من قبيلة صنهاجية أخرى لكن جبلية؛ تلك هي مصمودة الأطلس الكبير، ولقد قامت على الطريقة نفسها التي صار بها كتامة، ثم لمتونة، بناة لإمبراطورية. فكان المؤسس، كما في الحالتين السابقتين

رحالة، هو ابن تومرت، من قبيلة هرغة. وعلى الرغم من أن أسرة ابن تومرت أسرة بربرية، فإنها ادعت الانتساب إلى علي، صهر النبي. وعلى الرغم من أن ابن تومرت مصمودي، فلقد اختار لخلافته بربرياً آخر من صنهاجة ندرومة (غرب الجزائر) إحدى قبائل قبيلة كتامة، ذلك هو عبد المؤمن، وكان من أشد المخلصين له. وتستند دعوة ابن تومرت، الذي أعلن نفسه المهدي [المنتظر]، على قاعدة أساسية؛ إنها وحدانية الله المطلقة (الموحِّد : المُقرّ بوحدانية الله). فلفظ «الموحدين» تجتمع فيه الدلالة على العقيدة وعلى الأسرة المنحدرة من عبد المؤمن. والموحدون يرفضون أي مصالحة أو مهادنة مع الكفار، كما يستنكرون كل أسباب الثراء والترف. ولقد كان الموحدون أكثر الحركات الإصلاحية تعصباً في الإسلام المغاربي، فقضوا على الكفار بحد السيف، وشتّتوا آخر المجموعات المسيحية في طول البلاد وعرضها وقضوا على الإمارات اليهودية القليلة التي كانت تمثل ذكرى بعيدة للانتشار الذي تحقق لليهودية قديماً لدى بعض قبائل البربر.

59. رسم تقريبي لثلاثة محاريب موحدية : الأول من الكتبية في مراكش، والثاني من مسجد تينمل في الأطلس الكبير، والثالث من الكتبية الثانية.

وتم لمصمودة القضاء، بمساعدة كمية، بيت عبد المؤمن، على آخر المرابطين والاستلاء سنة 1147 على فاس، وتلمسان، ومراكش. وفي أقل من عشر سنين صار المغرب الكبير - ولو بالاسم على الأقل - وقد دخل تحت سيطرة الموحدين، فلقد بسطوا نفوذهم كذلك إلى إفريقية، وهي التي كانت قد تأبّت عن المرابطين. وبذلك أمكن للمرة الأولى، من عهد الأمبراطورية الرومانية، أن تجتمع منطقة شمال إفريقيا

بكاملها تحت سلطة واحدة. وللمرة الأولى في تاريخ شمال إفريقيا كانت هذه السلطة نابعة من الأرض الإفريقية.

وسيكون من الخطإ الجسيم أن نذهب إلى الاعتقاد أن الموحدين كانوا مهتمين لانتصار أي شكل من أشكال «القومية البربرية»؛ فهو أمر لم يكن ليخطر لهم ببال. فإذا كان عبد المؤمن ورؤساء مصمودة قد أقاموا الإمبراطورية بالاقتصار على إعمال القانون القبلي في إدارة البلدان التي استهدفوها بالغزو، فإن من جاء بعده من الخلفاء قد أحاطوا أنفسهم بوزراء من الأندلسيين. وإذا كان عبد المؤمن قد سحق في سطيف الأثبج، وزغبة، ورياحاً، وهي كلها قبائل هلالية، فلقد اتخذ له من هؤلاء المهزومين جنوداً مساندين، وسار خلفاؤه على نهجه، فاتحين المغرب الأقصى في وجه هؤلاء الرُّحل الأجلاف. فكانت حركة الموحدين المطبوعةُ بطوابع التزمت والتعصب والخشونة في كل مظاهرها تتسق، دون أدنى شك، مع المزاج البربري ولكن الإمبراطورية الموحدية، الممتدة كذلك إلى إسبانيا، قد انفتحت على الثقافة الإسبانية الموريسكية، فمهدت بذلك لازدهار هذه الثقافة، التي ستبلغ أوجها في المغرب تحت حكم المرينيين، الخلفاء الزناتيين للأسرة الموحدية.

نهاية سيطرة البربر على المغرب الكبير

ظلت الأسرة الحاكمة التي أسسها عبد المؤمن قائمة لم تصر إلى زوال إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ولكن التدهور ابتدأها قبل ذلك بوقت طويل. ويمكن أن نجعل بداية ذلك التدهور من الهزيمة القاصمة التي نزلت بها في لاس ناڤاس دي تولوزا*، فقد صار الحكم الإسلامي في إسبانيا من بعدها ينحصر في الأندلس (1212).



60. فرسان من تينزولين (جنوب المغرب).

*- معركة Las Navas de Tolosa، وهي المعروفة بمعركة العقاب (15 صفر 609 هـ / 1212م).

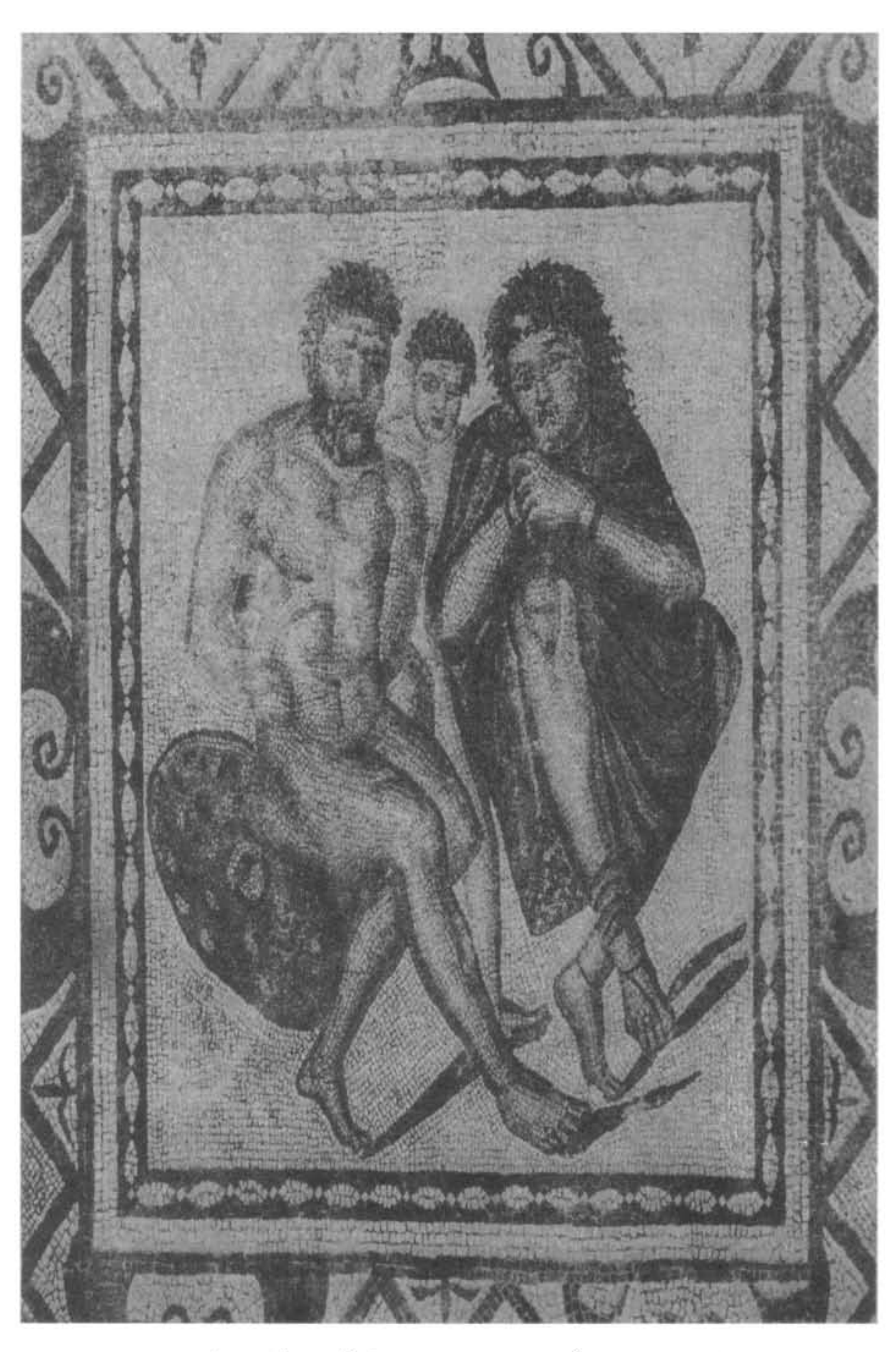
ثم كان أن تفككت أوصال الإمبراطورية الموحدية في المغرب الكبير خلال جيلين اثنين. فإذا إفريقية، التي صار سكانها منذئذ يكادون يكونون جميعهم من المستعربة قد باتت مملكة مستقلة يتولى أمورها أبناء أحد الحكام الموحدين، هو أبو حفص. وإلى أحد هؤلاء الملوك، ذلك هو المستنصر، سيوجه القديس لويس Saint Louis آخر الحروب الصليبية (1270).

لقد تصرمت يومها عن وسط المغرب الكبير الحقبةُ الطويلة لحكم صنهاجة (من الحماديين، والمرابطين، والموحدين) إلى غير رجعة، ودخلت هذه المنطقة تحت حكم بني عبد الوديد، وهم زناتيون من المستعربة، وعاصمتهم تلمسان. وأما المغرب فقد أصبح مملكة يحكمها بنو مرين، وهم الآخرون زناتيون كانوا في تنافس دائم وبني عبد الوديد. ولقد سعى أحد ملوك المرينيين، ذلك هو أبو الحسن، الذي كان بسط نفوذه لوقت قصير على تلمسان، في إعادة توحيد المغرب الكبير، لكن دون طائل.

يعيد هذا التقسيم الثلاثي الذي وقع لشمال إفريقيا إلى أذهاننا ما وقع لها في أزمنة قُبيل التاريخ وفي العهد الروماني؛ وهو التقسيم الذي نلاقي له شبيهاً، مع مراعاتنا لكل الخصوصيات، في الرسم الحالي للحدود، والناجم عن الحكم التركي وعن فترة الاحتلال الفرنسي. لكن لا ينبغي أن نخطئ بشأن هذه الاستمرارية وهذا الثبات؛ فالتصور المشرقي والقروسطي للولاء الشخصي، واتساع نطاق حياة الترحال، ورفض القبائل الجبلية، التي استمرت على لغتها البربرية، لكل سلطة خارجية تقع على مجموعاتها، هذه الأمور مجتمعة لا تسمح بالإتيان بالرسم الصحيح للحدود الترابية لهذه الممالك المتحركة. فما أكثر ما كان أولئك الحكام اللاحقون على العهد الموحدي، مع أن بينهم ساسة وحكاماً عظاماً، ينحصر سلطانهم في ضواحي عواصمهم ولا يتعداها.

والتآكل الذي كان يقع لهذه الممالك من الداخل سرعان ما انضاف إليه خطر آخر خارجي. فبعد التراجع الذي وقع للإسلام، شرعت الدول المسيحية الأوروبية في مهاجمة بلدان المغرب. وقد كان النورمانديون في صقلية ابتدأوا ذلك الهجوم من العهد الفاطمي. وأما الحملة الصليبية الثامنة التي كانت قد وقعت على تونس في القرن الثالث عشر فقد ظلت حدثاً عابراً لم يُتبع بعقب. ثم جاءت حملات البرتغاليين والإسبان من بعدهم، فكانت أبلغ وقعاً وتأثيراً بكثير. وما كانت نهاية القرن الخامس عشر، ولا كان القرنُ السادس عشر، إلا سلسلة طويلة من الغزوات والغارات البحرية، بل شهدا كذلك نشوء تحالفات عابرة أدت إلى إقامة مجموعة

من المستودعات البرتغالية ذات التحصين المكين على الساحل الأطلسي، كما أدت إلى احتلال الإسبان للمعاقل *presidios* الواقعة على الساحل المتوسطي. وكانت النتيجة المتوقعة لهذا الوضع أن قام طامع ثالث ليهتبل الضعف الذي ران على الممالك المغاربية، ويفيد من ذلك الصراع الخارجي ضد الكفار؛ أولئك هم الأتراك الذين بسطوا سيطرتهم على الجزائر وتونس، وعلى امتدادها [يومذاك] طرابلس الغرب. لكن موضوعنا في هذا الكتاب لايتسع لهؤلاء القادمين الجدد، الذين كانوا محدودين تعداداً، ولم يكن يجمعهم بالبربر المستعربة في بلدان المغرب غير العقيدة الإسلامية (كما وأنهم معتنقون للحنفية فيما المغاربيون مالكيون). وصار البربر منذئذ وقد فقدوا كل دور تاريخي. وانتهت الممالك والإمبراطوريات [البربرية]، وما عاد وجود للأسر الحاكمة منهم، حتى العابرة منها. وصار البربر في الشمال لا يزيدون عن مزارعين من المقيمين، أو رعاة من الرحل، وانحصر طموحهم السياسي في المحافظة على استقلال قَبلي مهدد على الدوام. غير أنهم في وسط الصحراء وفي جنوبها لا يفتأون يزيدون من سيطرتهم على الأعراق السوداء.



61. فسيفساء تمثل أسرى موريين، كانت تغطي أرضية الكنيسة الرومانية الموريتانية الكبيرة في تيبازا (الجزائر).

الفصل الثالث

السيطرات الأجنبية
وعمليات المثاقفة



لا يزيد تاريخ المغرب الكبير عند كثير من المؤلفين عن أن يكون تاريخاً للحكم الأجنبي. فهم يقتصرون فيه على تتبّع تعاقب السادة حسب العصور والأزمنة : الفينيقيون والرومان، والوندال، والبيزنطيون والعرب، والأتراك، والفرنسيون. وإذا ما ذكروا البربر في موضع من مؤلفاتهم فليس يزيد الغرض منه عن تفسير النزاعات التي كانت تجمع هؤلاء المتمردين الأجلاف بالسادة الأجانب الجدد الذين تنتقل إليهم مقاليد السلطة. ولقد باتت هذه الرؤية الاستعمارية إلى التاريخ اليوم شيئاً متجاوزاً. وإنني منذ ربع قرن وأنا لا أفتأ أنكر هذا الخطَل، وهو أمر يسهل فهمه؛ فمما يؤسف له أن الأجانب هم وحدهم الذين تركوا لنا الوثائق المكتوبة، وهي المواد التي عليها يُبنى التاريخ.

وإن من اليسير على المدرسة التاريخية المغاربية الناشئة أن تندد، وأحياناً بروح تغلب عليها المجادلة الحامية، بهذا التاريخ المدخول بالنزعة الاستعمارية، ولكننا نرى هذه المدرسة تغرق في خطَل مماثل؛ إذ يغفل المنتسبون إليها هم الآخرون، من حرصهم على الوحدة الوطنية الثقافية، المعطيات الأساسيةَ لسكان شمال إفريقيا ولا يعتدون بغير المساهمة العظيمة التي جاءهم بها الإسلام، ممتزجاً بالعروبة.

وجملة القول إن البربر ظلوا منسيين من التاريخ في كل العصور.

لكن أليس البربر بمسؤولين هم أيضاً عن هذا الوضع؟ سنسعى من استعراض مختلف العصور المعتد بها في التاريخ التقليدي لبلدانهم، إلى تحليل ردود الأفعال التي كانت تبدر منهم على الثقافات الخارجية التي قدِّمت إليهم أو فُرضت عليهم.

البربر والحضارة البونيقية،
مثاقفة ناجحة ومجهولة

إننا نحكم على البربر بأن دورهم كان دوراً سالباً من كل الوجوه، عندما نتصورهم من مطلع التاريخ مجرد مستقبلين من المشرق لحضارة مكتملة التكوين فتقبلوها بشيء من الحماس كثير أو قليل. فتكون تلك الحفنة من البحارة المشرقيين مبدعين حقيقيين، قد جاءوا لحشد لاعضوي، متوحش، ولا يمتلك ذرة من ثقافة، بكل العناصر المكونة لحضارة قد تحقق لها النضج والاختمار بطول الزمن على الساحل الفينيقي. والحال أن الليبيين لم يكونوا، لدى وصول الفينيقيين الأوائل، مجرد أفاقين بؤساء، ولا كانوا مجرد مجموعة من السكان المحليين غارقة في بدائية ما قبل تاريخية. فالمبادلات التجارية التي كانت لهم منذ قرون مع أشباه الجزر الأوروبية، ومع جزر



62. مسلتان بونيقيتان في مكثر (تونس) وقالمة (الجزائر).

[الكناري]، ومع المناطق شرق إفريقيا، قد كانت عاملاً في تلقيهم للعناصر الأولية لحضارة متوسطية ظلت معظم مكونات ثقافتها المادية قائمة على السلاسل الجبلية الساحلية، بدءاً من الريف وحتى رأس أم القعود Mogods. ومهما قال بوليبوس، أو قال المؤرخون الذين نقلوا عنه، فإن النوميديين لم ينتظروا حكم ماسينيسا ليشرعوا في زراعة سهولهم الخصيبة. وها إن المقابر الصخرية العظيمة تضم آلاف القبور لفلاحين مقيمين قد أودعوها آنيتهم الفخارية، التي بقيت تقنياتها وأشكالها وزخارفها ويا للغرابة، على حالتها الأصلية عند أحفادهم في الوقت الحاضر!

الدولة القرطاجية والممالك المحلية

لكن يُتبين من بدايات قرطاج أن المدينة وإن لم تواجه لا عداوة صراحاً فلقد واجهت على الأقل مطالبات صادرة عن سلطة منظمة، لا عن مجموعات صغيرة من الرحل كان يكفي لتفريقها مجرد استعراض للقوة. والواقع أن هنالك إتاوة كانت تُدفع بانتظام برسم إيجار الأرض المغطاة بجلد الثور الأسطوري (وهذا تفسير وهمي لاسم بيرصا Byrsa*). بل كان يقع ما هو أكثر من ذلك؛ فعندما ضحت إليسا ديدون Elissa-Didon بنفسها على المحرقة فإنما فعلت للهرب من طلبات حيارباص Hiarbas ملك الماكسيتانيين Maxitani الملحة عليها*. ويخبرنا أوسثاتيوس Eusthate عن هذه الشخصية أنه كان ملكَ المازيس. ومن المعلوم أن هذا الاسم الذي حملته أقوام كثيرة من إفريقيا القديمة، هو تحريف للاسم البربري «أمازيغ» و«إمازيغن»، الذي تتسمَّى به هذه الأقوام. وكان الاعتقاد يذهب إلى أن الماكسيتانيين الذين ذكرهم جوستينوس Justin كانوا يحملون الاسم نفسه بتحريف فاحش. لكن جـ. ديسانج جاء منذ وقت قريب بتفسير آخر يبدو لي مثيراً للاهتمام وزاخراً بالنتائج؛ فقد ذكر أن الماكسيتانيين كانوا يسكنون إقليماً قريباً بطبيعة الحال إلى قرطاج لا يزال اسمه باقياً في باقوس موكسي Bagus Muxi، وهو نفسه وريث دائرة إقليمية قرطاجية. وبذلك تتطابق الحكاية الأسطورية، ويا للغرابة، مع الوقائع السياسية!

وعليه، فإننا نلحظ منذ بدايات قرطاج أن المدينة قامت على كيانين متواجهين: المدينة التجارية المشرقية، وما يشبه السيادة الليبية. ومن التقاء هذين الكيانين

*-Byrsa، اسم التل التونسي، الذي يقال إنه كان آخر ملاذ للقرطاجيين خلال الحرب البونيقية الثالثة.
*- فقد كان يطلبها للزواج.

المشرقي والإفريقي، نشأ الواقع البونيقي، وما كان الأمر مجرد نقل لما كان في صور Tyr وصيدا Sidon إلى الأرض الإفريقية. وإذا كانت التقاليد البونيقية قد بقيت على حيويتها عند قدامى الإفريقيين فلأنها لم تكن عنهم بغريبة، بل تشكلت بين ظهرانيهم في المدن حيث أسماء المواضع، ومعظمها سام، لا تفلح في إخفاء الإضافة العرقية الإفريقية.

ينبغي لنا أن نتخلص من المفاهيم المتحجرة المرتبطة بتصورنا للدولة والحدود والتراب والمملكة. فهذه الكيانات لم تكن أشخاصاً قانونيين واضحين ومحققين. وإذا كان من اليسير علينا أن نقابل بين قرطاج وإمبراطوريتها، كما عرفناها في القرن الرابع من جهة، وبين المملكتين النوميدية والمورية من جهة ثانية، فإننا متى تمعنّا في المعطيات الجغرافية أمكننا أن نستبين تداخلاً يكاد يتعذر على الحل بين قوتين. وعندما يقول بسودو سكيلاكس Pseudo-Scylax في القرن الرابع إن كل المستودعات أو المدن الليبية، بعد أن عدّدها؛ من سرت الكبرى حتى أعمدة هرقل، تعود إلى القرطاجيين فربما بعثنا هذا القول على الشك في قوة المملكتين النوميدية والمورية، بل ربما بعثنا على الشك في وجودهما أيضاً، لو لم يكن في بناء مآثر في عظمة المدراسن في الوقت نفسه ما يقيم الدليل على وجود تينك المملكتين وتقيم الدليل على قوتهما.

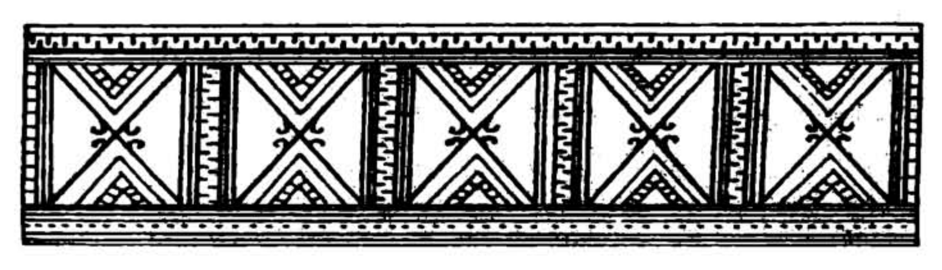
ولو أن عداوة حقيقية وطويلة كانت قد دامت بين قرطاج والإفريقيين، كما توحي بها قائمة الحروب والتمردات التي استجمعها سـ. گسيل من المؤلفين القدامى لما أمكن أن نفهم كيف كُتبَ البقاء لبلدات بونيقية صغيرة، ولو كانت محاطة بأسوار في سلسلة طويلة وضعيفة بطول الساحل النوميدي والموري. ونحن لا نعتقد أن ما كان [من الفنيقيين على البربر] سيطرةٌ محققة، بل نعتقد أن ما كان [بينهما] نسيجٌ فضفاض من العلاقات بين ثلاثة أقطاب : المستودع القرطاجي (أو المدينة الفينيقية القديمة الخاضعة لقرطاج)، والحاضرة البونيقية، والممالك المحلية.

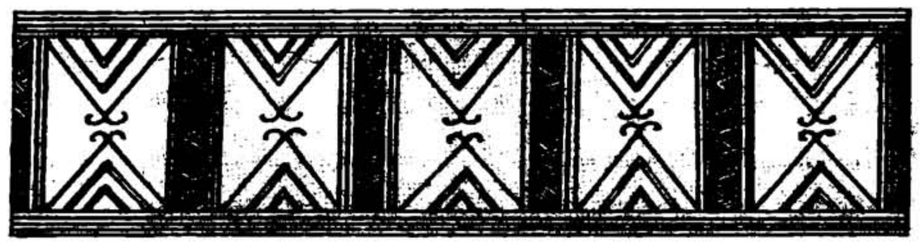
ويظهر ضعف السيطرة القرطاجية على الأرض الإفريقية بأكثر وضوحاً في معاهدة سنة 201 وما كان لها من عواقب. فمن المعروف أن سكيبيون قد اعترف لقرطاج بملكية الأقاليم الواقعة شرق «الخنادق الفينيقية»، لكن ماسينيسا كان مخولاً له أن يطالب، في نطاق تلك الحدود، بالأراضي التي كانت تعود إلى أسلافه. وقد احتج الملك الماسيلي بهذا البند، الذي اتضح أنه كان السبب الحقيقي وراء الحرب البونيقية الثالثة. ولقد بيّن شـ. سومان بوضوح أن ماسينيسا استعمل الحجج القانونية

الدامغة بإثبات أن قرطاج لم تحز أقاليمها تلك إلا بالغصب، وأن ليس لها من حق في تملكها (*Proprius ager*)، وأن هذا التملك يقوم في أصله على أساس غير مشروع. فيمكننا القول بلغة اليوم إن ماسينيسا قام بالتنديد بالاستعمار.

ولكن يجب ألا ننقاد بوهم المقارنات التاريخية؛ فهذا النوميدي قد كان كذلك بونيقياً، ولم يكن يختلف لا جسمانياً ولا ثقافياً عن خصومه القرطاجيين. فقد كانت تجري في عروقه دماء قرطاجية، بقدر ما كانت تجري في عروق هانيبال دماء إفريقية. ولقد كان التداخل بين ما نعتقد أنهما عالمان متواجهان من القوة أن كنت تجد حزباً نوميدياً في قرطاج في مطلع القرن الثاني. ولا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا العلائق الكثيرة التي نُسجت بين القادة الإفريقيين والأرستقراطية القرطاجية عن طريق الزواج. فقد حفظ لنا التاريخ في ما لا يزيد عن جيلين ذكريات للعديد من الزيجات







63-64. نقوش على قشور بيض النعام من العصر البونيقي في ڤيلاريكوس. ورسم ناتئ على صحن من الوقت الحاضر من منطقة الأصنام (الجزائر).

أو الوعود بالزواج بين الفريقين. فهذا هاميلكار Hamilcar قد وعد بإحدى بناته لنارافاس Naravas خلال حرب المرتزقة* . وهذا أوزالسيس Ozalces، عم ماسينيسا قد تزوج من ابنة أخٍ لهانيبال. ونعرف بالمصير المأساوي الذي كان من نصيب سوفونيسب Sophonisbe* وأن ماسينيسا الذي نشأ، حسب ما ذكر أبيانوس، في قرطاج، قد زوّج إحدى بناته لقرطاجيّ أنجب منها ولداً سُمي أدهربال Adherbal*. وليس من باب الصدفة أن يكون الأمراء والقادة البربر قد اعتبروا قرطاج طوال قرون بمثابة العاصمة لهم، وأن الأسر الملكية [البربرية] كانت تسعى في الاقتران ببنات الأرستقراطية البونيقية، اللائي جئن [البربر]، مع عطورهن ومجوهراتهن، بآلهة صور وسياسة قرطاج. فما همّ أن تكون هذه السياسة فشلت في الأخير؛ فما كانت إفريقيا قط بونيقية بالقدر الذي صارت عليه بعد التخريب الذي وقع [على قرطاج] في سنة 146. وقد ترك لنا التاريخ، الذي يولي اهتماماً إلى الرموز، صورة لأبناء ماسينيسا وهم يستلمون من يديّ سكيبيون إميليان المخطوطات التي تم تخليصها من النيران عربوناً مادياً للإرث الروحي لقرطاج.

ولم يكن التنافس بين الماسيليين وقرطاج يزيد كثيراً في شراسته وعنفه عن التنافس الذي كان بينهم والماسيسيليين، أو التنافس الذي كان قائماً بين المدن ذات الأصول الفينيقية.

المدن، مراكز للثقافة البونيقية

بودنا لو نستطيع أن نضع الجرد الصحيح بالتفاعلات الفينيقية والليبية في هذا العالم البونيقي أو الليبي الفينيقي. وسيكون في مقدور بعض المتخصصين في قرطاج في يوم من الأيام أن يقوموا بحصر ما يميّز الثقافة البونيقية بالمقارنة إلى فينيقيّي المشرق وإلى [الثقافة] الهلينية. والأيسر من هذه المهمة أن نتمعن في الجانب الآخر من هذه المزدوجة؛ نريد تغلغل التأثيرات المشرقية في الوسط الليبي، وهو شيء كان قد سعى إليه ر. باسي R. Basset منذ نصف قرن.

* – نسبة إلى «المرتزقة» الذين جاء بهم نارافاس، وحارب بهم إلى جانب القرطاجيين. وقد طالت هذه الحرب من 239 إلى 241، وسُفكت فيها دماء كثيرة.

* – فقد انتحرت بعد إرغام أبيها لها على الزواج من سيفاقس، بدلاً من ماسينيسا لمهاجمة سيرتا واتخاذه لها عاصمة لنوميديا (204 ق. م.).

* – ههنا خلط فاحش؛ فأما أدهربال فهو ابن مسيبسا وحفيد ماسينيسا!! انظر هنا بالذات، ص. 370.

وينبغي أن نتنبه في المقام الأول إلى وجود مدن بونيقية خارج إقليم قرطاج. وسوف لا نعود بالحديث إلى الوضع الغامض للمدن الساحلية؛ فهي تكاد تكون كلها تحمل أسماء فينيقية، وبينها التي تحمل أسماء فينيقية ليبية، مثل روسوكورو Russucuru*، وأخرى تحمل أسماء بربرية خالصة، مثل سيجا. ويتبادر إلينا سؤال هل تكون هذه المدن لا تعدو كلها عن منشآت بونيقية، أو إيبيرية بونيقية، ثم ألا ينبغي لنا أن نأخذ بعين الاعتبار أنها قد تكون منشآت ذاتية، أي إفريقية؟ فأن تكون بعض البلدات الساحلية منذ بدايات إنشائها تتلقى منتجات متوسطية قرطاجية وأيونية وآثينية، فذلك أمر طبيعي وشائع، ولا يمكن أن يقوم حجة علمية صحيحة على الأصل الحقيقي لهذه المدن. ولكن أن تكون مدافن سكان هذه المدن تحتوي علاوة على ذلك أثاثاً محلياً من كل الوجوه مطابقاً للأثاث الذي تم العثور عليه في القبور القروية وأن هذه المدافن تتكشف عن طقوس مقابرية قليلة شيوع عند الفينيقيين؛ فهذه تعتبر مؤشرات لا يُستهان بها على نوعية سكان هذه المدن. فعلى الرغم من أن سيرتا عاصمة النوميديين الماسيليين، تحمل اسماً قد يكون ذا أصل فينيقي، وأن ثقافتها كانت بونيقية من كل الوجوه، فإنها لم تكن في يوم من الأيام تخضع للسيطرة القرطاجية، وأحرى أن تكون من إنشاء الفينيقيين. واستوقفتنا



65. مسلة بونيقية جديدة في مكثر.

* - الاسم القديم لمدينة بومرداس.

حالة عاصمة نوميدية أخرى؛ تلك هي مدينة سيجا، التي يأتي ذكرها بكونها ملْكاً للقرطاجيين. والمدينة الثالثة التي تشد انتباهنا هي مدينة وليلي، التي تحتل موقعاً يغلَب عليه الطابع القاري في سفح جبل زرهون في المغرب. فوجود هذه المدينة من المملكة المورية يعود إلى ما قبل يوبا الثاني بقرون عديدة. وتؤكد المسلات البونيقية المكتشفة في هذا الموضع، كما تشهد مدن إفريقية أخرى كثيرة (مثل سيرتا، وتوبرسيكو بوري Thubursicu Bure- تبرسق، ومكثَر، ودقة...) على اجتماع الأسماء الفينيقية والأسماء البربرية بانتظام ضمن الأسرة الواحدة.

وبالإضافة إلى هذه المدن النوميدية والمورية، التي كانت تقوم بوظائف العواصم يجدر بنا أن نذكر مدناً أخرى كانت، على الرغم من أسمائها الفينيقية، تقع في المناطق الداخلية، من قبيل ماكوماد Macomades، وتيبازا Tipasa في نوميديا، وقالمة Calama وزوكابار Zucchabar* في ما سيُعرَف لاحقاً بموريتانيا القيصرية. والحقيقة أن مدن المملكتين النوميدية والمورية، سواء منها الساحلية أو القارية، وسواء منها المسماة بأسماء فينيقية أو المسماة بأسماء بربرية، قد كانت جميعاً مراكز أصيلة للثقافة البونيقية.

تعايش ناجح وطويل

كانت هذه المدن مراكز لتلك الثقافة البونيقية، لا بإنتاجاتها من الخزفيات المدعاة بونيقية، وهي التي نجدها في سيرتا، كما نجدها في سائر المستودعات على الساحل ونجدها حتى في مدينة وليلي القصية، بل إن هذه المدن كانت مراكز لتلك الثقافة خاصة بمعابدها، ولغتها المكتوبة، وربما بلغتها الشفاهية أيضاً. وقد كانت اللغة الرسمية للمملكتين النوميدية والمورية حتى (يقول بعض المؤلفين خاصة) بعد تدمير قرطاج هي البونيقية. فباللغة البونيقية كانت تُكتب التكريسات الدينية، والنصوص الإدارية النادرة التي قيِّض لها البقاء، والشاهدات الملكية، والكتابات على النقود، وما كان هذا الأمر بمقتصر على النوميديين في الشرق، بل كان عاماً في سائر أنحاء شمال إفريقيا.

وكانت دقة هي المدينة الوحيدة التي حاولت لفترة من الزمن، وهي تحت حكم ماسينيسا وميسيبسا، أن تستعمل اللغة الليبية في كتاباتها الرسمية، وهو أمر فريد في حدود ما نعرف، وليس له نظير.

*- الاسم القديم لمدينة مليانة.

ولقد بقيت اللغة البونيقية متداولة لزمن طويل من بعد قرطاج، وإلى ما بعد زوال الممالك المحلية، فقد كان الناس لا يزالون يتكلمون البونيقية تحت حكم ماركوس أوريليوس Marc Aurèle في مدينة لبسيس، ولكنهم يكتبونها بأحرف إغريقية (كما نراها في كتابة نقوشية على أحد الأعمدة في قوس النصر). وفي المنطقة نفسها شواهد كثيرة قد استُعملت فيها الأحرف اللاتينية في كتابة باللغة البونيقية. ويقول أغسطينوس إن القرويين المجاورين لهيبون كانوا بعد خمسمائة سنة من تدمير قرطاج لا يزالون يتكلمون البونيقية. ونعرف بالنقاش الذي أثاره شـ. كورتوا حول هذا الموضوع. ولكننا رأينا أن بعض الموريين كانوا بعد ذلك بقرن من الزمن لا يزالون حسب بروكوبيوس، يقولون بانحدارهم من الكنعانيين؛ وإن هي إلا ذكرى بعيدة للثقافة التي كانوا يريدون الانتساب إليها.

ولكن إذا كانت الثقافة في المدن بونيقية، فإن الإدارة البلدية [فيها] لم تكن دائماً مجرد مستنسَخ من النموذج الفينيقي. وحقاً إن نظام القضاة [القرطاجيين] كان شيئاً شائعاً في المدن [الإفريقية]، وقد جيء بإحصاء لعشرين من هؤلاء القضاة، ناهيك عن المدن التي يأتي على نقودها ذكر لقاضيين يشتركان في الاسم الواحد، ولا يبعد أن يكونا من القضاة [القرطاجيين] . لكن التماثل في الأسماء لا يعني بالضرورة تطابقاً في الوظائف. فهذه مكثر قد كان يوجد فيها ثلاثة قضاة، ولم يكن في قرطاج من القضاة قط أكثر من اثنين. وفي الأخير فإن بعض الوظائف البلدية في دقة لم تكن لها من المكون الفينيقي، سواء في مفهومها أو في تسميتها، إلا النزر القليل؛ بحيث أُبقي على أسمائها الليبية دونما ترجمة في النصوص البونيقية.

لم تكن هذه المدن الإفريقية ذات الثقافة البونيقية بالمناطق الأجنبية المنعزلة وسط الممالك؛ بل كانت بعكس ذلك؛ فهي التي تجلى فيها وجود هذه الممالك، إذ كانت لها العواصمَ، وكانت فيها الحصونَ ومصدر الثراء. وإن السياسة المدينية التي انتهجها ماسينيسا، وميسيبسا، وبوخوس، ويوبا الأول، لتثبت أن الملوك إذا كانوا يستمدون قوتهم من قبيلتهم الأصلية، وهي التي مكّنت لهم السلطان والسيادة، فإن في المدن قد جعلوا لسلطتهم المقار.

وما كان الدين نفسه استثناء من هذا التداخل، ولا كان استثناء من هذا الامتزاج للعالمين الإفريقي والمشرقي. فالتفكير يذهب بنا عند النوميديين في المقام الأول إلى

الانتشار الكبير الذي تحقق لعبادة بعل حمون Baal Hammon، فأصبح [لديهم] هو ساتورن Saturne الإفريقي في العهد الروماني. كما يذهب بنا التفكير إلى عبادة تانيت Tanit – أو بالأحرى تينيت Tinit – وهي المطبوع اسمها بنبر بربري. وحتى في الديانة الشعبية، بل الريفية، هنالك آلهة أو جن محليون سمُّوا في ما بعدُ بالآلهة المورية، ولم يكونوا، بخلاف المتوقع، يحملون دائماً أسماء ليبية (انظر الفصل الرابع).

ولقد ظلت إفريقيا الرومانية تسبح طوال قرون في جو يغلب عليه الطابع الديني السامي والبونيقي، مختلف عن المعتقدات الإيطاليانية* البالية وعن الإضافات الهلينستية. وإن ما لا عد له من المسلات المكرسة لساتورن لتقوم شواهد على هذه الحقيقة، سواء أبمحتواها الأيقوني، أو بما تحمل من تكريسات موجهة إلى الإله الإفريقي العظيم.

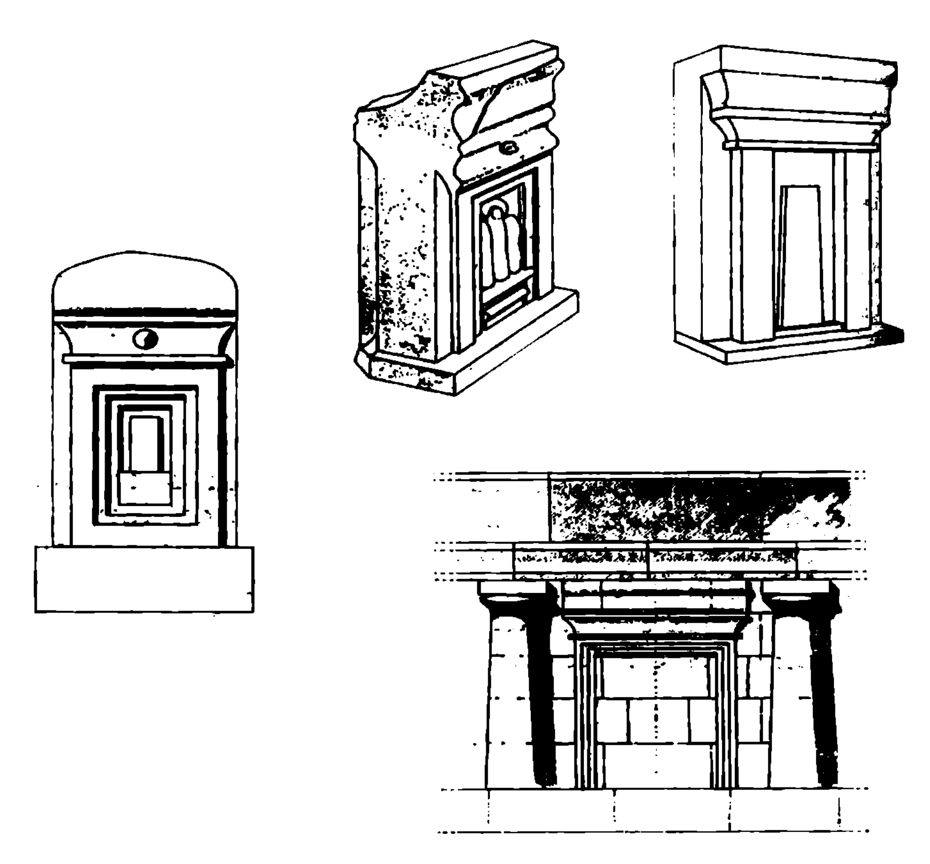
ويطالعنا التفاعل نفسه بين الممارسات الشرقية والإفريقية في الديانة المقابرية. فهذه الدلمنات، وهي الكثيرة في البلدان النوميدية الشرقية (شرق الجزائر ووسط تونس)، قد عرفت تحولاً معلوماً صارت به قريبة إلى الكهوف ذات الطراز البونيقي الجديد؛ فإن فيها مشاكي جانبية، أو تقوم مقام رأس السرير، قد حُفرت في الجدران على غرار ما في القبور البونيقية، وجُعلت فيها مزاليق على جانبيّ الغطاء لأجل الحاجز الوقائي. وبين الحوانيت، وهي مدافن باطنية محفورة في جوانب الجرف الصخرية، التي أخذ بها الإفريقيون بمنأى عن أي تأثير قرطاجي، توجد في القبور الأقرب عهداً مقاعد وأسرّة مقابرية محفورة في الصخور. ولا ينبغي لنا أن نفسر التحولات التي طرأت على القبر البونيقي، فصيَّرته من الغرفة ذات البئر المنطمرة عميقاً إلى القبو المفتوح نصفه، بسيرورة داخلية فحسبُ، بل ينبغي أن نردها كذلك إلى الحرص على توفير مدخل ميسّر للغرفة المقابرية، وهو شيء نرى ما يؤكده في جميع الآثار قبيْل التاريخية لقدامى البربر. وهذا الاختيار الأساسي والحيوي المتعارض مع الاهتمامات الأقدم للقرطاجيين، والمرتبط بكل تأكيد ببعض المعتقدات الدينية [البربرية]، نراه جلياً في الممرات الكثيرة وفي الأروقة، وبعضها لا يزيد عن أن يكون رمزياً، وفي المشاكي والمصليات المرافقة للقبور.

وعملية حرق الأموات، التي كانت تجري بصورة غير منتظمة في قرطاج، خاصة منذ القرن الخامس، كانت شيئاً مجهولاً لدى نوميديّي الشرق، وقد أدخلت هذه

*- نسبة إلى إيطاليا القديمة.

العملية إلى المدن الساحلية، وصارت تعمل بها الأسر الأميرية. وليس يبعد أن يكون القبر الذي في الخروب، وهو جثوة كبيرة بالقرب من المدراسن، كما لا يبعد أن تكون مقبرة المدراسن نفسها، يحتويان على مدافن للحرق.

لم يتبقّ من تذكارات الآثار المعمارية البونيقية إلا النزر القليل، وإن كانت أعمال التنقيب التي وقعت في كركوان (Kerkouane)، وفي الحي الذي تم الكشف عنه منذ وقت يسير في بيرصا، تسعفنا في تصور كيف كانت المدينة الإفريقية في ما قبل العهد الروماني. وقد شاءت مفارقات الأقدار أن تكون أهم المآثر تقع خارج إقليم قرطاج في تلك المملكة النوميدية التي كانت عاملاً في زوال قرطاج، وكانت في الوقت نفسه محْفَظاً أميناً للثقافة البونيقية. ويمكن أن نذكر كذلك الأضرحة المربعة في دقة وفي مكثر وفي الخروب، وهي التي ظلت نماذج تُحتذى لزمن طويل، لكن يجتمع في تصميمها المكونان الهليني والفينيقي سواء بسواء. ويجدر بنا كذلك أن نذكر



66. باب وهمية من المدراسن، ومسلات من قرطاج، وهي التي منها استوحيَت.

لأضرحة البديعة التي في صبراته، وفي بني رنان؛ فهي منشآت هلينستية تقوم فوق قاعدة أصلية على هيأة مثلث منحني الأضلاع.

وسبق لنا أن نوهنا إلى المدراسن، وهو ضريح فسيح، لاشك أنه كان مدفناً ملكياً، يقوم في قلب نوميديا. إنه ضريح دائري يبلغ قطره 59 متراً، ويتألف من رواق أسطواني تعلوه أدراج تضفي عليه شكلاً شبه مخروطي، ويصل الارتفاع الكلي لهذا الضريح إلى 19 متراً. والنتوءات، والخرجة التي على الأبواب الوهمية وعلى باب المدفن، والإفريز ذو الحلق المصري، وسقف الرواق من خشب الأرز، والتيجان الدورية* كلها عناصر إغريقية مشرقية نلاقيها كذلك في مآثر قرطاجية أخرى، ولكن المدراسن يعتبر في شكله العام ضريحاً بربرياً؛ فهو شبيه ببازينة ذات قاعدة أسطوانية وأدراج، وهي القبر البربري القديم الأكثر شيوعاً، بنظام مدخل للسرداب يبتدئ من أعلى البناء. والمدراسن، كما الأسرة النوميدية التي شيدته في أواخر القرن الرابع أو بداية القرن الثالث قبل الميلاد، نتاجٌ بديع لالتقاء التأثيرات الإغريقية المشرقية التي أدخلتها قرطاج، والتقاليد البربرية قبْل التاريخية. فيستحق لذلك من كل الوجوه أن يوصف بالبونيقي.

*- dorique، نسبة إلى الفن الدوري الإغريقي.

رومنة إفريقيا، فشل ذريع

تبدو لنا الحضارة البونيقية إذاً تكاملاً وثيقاً وناجحاً بين معطيات ثقافية من حقبة قبيْل التاريخ يحق لنا أن نسميها بالليبية أو البربرية القديمة، ومساهمات مشرقية من الحضارة الفينيقية. وإذا كانت هذه المساهمة المشرقية لم تخلّف إلا القليل من الآثار المادية على الأرض الإفريقية فلقد أثرت بشكل عميق على العقلية البربرية.

غزو حذر وطويل

كانت سيطرة روما على إفريقيا من الفاعلية والإحكام أكثر مما تحقق للقرطاجيين. وما كانت هذه السيطرة بوليدة الصدفة، بل جرى الإعداد لها زمناً طويلاً، وتواصلت بعناد روماني حقيقي. فبعد الهزيمة التي لحقت قرطاج في سنة 201 ق.م. وقبل حتى أن تُخرَّب المدينة في سنة 146 ق. م، ويُحوَّل إقليمها إلى مقاطعة رومانية، كان مجلس الشيوخ قد صيّر الدولة النوميدية عملياً إلى دولة «محمية»، معهود بها إلى ماسينيسا أكثر مما هي معادة إليه. وقد كان ماسينيسا، وهو الملك العظيم والسياسي الحاذق، يحمل على الدوام رؤية واضحة إلى وضعه الحقيقي كملك تابع، وهو ما كان يُعرف في ذلك العهد باسم «الصديق والحليف للشعب الروماني». ويظهر لنا هذا الوضع بوضوح عندما قرر ماسينيسا، عشية وفاته، في سنة 148 ق.م.، وبعد نصف قرن من الحكم المجيد، أن يستدعي سكيبيون إميليان للتشاور وإياه في تقرير أمر خلافته. ثم لما أدرك ماسينيسا أن هذا الروماني سيصل متأخراً كثيراً، قرر أن يترك له أن يتخذ ما يستحسن ويستحب من الإجراءات. وكما كتب سـ. گسيل: «لقد ختم [ماسينيسا] حياته بما يشبه الاعتراف بأن مصير نوميديا يتوقف على الرومان».

وكان عدم فهم يوغرطة لهذه السيطرة غير المعلنة، أو محاولته التنكر لها، سبباً في هلاكه، ثم استُقطع من مملكته قسمها الغربي، وأعطِيَ لملك الموريين بوخوس، الذي أصبح بدوره، وربما بسبب من هذا الاستقطاع، تابعاً لروما (في سنة 104 ق. م).

وما تبقّى من مملكة الماسيليين النوميدية جرى تقسيمه كذلك بعد وفاة كَوضا Gauda. ثم كانت نهاية الدولتين الصغيرتين اللتين نشأتا عن هذا التقسيم وذلك خلال الحروب الأهلية التي جمعت بين القيصريين Césariens والبومبيين Pompéiens. فلما تحقق الانتصار لقيصر على يوبا الأول، قام بضم مملكته إلى مقاطعة إفريقيا *Africa Nova*، وأصبح القسم الآخر إمارة محلية يسيطر عليها مغامر إيطالي هو سيتيوس، وسرعان ما عاد هذا القسم ليندمج في المقاطعة الجديدة، مع الاحتفاظ بتنظيم خاص (الاتحاد السيرتي). وكذلك عرفت المملكة المورية مثيلاً لهذا المصير فقد قُسمت خلال الحروب الأهلية إلى دولتين، ثم عادت إلى التوحد من جديد تحت حكم بوخوس الأصغر، حليف أغسطس. فلما توفي بوخوس آلت مقاليد الحكم فيها إلى أغسطس. وبعد محاولة قصيرة من الإمبراطور لإدارة البلاد بشكل مباشر رأى أنها لا تزال شديدة تخلف، فعهد بها إلى يوبا الثاني، ابن خصم قيصر وزوج كليوباترا سيليني Cléopâtre Séléné، بنت كليوباترا العظيمة ومارك أنطوان Marc Antoine. وبذلك كُلّف حفدة أعداء روما بأن يزيدوا من فتح موريتانيا أمام التجارة الإيطالية. وفي الوقت نفسه أدخل أغسطس في هذا الإقليم الواسع بذوراً قوية للّتننة - بل الرومنة -؛ فقد أنشأ تسع مستوطنات كانت قواعد عسكرية وقواعد لتوسع ديمغرافي. فقد كانت كل واحدة من هذه المستوطنات جزءاً من روما، يتمتع ساكنوها بحقوق المواطنة الكاملة. وهكذا، فعندما تفرعت عن مملكة موريتانيا بعد إعدام بطليموس ابن يوبا الثاني، مقاطعتان رومانيتان جديدتان (في سنة 42)، كانت هاتان المقاطعتان معدَّتين قبلاً، ولو بصورة جزئية، للحياة البلدية، التي جعلت لها روما الأولوية في أعمالها. فبين إنشاء مقاطعة إفريقيا وإنشاء الموريتانيتين انقضت 188 سنة.

المدن والترقي الاجتماعي

كان للمدن في مقاطعات الإمبراطورية أوضاع مختلفة، وكانت على تراتبية بالغة الصرامة. فالمستوطنات الرومانية تقع في القمة، وتأتي بعدها البلديات *municipes* الرومانية، التي كان سكانها أيضاً مواطنين روماناً، لكنهم لم يكونوا يتمتعون من الإعفاءات الضريبية بمثل ما كان يتمتع سكان المستوطنات. ولقد توفرت للبلدية اللاتينية المؤسسات نفسها التي اجتمعت للبلدية الرومانية، لكن سكانها لم يكونوا يحملون لقب المواطنين الرومان، وهي صفة كانت تُجعَل بصورة تلقائية للمواطنين المضطلعين بمهام بلدية. فقد كان الأعضاء البلديون (الذين يجوز لنا اليوم

أن نسميهم مستشارين بلديين) يصيرون، حسب أهمية البلديات، مواطنين روماناً. وأما في البلديات الأخرى قليلة السكان، أو محدودة الغنى، فإن مهام الدومفير (*duumvir*، العمدة ومساعده) هي وحدها التي كانت تخول لمتقلدها الوصول إلى المواطنة الرومانية.

وكانت هنالك مراكز حضرية أخرى خارج هذه الأنواع الثلاثة، وهي : المدن الحرة، التي ظلت في مقاطعة إفريقيا تحتفظ بإدارة من الطراز البونيقي، والمدن التابعة (*civitates* و*oppida*)، وهي لا تزيد عن بلدات يسكنها الأهالي، ويمكن أن يقيم فيها مواطنون تابعون للقانون اللاتيني أو للقانون الروماني، وقد أمكن لهذه البلدات أن تشكل نواة لتنظيم بلدي (*conventus civium romanorum*).

لقد كان الهاجس من وراء تشكيل مختلف هذه المدن واضحاً جلياً؛ فإذا تحقق للمدينة تغيير الصنف البلدي عاد عليها بمكسب محقق؛ فتخف أعباؤها الضريبية ويتحصل سكانها، أو يصير بمقدروهم أن يتحصلوا، على صفة المواطنة الرومانية التي كانوا يجتهدون في نيلها.

وكانت شهرة أي مدينة، أو مجدها بتعبير رفيع، تُترجَم كذلك في ثراء مبانيها وفي جمال معابدها، وفي اتساع ميدانها، وفي عدد تماثيلها، بل تُترجَم كذلك في طول القنوات المستعملة لنقل المياه فيها وطرافتِها. وقد كان النصيب الأكبر في تمويل هذه الأعمال يؤخذ من الثروة الشخصية للمترشحين لمختلف المناصب البلدية. ولم يكن يفوت هؤلاء أن يذكروا هذه المكرمات في التكريسات يجعلونها على تلك المنشآت. وما أسرع ما صار هذا السخاء شيئاً إلزامياً؛ وحتى لقد أمكن للمؤرخين أن يحددوا المبالغ (*summa honoraria*) التي كان يتطلبها الترشح للمنصب من تلك المناصب. فمن هذا الذي ذكرنا نفهم السبب وراء ضخامة الخرائب المتبقية من المدن الرومانية، وأنها تبدو أحياناً غير متناسبة والأهمية الحقيقية للمدينة وعدد سكانها. فلقد كان أثر روما في إفريقيا أثراً مادياً في المقام الأول، وكان شيئاً فريداً لا يُضاهى.

وكانت هنالك تراتبية اجتماعية مماثلة في أوضاع سكان إفريقيا. فقد كان يمكن للشخص الأجنبي*، من بين الرجال الأحرار، أن يصير يدخل عن طريق الانتخاب أو بفعل معروف شخصي يناله من الإمبراطور، تحت طائلة القانون اللاتيني. وكان

* - Pérégrin، وهو الإنسان الحر من سكان المناطق التي احتلتها روما، ولم يكن يتمتع بالمواطنة الرومانية ولا كان له الوضع القانوني الذي للاتين.

يمكن للمواطن الخاضع للقانون اللاتيني أن يصبح مواطناً رومانياً بالطريقة نفسها. وكان يمكن للمواطن أن يرتقي إلى ما هو أعلى وأسمى مقاماً، فيتبوأ مرتبة الفارس (*eques romanus*) بشرط أن يكون بلغ من الثراء مستوى معلوماً، وهو المستوى المعمول به في سائر أنحاء الإمبراطورية. ويمكن للمواطن أن يدخل في الإدارة الإمبراطورية ويرتقي إلى أعلى المناصب المدنية أو العسكرية، وأن يغدو حاكماً على مقاطعة، وقد ربما تبوأ أعظم منصب، فعيِّن رئيساً للحرس الإمبراطوري*، وهي القوة الثانية في الإمبراطورية. وكان يمكن أن تُمنح درجة الفارس للمواطن برسم المكافأة تكرّماً من الإمبراطور. وتأتي في قمة التراتبية الاجتماعية هيأة الشيوخ، وهي تقبل في عضويتها أصحاب الثروات الكبيرة، كما تقبل من بين الفرسان أكثرَهم تميّزاً في خدمة الإمبراطور.

وهكذا، فقد أمكن لروما، بتوظيفها الحاذق للتراتبية بين المدن وبين الفئات الاجتماعية، أن تقوم بعملية دمج تدريجي للنخبة البلدية الإفريقية فيها. كتب إ. ألبرتينى E. Albertini : «إن روما تتحكم في حركة الارتقاء إلى الحياة الرومانية على صعيد مجموع السكان». ولقد أطلقت هذه الحركة نداء صارت تتجاوب له بالتدريج سائر شرائح ذلك المجتمع، الذي لم يكن فيه اعتبار لغير دافعي الضرائب ويقوم على تراتبية قاهرة، لكنه لم يكن بالمجتمع المحصور ولا المكبوح بأي حال.

الجيش، أداة للاحتواء

كان الجيش، بموازاة لما ذكرنا، عاملا فعالاً في عملية الاحتواء. فقد كان الانخراط في القوات المساعدة في إفريقيا، كما في سائر المقاطعات الأخرى، متاحاً للأجانب أما الفيلق (لم يكن هنالك غير فيلق واحد، هو الفيلق الثالث الأغسطي *Legio tertia augusta* الذي كان مقره في لمبيز في نوميديا) فقد كان مقصوراً على المواطنين الرومان. وكان الجندي من القوات المساعدة، سواء من مشاة الكتائب أو من فرسان الأجنحة، يحصل على «الحق في المواطنة»؛ أي أنه يغدو مواطناً رومانياً بعد 25 سنة من الخدمة.

---

* – Préfet du prétoire، وهي ترجمة فرنسية للعبارة اللاتينية «prefectus pretorio»، وهو الضابط القائد للحرس الإمبراطوري في روما.

وكانت هذه الفرق من الخيالة والأجنحة تحمل أسماء ذات أصول عرقية ومن ذلك أن في موريتانيا القيصرية كان هنالك جناح الثراسيين، وفرقة السرديين Sardes الثانية من الخيالة، وفرقة البروكيين Breuques من الخيالة وسواها. ولكن سرعان ما صارت هذه التسميات العرقية وليس لها غير مدلول تقليدي، لأن كل فرق القوات المستقرة في العادة في إفريقيا كانت تجند أفرادها من الأهالي. وأصبح هذا الأمر باتاً وقاطعاً ابتداء من سنة 150.

ولم يكن جنود القوات المساعدة جميعاً من ذوي الأصول الحضرية، بل كان الضباط القائمون على التجنيد يؤثرون البحث عن الأشخاص الأشداء الأقوياء بين النوميديين والموريين في القرى. وكانت بعض القوات المجنَّدة في تلك الأماكن تحمل أسماء إفريقية : فرقة خيالة المزالمة، والفرسان الموريون . . .

ويكون لهؤلاء المجندين، خلال ربع القرن الذي تستغرقه خدمتهم، متسع من الوقت ليتعلموا، إلى جانب النظام العسكري، شيئاً من مبادئ اللاتينية؛ وهي لغة كانت لا محالة تختلف كثيراً عن لغة شيشيرون، كما أنهم يتعلمون بعض مبادئ الثقافة الرومانية. فإذا عاد الجندي بعد الانتهاء من الخدمة إلى «دوار»ه أو «مشتا»ه بما وفر من مال، وبلقب المواطن الروماني، كان يمثل صورة للنجاح. وقد سبق لنا أن رأينا من هؤلاء الجنود السابقين من كان يُعهد إليهم بإدارة بعض القبائل [من غير المترومة] *praefectus gentis*.



67. جميلة (كويكول سابقاً)، الجزائر. طاولة للقياس في سوق كوسينيوس.

كان العدد الكلي للجنود في الموريتانيتين يقدر في الظروف العادية بحوالي 15 000 رجل؛ ولا يبعد أن عدد القوات المساعدة في نوميديا كان مساوياً لعدد جنود الفيلق، أي 5 000 إلى 6 000 رجل. وهذا يعني أن حوالي 20 000 من هؤلاء الجنود هم من كان يمكنهم أن يصيروا مواطنين روماناً. ولكن كم هم أولئك الذين كان يتسنى لهم أن يتموا 25 سنة من الخدمة؟ ولِكَمْ من الزمن كان يعيش الجندي السابق بعد أن يكتسب حق المواطنة؟ وباختصار ما الأثر الحقيقي الذي كان لهذه الرومنة الفردية والنادرة، على جماع الساكنة الإفريقية؟

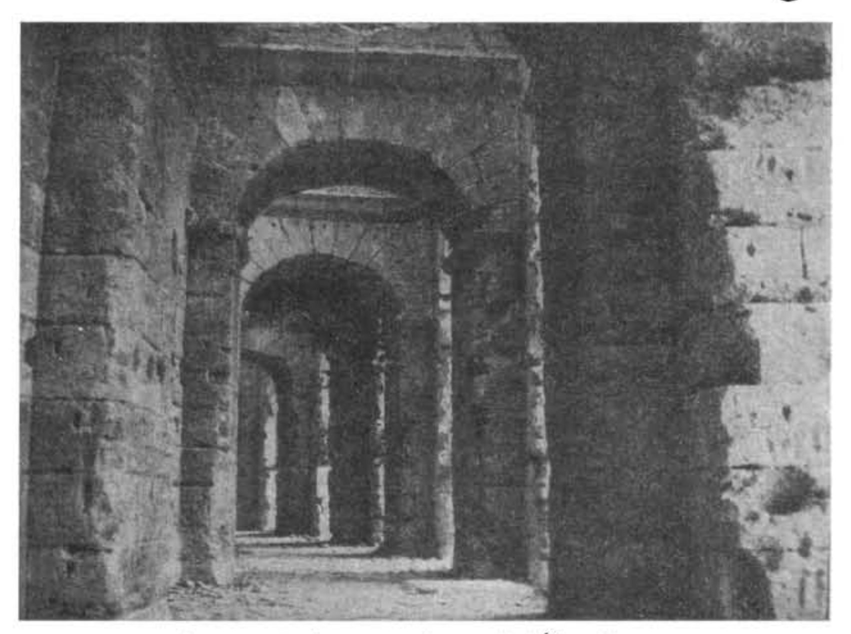
مهما يكن من أمر، وهذا شيء ذو أهمية، فإن الإفريقيين أنفسهم هم من قاموا تحت العلم الروماني، بالحفاظ، في الأوقات العادية، على النظام في إفريقيا.

مثال من «السياسة المحلية» : طاولة بناصة

كانت المواطنة الرومانية تُمَنَح كذلك لرؤساء القبائل (*gentes*)، سواء منها التي تم ضمها أو تمت تهدئتها، وقد كان يطلق على هؤلاء الرؤساء لقب الأمراء (*princeps*)، أو يلقبون أحياناً بالملوك، فلذلك كان ينبغي أن يتميزوا عن الولاة وهم موظفون تعيّنهم السلطة الإمبراطورية. وكان منح المواطنة الرومانية يبدو كنوع من المكافأة؛ فهي تسمح لحكام المقاطعة الذين يطلبونها من الإمبراطور بالتخفيف من الضغط الذي يمكن أن تمارسه القبائل القوية على الحدود، أو حتى داخل المقاطعة. وهذه «طاولة بناصة» الشهيرة، وهي عبارة عن لوحة من البرونز كانت مثبتة بإزاء الحامّات في هذه المدينة من مدن موريتانيا الطنجية، تسمح بالتحليل الدقيق لهذه للسياسة خلال بضع سنين من القرن الثاني. وقد قام كل من و. سيستون W. Ses-ton و م. أوزينات M. Euzennat منذ وقت قريب على نشر هذا النص الفريد الذي وصلنا من الإمبراطورية وتناولاه بالدراسة. ولقد احتفظ لنا هذا النص بثلاث وثائق رسمية. فأما الوثيقة الأولى فهي عبارة عن رسالة من الإمبراطورين ماركوس أوريليوس ولوسيوس ڤيروس Lucius Vérus إلى كوييديوس ماكسيموس Coiiedius Maximus الحاكم على موريتانيا الطنجية، تمنح المواطنة الرومانية لزكَرنسي يدعى يوليانوس Julianus ولزوجته زيدوتينا Zidotina وأبنائهما. ويرجع تاريخ هذا القرار إلى سنة 168–169. ويؤكد الإمبراطوران في هذه الرسالة على الطابع الاستثنائي لهذا القرار، الذي جعلا مبررهما إليه الوفاء التام من يوليانوس وأنهما يؤملان أن يكون قدوة لبني قومه. وأما الوثيقة الثانية التي دُونت على طاولة

بناصة فهي عبارة عن رسالة ثانية من الإمبراطورين ماركوس أوريليوس وكومودوس Commode إلى الحاكم ڤاليوس ماكسيميانوس Vallius Maximianus تمنح المواطنة الرومانية لفاجورا Faggura زوجة أوريليوس يوليانوس Aurelius Julianus أمير الزكَرنسيين وأبنائهما. وأما الوثيقة الثالثة فهي نص رسمي *(commentarius)* صادر عن مجلس الإمبراطور، وقام على توقيعه اثنا عشر عضواً من المجلس؛ والوثيقة مؤرخة في 6 يوليوز 177.

والنص الذي على طاولة بناصة له أهميته، وذلك من جوانب عديدة، ونحن لن نتوقف منه إلا عند الجانب المتعلق بالسياسة المحلية. فقد ميّز الحاكم بين العشائر المكونة لقبيلة الزكَرنسيين القوية، التي كانت تستوطن في ما يبدو سفوح الريف* عشيرة يوليانوس، ونقل ملتمسه إلى الإمبراطور. وتزوج ابن يوليانوس، الذي أصبح بعد بضع سنين أميراً للزكَرنسيين، من امرأة أجنبية تسمى فاجورا، ومن أجل أن يصير أبناؤه كذلك مواطنين روماناً كان يلزمه الحصول على قرار إمبراطوري جديد. وحيث إن حالة الزكَرنسيين كانت حالة نموذجية، فقد جرى تعليق تلك الوثائق ليعلم بها الجميع.



68. رواق من الطابق الأول للمسرح الدائري في الجم (تيسدروس). تونس.

* - Zegrensis أو Zegrenses، نسبة إلى إحدى قبائل موريتانيا الطنجية. وقد ورد ذكرهم في نص بطلموس، الذي جعل موضعهم في الحوز، بين الأطلس الكبير ووادي تانسيفت.

ولقد مكننا هذا النص من معرفة جانب من سياسة الاحتواء التي أعملها حكام المقاطعات بفاعلية فريدة؛ فما كان هؤلاء سوى موظفين في بيروقراطية إمبراطورية كانت أرشيفاتها من الدقة والإتقان كمثل ما هي الأرشيفات في الإدارة الحديثة.

مدى الرَّوْمَنة

إن من شأن هذه السياسة الاحتوائية، أو سياسة الرومنة على وجه الدقة، أن تصدم مفاهيمنا عن الديمقراطية في الوقت الحاضر، ولكن لو وضعنا أنفسنا في سياق القرنين الثاني والثالث الميلاديين لبدت لنا سياسة في غاية الحكمة، ولرأيناها سياسة فعالة، وتقدمية بحق. ومهما قيل عن المجتمع الروماني خلال الحقبة الامبراطورية (لكن ألا يُقال الشيء نفسه عن مجتمعنا أيضاً؟)، فإنه لم يكن في ذلك العهد بالمجتمع المكبوح أو المحصور. فلم يكن بالمكبوح في روما؛ حيث كان بعض الكتاب السوداويين المغترين بنبالتهم وهي المحدَثة عند بعضهم، يشتكون من الارتقاء الاجتماعي الذي تحقق للمحررين والثراء الذي تحقق لمحدثي النعمة. ولا كان كذلك بالمجتمع المحصور في المقاطعات. ولكن كيف السبيل إلى قياس درجة الرومنة الحقيقية التي وقعت للبربر؟ تقتضينا الإجابة عن هذا السؤال الأساسي أن تكون تتوفر لدينا وثائق أدق بكثير مما بين أيدينا.

حقاً إننا لا تعوزنا الوثائق المادية؛ كما وأن ما بين أيدينا من مصادر كتابية تاريخية وقانونية، شيءٌ لا يُستهان به. ونزيد إليها حصيلة وافرة من الكتابات النقوشية؛ إذ تقدر بخمسين ألفاً في ما يتعلق بالمقاطعات الرومانية في إفريقيا. وأما خرائب المدن أكانت عواصم أو مجرد بلدات، فتُقدر بالمآت، وهي تعطينا صورة واضحة عما كان لروما من سطوة ومن سلطان. ثم إن خطوط التحصينات، وهي مناطق للاستيطان العسكري، قد مكنت للرومنة (*romanitas*) النفاذ حتى الصحراء في طرابلس الغرب وفي نوميديا، وحتى الهضاب العليا السّهبية في موريتانيا القيصرية. وقد كانت هذه المنطقة لا تزال، حتى عهد الإمبراطورية المتأخرة، يسكنها الجنود «الليميتينيون»* وهم جنود مزارعون كانوا يشتغلون بإحياء تلك الأراضي الجرداء وتعرضوا كما رأينا سابقاً للاصطدام مع قبائل الجمالين. وفي ما وراء خطوط التحصينات كانت تقوم أراض زراعية قد جرى تقسيمها، ولا تزال آثار هذا التقسيم راسخة في المجال التونسي وفي بعض الأنحاء من نوميديا.

---

* - Limitanei، وهم الجنود المكوّنون لقوات الحدود.

إن ذلك الكم من الأحجار المقصوبة، والمدن الفخيمة، والتكريسات، والأسوار الصغيرة لا يشد حجارتها شيء، والقائمة في سفوح التلال، وتلك الخنادق والقلاع على خطوط التحصينات، وصُوات الألف العسكرية*، والآثار الفنية، كما نراها في شبكة هائلة من الطرق، كلها أشياء تبعثنا على كثير من الانبهار. فقد خلفت القرون الخمسة التي عمّرها الحكم الروماني على الأرض الإفريقية آثاراً راسخة أكثر بكثير مما خلفت القرون الأربعة عشر التي تلته.

ونحن ندرك السبب وراء الإعجاب، المطبوع بشيء من السذاجة، الذي أثارته الأطلال القديمة لدى أوائل المؤرخين من الحقبة الاستعمارية. فقد كان بحّاثتنا من القرن التاسع عشر، وهم المتشبعون بالثقافة الكلاسية، يجدون خلال غيضات السدر أو النخيل القصير [الدوم] كتابات نقوشية تتحدث عن عمليات الاستصلاح التي وقعت على هذه الأراضي نفسها، التي كان المعمّرون الجدد يجتهدون بفؤوسهم لبعث الحياة فيها، متكلفين من الجهود المضنية والمكابدة ما بات اليوم نسياً منسياً. وقد يعثر أولئك البحاثة في غير قليل من التأثر، على الأماكن التي ورد ذكرها لدى قيصر وتحدث عنها سالوستيوس، وتيت ليڤ، والقديس أغسطينوس. وهل كان يمكن لروما ألا تصير هي المرجع البديهي للّتننة الجديدة التي كانت قد بدأت تتشكل في إفريقيا؟ وكيف لا يُكال المديح والثناء لروما التي مكنت لبعض الإفريقيين سبيل الوصول إلى ذلك البذخ الذي نراه في تلك المآثر، ومكنتهم من بلوغ أعلى مراتب الثقافة؟ ألست ترى ابتداء من القرن الثاني كيف أن ذلك الإفريقي فرونتون Fronton، المولود في سيرتا، قد صار الأستاذ لأحكم الأباطرة، ماركوس أوريلوس، كما وأن أكثر الكتاب اللاتين «حداثة» أبوليوس؛ ذلك الروائي والفليسوف والخطيب معاً، قد كان مولده في مداوروش، وأنه كان يقول عن نفسه إنه نصف نوميدي ونصف جيتولي؟ فما كان هذا اللاتيني لينكر أصوله الإفريقية، بل كان يعتز بها ويتفاخر أيما اعتزاز وتفاخر.

والحقيقة أن إفريقيا كانت من أجمل مقاطعات الإمبراطورية. وقد جاءت لروما في أواخر القرن الثاني بأسرة حاكمة، وذلك بصعود اللبدي* سيبتيموس سيڤيروس Septime Sévère، وأربعين سنة بعدُ وُلِّيَ على أرضها كذلك، في تيسدروس Thysdrus (الجم)، الشيخ كَورديان Gordien، وسرعان ما ألحق به ابنه. وقد كانت

*- bornes، وهي حجارة تُنصب عند كل ألف خطوة على الطرق الرومانية.

*- نسبة إلى لبدة.



69. تيمقاد (الجزائر)، القوس المسمى «قوس تراجان»، من داخل المدينة.

تيسدروس أغنى مدن بيزاسين. ويعود الفضل في هذا الثراء الطارىء على المدينة إلى ما تحقق لها من تطور زراعي، خاصة ما تعلق منه بشجر الزيتون، وهو شجر ملائم كثيراً لتربة تلك البلاد ومناخها.

فلا يمكن أن ننسى الاستصلاح الذي قيّض للأراضي الإفريقية؛ فلم يكن العامل فيه هو التطور الطبيعي الذي شهدته الزراعة، بما تحقق لها من الحماية فحسب، بل كانت من ورائه كذلك إرادة سياسية تجسدت في الإدارة الإمبراطورية على مختلف الأصعدة. وكان تأثير ذلك على الحياة الفلاحية بالغ القوة؛ كما نراه في بعض الألفاظ اللاتينية التي لا تزال متداولة بشيء من التحريف إلى اليوم في معظم اللهجات البربرية؛ ما تعلق بأسماء المحراث، أو النير، أو النباتات المزروعة، أو الأشجار. وكذلك لا يزال جميع المزارعين في شمال إفريقيا يحافظون للشهور في التقويم اليوليوسى على أسمائها اللاتينية، وتجد الأمر نفسه منهم حتى في الصحراء؛ فالتأثير اللاتيني قد امتد إلى ما وراء الحدود الرسمية للإمبراطورية.

ويعود هذا التوسع إلى عوامل أخرى غير عوامل الرومنة بالمعنى القانوني للاحتواء؛ فقد جرى خلال القرون التي عمّرها الحكم الروماني كذلك تمسيح للإفريقيين. وساعدت على انتشار المسيحية في إفريقيا، كما في غيرها من المقاطعات تلك الميولُ الروحانية التي حملها ما كان يروج بين جنبات الإمبراطورية المتحدة من أفكار آتية من المشرق. كما وأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتولدة عن المجتمع الروماني كانت تيسّر النجاح لدين خلاصي يدعو إلى المساواة بين بني البشر ويعلي

من شأن الفقراء. وإلى هذه الظروف، التي كانت عامة على سائر أنحاء الإمبراطورية انضافت بالنسبة إلى إفريقيا الأهميةُ الخاصة للتأثير المشرقي، وهو تأثير ظلت تغذيه لقرون مديدة الهيمنةُ الفينيقية والعلاقات الدائمة مع المشرق السامي. والواقع أن المقاطعات الإفريقية كانت من بين سائر مقاطعات الغرب هي الأكثر انطباعاً بالميسم المشرقي؛ بحكم عقليتها وأصولها الثقافية. وكانت تلك المقاطعات، خاصة مقاطعة إفريقيا، على استعداد كبير لاستقبال الدين الجديد. ولقد جادت المسيحية الإفريقية بالعديد من الشهداء، وجاءت بالكثير من الكتَّاب؛ أمثال تيرتوليانوس Tertullien وأرنوبيوس Arnobe، وسيبريانوس Cyprien. وكان أعظمهم جميعاً أغسطينوس الذي أصبح أحد قادة الفكر الغربي لقرون عديدة. والقديس أغسطينوس ينتسب إلى أسرة من تاغاست Thagaste (سوق أهراس)، وقد أصبح أسقفاً لهيبون وأباً الكنيسة، وتبوأ مقاماً عالمياً تجاوز به حدود مقاطعته وحدود الإمبراطورية، وتخطى به زمانه. وليس بالأمر الهيّن أن يكون أعظم مفكري الغرب اللاتيني، ومؤلف **مدينة الله*** **والاعترافات*** بربرياً مسيحياً. فكأننا بأغسطينوس يمثل النموذج المكتمل لتلك الرومنة التي ظلت جارية بصبر ومثابرة طوال أربعة قرون. ومن سخرية القدر كذلك أن أغسطينوس الذي توفي أثناء حصار الوندال لهيبون قد شهد كيف كان ينهار ذلك العالم الروماني الإفريقي الذي كان له الرَّحِم.

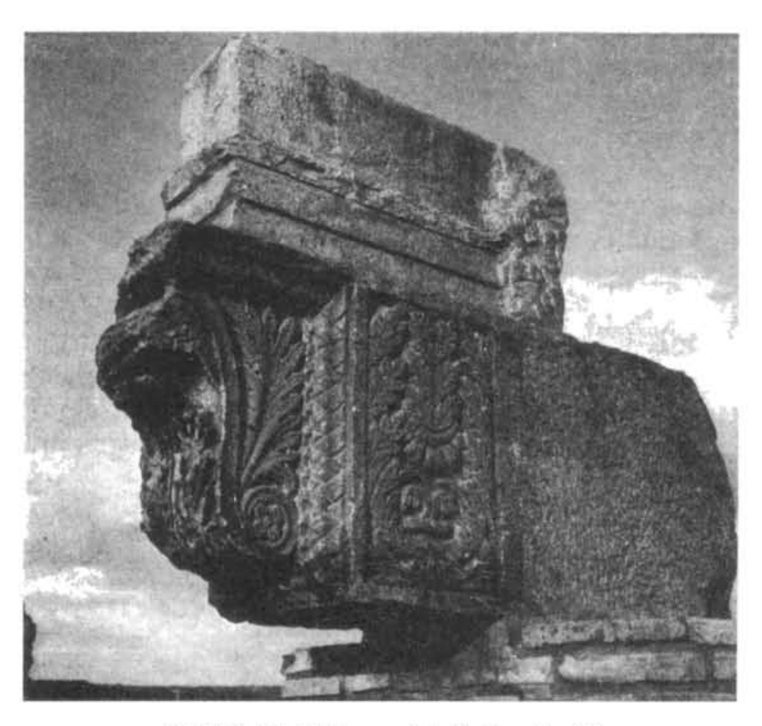
رفض اللَّتْنَنَة

يقول المؤرخون من غير المعجبين بـ «الاستعمار» إن روما فشلت في محاولتها الاحتوائية؛ فالإفريقيون رفضوا روما ورفضوا اللّتننة، وإن تلك النجاحات التي حفظها لنا التاريخ لم تكن تعدو عن حالات فردية؛ فما مسّت الرومنة سوى نخبة محظوظة، وأما السكان البربر في القبائل فقد ظلوا في مجموعهم بمنأى عن الثقافة اللاتينية.

والذي يبدو أن الإفريقيين رفضوا الحكم الروماني، واستبسلوا في مقاومته كما تشهد بذلك الكثرةُ الكثيرة من الاضطرابات، والغارات، وحركات التمرد، التي كانت تفضح حقيقة ميثاق السلم الروماني *Pax romana*.

* - *Cité de Dieu*
* - *Confessions*

والواقع أن روما واجهت من تاكفاريناس (من سنة 17 إلى سنة 24) إلى جيلدون (سنة 396) حركات تمرد طاحنة وقع معظمها على الموريتانيتين. ويذهب المؤرخون المُغالون في الانتقاص من الرومنة التي وقعت للإفريقيين، أمثال شـ. كورتوا، إلى القول إن روما لم تتمكن من التوغل كثيراً في المناطق الجبلية، التي صارت لذلك بؤراً للهمجية. وهم يعتدّون في البرهنة على هذه الدعوى بخطوط التحصينات الداخلية التي كانت تقوم حواجز بين المقاطعات في الإمبراطورية المتأخرة، من قبيل الأخدود الذي كان يحيط بجبل بوطالب في موريتانيا السطيفية. فعندما تضعف السلطة تتدفق من تلك المناطق الجبلية حشود من المقاتلين الأشداء، فتحطم خطوط الدفاع الداخلية وتطبق على الضيعات وعلى البلدات بالنهب والتخريب. ثم تزداد الأوضاع سوءاً عندما ترى إلى تلك الحركات المحلية كيف تسير إلى الالتحام ببعضها؛ فتأخذ تتكون عندئذ اتحادات بين القبائل، من قبيل الاتحادات التي قامت بين الباكوات والباڤار في موريتانيا الطنجية. وقد يبرز أحياناً من وسط ذلك السديم في بلاد البربر على حين غرة رجلٌ، فإذا هو بحق قائد عظيم. وقد كان من الشائع في عالم البربر ظهور أولئك المحاربين العابرين؛ أمثال ماثوس Mathos (أو Matho) الذي قاد التمرد



70. طنف وافر الزخرف من ميدان تيمقاد (الجزائر).

الليبي خلال الحرب التي شنها المرتزقة على قرطاج، وأمثال تاكفاريناس في مطلع للقرن الأول؛ هو الذي ظل يرهق لسبع سنين الفيالقَ الإفريقية، وأمثال فاراكسن Fa-raxen الذي كانت له أيام مجيدة في موريتانيا القيصرية خلال التمرد العارم الذي قام في منتصف القرن الثالث، والمدعو أبو يزيد، صاحب الحمار، الذي كاد يطيح بالدولة الفاطمية في إفريقية في القرن العاشر، وعبد الكريم* الذي تزعم التمرد في سنة 1920، أو حتى عميروش* في وقتنا الحاضر.

والناظر إلى تلك القائمة الطويلة من المعارك يرى كيف تتكدر بشكل غريب صورة إفريقيا التي تبدو فيها تلك الأرضَ الغنية والمخزن لروما؛ إفريقيا التي قادت البربر بالتدريج إلى ما يبدو لنا مرتبة عالية من الحضارة. فقد عفّر رماد الحرائق ولطخات الدماء بريقَ الرخام ولمعانَ الفسيفساء. ثم ألا ترى بعض تلك الفسيفساء تصور في غير استحياء أسرى إفريقيين قد شُدِّدت لهم القيود، كما في تيباز الموريتانية أو تصوّرهم وهم يُدفعون إلى الوحوش في المسارح، كما في زليتن في طرابلس الغرب؟

وجها إفريقيا الرومانية

إن هذين القسمين في اللوحة المزدوجة لإفريقيا الرومانية هما من التعارض بما يتعذر معه أن يكونا صحيحين هما الاثنان. وأعرف أنه قد تأكد اليوم أن التاريخ لا يمكن أن يكون منصفاً أو محايداً، وأن «المسبقات» تؤثر في حكم المؤرخ إن بوعي منه أو بغير وعي. ولكن ليست مهمة المؤرخ* أن يُصدر الأحكام، بل مهمته أن يتناول الوقائع بالتحليل والتفسير، سواء ما تعلق بالاستمرارية الاقتصادية والاجتماعية أو بالأحداث. وإذا كان التاريخ لا يقتصر على «رواية الأحداث»، فإن الأحداث وقائع تاريخية تكون في بعض الأحيان زاخرة بالعواقب والتبعات على المجتمعات وعلى الذهنيات. ولنفكر في القرار الذي اتخذه الأمير الفاطمي في القاهرة بتسليم المغرب الكبير إلى بني هلال! فلا يمكن أن نمحو الوقائع بجرة قلم، فلا نعتدّ بغير الرؤية الاقتصادية الخالصة.

*- يريد عبد الكريم الخطابي، بطل الريف.
*- هو العقيد الجزائري عميروش آيت حمودة (1926-1959).
* - كتب: «التاريخ Histoire»، وقد جعلناها «المؤرخ».

والحال أن الوقائع هي الآتية: لم تكن هنالك إفريقيا رومانية *واحدة*، بل مقاطعات عدة، تتمايز أوضاعاً، وتتباين ساكنات، وتختلف مصالح. وإذا ما تمعّنا في خريطة للاستيطان الروماني في إفريقيا خلال القرن الثالث، وهو يمثل لحظة الأوج في هذا الاستيطان طالعنا تعارضٌ بين جهتيّ الشرق والغرب. فتونس وشرق الجزائر، كما نعرفهما في الوقت الحاضر، وهما يقومان مقام مقاطعة إفريقيا وامتدادها العسكري نوميديا، كانا قد بلغا شأواً بعيداً في التحضر. فالمدن ومحطات البريد الإمبراطوري التي انتقلت إلينا أسماؤها بواسطة صُوات الألف العسكرية والمسارات، ينبغي أن نضيف إليها مئات البلدات التي لا تزال مجهولة الأسماء، لكنها تقوم دليلاً على كثافة سكانية استثنائية. وكان يمتد على الحدود الجنوبية لهذه المقاطعات شريطٌ عسكري شاسع يأخذ من السهوب، بل يأخذ كذلك من الصحراء في طرابلس الغرب. ولقد رأينا كيف أن تلك الأراضي الجرداء، وتلك «المناطق الخالية» (*solitudines*) التي صورها سالوستيوس في القرن الأول قبل الميلاد، قد تم لها الاستصلاح والإعمار بفضل إدارة سياسية موصولة.

وأما الموريتانيتان فإن شبكة الطرق والمناطق الحضرية فيهما كانت أقل تطوراً بكثير. فقد كانت المدن أقل سكاناً وأقل فخامة، لكن تحيط بها أسوار، وهو حرص على توفير الحماية لم يكن معروفاً في مقاطعة إفريقيا وفي نوميديا. ولم يصل الشريط العسكري، الذي درج الناس لوقت طويل على الخلط بينه ووادي الشلف في موريتانيا القيصرية، إلى حدود منطقة التل إلا في القرن الثالث. وفي موريتانيا الطنجية كان امتداد المقاطعة أكثر محدودية، ولم يكن الربط بين الموريتانيتين عن طريق البر موصولاً على الدوام بطريق تكون تخضع للمراقبة. لكن متى وقع ما يتهدد المقاطعتين جرى وضعهما تحت قيادة عسكرية واحدة. وجملة القول إن الموريتانيتين كانتا أقل تروّماً بكثير من نوميديا ومقاطعة إفريقيا. وكان انعدام الأمن فيهما أكثر تواتراً وكانت التمردات الكبيرة المندلعة فيهما تمتد في بعض الأحيان إلى أطراف نوميديا.

ولذلك فلكي نتناول بالتحليل الجدي وضعية إفريقيا تحت الحكم الروماني والموقف الذي كان من البربر تجاه ذلك الحكم، يجدر بنا أن نميز بدقة بين المجموعين من المقاطعات. وهنالك أمر آخر لا يمكن أن يرقى إليه الشك؛ نريد ضعف تعداد القوات العسكرية في بلد مترامي الأطراف، فإذا ما زدنا أعداد جنود الفيلق الوحيد (*Legio tertia augusta*) إلى أعداد الجنود في فرق الخيالة، والجنود في أجنحة الخيالة، المتوزعين من طرابلس الغرب إلى المحيط الأطلسي، لم يكادوا

يزيدون تعداداً عن 000 27 رجل. ولو كان الإفريقيون قابلوا المستوطنين القليلين الذين استقروا في المدن، وفي أغنى السهول، بالمقاومة الشديدة والمتواصلة لقرون لكان تم لهم القضاء المبرم على تلك القوات. والحال أنها لم تكن بالقوات قليلة العدد فحسب، بل من المستحيل اعتبارها، من وجهة نظر حديثة، جيشاً استعمارياً أو جيشاً للاحتلال. فمعظم المقاتلين المكونين لهذه القوات قد جرى تجنيدهم من الساكنة المحلية من بين الإفريقيين المتروّمين بدرجة معينة. لكن الحكومة الإمبراطورية لم تكن تتردد، في حالات الخطر الكبير، في أن ترسل إلى موريتانيا بقوات تجنّدها من المقاطعات الأخرى.

ويُفترض بالمؤرخين المهتمين بإبراز المقاومة الإفريقية أن يقارنوا بين أعداد الجنود المكونين للقوات في المقاطعات الإفريقية وأعداد القوات في المقاطعات الأوروبية: الجرمانيتين، وريثيا Rhétie*، وبانونيا Pannonie*، وميسيا Mésie*، وداسيا Dacie*. وقد كان يتجمع بطول نهريّ الراين والدانوب معظم فيالق الإمبراطورية. والحقيقة أن الحدود في هذه الناحية كانت تتعرض لضغط متواصل من الأقوام الجرمانية، وقد



71. سبيطلة (تونس). قوس أنطونان ومعبد الكابيتول.

*- مقاطعة قديمة من الإمبراطورية الرومانية كان يحدها من الشمال الدانوب ومن الغرب جرمانيا.
*- منطقة قديمة في أوروبا الوسطى، كانت تقوم في الموضع الحالي لهنغاريا وقسم من كرواتيا وصربيا.
*- مقاطعة رومانية كانت تقوم بين الدانوب والبلقان والبحر الأسود.
*- إقليم روماني يوافق على وجه التقريب رومانيا الحالية.



72. إفريقيا الرومانية. المدن الرئيسية، والطرق، وخطوط التحصينات في القرن الثالث.

كانت شديدة البأس وكثيرة العدد، بينما ظلت أراضي الإمبراطورية في إفريقيا تسير في توسع، بفضل المراقبة التي كانت لا تفتأ تشتد على قبائل الرحل وأشباه الرحل.

وهنالك أمر ثالث يصعب تحليله، ولكن لا يمكن استبعاده، وهو تعداد كل السكان الحضر، أي المتروّمين، وفي مقابله تعداد السكان الذين أفلتوا من هذه الرومنة. فقد رأينا أنهم يختلفون في نسبتهم السكانية كثيراً بين مقاطعة إفريقيا والموريتانيتين، ولكن الجبال لم تكن على الدوام تلك الملاذات والملاجئ التي توحي إلينا بها تعارضات الاستعمار الحديث. فالفراغات التي لا نزال نراها على الأطالس الأثرية لا تدل دائماً على غياب أطلال المباني القديمة، بل يشير معظمها إلى قصور في أعمال الاستكشاف والتنقيب، وهذا أمر يصح خاصة على الأوراس. وعلى العكس، فحتى المناطق الأكثر تروّماً كنتَ لا تزال ترى فيها وجوداً لأقوام قد حافظت على تنظيمها الخاص، وكانت البلدة الرئيسية فيها تتسمى باسم القبيلة (*Civitas Nattabutum* و*Civitas Nybgeniorum*...). وقد كانت أراضي هذه القبائل واضحة الحدود، غير أنه لا يمكن اعتبار هذه الأقاليم بمثابة المحميات، أو من قبيل «البانتولاندات» Bantouland، ذلك بأنها كانت تتروّم بوتيرة لا تنقص كثيراً عما كان جارياً في أراضي الاستعمار القديم. ولقد تحقق لمدن هذه الأقاليم من التقدم مثل ما تحقق للمدن الأخرى. وتعتبر توبرسيكو نوميداروم Thubursicu Numidarum* [خميسة] مثالاً مبيناً في هذا الباب؛ فقد كانت في بدايتها لا تزيد عن تجمع سكاني

*- المعروفة حالياً بخميسة، وتقع في ولاية سوق أهراس.

على أرض قوم من النوميديين، قد يكون حصل على الإذن بتكوين مدينة أهلية (*civitas*)، ثم صارت بلدية تحت حكم تراجان Trajan، وصار أمير القبيلة في ذلك الوقت وقد اكتسب حقوق المواطنة الرومانية والعضوية في المجلس البلدي. ثم صارت مدينة توبرسيكو والإقليم الذي تقوم عليه القبيلة، بعد جيل واحد، وقد فقدا كل ما كان لهما من أصالة؛ فما عادا يزيدان عن بلدية كغيرها من البلديات الأخرى تحيط بها أراض جماعية. ويمكننا أن نتتبع هذا التحول النموذجي كذلك على طرف الصحراء؛ لدى قبيلة النبجني Nybgenii، التي صارت قريتها بلدية، وغُيّر لها حتى اسمها، فصارت تُعرف بتوريس تاميلاني Turris Tamellani.

بقاء المسيحية من بعد روما

هل كان تمسيح إفريقيا من العظم والرسوخ كما تدفعنا إلى الاعتقاد تلك الشخصياتُ العظام أمثال أغسطينوس، وسيبريانوس، وتيرتوليانوس من قبله؟ أوَلم يكن الانشقاق الدوناتي، الذي كثيراً ما جرى تصويره وكأنه تجل للمقاومة الإفريقية بسبب من أهميته نفسها، دليلاً على عمق التحول إلى الديانة الجديدة واتساع نطاقه؟ ولكن ألم تكن المسيحية محصورة في المدن وحدها، وأنها قد اعتُبرت في الأخير شكلاً جديداً من أشكال الاحتواء؟

ينبغي أن نقوم بالتفنيد لهذه النظرة التضييقية. فالقوائم الأسقفية الطويلة من المجامع الدينية الإفريقية، والكنائس القائمة في بلدات متواضعة نجهل حتى بأسمائها



73. معصرة للزيت من العهد المتأخر في أحد شوارع سوفيتولة (سبيطلة). في المقدمة إلى اليمين طاحونة الزيتون، وفي الخلف مسطحتان للضغط، وقائمان لتثبيت عمود الضغط.

والشواهد على قبور بسطاء الفلاحين، وحتى الشواهد على قبور رؤساء البربر في مناطق تبدو قليلة تروُّم؛ كما هو الشأن في سلسلة البابور حيث كان ملك الأوكوتامنيين Ukutameni (الذين أصبحوا يُعرفون في القرون الوسطى باسم «كتامة») يتسمّى في القرن الخامس بـ «خديم الله» (*Servus Dei*)، تقوم كلها شهادات على تمسيح يبدو من بعض الوجوه وقد تجاوز حدود السيطرة الإمبراطورية. وكذلك تجاوز التمسيح الحدود الزمنية للحكم الروماني، وظل موصولاً خلال العهدين الوندالي والبيزنطي. وهذا الكاتب الإسباني من العهد البيزنطي خوان دي بيكلار Jean de Biclar قد تحدث عن التمسيح الذي وقع لجرمنتيّي الصحراء في حوالي 568 - 569. وإذا كان كوريبوس قد جاء في القرن السادس بتصوير للممارسات الدينية، وحتى السحرية للرحل الجمالين من لواتة، الذين لبثوا على الوثنية، فلقد تناول تلك الممارسات بفضول كفضول عالم الأعراق؛ إذ اعتبرها شيئاً غريباً عن عالمه.

وعلى الرغم من التحول المكثف الذي كان من البربر إلى الإسلام، فلقد بقي للمسيحية وجود لديهم دون شك حتى القرن الحادي عشر، فذلك ما تدلنا عليه سلاسل كثيرة من شواهد القبور في طرابلس الغرب (النجيلة) وفي تونس (القيروان) كما تشهد عليه المراسلة التي كانت من البابا كَريكَوار السابع Grégoire VII، والتي



74. نقشان مقابريان من القيروان، يعود أحدهما إلى 1019، والآخر إلى 1064.

تفيدنا أن في 1053 كان لا يزال لأحد الأساقفة وجود في قومي Gummi (تونس) كما تشهد عليه بعض النصوص القليلة لبعض الكتاب العرب. فهذا البكري قد ذكر جماعة مسيحية كانت تعيش في تلمسان في القرن الحادي عشر*. وهذا تـ. لويكي T. Lewicki* قد ذكر أنه تعرف على ساكنة مسيحية مهمة تعيش بين البربر الإباضيين في ورقلة بين القرنين العاشر والثالث عشر. وبموازاة لاستمرار الإفريقيين على المسيحية، فالملاحظ أنهم قد استمروا يتكلمون اللاتينية لقرون، ولوقت طويل بعد الغزو العربي، وكانت عندهم لاتينية إفريقية (يسميها الإدريسي باللسان اللطيني* الإفريقي)، وربما صارت لغة رومانية.

ولقد كان في تضافر التعصب الموحدي والفوضى البدوية العامل الوحيد في القضاء على هذه الذخائر الثقافية والدينية لإفريقيا الرومانية. وفي القرن نفسه تهاوى الازدهار الزراعي الذي كان قد تحقق من قبل [لمنطقة شمال إفريقيا] بفضل الجهد والمثابرة اللذين كانا من الليبيين الفينيقيين على عهد قرطاج، وكانا من النوميديين زمن الأسرة الماسيلية، وكانا من الرومان الإفريقيين، وهي أسماء تحجب عنا حقيقة أوائل البربر وتحجب استمراريتهم.

إن بلاد البربر لم تصر بلداً لاتينياً كمثل إسبانيا، وهي القريبة جداً إليها، وقد تعرضت هي الأخرى لعمليات النهب والتبديد من البرابرة الجرمان وغزو بيزنطي ثان، وعاشت قروناً مديدة من الحكم العربي الإسلامي. فلقد ارتكزت اللّتننة الإيبيرية إلى أوروبا الإقطاعية والمسيحية، وأما بلاد البربر فلم تكن لها من خلفية تستند إليها غير السهوب، وهي التي تسلل إليها منها أولاً الرّحل الجمالون، الذين استمروا على الوثنية، ثم الهلاليون والعقلية البدوية.

---

*- كتب البكري في هذا المعنى: «وبها [أي تلمسان] بقية من النصارى إلى وقتنا هذا ولهم بها كنيسة معمورة» **كتاب المسالك والممالك**، م. ذ.، ص. 746.

*- جاء في طبعة سـ. شاكر: Lewichi، وهو تاديوز لويكي Tadeuz Lewicki، والغريب أن الاسم ورد برسمه الصحيح في طبعات المؤلف!

*- كتب الإدريسي: «وأهلها [مدينة قفصة] متبربرون وأكثرهم يتكلم باللسان اللطيني الإفريقي»، **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**، مأخوذ من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تأليف الشريف الإدريسي، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس، دار الكتب، الجزائر، 1975، ص. 75.

عابرون دون عقب ثقافي، الوندال والبيزنطيون

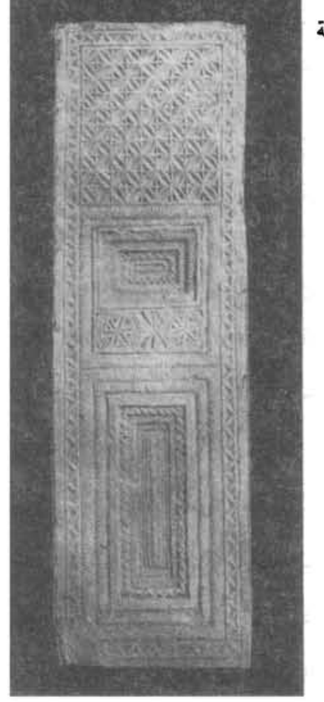
سوف لا نطيل التوقف عند ردود الأفعال التي كانت من البربر على حكم الوندال والبيزنطيين، وهو الذي لم يعمر إلا لقرنين من الزمن أو يزيدان قليلاً. فلم يخلف هؤلاء العابرون، الذين سرعان ما ذهبت بهم رياح التاريخ، في إفريقيا شيئاً، وإلا فالنزر الزهيد. غير أننا لا يمكن أن ننكر أن عملية التمسيح قد استمرت جارية خلال العهدين الوندالي والبيزنطي على الرغم من النزاعات اللاهوتية التي كانت لا تفتأ تنال من سلطة الملوك والحكام والأساقفة.

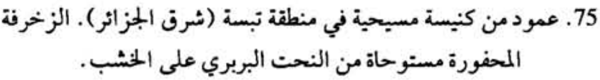
فهؤلاء الوندال، الذين كان عددهم حين نزولهم في إفريقيا يقدر بـ 000 80 حسب ڤيكتور دي ڤيتا Victor de Vita، أو 000 160، إذا كان الرقم الأول لا يمثل إلا الرجال والأطفال الذكور، قد صاروا إلى زوال بعد الهزيمة التي وقعت لجليمير Gélimer وموته. ولم يفلح البيزنطيون، على الرغم من جهودهم العسكرية الكبيرة في احتلال غير جزء زهيد من المقاطعات الرومانية السابقة. وأهم ما بقي من مرورهم في إفريقيا تلك القلاع العظيمة التي شادوها من الحجر المقصوب الذي استخرجوه من المدن المجاورة. فقد كانت هذه المدن كثيراً ما تتعرض للتخريب بسبب الفتن والاضطرابات التي ظلت منذ سقوط الحكم الروماني في استشراء واشتداد.

غير أن العهدين الوندالي والبيزنطي لا يعدمان أهمية على موضوعنا في هذا الكتاب. فلقد شهد هذان العهدان انبعاثاً للتقاليد البربرية، بسبب الانحدار الذي وقع للنزعة اللاتينية. وتقوّت هذه الخاصية البربرية الكامنة على أيدي البدو الجمالين من زناتة، بينما تكونت لدى الموريين شتى الممالك، وكانت نخبتها تتكون من «رومان» المدن. ولقد رأينا أن هذه الممالك البربرية المسيحية كانت تقوم على قواعد هشة واهية، فلم تُجدها فتيلاً في الصمود طويلا للضربات القاصمة التي وقعت عليها من الجيوش العربية.

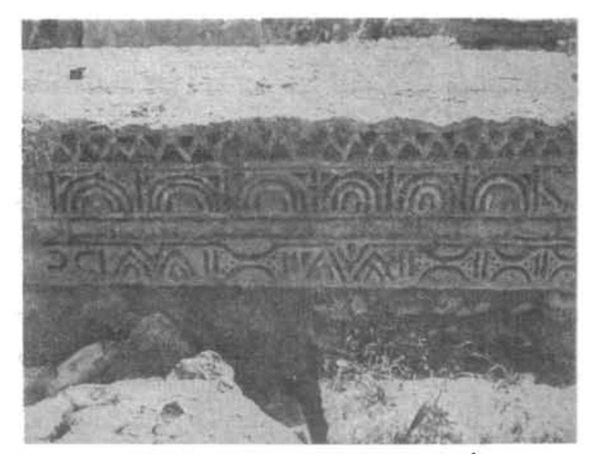
وذهب شـ. كورتوا إلى الاعتقاد أن في القرن السادس كانت توجد ثماني ممالك بربرية، يبدو لي بعضها مثاراً لشك كثير. وفي تقديري أنه كانت توجد مملكة قامت مقام ما كان يُعرَف بموريتانيا القيصرية، ونعرف بملكها؛ ذلك هو ماسونا، الذي تولى الحكم سنة 508، وخلفه ماستيگاس Mastigas ثم كَارمول Garmul.

ويظهر هذا الانبعاث البربري جلياً كذلك في فنون الزخرفة؛ التي صارت تغلب عليها التخطيطية الهندسية دون سواها. فكأنما هبت على تلك الفنون رياح الصحراء الجافة؛ فما أسرع ما ذهبت بتلك المرونة التي كانت تميز الأشكال الزهرية فيها، فصارت إلى الأشكال المستطيلة التي لا نزال نراها عليها إلى الوقت الحاضر في البوادي المغربية. واستحالت صور الإنسان والحيوان فيها إلى تصلب، وباتت خيالات هندسية مسكوكة. وهبت تلك الرياح الجافة نفسها على كل مظاهر النقش والرسم والهندسة، وعلى فن سرعان ما نَسيَ، لأنه فن شعبي ولأنه خاصة فن قروي القواعدَ المعقدة التي كانت تقوم عليها الأساليب الكلاسية. فهذا أدى إلى انبعاثات





75. عمود من كنيسة مسيحية في منطقة تبسة (شرق الجزائر). الزخرفة المحفورة مستوحاة من النحت البربري على الخشب.



76. عتبة، أو عارضة مزخرفة، من مصلى جوكوندوس (القرن السادس) في سبيطلة. ويظهر عليها التشوه الذي لحق الزخرفة الكلاسية.

غريبة؛ فنحن نرى النقيشات في هذا العهد أقرب إلى النقائش والمنحوتات النادرة السابقة على العهد الروماني منها إلى الأعمال الحضرية التي تعود إلى القرون السابقة.

ألسنا نجد الظاهرة نفسها، مع مراعاة جميع الفروق، قد كانت هي الممهد في بلاد الغال لنشوء هذا الفن الروماني، الذي عادت لتطفو على سطحه التقاليدُ السلتية القديمة، بعد أن كانت انطمست لبعض الوقت بطغيان معايير الفن الرسمي الروماني؟



77. شاهد قبر سويف هيرمينگوند زوجة وندال إنجومار، في هيبون (عنابة، الجزائر).

الإسلام وتعريب بلاد البربر

كيف أصبح شمال إفريقيا، بساكنته من البربر، المتروّم بعضهم والمتمسّح بعضهم خلال قرون معدودة، مجموعاً من البلدان المسلمة بالكامل، والمستعربة إلى حد بعيد وإلى درجة أن غالبية هؤلاء السكان قد أضحوا يقولون عن أنفسهم، أو يعتقدون أنهم من أصول عربية؟

يبدو لي أن السعي إلى بيان آلية التعريب [الذي وقع للبربر] سيكون أكثر نفعاً من البحث عن الأسباب التي كانت من وراء الفشل النسبي الذي مُنيت به عملية الرومنة [التي وقعت عليهم].

نشر الإسلام ليس نشر العربية

من المهم في البداية أن نميز بين الإسلام والعروبة. حقاً إن هذين المفهومين وأحدهما ديني والآخر عرقي اجتماعي، قريبان جداً إلى بعضهما، لأن الإسلام ظهر لدى العرب، وكانوا هم في البداية من قاموا على نشره. لكن هنالك أقواماً من العرب، أو المستعربة، قد استمرت على مسيحيتها (في سوريا، ولبنان، وفلسطين والعراق، ومصر)، وملايين من المسلمين ليسوا من العرب، ولاحتى من المستعربة (السود الإفريقيون، والبربر، والأتراك، والأكراد، والألبان، والإيرانيون، والأفغان والباكستانيون، والأندونيسيون...). وقد كان يمكن للبربر أن يدخلوا جميعاً في الإسلام، مع البقاء على هويتهم، والمحافظة على لغتهم، وتنظيمهم الاجتماعي وثقافتهم؛ إسوة بالفرس والأتراك. بل إن هذا الأمر كان من الناحية النظرية سيكون عليهم أسهل وأيسَر؛ ذلك بأنهم كانوا أكثر عدداً من بعض الأقوام التي حافظت على هويتها في صلب أمة الإسلام، وأنهم كانوا أبعد عن المركز الذي كانت منه انطلاقة الإسلام.

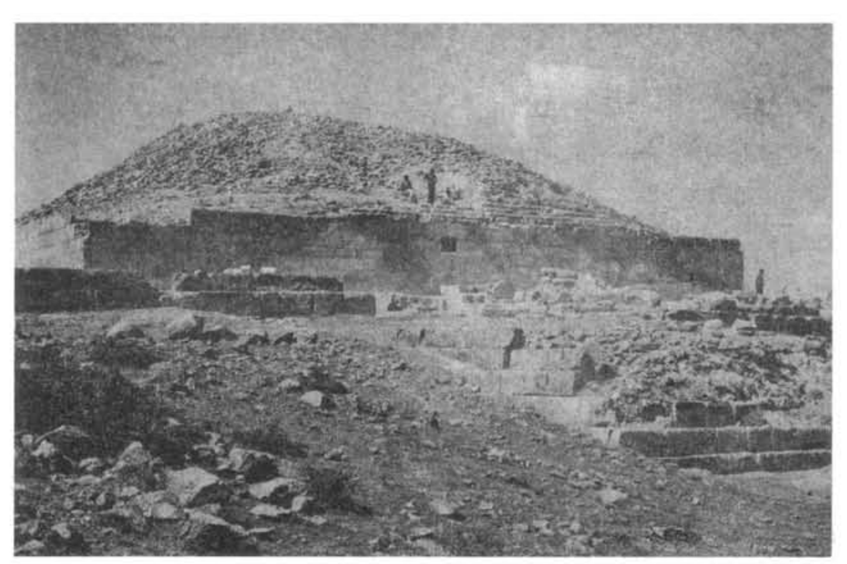
وكيف نفسركذلك أن تكون مقاطعة إفريقيا ونوميديا، وحتى الموريتانيتين وهي التي وقع عليها التمسيح بالوتيرة نفسها التي وقع على المقاطعات الأخرى من

الإمبراطورية الرومانية، وكانت لها كنائس تتميز بالشدة والصرامة، كيف نفسر أن تكون تحولت بالكامل إلى الإسلام، بينما بعض الأقوام على أبواب شبه الجزيرة العربية قد استمرت على المسيحية، كالأقباط في بلاد النيل، والموارنة في لبنان والنسطوريين واليعاقبة في سوريا والعراق؟

نهاية عالم

دخل الإسلام إلى إفريقيا، كما دخل إلى الشرق الأدنى، بطريق الغزو العربي وهذه من المسلمات. ولقد رأينا مدى الجهل الذي يرين على وقائع ذلك الغزو وما أكثر الحكايات الأسطورية التي وُضعت في الإشادة بالمفاخر التي حققها مقاتلون جُعلوا على رأس سلالات قوية. وإن بعض ما أورد ابن عبد الحكم في هذا الصدد] نراه قد كان يغلب عليه النفس الملحمي للأناشيد البطولية*.

وكان في ضعف البيزنطيين ما يسر الغزو الإسلامي. فهذا البطريق كَريگوار الذي هُزم وقُتِل في معركة سبيطلة، قد كان هو نفسه قام بالتمرد على إمبراطور



78. الجدار (أ) من الجبل الأخضر، في منطقة فرندة (الجزائر).

*-[عبد الله بن عبد الرحمن] بن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، لابن عبد الحكم المتوفى سنة 657هـ.، تحقيق وتقديم علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1995. انظر منه خاصة الفصل الموسوم «ذكر فتح الأندلس»، صص. 232-253.

القسطنطينية. وكانت إفريقيا قبل قرنين من ذلك العهد نهباً للفوضى؛ فلقد اجتمعت كل عوامل الاختلال والخراب الاقتصادي على هذا البلد البائس. فمن عهد الوندال بقي القسم الأكبر من المقاطعات السابقة متأبياً عن إدارة الدول وريثة روما. وما كانت مملكة الوندال في إفريقيا تغطي إلا ما يعرف حالياً بتونس وجزءاً صغيراً من شرق الجزائر، تحده في الجنوب الأوراسُ وفي الشرق خط الطول في سيرتا. وقد بيّن شـ. كورتوا، بالاستناد إلى روايات بروكوبيوس وكوريبوس، أن الرّحل الجمالين توغلوا تحت قيادة كاباون Cabaon في بيزاسين، وذلك منذ نهاية حكم ثراساموند Thrasamond في سنة 520 أو نحوها. ومنذ هذا التاريخ كان على الوندال والبيزنطيين أن يتصدوا لهجمات الرحل الجمّالين المتواصلة يشنونها من الجنوب الشرقي. وخلال ذلك الصراع الطويل كان الوندال يجدون في بعض الأحيان حلفاء من رؤساء أو ملوك الأقوام من الجبليين المقيمين أو أشباه الرحل، لكن كان يتعين عليهم في كثير من الأحيان كذلك أن يواجهوا تحالف المجموعتين البربريتين المجتمعتين تحت اسم «الموريين».

وأما ما تبقى من إفريقيا، ذلك القسم الذي أسماه شـ. كورتوا «إفريقيا المنسية» فلا نعرف منه خلال هذه الحقبة، الممتدة على قرنين من الزمن، غير أسماء بعض الرؤساء وبعض الأنصاب المقابرية النادرة، من قبيل الأجدار بالقرب من سعيدة أو في الكَور بالقرب من مكناس، وكتابات ماستيس Masties النقوشية الشهيرة في أريس Arris (الأوراس)، وكتابات ماسونا النقوشية في ألتافا (منطقة وهران). ويذهب بنا الظن، من خلال قراءتنا للنتف التي نقلها إلينا المؤرخون، ومن خلال محتوى تلك الكتابات النقوشية، إلى أن المخاطر وانعدام الأمن لم تكن بالشيء اليسير في هذه المناطق «المحرّرة».

وكان هنالك مصدر آخر للفوضى والتدهور الاقتصادي؛ نريد التفكك الذي وقع في خطوط الدفاع والمراقبة التي كانت تصد الرُّحل. وقد شكل زوال مناطق الزراعة الجنوبية أول إضرار ناب حياة الاستقرار في المناطق الداخلية من البلاد.

وفي الأخير فالنزاعات اللاهوتية عند مسيحيّي إفريقيا لم تكن بأقل حدة مما كان يقع عند مسيحيّي المشرق. فالكنيسة التي كانت تلاقي عنتاً كبيراً في التصدي للدوناتية قد ضعُفت في مملكة الوندال من جراء عمليات الاضطهاد؛ ذلك بأن الأريوسية* صارت

* - مَذْهَب أرْيُوس الذي ينكر وحدة جوهر الأقَانيم الثلاثة وينكر ألوهية المسيح.

هي الدين الرسمي للدولة. ولئن عادت العقَدية الدينية إلى الانتصار من جديد تحت حكم هيلديريك Hildéric (في سنة 525)، فالذي يبدو أن خلال هذه الفترة صارت أسقفيات كثيرٌ إلى زوال. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وقع خاصة أن رافق التصدعَ الذي ناب الدولة الرومانية دخول المقاطعات في انعزال عن بعضها وانطواء.

ولقد كان الغزو البيزنطي الثاني من هذه الناحية أبلغ أضراراً. فقد أدخل من جديد إلى إفريقيا نزاعات جديدة بشأن طبيعة المسيح. فقد كانت فاتحة الحقبة البيزنطية في إفريقيا بالجدال حول الطبيعة الواحدة للمسيح، ونزاع المجالس الدينية الثلاثة تحت حكم جوستينيانوس Justinien، وكانت خاتمتَها المحاولة التوفيقية التي جاء بها هرقليوس Héraclius*، والقائمة على وحدة الإرادة*، والتي تعرضت بدورها للإدانة؛ إذ اعتُبرت بدعة جديدة. بل نشأ مع بداية الغزو العربي نزاع جديد من المبادرة التي قام بها الإمبراطور قسطنطين الثاني Constant II؛ نريد الصيغة [Typus]* Type، فزاد في تمزيق إفريقيا المسيحية (648).

وفي الوقت نفسه تزايدت التعقيدات الاجتماعية، بل العرقية، في أرجاء البلاد. فالرومان الإفريقيون (المسمون عند المؤلفين العرب بالأفارق) الذين كانوا يسكنون المدن والقرى، الموغل بعضها في الجنوب، من قبيل المجتمع الفلاحي الذي كشفت عنه الصفائح الألبرتينية tablettes Albertini على بعد مائة كلم جنوب تبسة، والموريون غير المترومين والمنحدرون من بعض الأقوام من أوائل البربر، انضاف إليهم الرّحل من زناتة، وبقايا الوندال، والجنود الغزاة، والإداريون البيزنطيون (أو«الروم» كما يسميهم المؤلفون العرب). وصار هذا المجتمع يزداد انقساماً في بلد قد امّحى فيه حتى مفهوم الدولة.

وجملة القول إن الغزاة العرب، وقد كانوا قليلي العدد لكن بواسل، لم يجدوا في مواجهتهم دولة على استعداد لمقاومة ذلك الاجتياح، بل تصدى لهم معارضون متتابعون؛ كان فيهم البطريق البيزنطي، ثم الرؤساء البربر، وإمارات من بعد ممالك

---

*- Monothéletisme، وهو مذهب ظهر فى القرن السابع، يقول إن المسيح من طبيعتين تعملان بإرداة واحدة، ليكون فيه حل وسط بين الأرثوذكسية والمونوفيزية. وقد لقي التأييد من هرقليس الأول، لكنه لم يعمر طويلاً، ونقضه مجمع قسطنطينية الثالث سنة 680.

*- هو Héraclius أو Héraclieus، إمبراطور بيزنطي (575-641).

*- وهي صيغة جاء بها الإمبراطور في الدعوة إلى حرية العبادة.

وقبائل من بعد اتحادات. وأما الساكنة الرومانية الإفريقية، المنعزلة خلف أسوار مدينتها، فهي على الرغم من كثرتها الكثيرة لم تكن تملك لا الوسيلة ولا الإرادة للدخول في مقاومة طويلة لهؤلاء السادة الجدد المبعوثين من عند الله. ثم إن الجزية التي فرضها عليها العرب لم تكن بأثقل من الضرائب التي كانت تقع عليها من البيزنطيين، وقد كانت جبايتها تبدو في بادئ الأمر على الأقل في صورة مساهمة استثنائية في التخفيف من مآسي الحرب أكثر مما هي فريضة دائمة. وأما ما كان يأتي فرسان الله من عمليات السلب وأخذ الغنائم فما كانت من الإجحاف إلا بقدر ما كان يقع على تلك الساكنة من ممارسات الموريين قبل قرنين من الزمن.

التحول إلى الإسلام

لقد نوهنا إلى وجوب التمييز بين نشر الإسلام ونشر العربية. فالأول قد وقع بوتيرة أسرع بكثير من الثاني. فقد انقلبت بلاد البربر إلى الإسلام في أقل من قرنين من الزمن، بينما لا تزال لم تتعرب بالكامل حتى الآن، وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً على الغزو العربي الأول.

كان نشر الإسلام وعملية التعريب الأولى ذوي طابع حضري في البداية. فقد انغرست ديانة الغزاة في المدن القديمة، التي كان يزورها المقاتلون الدعاة ثم العلماء وهم رحالة متمرسون على المناقشات اللاهوتية. وساهم إنشاء مدن جديدة، وقد كانت مراكز دينية حقيقية؛ كالقيروان، وهي أول منشأة إسلامية (سنة 670)، وفاس التي أسسها إدريس الثاني (سنة 809)، في الترسيخ للإسلام على طرفيّ البلاد.

وكان تحوّل البربر في البوادي والقرى، من صهناجة وزناتة، إلى الإسلام في صورة شديدة الغموض. فقد كانوا مهيإين للتوحيدية المطلقة التي جاء بها الإسلام بفعل الانتشار الذي تحقق عندهم في قريب من ذلك الوقت للمسيحية، وبسبب نوع من التبشير اليهودي الذي كان يجري لدى قبائل الجنوب من الرحل، وربما بسببٍ كذلك من ذكرى تلك القدرة الهائلة التي كانت للإله الإفريقي العظيم، الذي يسميه اللاتين ساتورن، وهو خليفة بعل حمون البونيقي، الذي كان تفوّقه على الآلهة الأخرى ممهداً للتوحيدية.

وعلى كل حال فإن تحول رؤساء الاتحادات القبلية الكبيرة إلى الإسلام قد أدى إلى نشر الدين الجديد بين الساكنة البربرية. كما وأن الغزوات الظافرة التي خاضها

المقاتلون البربر تحت قيادة رؤسائهم وراية الإسلام قد كان من الطبيعي أن تتأدى بهم للانقلاب إلى الإسلام.

ولجأ الدعاة المسلمون إلى ضرب المثل من أنفسهم ليستميلوا إليهم قلوب السكان في المدن، وخاصة في القرى. فقد كان ينبغي أن يظهروا لهؤلاء المغاربيين الذين كانوا شديدي تديّن على الدوام، كيف تكون الجماعة الحقيقية للمدافعين عن العقيدة. فكان الرباط، وهو حصن أو قلعة يسكنها العباد الجنود المستعدون على الدوام للدفاع عن أرض الإسلام ضد الكفار والمبتدعة، والمستمدون تعاليمهم من منابع العقَدية المتشددة. فقد كان هؤلاء المرابطون يعرفون أن يتحولوا عند الاقتضاء إلى مصلحين متحمسين ونافذين. وكان أولئك من لموتنة الذين أقاموا رباطاً بالقرب من السنغال (أو على جزيرة على نهر السنغال) من وراء تأسيس الإمبراطورية المرابطية، التي استمدت تسميتها من اسمهم، ولحقها تحريف إلى الإسبانية بإكراهات التاريخ*.

وعندما بات الإسلام مضطراً للركون إلى سياسة دفاعية، صار الرباط العسكري يحمي الساحل من غارات البيزنطيين، ثم الفرنجة ونورمانديّي صقلية؛ فبعض هذه الرباطات، كالتي في سوسة وفي الموناستير، تعتبر قلاعاً حقيقية.

وأما المناطق التي لم تكن معرضة للتهديدات فإن الرباط فقَد فيها طابعه العسكري ليصير مقراً للدعاة الدينيين، الذين يحظون بالكثير من التوقير. فقد قامت في وقت قريب إلينا مجموعة من الزوايا، ربما كان من المبالغة أن نعتبرها المطابق للهيئات الدينية المسيحية، وقد استندت إلى مراكز الدرس الديني؛ تعتبر الوريثة للرباطات القديمة. وترتبط هذه الحركة التي غالباً ما داخَلتها صوفية شعبية، بالأولياء أو المرابطين، وهو اسم آخر اشتُق كذلك من «الرباط». وقد ساهمت ظاهرة «المرابطين» [أو الأولياء] كثيراً في إتمام نشر الإسلام في البوادي والقرى، مع إجازتها لبعض الممارسات السابقة على الإسلام، لكنها لا تنال من إيمان المؤمن.

وأما الخطر الأكبر على العقَدية السنية فقد جاءها من الدعاة الخوارج، الذين وفدوا من المشرق في القرون الأولى للإسلام. فلئن قاموا بنشر الدين الجديد بين القبائل، خاصة منها قبائل زناتة، فلقد قاموا بفصل جزء من البربر عن العقَدية الإسلامية. ولئن تسبب الانشقاق الخوارجي للمغرب الكبير في الكثير من الويلات

*- فالمرابطون يُعرفون في اللغات الأجنبية باسم Almoravides، وهي كلمة إسبانية.

فإن الفضل يعود إلى الخوارج في المحافظة خلال كل العصور، بما فيها العصر الحاضر، على قوة دينية أقلية لكن مثالية، بما يميز أفرادها من صلابة الإيمان والتشدد الذي يميز طباعهم وعاداتهم.

وظهر دعاة آخرون ورحالة كبار اضطلعوا بنشر المذهب الشيعي. ونعرف بالنجاح الباهر الذي تحقق لأحدهم؛ ذلك هو أبو عبد الله، لدى قبائل كتامة؛ فلقد كان من وراء قيام الدولة الفاطمية. وينبغي القول إن تلك العصور التي يبدو لنا أن الناس فيها كانوا في أوروبا، كما في إفريقيا، محكومين بحياة أقرب إلى حياة المعتقلات بسببٍ من انعدام الأمن، قد كان فيها الدعاة الدينيون يسافرون كثيراً ويضربون بعيداً في أنحاء المعمور، ويتلقون العلم من مشاهير العلماء، وينذرون أنفسهم لخدمتهم، إلى اليوم الذي يتحقق لهم فيه الوعي بما باتوا يحوزون من معرفة ومن سلطان، فيصيرون بدورهم شيوخاً، ومنهم من يستنُّ لنفسه مذهباً جديداً. ومن جملة هؤلاء كان ابن تومرت، مؤسس الحركة الموحدية. وقد كان ابن ياسين من قبله اضطلع بهذا الدور في تأسيس الحركة المرابطية.

لكن كانت هنالك أجزاء من بلاد البربر لم يدخلها الإسلام إلا في وقت متأخر ولا نريد بها الجهات التي استوطنتها المجموعات المتلاحمة من الجبليين المقيمين، فلقد وجدنا هؤلاء على العكس سرعان ما صاروا ينهضون بدور مهم في الإسلام المغاربي على غرار ما فعل كتامة ومصمودة، بل نريد الجهات حيث كان كبار الرحل في أقاصي الهقار وفي جنوب الصحراء. والذي يبدو، حسب ما تدلنا تقاليد الطوارق، أن هؤلاء قد تحولوا إلى الإسلام في وقت مبكر جداً، على أيدي صحابة الرسول، لكن هذا التحول، ما لم يكن شيئاً خرافياً، فإنه لم تكد تكون له من نتائج. ويدخل في تلك الخرافات كذلك حضور عقبة إلى فزّان، من قبلُ حتى أن يتم بناء القيروان. وبقي لعبادة الأوثان وجود عند الإساباتيين* إلى حين تعرضهم للغزو الطوارقي. وقد قام بعض الدعاة، أو الأنبياء [كذا!]، بإعادة إدخال الإسلام إلى الهقار، ولكن لم يحوزوا فيه نجاحاً كبيراً. ولا يبدو في الواقع أن النشر الحيقيقي للإسلام [لدى البربر] قد وقع قبل القرن الخامس عشر.

*- Isabaten، قوم كان قد غزا مصر في مجموعة من الليبيين لكن هزمه رمسيس، وأقام في صحراء شمال إفريقيا قبل أن يتعرض لغزو الطوارق.

بل إن هنالك بلداً ناطقاً بالبربرية لم يتحول أبداً إلى الإسلام؛ إنها جزر الكناري التي كان سكانها الأصليون، القونشيون، إلى حين تعرّضهم للغزو الإسباني النورماندي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، لا يزالون على الوثنية.

آليات التعريب

وأما التعريب فقد سلك سبلاً مختلفة، وإن يكن جرى التمهيد له بفرض النطق العربي بتلك الجمل المعدودة اللازمة للدخول في الإسلام. فالقرآن، وهو وحي مباشر من الله إلى رسوله، لا ينبغي أن يلحقه أي تحريف؛ ولذلك فلا تجوز ترجمته؛ فيكون اللسان العربي والكتابة العربية بالنتيجة شيئين مقدسين. وقد كان هذا الإكراه، وهذه الهالة من القداسة، مما ساهم في التعريب اللغوي. لكنه تعريب تم خلال الحقبة الأولى (في القرنين الحادي عشر والثاني عشر*) على صعيد الحواضر في المقام الأول. وظلت بعض المدن المغاربية، خاصة من بين الساحلية تحافظ على لغة عربية أقرب إلى الفصيحة، تعتبر انعكاساً لذلك التعريب الأول، قد عزّز منها التدفق الذي كان عليها من الأندلسيين المطرودين من إسبانيا في القرن الخامس عشر. غير أن العربية الحضرية، الفصيحة صارت في معظم الأماكن تغلب عليها لغة أخرى أكثر شعبية؛ لغة خشنة تخالطها مفردات من البربرية. وتتميز هذه العربية اللهجية نفسها بتنوع كبير، وهي تعتبر في الواقع الصورة اللغوية للتعريب الذي همّ المغرب الكبير. إنها لغة انحدرت من اللغة البدوية التي أدخلتها القبائل الهلالية في القرن الحادي عشر؛ فهذه القبائل هي التي قامت في الحقيقة بتعريب قسم كبير من البربر.

وإنها لقصة غريبة، بل هي في الحقيقة قصة مدهشة عجيبة؛ نراها في ذلك التحول الذي كان إلى الإسلام من ساكنة بربرية تقدر بالملايين على أيدي بضع عشرات الآلاف من البدو. فلا يمكننا أن نبالغ في الأهمية العددية لبني هلال؛ فمهما يكن عدد أولئك الذين يدّعون الانتساب إليهم، فلقد كانوا عند ظهورهم في إفريقية وفي المغرب الكبير لا يكادون يزيدون عن بضع عشرات الآلاف. كما وأن الموجات اللاحقة من بني سليم ثم بني معقل، الذين استقروا في جنوب المغرب، لم تكد ترفع عدد الأفراد من الأصل العربي الذين دخلوا إلى شمال إفريقيا في القرن الحادي عشر إلى أكثر من مائة ألف. وقد كان عدد الوندال لدى جوازهم مضيق جبل طارق

* - كتب: «الثاني عشر - الحادي عشر XII-XI». وورد في الطبعة الأولى والثانية «VII-XI» ونعتقد أن الصواب كما أثبتنا.

ونزولهم على شواطىء إفريقيا في سنة 429 يقدر بثمانين ألفاً أو ضعف هذا العدد إن كان ڤيكتور دي ڤيتا لم يقتصر في الأرقام التي جاء لهم بها على الرجال والذكور من الأطفال. وهو ما يعني أن الاجتياحين كانا يكادان يكونان متناسبين من حيث الأهمية العددية. ولكن ماذا تبقّى من سيطرة الوندال على إفريقيا قرنين بعدُ من الزمن؟ لا شيء. فلقد محا الغزو البيزنطي كل أثر لوجود الوندال، الذين عبثاً قد نبحث لهم اليوم عن ذرية، أو عمن قد يدّعون إليهم الانتساب. ولننظر الآن في النتائج التي كانت لوصول العرب الهلاليين في القرن الحادي عشر؛ فلقد تعرّب قسم كبير من بلاد البربر، وباتت دول بلدان المغرب معدودة في الدول العربية.

وبطبيعة الحال فإن هذا التحول البطيء لم يكن السبب من ورائه لا القوة التناسلية لبني هلال، ولا الإبادة التي وقعت للبربر في السهول.

لقد وجّهت القبائل البدوية في البداية ضربة جديدة إلى حياة الاستقرار بما كانت تأتي من أعمال النهب، وبالتهديدات التي كانت تمثلها للقرى المفتوحة. وبذلك عززت هذه القبائل من عملية استيعاب الرحل من البربر الجدد، الذين كانوا قد دخلوا إلى مقاطعة إفريقيا ونوميديا منذ القرن الخامس. فقد تعرض الرحل الزناتيون الذين كانوا الممهدين لدخول الهلاليين، للاحتواء بسهولة من هؤلاء القادمين الجدد. فإذا المقاتلون الرحل العرب، الذين كانوا يتكلمون اللغة المقدسة، قد اكتسبوا بها هيبة عظيمة، وبدلاً من أن يتعرضوا للتذويب الثقافي في الكتلة البربرية من الرحل قاموا هم باستمالة البربر إليهم واحتوائهم.

ولقد يسّر التطابق في أنماط العيش هذا الاندماج. وإنه لشيء مثير أن يصير البربر الرحل يقولون عن أنفسهم إنهم هم كذلك من العرب، وأن يكتسبوا بالعروبة الاعتبار، ويصير لهم وضع الفاتحين، بل وضع الأشراف، أي المنتسبين إلى النبي. وزادت في تيسير هذا الاندماج كذلك حيلة قانونية؛ فالمجموعة أو الفخدة [من البربر] إذا صارت تابعة للأسرة العربية صار لها الحق في أن تحمل اسم رب هذه الأسرة، كأنما هوتَبَنٍّ جماعي. كما وأن وجود ممارسات مماثلة لدى البربر أنفسهم قد زاد في تيسير هذه العملية.

وعليه، فالتعريب وقع في البداية على قبائل البربر من الرحل، خاصة قبائل زناتة. وقد كان تعريباً كاملاً؛ حتى إنه لم يُبق اليوم على شيء من لهجات الرحل زناتة. وأما اللهجات التي ما زالت تتمتع بشيء من الحياة فهي التي لا يزال يتكلمها زناتة المقيمون إما في الجبال (الونشريس) أو في واحات شمال الصحراء (مزاب).

وإلى الاتفاق في أنماط العيش، وهو عامل قوي من عوامل التعريب، انضافت اللعبة السياسية التي انخرط فيها الحكام البربر؛ فقد كانوا لا يترددون في تسخير تلك القدرة على التحرّك عند القادمين الجدد، وما كان لهم من قوة عسكرية، ضد أبناء جلدتهم. وبفعل الضغط المزدوج من نزوح الرعاة والأعمال الحربية، وما يرافقها من أعمال النهب والحرق، أو أعمال السرقة في أقل تقدير، إذا مد الرحل، الذي بات يقع يومئذ على القسم الأعظم من المغرب الكبير، بموازاة لتعرّب البدو، قد صار إلى اتساع مستمر، وبات يتأكّل الدول ويقضي على حياة الاستقرار في السهول. فإذا الجهات الناطقة بالبربرية قد انحسرت، فما عادت تزيد عن جزر جبلية. وإلى هذه الأسباب ذات الطبيعة العرقية والاجتماعية تنضاف التغيرات المناخية، وهي التي صارت، صُعُداً مع القرن الساب، تساعد على نمط من العيش قوامه الرعي والترحال وتضيّق على الفلاحين المقيمين.

تأكيدات وحقائق

لكن هذه الرسيمة قاطعة بإفراط؛ بحيث لا يمكن أن تصح على التفاصيل. فلا يمكن أن نُعمل مثل هذه الثنائية على الواقع البشري لبلدان المغرب. فالرحل لم يتعرّبوا جميعاً، ولا تزال هنالك مناطق شاسعة يتنقل فيها الرّحل الناطقون بالبربرية. ولا تزال لهم كذلك الغلبة في وسط الصحراء وجنوبها كلهما في الدول المغاربية الثلاث*. فهذا اتحاد قبائل آيت عطا البربرية الكبيرة، المتمركز حول جبل صاغرو في جنوب المغرب، لا يزال مستمراً على حياة الترحال وسط المجموعات العربية في تافيلالت، التي كان منها مقدم الأسرة الشريفة. وهؤلاء الرحل من الصحراء الغربية الذين يقولون إنهم ينحدرون من قبائل بني معقل العربية، وقد باتوا يخضعون اليوم لسيطرة قبائل الركَيبات. وينبغي كذلك أن نأخذ في الحسبان أشباه الرحل الداخلين في مجموعة البرابر ذات الشأن في الأطلس المتوسط، والتي تكونها قبائل زايان وبني مكَيلد، وآيت سغروشن*.

ولا ينبغي في المقابل أن يذهب بنا الاعتقاد إلى أن العرب كانوا كلهم من الرحل؛ فقبل قرون من مجيء الفرنسيين، وهم الذين شجعوا على الفلاحة وحياة

---

*- تونس والجزائر والمغرب.

*- جعلها المؤلف : «Aït Seghouchen». وربما يكون خطأ مطبعياً، والصحيح Aït Seghrouchen، أو Aït Serrouchen، أو Aït Seghrochen.

الاستقرار، ولو لم يكن إلا بغرض نشر الأمن، كانت بعض المجموعات الناطقة بالعربية تعيش حياة الاستقرار من حول المدن، وفي البوادي، والقرى القصية. وسأضرب لما أقول مثالاً، لأنه هو النموذج الأبلغ، ولأنه يقوم نقيضاً للرسيمة الشائعة؛ نريد سكان منطقة القبائل الصغرى، وسكان مجموع الجبال، والجبال الساحلية المتوسطة في شرق الجزائر وفي شمال تونس. فكل هؤلاء الجبليين وسكان التلال قد عُربوا منذ وقت طويل، غير أن عيشهم على الغابة، وعلى فلاحة أقرب إلى البستنة والتشجير جعلهم يستمرون على نمط من العيش مستقر يرتكز على تربية الأبقار. ويمكن أن نمثل لهذا الأمر كذلك بنماذج مشابهة من الريف في الشرق والونشريس في الغرب.

لكن هذا الذي ذكرنا لا يمنع من أن كل المناطق الناطقة بالبربرية هي اليوم مناطق جبلية، باستثناء الصحراء؛ فكأن تلك المناطق كانت معاقل وملاجئ يلوذ بها السكان الذين كانوا يتخلون بالتدريج عن المناطق المستوية للرّحل وأشباه الرّحل المشتغلين بتربية المواشي الصغيرة من العرب والمستعربة. وكان هذا هو السبب وراء الانقلابات السكانية العجيبة التي شهدتها منطقة شمال إفريقيا في القرن

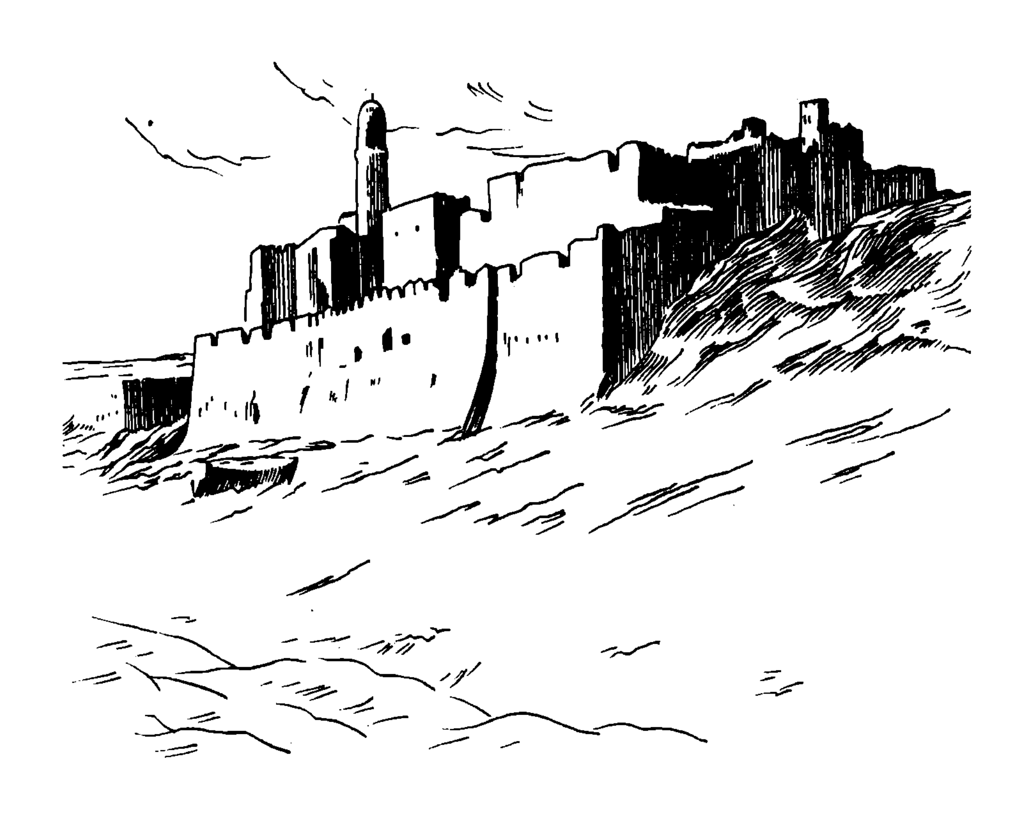


79. زراعات على مدرجات في جبال الأطلس الصغير المغربي.

التاسع عشر؛ فجبال وتلال ذات تربة فقيرة قد بات يقطنها مزارعون، وهم من الكثافة بما يفوق بكثير سكان السهول والأودية الكبيرة ذات التربة الخصيبة؛ وهي التي باتت تتنقل فيها مجموعات صغيرة من المشتغلين بتربية المواشي.

وبعض المجموعات الجبلية قليلة تلاؤم مع ظروف العيش في الجبال، وربما كان هذا الأمر مدعاة للبحث عن أصولها في مناطق أخرى. فبعض الجزئيات المتعلقة باللباس لدى هذه المجموعات، وخاصة جهلها ببعض الممارسات الزراعية، من قبيل الزراعة على المدرجات في منطقة الأطلس التَّلي، تحمل على الاعتقاد بأن الجبال لم تكن حصوناً ومعاقل لمقاومة التعريب فحسب، بل كانت كذلك ملاذات حقيقية قد تجمّع فيها المزارعون الهاربون من السهول التي تُركت لنهب الرعاة من الرحل.

وإذا كانت الزراعة في المدرجات شيئاً لا يعرف به مزارعو الجبال في منطقة التل (بينما نراها واسعة الانتشار في البلدان والجزر المتوسطية الأخرى)، فهي في



80. رباط الموناستير (تونس).

المقابل شيء يتقنه البربر في الأطلس الصحراوي وفي السلاسل الجبلية المجاورة ويبرعون فيه، ومن المؤكد أنهم خبروا هذه الزراعة منذ العصور القديمة. وتوجد أجمل المدرجات لدى الشلوح في الأطلس (المغرب)، والزراعة لديهم في جبال القصور، وفي الأوراس (الجزائر)، ولدى قبائل مطماطة (تونس) تجري بصورة طبيعية على مدرجات يتعهدونها بالكثير من العناية.

ومهما تكن أصول البربر الذين يقطنون الجبال في منطقة التل، فإن أعدادهم كبيرة، وهم يعيشون على أرض فقيرة وضيقة، بما يضطرهم إلى الهجرة. وهذه الظاهرة، ذات الأهمية الكبيرة في منطقة القبائل، ليست بجديدة. والقبائليون كما السفويين* في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قد صاروا يشتغلون باعة متجولين، أو يختصون ببعض الحرف في المدن، من قبيل تجارة الزيت والخضار...

ثم كان التزايد الديمغرافي الناتج عن الاستعمار سبباً في توافد الجبليين الناطقين بالبربرية بكثافة على السهول الزراعية وإقبالهم على المدن. وقد كان يمكن لهذه الحركة أن تؤدي إلى ما يشبه الغزو الثاني اللغوي والثقافي للقضاء على اللغة العربية، ولكن لم يحدث شيء من ذلك. بل حدث العكس؛ فالبربري، سواء القبائلي أو الريفي أو الشلح أو الشاوي، الذي يجيء إلى البلاد العربية يتخلى عن لسانه، وما أكثر ما يهجر عاداته، وما أسهل ما يستعيدهما متى عاد إلى بلاده.

وبما أن الجبال البربرية لا تزال تُعتبر الخزان الديمغرافي الكبير في الجزائر، كما في المغرب، فهذا أمر يبدو متناقضاً في الظاهر؛ فنصيب الدم العربي النادر أصلاً في هذين البلدين، يزداد انحساراً وتقلصاً بما يتزايد نطاق تعريبهما الثقافي واللغوي.

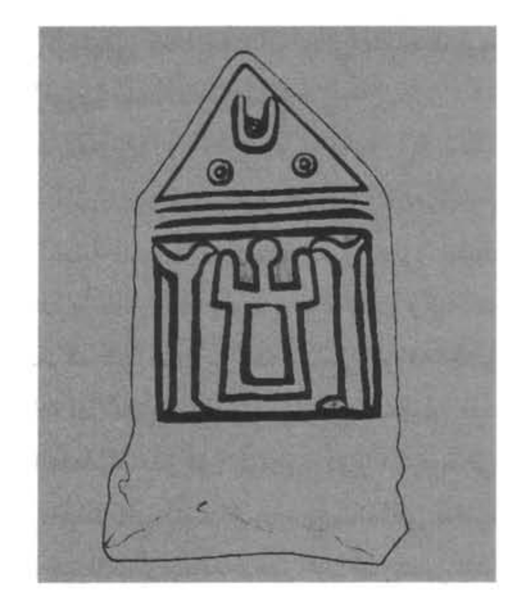
---

*- سكان سافوا Savoie، وهي من مناطق الألب الفرنسية.

الفصل الرابع

البربر والدين

من الآلهة المورية قديماً إلى الجن حديثاً



إن القرون التي عمّرها الحكم الروماني هي التي تتيح أفضل إحاطة بالعناصر الرئيسية في الديانة التي كانت للبربر قبل أن تنتشر لديهم المسيحية. وتحفل ديانة قدامى الإفريقيين بجوانب وأوجه على تنوع كبير، ولا تخلو كذلك من تناقض؛ باعتبارها، كما المجتمع الصادرة عنه، اجتماعاً وتراكماً لمعتقدات وممارسات تعود إلى أعراق ومستويات ثقافية مختلفة.

لن نعرض بالدراسة في هذا الفصل إلى غير المعتقدات الشعبية المعبرة عن هموم الإفريقيين وآمالهم، بمنأى عن أي تأثير تقليدي. وليس من اليسير أن نسعى إلى تسليط الضوء على معتقدات البربر المتخفّية تحت غطاء الوحدانية الظاهرية للديانة الرومانية الرسمية. فنحن لا نعرف الشيء الكثير عن هذه المعتقدات؛ إذ كان طابعها الشعبي سبباً حرمها الوسائل التعبيرية التي تهيأت للدين الرسمي الحضري. فآلهة الفقراء والجن قليلو الحظ هم في حد ذاتهم كيانات محدودة السلطان وضعيفة النفوذ؛ فهم لا يتعدون بتأثيرهم نطاق الإقليم أو القبيلة. فكيف تأتّى لذكراهم أن تظل قائمة على مر القرون، بينما المؤمنون بهم قد كانوا لا يقدر معظمهم على التعبير بالكتابة؟ فلهذه الأسباب المختلفة كان التوثيق النقوشي في غاية الفقر، وقد كان عرضة للتحريف أو الإفراغ من بعض مكونه الديني، إذ وقع التعبير عن تلك المعتقدات في غير لغة معتنقيها.

والمصدر الآخر لمعارفنا تكونه بعض النتف المستقاة من الأدب القديم، خاصة عند المؤلفين من المسيحيين الإفريقيين، الذين كانوا هم المؤهلين لينقلوا إلينا هذه المعتقدات. لكن من أسف أننا لا نستطيع أن نطلب من الأساقفة أَو من آباء الكنيسة أن يعملوا عمل المؤرخين أو عمل علماء العِراقة. فنحن لا نقع على إلماعات إلى المعتقدات الوثنية الإفريقية الصرفة في غير ثنايا موعظة، أو في إدانة لممارسات مدخولة بالوثنية المحلية، أو في تسفيه لآلهة زائفة، تجتمع فيها الشياطين، والأوثان الخشبية أو والحجرية التي لا تنفع ولا تضر[1]. فلذلك يظل جُماع هذه التدوينات الكتابية النقوشية والأدبية دون الكفاية. ولا ينبغي كذلك أن أن نغالي بالبحث فيها للخروج منه بحجة دامغة على المقاومة الإفريقية للحكم الروماني.

جبال، وكهوف، وصخور مقدسة

نتعرف في التصورات السحرية والدينية لدى قدامى الإفريقيين على خليط شديد التنافر من ظواهر طبيعية قد أُفرِغ عليها طابع التقديس، وجن غفل، وكيانات قد ارتقت إلى مصاف الآلهة المتفردة. ونتعرف فيها على موقف أساسي قوامه الحذر والخوف والتقديس، نستدل بها على عبادة قد تحقق لها قدر معين من التنظيم. فقد كان الإفريقيون، كمثل معظم الأقوام البدائية، مدركين لوجود قوة منتشرة في الطبيعة، ويمكن أن تسفر عن نفسها في كل لحظة، في نتوء تضاريسي، كما في ظاهرة غير مألوفة. لكن التقديس قد يقع على حيوان، أو يلحقه، من غير أن يصير هذا الحيوان بالضرورة إلهاً جديداً. ويمكن للإله أن يظهر كذلك للإنسان من غير وسيط فهو يتمثل له بدرجات متفاوتة في الأحلام والرؤى والتجليات.

وأكثر تجليات المقدس بروزاً، وأكثرها انتشاراً في العالم، وأكثر تلك التجليات التي قيّض لها أن تُحفظ فوق غيرها، هي ما سندعوه بالنتوء التضاريسي؛ ويأتي في مقدمته الجبل، وتدخل فيه حتى الصخرة من الصخور. فهل يكون شكل الجبل هو ما يجذب إليه الألوهية، أو يكون ارتفاعه الذي يقرّب الإنسان إلى السماء، مقر الإله الجبار هو ما يبرر التقديس الذي يُحاط به؟ إن هاتين الوضعتين المتناقضتين في الظاهر، لأن إحداهما أرضية باطنية والأخرى سماوية، يمكن أن تكونا ساهمتا مجتمعتين في إضفاء طابع القداسة على الجبل.

---

1 – Tertullien, *Ad Nationes* (I, 36; II, 8).

سنقتصر من هذه الأماكن المرتفعة على المعابد البونيقية، أو المنتمية إلى التقاليد البونيقية، من قبيل معبد ساتورن، المسمى بعل القرنين *Balcaranesis*، على جبل بوقرنين Bou Kornine، الذي ينتصب خياله المائز على خلفية من خليج قرطاج. وربما ذهب بنا الاعتقاد إلى أن تلك المعابد التي أقيمت لبعل أو لساتورن فوق المرتفعات تعود إلى التقاليد السامية، غير أن الحظوة التي كانت تصير إليها هذه المعابد؛ حيث تجتمع فيها أحياناً المعابد القديمة المفتوحة، والمعبد البونيقي، أو الروماني، والكنيسة المسيحية البدائية، والأضرحة، تكشف لنا عن عمق هذا التقديس وعن قِدمه. وتشهد على الطابع المحلي لتقديس هذه الأماكن المرتفعة مآثرُ أخرى عديدة، وبعضها شديد القدم، من قبيل النقائش الصخرية ذات الدلالة الدينية، نراها مجمّعة فوق بعض القمم في جبال الأطلس الكبير في المغرب (ياغور Yagour وراث Rhat). وهذه التصاوير، التي باتت اليوم معروفة للجميع، منها ما يعود إلى العصر الحجري الحديث، لكن معظمها يعود إلى العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي. وقد استمرت زيارة الناس بوتيرة كبيرة نسبياً لهذه الأماكن، حتى بعد أن انتشر الإسلام فحافظت لها على طابعها الديني المكين.

وقال بلين الأكبر[1] عن جبال الأطلس كذلك إنها تأتلق في الليل بألف شعلة وتتصادى فيها أصوات آلهة الرعاة Egipans والساتيريين Satyres النافخين في المزامير والضاربين على الطبول. فكيف نستغرب للرهبة الدينية تستولي على من يقترب من تلك الأماكن؟ وزعم ماكسيم دي تير[2] أن الأطلس معبد وإله معاً. وقد آخذ القديس أغسطينوس أتباعه بعادتهم في تسلق الجبل ليكونوا قريبين إلى الله[3].

ثم نجد القونشيين في جزر الكناري، وهم الذين لم يتمسّحوا ولا أسلموا، قد حافظوا على المعتقدات الأساسية لقدامى الإفريقيين، مع إحداثهم لديانة أصيلة فكانوا يسمون الإله، حسب الإسباني [ألبرتو فلوريس] كَالندو Galindo، باسم من المؤكد أنه قد أسيئت كتابته، هو «أتغوايشافونتمان» *Atguaychafuntaman* أي «رافع السماوات»، وهو الاسم الذي كان يُطلَق كذلك على رأس تينيريف Ténérife. وقد كانت تقوم في جزيرة كناريا الكبرى Grande Canarie صخرتان مقدستان فوق قمتين منفصلتين، تانكما هما «تيسمار» Tismar و«ڤيمينيا» Vimenya

1 – Pline L'ancien (V, 1, 7).

2 – Maxime de Tyr (VIII, 7).

3 – Saint Augustin, *Sermones* (XLV, 7).

اللتان كان يُقبل عليهما الزوار. فإذا جاء الزائر إلى هذا المكان المقدس صبّ حليباً وزبدة على الصخرتين وهو يترنم بأنغام شجية، ثم يتوجه إلى شاطئ البحر فيجعل يضرب الماء بعُصيات وهو يطلق صيحات قوية. وكانت تجتمع في هذه الزيارة بعض الممارسات لاستنزال المطر (كصبّ الخمر والصراخ، وضرب البحر...) مع التعبد بالصخور.

ولا يزال الجبل إلى اليوم موضعاً لمعتقدات ملتبسة وغامضة. ومن تلك القمم المسكونُ بالجن، حتى ليكاد يكون محظوراً عن بني البشر، وهذا اعتقاد نجده قوياً جداً لدى الطوارق في الهقار (قارة الجنون Garaet ed-Djennoun)، كما في أيّير (جبل جريبون Greboun). فكيف لا نستبين في هذه المحظورات صدى لما ذكر بلين عن جبال الأطلس؟ فينبغي تشبيه عبادة الجبل، أو العبادة فوق الجبل (لأن الجبل قد يكون لايزيد عن رافعة للمقدس)، بالتقديس الذي كان من البربر للمغارات والكهوف في سائر العصور. فوجود المغارة أو الكهف في جوف الأرض يتيح الاتصال بالآلهة الأرضية، وربما أتاح الاتصال كذلك بالإله الأعلى؛ فقد كان بعض معاصري القديس أغسطينوس يعتقدون أنهم يقتربون من الله إذا غاصوا في أعماق الأرض.

ونحن لا نعرف من أسماء الآلهة التي كان قدامى الإفريقيين يتعبدون بها في المغارات والكهوف إلا اسماً واحداً؛ هو الرب باكاكس Baccax في جبل طاية [بوحمدان] على مقربة من المدينة الرومانية ثيبيليس Thibilis (عنونة). وفي سفح الجبل يوجد «غار الجماعة»* الذي كان واليا *magistri* المقاطعة يحجان إليه في فصل الربيع من كل سنة. ولاشك أنهما كانا يقدمان قرباناً وينقشان تكريساً للإله باكاكس أغسطس Baccax Augustus. ومثيلة لهذه العبادة كان يقوم بها والي كاستيلوم فوينسيوم Castellum Phuensium في جبل شطابة بمنطقة قسطنطينة. ولا تزال تجد لهذه الممارسات المرتبطة بالنتوءات التضاريسية الطبيعية شيوعاً وانتشاراً في قرى شمال إفريقيا. ولا تجد إلا القلة القليلة من الثقوب في الصخر، أو التجاويف في المغارات، التي لم تتحول إلى معابد بسيطة (مزارات، أو حويطات) يضع فيها الزوار بعض القرابين، والنذور الفخارية، والقناديل، والبقجات، بل الحلاوي والقلال، لأن تلك الثقوب يتردد عليها بعض الجن، أو أحصيص («الحراس»)، الذين تُستحسن إكرامهم، أو ينبغي على الأقل اتقاء شرورهم.

---

*- Grotte de l'Eglise ، أو غار الكنيسة لكاثوليكية، لأنها كانت تحتضن الصلوات أثناء الثورة الجزائرية.

إن البلاد المطبوعة بمناخ شبه جاف، لا يسلم منه غير شريط ضيق ينعم بالمناخ المتوسطي، تكون فيها مشكلة المياه مبعثاً لقلق وانشغال دائمين لدى الجماعات الزراعية والرعوية. وقد كانت الآلهة الحامية للمنابع، كالإله نيبتون Neptune وحوريات الماء والغاب Nymphes، تحظى في العهد الروماني بالكثير من التوقير. وكانت المقارّ التي شُيدت لتلك الحوريات في العهد الروماني غاية في العظم. وأشهر هذه المقار هو المعبد الكبير للمياه في زغوان [تونس]، ومنه تنطلق القناة الرئيسية التي تزود عاصمة الإقليم بالمياه. وقد كان للمياه المبرئة كذلك نصيبها من مظاهر التقديس، وأشهر هذه المظاهر هي المتعلقة بـ [حمّام] «أكوا سبتميانا» *Aqua Septimiana* في تيمقاد. ويصور تكريسٌ مؤرخ في سنة 213 كيفية بناء أروقة ڤريداريوم Varidarium مزين بالرسوم، ومقدمة هيكل، وواق مكون من حاجز برونزي من حول عين الماء. كما كانت بعض الآبار موضوع تقديس، فكذلك شأنها في كاستيلوم ديميدي Castellum Dimmidi، ولا تزال ترى لها وجوداً إلى اليوم في بئر بروطة في القيروان.

وفي ما خلا هذه العبادات الرسمية، لا يبعد أن السكان الإفريقيين كانوا كثيري الإقبال، كفعل البربر اليوم، على الممارسات السحرية لاستدرار المطر. وأشهر هذه الممارسات وأوسعها انتشاراً هو الطواف بـ «عروس المطر»، وهي لا تزيد عن مغرفة من الخشب تُلبَس من الخرق والأسمال. إنه تمثيل ساذج يقوم على تقديم العروس نفسَها لتحبل من المطر («أنزار»، الذي هو اسم مذكر). وفي الإطار نفسه يُقبل الناس على التراشّ بالمياه المباركة في المنقلب الصيفي، ويُعرف هذا الطقس باسم «أوسو»* وهو شيء معروف في ليبيا وفي تونس، وله شيوع كذلك في المغرب. ولقد استنكر القديس أغسطينوس هذه الممارسة؛ فقد آخذ أهل زمانه أن كانوا يستحمّون عراة في المنقلب الصيفي، فيثيرون شهوة المتفرجين. وإن هذا التراش بالماء والاستحمام فيه اللذين يتم خلالهما رجُّ أدفاق الماء، بل ضرب القونشيين للبحر، إنما كان الهدف الأخير منها إسقاط المطر من السماء. وكانت النساء في هيبون يستحممن في الماء عاريات؛ فهي دعوة إلى [تخصيب] الأرض المجدبة.

*- «أوسّو» اسم يُطلَق على موسم من مواسم فصل الصيف، ويمتد من 7/25 إلى 9/2، حسب التقويم الگريگوري «الشمسي»، وهو ما يعرف بالحساب الأول، أو من 7/17 إلى 8/27 في الحساب القديم «قبل الگريگوري»، وهو حساب أمازيغي. و«أوسّو» تعني بالأمازيغية «الشرب».

إن لهذه الممارسات اتصالاً وثيقاً، عن طريق سحر قائم على المحاكاة، بالرمزية الجنسية. فالمطر، وتخصيب الأرض، وتلقيح الماشية هي في تصور الناس أمور مترابطة ببعضها، يعتقد بنو البشر أنهم يحدثونها بممارساتهم الجنسية. وقد وجدنا الديانات أكثرَها تطوراً تجيز هذا الترابط، سواء أكان في فجاجته، أو بتقنيعه بحجب شفافة من الخرافة. ويرى جـ. كاركوبينو J. Carcopino أن الشيوع الذي كان لعبادة آلهة الخصب والفلاحة *Cereres* عند النومديين مردها على وجه التحديد إلى محافظة هذه الآلهة على مخزون طبيعي قديم من الحضارة المتوسطية القديمة، التي تضرب فيها هذه العبادة الهلينية بجذور بعيدة. وقد كانت عبادة تيلوس Tellus وكوري Coré (إلهيّ الخصب والفلاحة)، بحكم منزعها الاتحادي الجنسي، وذلك التواصل فيها مع القوى التي تلقح الطبيعة، هي أقرب العبادات إلى الانشغالات السحرية عند المزارع الإفريقي. ولقد انصرف البربر عن أعياد ديميتر Thesmophories التي باتت في بلاد الإغريق ليس لها غير طابع رمزي، وصاروا يفضلون الاحتفالات ذات الطابع الواقعي الملموس، كما تجسدها «ليلة الخطيئة»، التي صورها نيقولاس دي داماس Nicolas de Damas، وهي مطابقة من كل الوجوه لما لا يزال يجري منها إلى اليوم في بعض القرى والبوادي، كما في الظهرة [في الجزائر] وفي جنوب المغرب. وقد اعترف الحسن الوزان في القرن السادس عشر بوجود هذه الممارسات كذلك بمنطقة صفرو في المغرب*.

الكواكب والنجوم

الماء، مثل الحياة، يأتي من السماء، وفي السماء مقام كبار الآلهة التي عرفها قدامى الإفريقيين. والشواهد على هذا الأمر قديمة، وهي تحاط بالكثير من التوقير. فهذا هيرودوت[1] يقول إن كل الليبيين كانوا يقدمون القرابين للإله الشمس والإله

*- كتب الوزان في هذا المعنى: «كانت [عين الأصنام] مدينة أسسها الأفارقة قديماً في سهل بين جبال عديدة على ممر الطريق المؤدية من صفرو إلى نوميديا، ويعني اسمها منبع الأوثان، يحكى أن الأفارقة عندما كانوا وثنيين، كان لهم قرب هذه المدينة معبد يجتمع فيه الرجال والنساء عند غروب الشمس في فصل معين من السنة، وبعد أن ينتهوا من تقديم القرابين كانوا يطفئون الأنوار ويستمتع كل واحد بالمرأة التي توجد على مقربة منه. وإذا أتى الصباح منعت كل امرأة قضت تلك الليلة في المعبد من أن تقترب من زوجها لمدة سنة والأطفال الذين تلدهم أولئك النساء في تلك الفترة يربيهم كهان المعبد»، **وصف إفريقيا**، م.ذ.، ج. 1، ص. 364.

1 – Hérodote (37).



81. تاغنجا، «عروس المطر»، وتُتخذ من مغارف خشبية تُغطى بثوب، ويُطاف بها استدراراً للأمطار. تبلبالا (الصحراء الجزائرية).

القمر، في ما خلا أولئك الذين كانوا يقيمون على ضفاف بحيرة تريتون. وقد جاء كل من بلين الأكبر[1] وديودوروس[2] بما يؤكد هذه الأطروحة. وكذلك قال بها ابن خلدون إذ أكد أنه قد كان بين البربر في إبان الغزو العربي من يعبد الشمس والقمر[3]. وأما النص الرئيس [في هذا الباب] فهو في ما نرى ذلك الذي يعود إلى شيشيرون[4]. فقد جاء فيه أنه عندما استقبل ماسينيسا، وهو المتشبع مع ذلك بالثقافة البونيقية، سكيبيون

1- Pline L'Ancien, (II , 103).

2- Diodore (III, 57).

3- Ibn Khaldoun, (I, p. 157).

كتب ابن خلدون في هذا المعنى : «وكان منهم [البربر] من تهوّد ومن تنصر وآخرون مجوساً يعبدون الشمس والقمر والأصنام»، م. ذ.، ج. 6، ص. 123.

4- Ciceron (*De Republica*, IV, 4).

إميليان لم يذكر لا بعل حمون، ولا تانيت، ولا ملقرت، بل قال: «أحمدك أيتها الشمس العالية، وأنت أيتها الآلهة الأخرى في السماء، على أن مكنتني قبل أن أترك الحياة الدنيا من أن أرى بـ. كورنيليوس سكيبيون تحت سقف بيتي ومملكتي...». وبطبيعة الحال فلا يمكننا أن نجزم بصحة هذا النص، ولكن إذا كان شكله قد أسبِغت عليه بعض المحسنات من قلم شيشيرون فإن مضمونه يبقى محتمل الصدق، ثم إنه لا يخلو في مجموعه من نفحة عظمة.

وأما الآثار الدالة على عبادة [البربر] للنجوم فتبقى شيئاً نادراً، لا تزيد عن رسوم الآله الشمس والإله القمر التي تظهر في صورة موكب ساتورن على شواهد عديدة من العهد الروماني.

ولا ينبغي أن نهمل الصلات التي توجد بين الشمس والأسد، وهما اللذان يُمثَّلان على الكثير من الرسوم ذات الطابع النجمي اللائح. كما يجدر بنا أن نذكر برسوم قرص الشمس، أو رسوم النجمية، التي تزين بعض الحوانيت، والكهوف المقابرية، وشواهد الدلمنات.

والتكريس الذي جُعل للإله إيرو Ieru هو الكتابة النقوشية الوحيدة التي تتحدث عن إله القمر في شكله البربري الذكوري (*Iour, Eior*)، ومن غير حاشية من النجوم.

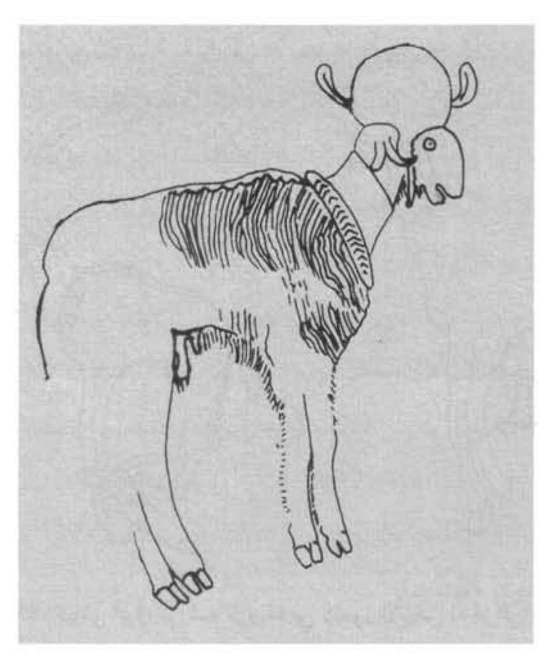
إن نقص الشواهد المتعلقة بالآلهة التي تعيش في بطن الأرض والآلهة التي تعيش في الماء، والتي تعيش في السماء، أو بالأحرى عدم دقة تلك الشواهد، يعيقان من كل محاولة للتثبّت من المعتقدات الأساسية لقدامى البربر. غير أن هذا النقص في الشواهد لا يدل بالضرورة على فقر في تلك المعتقدات. ولا يجوز لنا أن نجزم، كما فعل كثيرون، بأن البربر لم تكن لهم غير ديانة أولية بسيطة. فمعناه أننا نحكم على البربر بأنهم بين سائر الأقوام الناطقة باللغة الحامية السامية، هم وحدهم المبتلون بهذا النقص أو العجز الميتافيزيقي.

والحقيقة أن التقديس كان ولا يزال واسع الانتشار في الطبيعة؛ وعلى الرغم من الغلبة التي تحققت للإسلام فلا يزال هنالك اعتقاد إلى اليوم بأن عدداً كبيراً من الجن يسكنون الصخور، والكهوف، والأشجار، والينابيع. ومع أن الإسلام لا ينكر وجود [الجن أو] «الجنون»، فإنه لم يتمكن من القضاء على الكثير من الممارسات المشوبة بالسحر الجبري والتقديس، والدائرة حول هؤلاء الجن. فهي ممارسات موغلة في القدم؛ ولذلك فليس من المستغرب أن يقع عالم الآثار في المقابر التي تعود إلى عهود

قبيْل التاريخ على نذور من الفخاريات الصغيرة مطابقة من كل الوجوه للنذور التي تقدم في الوقت الحاضر لهؤلاء الجن في مزاراتهم البائسة.

الحيوانات والمقدس

فهل عرف الإفريقيون عبادة الحيوانات في العصور القديمة؟ يجيب المؤلفون عامة عن هذا السؤال بالتأكيد، على الرغم من أن الوثائق المكتوبة والمرسومة الدالة على هذا الأمر خلال الحقبة التي عمّرتها الإمبراطورية الرومانية ليست بالوفيرة ولا المقنعة كثيراً. ولا ترى المؤلفين يهتمون كثيراً للتسلسل الزمني، أو يعتدّون باستمرارية المعتقدات، ولذلك تراهم يحتجون في دعم دعواهم بالنقائش الصخرية، خاصة منها

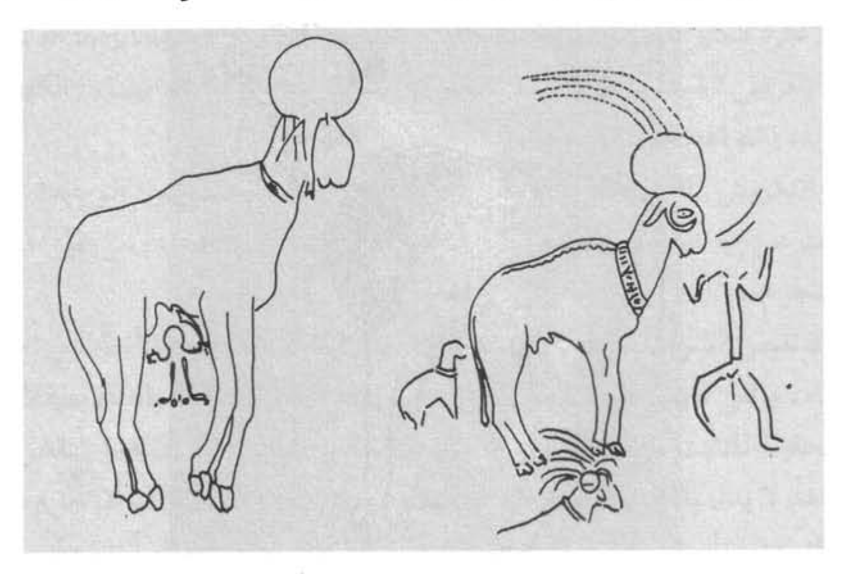


82. نقش صخري من العصر الحجري الحديث يصور كبشاً «برأس شبه كروية» في بوعالم (الجزائر).

الرسوم الكثيرة؛ تلك التي تظهر فيها الكباش برؤوسها شبه الكروية، المزينة بالريش أو بأغصان الأشجار، وقد كانت هذه الرسوم واسعة الانتشار في سائر جهات الأطلس الصحراوي مصدراً للكثير من الكتابات. فبعض أولئك المؤلفين قد رأى في تلك الرؤوس صورة للإله المصري آمون رع Amon-Râ، واعتبروا تلك الرأس شبه الكروية معادلاً لقرص الشمس في [الإله] المصري. وقد بات التقدم متعدد الأوجه

الذي تحقق في النظر إلى التسلسل الزمني لما قبل تاريخ شمال إفريقيا يحتّم الرفض التام لهذه التأويلات. فتلك النقائش تنتمي إلى حقبة قديمة من العصر الحجري الحديث، وهو عهد سابق بكثير على الرسوم المصرية التي نشأت عن اندماج إله طيبة آمون مع الإله الشمس.

ولا يسمح لنا تحليل المشاهد التي تظهر فيها الكباش ذات الرؤوس شبه الكروية بالتأكيد على أن هذه الحيوانات كانت معدودة في الآلهة. ففي معظم الحالات تكون هذه الحيوانات تتبع رجلاً على هيأة المصلي، فيكون لذلك يدير لها ظهره. فهذا يحملنا على الاعتقاد بأن فعل الصلاة يكون موجهاً إلى كيان آخر، وأن الكبش المغطاة رأسه بغطاء باذخ، والمحلّى أحياناً بعقد مجدول، لا يزيد عن قربان يقدّم إلى الآلهة. وتلك الصورة هي ما بقي لنا بالفعل عبر آلاف السنين، خاصة في الطقوس السامية.



83. كباش «برؤوس شبه كروية» في كَلموز الأبيض (الجزائر).

وينافس الكبشَ قربانٌ آخر كانت له حظوة وإيثار، على عدد كبير من الشواهد المكرسة لساتورن؛ ذلك هو الثور. وتفيدنا النصوص الشهيرة في نقاوس N'Gaous (الجزائر) أن الإفريقيين الذين ظلوا الوقت طويل يداومون على تقديم القرابين الواجبة في البواكير قد ارتضوا في القرن الثالث الميلادي بشيء من التردد، وبالاستمساك بالاحتياطات الطقوسية، التي كانت أشبه بالشيء القانوني، أن يستبدلوا الطفل المولود الأول الذي كان يطلبه الإله بالحَمَل؛ نفساً بنفس، ودماً بدم، وحياة بحياة. ولم يكن في هذا الاستبدال من أثر لعبادة الحيوانات.

والحقيقة أن الإشارة الوحيدة الواضحة إلى عبادة الكبش في شمال إفريقيا قد جاءت عند البكري، وهي تهم قبيلة من سكان الجبال في جنوب المغرب. وقد جاءت هذه الإشارة شديدة اختزال؛ فلا تفيدنا بالفحوى الحقيقي لهذه العبادة، لكنها ممارسة كانت في غاية الشذوذ والخزي، بحيث إن أولئك الكفرة كانوا يُضطرون إلى إخفاء هويتهم عندما يذهبون عند القبائل الأخرى*.

وقد كان الثور معدوداً في الحيوانات المقدسة. وكان كذلك الضحية المهيبة، التي تُقدم قرباناً إلى ساتورن كما تُقدم إلى جوبيتر Jupiter.

وتحدث كوريبوس[1] في القرن السادس الميلادي عن معتقد خاص كان عند لاگوتان (أسلاف لواتة) في سرت؛ فقد كانوا يطلقون على عدوهم ثوراً يمثلون به لإلههم گورزيل الذي ولد من تزاوج بين آمون وبقرة. وكانت لدى لاگوتان أصنام من خشب ومعدن ترمز إلى گورزيل. وهذا هو النص الوحيد المتعلق بعبادة الثور [لدى قدامى الإفريقيين] مع وجوب اعتبار أن هذا الحيوان لم يكن يزيد عن صورة للإله، وليس في هذه الممارسة كذلك ما يذكرنا بالتوقير الذي كان المصريون على سبيل التمثيل يحملونه للثور أبيس Apis.

ويفيدنا ديودوروس[2] أن القرود كانت تتمتع في منطقة يُحتمل حسب هذا النص أن يكون موقعها على تخوم الجزائر وتونس، في ما وراء سلاسل الجبال الساحلية من عظيم المكانة، بما يحملنا على اعتبارها مخلفات في هذه المنطقة لطوطمية حقيقية. ويقول ديودوروس إن تلك القرود كانت تحتل المساكن ومخازن المؤن دون أن يسعى أحد إلى طردها منها؛ لأن السكان يعتبرونها بمثابة آلهة، فيكون في قتلها انتهاك لمحرّم يجر على مقترفه عقوبة القتل.

وكانت الثعابين، وهي مصدر للخوف والتقديس معاً، موضوعاً لبعض العبادات. ونعرف بوجود العديد من التكريسات التي جُعلت لدراكو Draco وبينها واحدة في تگنيكا Tighnica وأخرى في نوملولي Numluli يمكن أن نجد لهما نسباً إلى الخرافة التي تقول إن فيالق ريگولوس Regulus قد اضطُرت، حسب ما

*- كتب البكري في هذا المعنى: «ويلي بني لماس قبيل من البربر في جبل وعر مجوس يعبدون كبشاً لا يدخل أحد منهم السوق إلا مستتراً»، م.، ذ.، ص.853.

1 – Corippus (V, 12-26).

2 – Diodore (XX, 58).

ذكر بلين، إلى محاربة ثعبان عظيم[1] في وادي بگردا (مجردة) نفسه. وقد كانت عبادة دراكو تتسع نطاقاً إلى نوميديا وإلى موريتانيا. وكانت الحية في أكوا فلاڤيانا* تُجمع إلى الحوريات. ونستفيد من **آلام القديسة سالسا*** أن في تيبازا الموريتانية كان يوجد صنم من البرونز يمثل حية برأس مذهبة.

ويوجد في المعبد البونيقي الجديد في ثينيسوت Thinissut، القريب إلى بئر بورقبة تمثال من الطين المحروق يمثل إلهة بجسم إنسان ورأس أسد. ونرى الصورة نفسها على نقود ميتيلوس سكيبيون Metellus Scipion، مصحوبة بالأحرف الشارحة GTA، التي تُقرأ في العادة *Genius Terrae Africae* [جن أرض إفريقيا]. والأسد هو أكثر الحيوانات حظوة بعلامات التقديس. وقد كانت لبدته المتموجة المسعفة على توظيفها في التشكيلات الإشعاعية، تسعف منذ وقت مبكر على التمثيل به للإله الشمس. لكن الأسد كانت له كذلك دلالات أخرى فهو يلعب دوراً مهماً على الزخارف المنحوتة في كثير من الأنصاب المقابرية. كما ينبغي أن نأخذ في الحسبان الجمع الشائع للأسد بساتورن على الشواهد المكرسة للإله الإفريقي العظيم. وقدكان الجمع بينهما شديد الوثاقة، حتى إن الأسد ليأخذ أحياناً مكان الإله بين ديوسكوريس*، أو بين الإله الشمس والإله القمر. ولقد بيّن أرنوبيوس[2] بما لا يقبل الشك ذلك الاقتران الذي كان يقوم بين الأسد وفروجيفير Frugifer، أي ساتورن.

وربما جاز لنا الاعتقاد أن الأسد والشمس، وهي التي تظهر كذلك على زخارف القبور، هما صورتان لإله واحد، وأن حضورهما داخل القبر ينوّر الميت ويرشده ويجمّله؛ هو الذي جُعل تحت حماية الإله المعظم، سيد الزمن والحياة والموت.

وعليه فقد بقيت عبادة الحيوانات عند قدامى الإفريقيين، أو على الأقل خلال العصور القديمة، أمراً يتنازعه الغموض والالتباس. وأن تكون بعض الحيوانات لشتى الأسباب تتصل بالمقدس بروابط متينة، وأن تكون تمتعت بامتيازات خاصة (كالقرود

---

1 – Pline (VIII, 37).

* – *Passion de Sainte Salsa*

* – ويُعرف باسم «حمام الصالحين»، وهو حمام روماني من العهد الفلاڤياني يوجد في بلدية الحامة في الجزائر، أنشأه في 69م الإمبراطور تيتوس فلاڤيوس ڤيسباسيوس Titus Flavius Vespasiaus مؤسس الحضارة الفلاڤيانية.

* – وهما الإلهان التوأمان كاستور Castor وبولوكس Pollux، ابنا زيوس Zeus وليدا Lida.

2 – Arnobe, *Adversus nationes* (IV, 10).

والثعابين، وبعض أنواع الطيور) فوق ما تمتعت به حيوانات أخرى، وأن يكون الناس اعتادوا أن يؤثروا تقديمها برسم القرابين، وخلاصة القول أن تكون هذه الحيوانات استفادت من العلاقة الوطيدة التي كانت تقوم بينها والآلهة (خاصة منها الكباش)، وأن حيوانات أخرى، مثل الثور في صورة الإله گورزيل، أو الأسد في صورة الإله الشمس، أو ساتورن، قد جُعلت صوراً حية لتجسيد الآلهة، فذلك لا يكفي إثباتاً لوجود عبادة للحيوانات لدى قدامى الإفريقيين. ولقد كان لبعض الحيوانات المقدسة، أو الموقرة في أقل تقدير، في شمال إفريقيا ولايزال لها، ذلك الوجود إلى اليوم لكن هذه المنطقة لم تعرف وجود آلهة من الحيوانات. وهل كان للقديس أغسطينوس[1] أن يؤكد أن المصريين هم وحدهم الذين كانوا يعبدون الحيوانات لو أن عبادة الحيوانات كان لها على زمنه وجود عند الإفريقيين؟

لكن الوضع كان على خلاف هذه الصورة في العصر الحجري الحديث، أو على الأقل في المناطق الصحراوية؛ فقد تم العثور فيها على عدد كبير من المنحوتات الحيوانية على الصخور والجلاميد؛ تدخل فيها

84. مسلة مكرسة لساتورن، في سيليغ (بني فوجة). الرب جالساً فوق أسد، حيوانه الموصوف به، وممسكاً المحطب، رمز الموت والخصب.

1- Augustin, *Sermones* (CXCVIII, 1).

الكباش، والثيران، والوعول، التي لا يمكن أن تكون إلا أصناماً، بالإضافة إلى النقائش والرسوم الصخرية التي ليس في الإمكان استبانة دلالتها الدينية جميعاً. ولكن يجدر بنا أن نكرر القول إن هذه التصاوير سابقة بزمن طويل على العهد الروماني، بما لا يجوز الأخذ بها في هذا الباب. بل إن من المحتمل أن يكون الصحراويون الرحل أسلاف الطوارق، عرفوا بشكل معين من عبادة الحيوانات، أو التوقير الشديد لبعض الحيوانات. ولا تزال تجد هؤلاء الرحل إلى اليوم يحملون أسماء بعض الحيوانات: أميّاس (الفهد)، وإيلو (الفيل)، وأبيجي (الذئب). كما أن لبعض العشائر في كل ريلا Kell Rela* أسلافاً من الحيوانات أو من أشخاص يحملون أسماء حيوانات (كالغزال، والأرنب، إلخ...).

الإنسان، أساس المقدس

الحقيقة أن الإنسان يمكن أن يكون هو نفسه المرتكز للمقدس، بل ربما كان تمثيلاً حياً للآلهة. وأفضل مثال على هذا الأمر في ما يبدو لي هو الذي جاء به هيرودوت. فقد تحدث عن المكليين Machlyes والأوسيسيين Auses، الذين كانوا يقطنون بإزاء بحيرة تريتون (منطقة جربة، أو الجريد)، فكانوا يقيمون احتفالاً على شرف آثينا Athéna (ربما تكون تانيت، والأكثر احتمالاً أن تكون إلهة ليبية اختلطت على الناس بهذه الإلهة). ويكون مبتدأ ذلك الاحتفال بأن تقوم البنات في مجموعتين بتمثيل معركة بضرب العصي والحجارة؛ فاللائي منهن يُقتلن عن غير قصد من الضرب الواقع عليهن يُعتبرن عذارى زائفات. ثم تتوقف المعركة ويختار كل فريق أجمل بنت فيه فتُزين بأسلحة إغريقية، ويُطاف بها على عربة في أرجاء البلاد؛ فتكون تلك البنت تمثل الإلهة[1].

وقد كانت مثيلة لهذه المعارك الدائرة بين فتيات، ذات الصبغة الطقوسية النسبية لا تزال ممارسة جارية إلى خمسينيات القرن العشرين أو نحو ذلك في واحات فزان (عيد الملح في غات).

وبتعبير أبسط إن الإنسان يمكنه بعمله أن يسهم في الحركات الكبيرة للطبيعة. فقد عزز تطور الزراعة من الاعتقاد بأن أعمال الإنسان تكون لها انعكاسات وتأثيرات على الصعيد الكوني. وذلك هو التفسير لكل الاحتياطات التي يأخذ بها المزارعون

* – قبيلة من الطوارق.

1 – Hérodote (IV, 180).

في اليوم الذي ينفتح فيه أول شق في الأرض بدفع من الثيران. وهو الذي يفسر لنا الممارسات الغريبة التي تسمح للأناسي، في صورة إباحة مطلقة العنان، بالمشاركة خلال «ليالي الخطيئة» في الخصوبة والولادة الكونيتين.

جمهرة الآلهة الصغيرة المحلية

إن المقدس المنتشر في الطبيعة يتجسد، إن لم يكن على درجة عالية من التديّن فعلى الأقل على درجة عالية من تكوين المفاهيم؛ ونحن نجد من الكيانات التي نتعرف عليها في بعض التكريسات، أو بعض التنويهات، التي وصلت إلينا ما جُعلت له أسماء. وبعض هذه الآلهة تتبوأ مكانة مرموقة، من قبيل ساتورن، الذي يدلنا حضوره في سائر المقاطعات الإفريقية على أنه قد كان بحق السيدَ على تلك الأراضي وعلى تلك الأقوام. وكثيرة هي الآلهة الثانوية التي حافظت على أسمائها الإفريقية وتأبَّت عن أي تماه مع تلك المكونة لمجمع الآلهة الإغريقي اللاتيني. وبعض هذه الآلهة تجتمع على الكتابات النقوشية الصخرية، كشأنها في باجة Vaga أو في ماجيفا Magifa (قصر البوم)؛ حيث تشكل مجامع حقيقية للآلهة، وربما كان نفوذها مقصوراً على الصعيد الإقليمي. لكن معظمها في ما يبدو لنا آلهة محلية؛ فلا تكاد تميز عن الجن المحليين إلا بما أسبِغ عليها من أسماء.

ونحن نعرف بأسماء قرابة الخمسين من هذه الآلهة، ومعظم تلك الأسماء جاءتنا بها النقائش؛ وبعضها، وهي تخص دون شك آلهة وإلهات من منزلة رفيعة، وردت عند الكتاب المسيحيين. ومعظم هذه الآلهة تحمل أسماء إفريقية يمكن الوصول إلى معاني بعضها من المعرفة باللغة البربرية.

وهنالك آلهة أخرى تحمل أسماء قد جُعلت كذلك لبعض المواقع؛ من قبيل الإلهة جيلدا Gilda، التي أُشركت إلى تيلوس فِي تكريس بقالمة، وهو اسم نجده لموضع في موريتانيا القيصرية*، وماسيديسي Masidicce إله ماجيفا، ويبدو أن هنالك موضعاً في مقاطعة إفريقيا يُعرف بهذا الاسم (النقيشة الوحيدة المعروفة يرد فيها الاسم بالرسم ڤاسيديسي Vasidicce). وأوزيوس Auzius هو الإله الذي يُعبد في أوزيا Auzia. وسوجن Suggen، وهو إله آخر في ماجيفا، قد استُعير اسمه للقمة المطلة على المنطقة المعروفة اليوم باسم دوكان Doukkan، وكان في القرن التاسع

*- الجملة الثانية أسقطها المؤلف بعد الطبعة الأولى، واحتفظ بها شاكر في طبعته!!

عشر يُكتب سوكّان Souggan. وبعض أسماء الآلهة الإفريقية لا يمكن تفسيرها إلا بالرجوع إلى اللغة البونيقية، من قبيل أبادير Abbadir (الأب القوي) وبونشور Bonchor (وهو اختصار لبودملقرت *Bodmelquart* : خادم ملقرت) وباليدير Baliddir (وهو اختصار لبعل أدير *Baal Addir* : السيد الجبار) وماتيلام Matilam (خادم الإلهة). وهي برهنة جديدة على التنافذ المكين الذي كان قائماً بين الثقافتين البونيقية والليبية. ويمكن التمييز في هذه الآلهة بين أصناف عديدة؛ إذ تطالعنا في المقام الأول تلك التي جُعَلت في مجموعات من سبعة، وخمسة، وثلاثة وهي تمثل مجامع لآلهة محلية. فكذلك هو الشأن في آلهة باجة وهنشير رمضان Henchir Ramdan التي تتشابه بينها التكريسات. فهي تكريسات قد جُعِلت لآلهة بينها اثنان هما في ما يبدو لنا إلهان مشتركان؛ ذانكما هما ڤارسيسيما Varsissima = (Varsis) وماكورتوم Macurtum. وكذلك هو الشأن في



85. إلهة برأس أسد في ثينيسوت (بئر بورقبة، في تونس). تمثال من الطين المحروق من الحجم البشري.

إحدى الإلهات في ماجيفا؛ هي المسماة ثيليلوا Thililua، والتي يبدو أنها تُعرف بشكلها الذكوري في مداوروش : ليلو Lilleu (اشتقاقاً من *Lilu*، وهو ماء المطر). وتجيز لنا الكتابة النقوشية التي في هنشير رمضان الاعتقاد بأن غالبية هذه الآلهة تسمى كذلك في بعض الأحيان مجتمعة بالآلهة المورية *dii mauri*.

وهنالك فئة أخرى من الآلهة، وهي كثرة كثيرة، ليست بمعزولة عن الفئة السابقة لكن يسوغ لنا أن نتناولها بمقاربة مختلفة. إنها تضم آلهة وإلهات لها أسماء يحملها بنو البشر أيضاً. فإما أن هذه الآلهة كانت بشراً فأُلِّهوا، أو أن يكون رجال ونساء وهو الأقرب إلى الاحتمال، قد تسموا بأسماء تلك الآلهة. وتضم هذه الفئة عشرة أسماء هي : باكاكس، وبونشور، وإيمسال Iemsal، ويوبا، وماكورگوم Macurgum وماكورتوم، ومسگاڤ (ا)(a) Masgav، وماتيلام، ومونا Monna، وسوجن.

وبعض أسماء الآلهة تكون صفات تضاف إلى الاسم المعتاد للإله في مجمع الآلهة اللاتيني؛ من قبيل مارتي كانابفاري Marti Canapphari (صيغة الإضافة)، وهيركولي إرسيتي Herculi Irsiti (صيغة الإضافة)، وبلوتو ڤاريكالا Pluto Variccala. وقد تُشرك الآلهة الإفريقية أحياناً مع إله أو عدة آلهة رومانية، لكنها تظل محتفظة بشخصياتها؛ ومن هذا القبيل أن يوبا قد أُشرك مع جوبيتر، وأُشرك موتمانيوس Motmanius مع ميركور Mercure، وسيساس Sesase - هو الذي لا يزيد عن جنّي - قد جُعل في مرتبة واحدة مع ميركور وبانثي Panthée. وفي الأخير فإن هنالك آلهة أكثر أهمية، وعلى شهرة غير هيّنة، قد ورد ذكرها لدى المؤلفين المسيحيين بكونها آلهة خاصة بالموريين، من أمثال تيسيانيس Tisianes وبوكوريس الموري Puccures Mauri، وڤارسوتينا المورية Varsutina Maurorum مثلما أن هنالك تكريسات جُعلت لديانا المورية Diana Maurorum، وللإلهة مورا Dea Maura ولنومين المورية Numen Maurorum، ونومين الموريتانية Numen Mauretaniae.

لكن معظم الآلهة التي تعرّفنا بها الكتابات النقوشية لا تزيد عندنا عن أسماء وبعضها قد اختُزلت أسماؤها إلى أحرفها الأولى (من قبيل GDAS في جبل شطابة على مقربة من قسطنطينة). وسلطان هذه الآلهة مقتصرٌ على نطاق ضيق ومحدود وليس من اليسير تمييزها عن الجن المحليين. والحقيقة أنه ينبغي تتميم القائمة الطويلة من الآلهة المحلية بقائمة الجن المحليين الذين ما أكثر ما يُطمس طابعهم المحلي تحت اللقب الرسمي الذي يُفْرَغ عليهم في العبادة البلدية. ومن أولئك الجن نذكر جينيوس سوبتابارتي Genius Subtabarti (في العلمة)، وجينيوس أوسوم Genius Ausum (في سعدوني)، وجينيوس أوبوروتينسيوم Genius Auburutensium (في قطّار العيش) وجينيوس ثيسيكتي Genius Thesecti (في هنشير بوسكيكين)، وآخرين سواهم. وهنالك جن آخرون هم سادة غير معروفين على القمم؛ مثل جينيوس



86. مسلة ليبية أعيد استعمالها في العهد الروماني. على الجبهية تمثيلات لقرابين. منطقة عنابة (الجزائر).

مونتيس Genius Montis (في شمتو Chemtou)، وجينيوس مونتيس روفينا Genius Montis Rufinae (في خنشلة) وجينيوس سوموس ثاسوني Genius Summus Thasuni (في آفلو)، وجن آخرون، هم جن الأنهار.

تكريسات الآلهة المورية

كانت هذه الجمهرة من الآلهة الصغيرة والجن تتمتع عند قدامى البربر بقدر كبير من الإجلال والتوقير، من المؤكد أنه يفوق بكثير المجال الذي كان يقع عليه سلطانها كما نستدل عليه من العدد القليل جداً من النقائش [المكرسة لها]. فما كان المؤمنون الكثيرون بهذه الآلهة يهتمون لأن يتركوا شواهد مكتوبة بولائهم لها. وأما الرومان والإفريقيون المترومون فقد دفعت بهم الرغبة في الحصول على بركة تلك الآلهة، أو على الأقل ضمان حيادها إذا تعذر عليهم الحصول منها على تلك البركة، إلى سلوك سبيل فعالة، وإن تكن في غاية البساطة، وذلك بأن يذكروها مجتمعة، فيتحاشوا المخاطر التي قد يجرها عليهم نسيان أحدها أو بعضها، وهي الغيورة وغير المعروفة على أوسع النطاقات. فلذلك سمّوها الآلهة المورية.

ونحن نعرف بثمانية عشر تكريساً جُعلت للآلهة المورية، ويجدر بنا أن نضيف إليها نقيشتين أخريين مكرستين لكيانات إفريقية، من قبيل الإلهة الجيتولية *dii gaetulorum* ونومين المورية الملتبستين المحيّرتين هما الاثنتان.

ويُتبين من الكتابات النقوشية أن من غير الممكن أن نحمل الآلهة المورية على الآلهة الرئيسية في الأولمب. وفي المقابل تجيئنا النقيشة التي في هنشير رمضان بأسماء ثلاثة منها، هي : فودينا Fudina، وماكورتوم، وڤارسيس Varsis، وكذلك يرد ذكر لاثنين منها ويرد رسماهما في باجة؛ فهما فيهما يسميان ماكورتام وڤارسيسيما. ويظهر على هذه النُقيشة الأخيرة إلهان فروسيان، هما ماكورتام وإيونام Iunam يمكن أن نجد لهما شبهاً بالإلهين التوأمين، أو كاستوريس Castores. والحال أن في موستي Musti تكريساً يعود إلى السنوات الأولى من القرن الثالث قد جُعِل على وجه التحديد لموريس كاستوريبوس Mauris Castoribus.

تؤكد هذه التقاطعات أن الآلهة المورية التي تُذكر جماعة هي بالفعل الآلهة الإفريقية المتعددة، وهي ترد في بعض الكتابات النقوشية بتسميات محلية. فيكون من المهم أن نقارن بين سلسلتيّ التكريسات التي وصلت إلينا؛ سلسلة التكريسات التي جُعلت للآلهة المحلية المذكورة بأسمائها والمميزة عن بعضها، وسلسلة التكريسات التي جُعلت للآلهة المورية.

ولاَ تأتينا الصفات التي تُجعل للآلهة المحلية بما يسعفنا على أن نحيط معرفة بأشخاصها؛ فهي إنما تدلنا على أن هذه الآلهة كانت تُعبد كما تُعبد غيرها من الآلهة ولم تكن تزيد عليها شيئاً؛ فهي تُذكر بالصفات أوغوستيوس *Augustius* [«العظيم»] وسانكتيوس *Sanctius* [«المقدس»]، وباتريوس *Patrius* [«الوطني»]، بما يؤكد لنا طابعها المحلي. ووحده أوليسڤا Aulisva، الإله الذي جاء ذكره على لسان أحد العسكريين، قد جُعلت له صفة إنڤيكتوس *Invictus* [«الذي لا يُقهر»].

ويغلب ذكر هذه الآلهة بصفة «المورية» وحدها، لكنها تُذكر كذلك بالأسماء أوغوستي *Augusti*، وباتريي *Patrii*، وسانكتي *Sancti*، وإمورتاليس *Immortales* [«الخالد»]. وتُزاد إليها قائمة من النعوت فيها تنويه إلى صفة الرعاية والرأفة لدى هذه الآلهة، نذكر منها: سالوتاريس *Salutares* [«الحفي»]، وكونسيرڤاتوريس *Conservatores* [«المنجّي»]، وبروسبيري *Prosperi* [«الغني»]، وهوسبيتس *Hos-pites* [«المضياف»]. لكنها كثيراً ما تسمى كذلك بارباري *Barbari* [«الغريب»]، بما يفيد أن منشئي تلك التكريسات كانوا يجدون الآلهة التي يجعلونها لها غريبة عن ثقافتهم.

هذه الاختلافات في الصفات التي تُجعل للآلهة المحلية والآلهة المورية تبين لنا عن اختلاف في طبيعة هاتين المجموعتين من الآلهة، كما تشفُّ لنا عن اختلاف في عقليات منشئي تلك التكريسات. فالآلهة المحلية المسماة كل واحد باسمه والآلهة المورية التي تُجمع كلها تحت مسمى واحد، كان يختلف بينها المتعبدون. ويُتبين من المعلومات التي أمكن استجماعها عن نوعية منشئي تلك التكريسات أن عبادة الآلهة المحلية كانت لها شعبية أكبر مما لعبادة الآلهة المورية. والتمعن في هذا الأمر يكفي وحده ليبين لنا أن عبادة الآلهة المحلية أكثر من كان يقبل عليها المدنيون (بنسبة 74%)، وأما عبادة الآلهة المورية فأكثر من كان يقبل عليها العسكريون والموظفون الإمبراطوريون، والولاة (بنسبة 73%). ولذلك فعلى خلاف أولئك الذين كانوا يرون في عبادة الآلهة المورية مظهراً من مظاهر الوطنية المورية، أرى أن هذه العبادة كان يغلب عليها الطابع الرسمي والعسكري، وأنها كانت وثيقة الصلة بمحاربة القبائل المتمردة.

وليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه الآلهة على الرغم من أسمائها، تُذكر في المقاطعات الأخرى بقدر ما تُذكر في موريتانيا. وتكثر هياكلها خاصة في لمبيز وهي مقر الفيلق [الروماني]. فمن جملة الهياكل الواحد والعشرين التي أنشئت لهذه الآلهة تقوم ستة منها في هذه المدينة. كما نجد بعضها في مدينة أخرى من مدن نوميديا (مصقلة*)، وفي خمس من مدن إقليم قرطاج، وهي : تبسة Theveste ومداوروش، وباجة، وهنشير رمضان، وموستي، وأما التكريسات ذات الطبيعة الغربية الغالبة في موريتانيا القيصرية، والتي جُعلت للآلهة المورية فهي التي نجدها في مدينة ألتافا*. ولم يتسنّ العثور حتى اليوم على أي كتابات نقوشية مكرسة للآلهة المورية في موريتانيا الطنجية، وهي الأكثر «مورية» بين المقاطعات الإفريقية، لأن الموريين منها ينحدرون.

وعليه، فليس هنالك صلة تربط بين الصفة «موري» (*mauri*) والتقطيع الذي وقع على إفريقيا الرومانية وصيّرها إلى مقاطعات. فقد رأينا أن الصفة «موري» كانت أكثر ما تُجعل في إفريقيا الرومانية لكل ما هو محلي، ولم يتم استيعابه، بل غير قابل بوجه من الوجوه للاستيعاب [في الإمبراطورة الرومانية]. ولذلك نفهم كيف أن الآلهة المورية كانت تُنعت أحياناً بالباربارية.

---

*- Mascula، وتعرف كذلك باسم خنشلة، وتقع في منطقة الأوراس الأمازيغية.

*- تُعرف اليوم باسم أولاد ميمون، في ناحية تلمسان.

وكما أن هنالك قبائل مورية بقيت خارج عملية الرومنة، ولبثت غريبة بوجه من الوجوه داخل إفريقيا الرومانية نفسها، فكذلك كان هنالك آلهة وجن إفريقيون وآلهة من طبيعة ملتبسة لم تجد لنفسها مكاناً في مجمع الآلهة اللاتيني. وقد كانت جميعاً آلهة مورية.

وربما كانت هذه المجموعة من الآلهة، إذا ما زدنا إليها بعض القوى الثانوية تمثل قوة لا يُستهان بها، والرومان، خاصة منهم أولئك الذين تعين عليهم أن يحكموا القبائل «المورية» أو يحاربوها، قد سعوا في استمالتها؛ فجعلوا لها اسم «الآلهة المورية»؛ ذلك بأن هذه الآلهة لم تتروّم، شأنها شأن الموريين. فلذلك كانت عبادة الآلهة المورية عبادة عسكرية في المقام الأول.

فتكون الآلهة المورية، وتلك التي دعوناها آلهة محلية، ولنا معرفة بأسمائها هي الآلهة نفسها، بيد أن الأولى تحظى بالتوقير بالصفة الجماعية، خاصة من لدن العسكريين والموظفين الإمبراطوريين، وأما الأخرى فالتوقير المعقود لها يكون على الصعيد المحلي من لدن العامة أو من لدن القضاة البلديين. فالآلهة هي الآلهة نفسها وإنما يختلف بينها منشئو التكريسات.

الإله آمون ومكانته في مجمع الآلهة الإفريقية

هل وضع الإفريقيون فوق هذه الدهماء من صغار الآلهة والجن إلهاً أعلى لم تكن هذه الآلهة الثانوية في النهاية إلا خديمة له ومساعدة؟ كان هذا السؤال في العهد الروماني يؤتى له بجواب لا لبس فيه : أن ساتورن يُحكم سيطرته على إفريقيا بمثل ما يسيطر الإمبراطور على العالم الروماني. وإذا كان من المحقق أن ساتورن قد خلف بعل حمون البونيقي، جاز لنا أن نتساءل هل إن التوقير العظيم المعقود لساتورن في إفريقيا إنما كان مأتاه من مصدر آخر، وهل يكون إنما حُمل على إله آخر أعلى مقاماً وذي أصل محلي خالص، قد اختلط على الناس ببعل حمون، فيكون هيّأ الأذهان سلفاً لما يقرب من التوحيد؟ يُجمع المؤلفون عامة على الجواب عن هذا التساؤل بالتأكيد، بل تجدهم يأتون باسم لهذا الإله؛ إنه آمون الذي تحققت له الشهرة في العالم الإغريقي منذ القرن السادس، بفضل وساطة الوحي التي كان يقوم بها في واحة سيوة.

إنها مسألة بالغة التعقيد، لأن هذا الإله قد ارتبط بعلاقات مع آمون رع المصري ومن بعده مع بعل حمون البونيقي، ومن بعده مع زيوس Zeus الإغريقي، ومن

بعده مع جوبيتر الروماني. وقد كان الاعتقاد لدى الناس في بداية القرن [العشرين] أن مصر، أم الحضارات، وزعت آلهتها على أنحاء إفريقيا. فكانوا يحملون الكباش ذات الرؤوس شبه الكروية في النقائش الصخرية التي في الأطلس على إله طيبة. فهذا ر. باسي قد وجد اسم «أمان» Aman لدى القونشيين، وأنه يعنى لديهم السيد وأنهم يجعلونه للإله الشمس. فيكون آمون الإله الكبش، الذي أصبح إلهاً شمسياً



87. نصب لساتورن. الكباش والثور هي القرابين المقدمة في العادة إلى الإله الإفريقي العظيم.

باندماجه مع رع، قد صار يبسط سيطرته رويداً رويداً على مجموعات الآلهة غير المنظمة لدى الباربار في الغرب الإفريقي. ويكون آمون سيوة، وهو الإله الوسيط لا يزيد عن تحول أو انقلاب لإله طيبة العظيم، وأما الإفريقيون في الغرب، وهم الذين لبثوا في طور شديد البدائية، فقد كانوا يعبدونه على هيأته الحيوانية.

وهذه أطروحة مفرطة في التبسيط. فقد رأينا أن الكبش ذا الرأس شبه الكروية ليس هو حيوان آمون رع، بل كان سابقاً عليه بوقت طويل، بحكم أن نقائش الأطلس تنتمي إلى العصر الحجري القديم.

وأما في ما يتعلق بأصول آمون سيوة فإن هنالك رأيين يتعارضان منذ زمن طويل. فأما الرأي الأول فيعتبره هو نفسه آمون طيبة، ويقول أصحاب هذا الرأي إنه تملّك الواحة قبل القرن السادس بكثير، وهي حقبة تمتلك بشأنها بعض الشواهد الإغريقية. وأما الرأي الثاني فهو أكثر تعقيداً، وهو الذي قال به أو. بيتس O. Bates إذ رأى أن الإله المصري اندمج في إله محلي كان يقوم بوساطة الوحي. وهوإله كان على صلة بعبادة الأموات.

وأياً ما تكن الأصول الحقيقية لآمون سيوة، فينبغي الإقرار بأنه قد حاز بوساطته في الوحي شهرة عالمية تجاوز بها الإطار الجغرافي الليبي بكثير. فاسمه وشهرته ورسمه وهي التي اكتست بفعل التأثير الهليني طابعاً إنسانياً كاملاً، قد تحقق لها عن طريق إغريق برقة الانتشار الكاسح في العالم المتوسطي. فنحن نرى آمون، الذي سيصير في ما بعد يتسمى بزيوس-آمون Zeus-Ammon، يصوَّر على هيأة شخص ملتح طيّب، وما احتفظ من الكبش الطيبي* بغير القرنين، اللذين صارا لا يكادان يبينان لديه من خلال الشعر الكث المجعّد. وقد حاز هذا الرسم المحلّى بالقرون نجاحاً كبيراً في العالم الهلينستي، خاصة من بعد زيارة الإسكندر Alexandre لواحة آمون وإعلانه نسَبه إلى هذا الإله.

وذهب بعض المؤلفين إلى الاعتقاد بأن الحظوة التي كانت لآمون عند الليبيين هي المفسر للمكانة الرفيعة التي صارت لبعل حمون في المجال البونيقي، بحيث يحملونه كلياً على إله سيوة وسيط الوحي. وأما مـ. لوكَلي M. Le Glay فلا يذهب إلى حد الأخذ بهذا الاعتقاد، بل يرى هو الآخر أن بعل حمون «البونيقي البربري» قد استعار من الإله الليبي المصري قرنيّ الكبش وجزءاً من شخصيته ليصير إلهاً شمسياً.

---

*- نسبة إلى طيبة.

*- néolithique ancien، أقدم العصور الحجرية وأطولها، فمبتدؤه في 000 2,300 ومنتهاه في 12,000.

وإذا كان آمون قد حاز في شكله الإغريقي، ثم اللاتيني، في برقة وفي طرابلس الغرب، نجاحاً دائماً تترجمه نقوش وافرة وأثر موصول في أسماء المواقع، ووجود إله «خديم لآمون» في جولا Golas (بونجيم)، فإن المقاطعات في غرب سرت الصغرى فقيرة جداً إلى الشواهد على عبادته. فلا يمكن أن نذكر له هنالك غير تكريسين أحدهما في قرطاج قد جُعل لجوبيتر حمون Jupiter Hammon، والآخر في أوزيا وهو يصفه بكورنيفير *Cornifer* وبتونانس *Tonans*. كما أننا لا نكاد نجد له ذكراً بين أسماء الآلهة الإفريقية؛ فلا نعرف بينها غير خمسة تحمل اسم أمونوس Ammonus أو أمونيانوس Ammonianus. وإنه لعدد زهيد بالنسبة إلى إله يُراد له أن يتبوأ قمة مجمع الآلهة الإفريقي لما قبل العهد الروماني.

وخلاصة القول إنه لا يبدو أن إله سيوة قد لعب غير دور محدود جداً في ديانة الإفريقيين الذين كانوا يستوطنون غرب سرت الصغرى.

والشكوك نفسها تحوم حول وجود إلهة عظيمة ليبية خالصة، تتمايز عن الإلهة تانيت البونيقية. وليس من شك في أن تانيت، التي خلَفتها كاليستيس Caelestis والتي ما أكثر ما وقع الخلط بينها وبين جونون Junon، قد كانت الإلهة الرئيسية الأنثى في مجمع الآلهة البونيقي، غير أن هذه الإلهة لم تكتسب أولوية حقيقية إلا في قرطاج وفي عهد متأخر نسبياً، وربما لم تقيض لها تلك الأولوية إلا بعد أن صارت تُعتبر إلهة أماً، على غرار هيرا Hera في جنوب إيطاليا.

ففي العهد الروماني كانت كاليستيس هي الواجهة لساتورن، مثلما كانت تانيت هي «الوجه» لبعل حمون. ولذلك عرفت عبادة كاليستيس الانتشار الواسع في إفريقيا الرومانية؛ غير أن عبادتها كانت في إقليم قرطاج وفي نوميديا أوسع انتشاراً مما في موريتانيا. وكما هو الحال بالنسبة لساتورن بقيت عبادة كاليستيس مطبوعة بطابع السامية، وليس هنالك من شيء يجيز الاعتقاد بأن هذه الإلهة تعود إلى أصول محلية. بل إن اسم «تانيت»، وهو ذو الهيأة البربرية بسبب من اشتماله على علامة التأنيث المتمثلة في حرف «التاء» في أوله وفي آخره، لا يبعد أن يكون له هو نفسه معنى سام وأنه يدل حسب ج. دوسان G. Dossin على معنى «الجديدة» و«العروس»؛ وهو المفسر للصفة العذرية التي أكدها تيرتوليانوس لكاليستيس (*Virgo Caelestis*)[1]، أو

1- Tertullien, *Apologeticus* (23).



88. ضريح الخروب في الوقت الحاضر.

أكدتها الكتابات النقوشية (*Dea Magna Virgo Caelestis*) في البولاي Albulae في عين تيموشنت.

وهنالك إلهة أشد غموضاً؛ تلك هي الإلهة مورا *dea maura*، التي كانت تحظى في البولاي بعبادة يغلب عليها الطابع الرسمي، وكان لها فيه معبد. ولسنا نعرف على وجه اليقين هل تكون هي الإلهة نفسها التي نراها على النقيشة الشعرية في صلدا Saldae* (جن مورا *Gens Maura*)، أم ينبغي أن نحملها على الإلهة ديانا أوغوستا المورية Diana Augusta Maurorum في ثناراموزا Thanaramusa (برواغية).

ويميل بعض المؤلفين إلى الخلط ببساطة بين الإلهة مورا وكاليستيس، وقد ربما أمكن الجمع بينهما، لكن يجدر التنبيه إلى أن الصفة «مورا» لم تُجعل قط، في حدود

*- الاسم القديم لمدينة بجاية.

ما نعرف، لكاليستيس، ولا حتى في البولاي، هو الذي يوجد فيه معبد للإلهة مورا غير أن فيها توقيراً للإلهة ماگنا ڤيرگو كاليستيس Dea Magna Virgo Caelestis.

وهنالك تقريبات أخرى تبقى ممكنة؛ إذ تحضرنا المحيِّرة ڤارسوتينا، التي قال عنها تيرتوليانوس[1] إنها إلهة مميزة للموريين، كما هي كاليستيس عند الأفري، وكأتاگارتيس Atagartis لدى السوريين.

الملوك المؤلهون، الشواهد

لقد شاع عند الناس أن قدامى البربر كانوا يضعون ملوكهم في مقام الآلهة. والواقع أن الشواهد كثيرة على أن الملوك الموريين كانوا موضع عبادة. ومعظم هذه الشواهد مصدرها المؤلفون المسيحيون. فهذا مينوسيوس فيليكس Minucius Felix قد كتب : «وأنتم تتصورون أنهم بعد موتهم يصيرون آلهة... وهكذا فيوبا قد صار بإرادة الموريين إلهاً»[2]. وكتب تيرتوليانوس : «إن لكل مقاطعة، وكل مدينة إلهها فلسوريا عشتروت Astarté... ولإفريقيا كاليستيس ولموريتانيا ملوكها»[3]. ويبالغ القديس سيبريانوس في تأكيده على أن الموريين كانوا يجهرون بعباداتهم لملوكهم ولا يخفونها. ويكرر لاكتانس Lactance في مؤلفه **الأنظمة المقدسة**[4] أن يوبا كان يُعبد من الموريين، الذين كانوا يقومون لملوكهم بالتخليد. وفي المقابل لا نجد وثيقة أدبية واحدة تفيد أن ملوك نوميديا، ابتداء من ماسينيسا وانتهاء بيوبا الأول، كانوا يؤلَّهون ويُعبَدون.

فهل تسعفنا الوثائق النقوشية من التفاصيل [بأكثر مما تمدنا الوثائق الأدبية]؟ يمكن تصنيف هذه الوثائق إلى مجموعتين : الكتابات النقوشية البونيقية من عهد ملوك الماسيليين، والكتابات النقوشية اللاتينية المتأخرة عنهم بزمن طويل.

والأشهر بين وثائق المجموعة الأولى هو التكريس الذي جُعل في دقة على معبد لماسينيسا في السنة العاشرة من حكم ابنه ميسيبسا؛ فقد اقتصر ذلك التكريس على وصف الملك المتوفى بالأمير (HMMLKT).

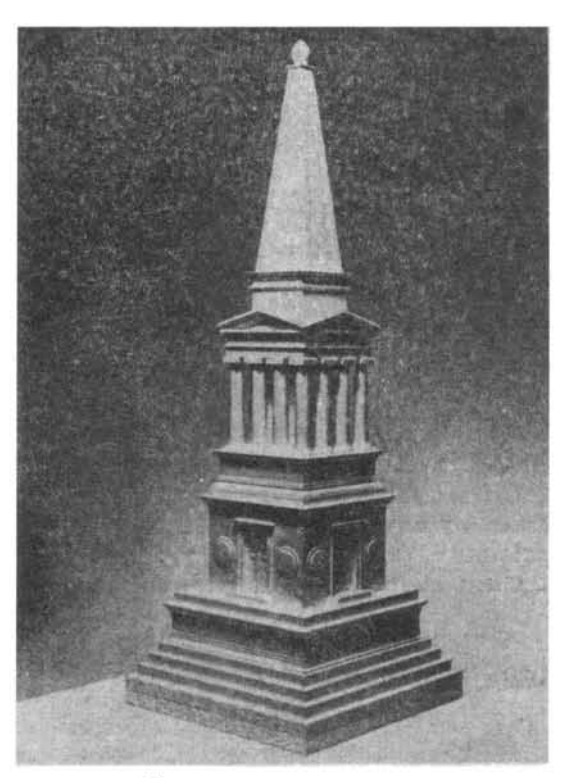
وتجيئنا الكتابة النقوشية البونيقية الجديدة في شرشال Cherchel والمكرسة لميسيبسا بمزيد من التبيان؛ فهي كتابة مقابرية أخرى مكرسة لـ «معبد مقابري لحي

1 - Tertullien *Ad Nationes*, (II, 8).

2 - *Octavius* (21, 9).

3 - *Apologeticus* (24).

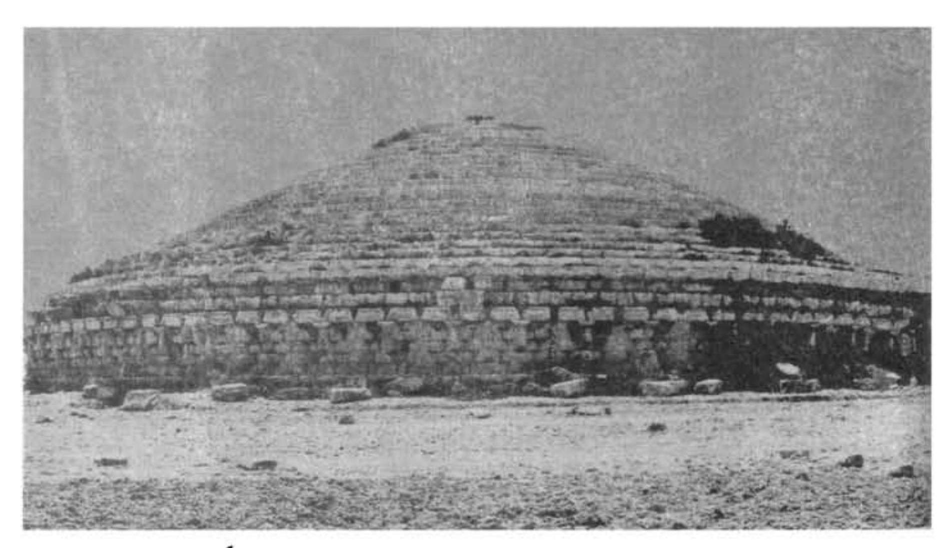
4 - *Institutions divines* (I, 15, 6).



89. ضريح الخروب، تصميم لف. راكوب. من المحتمل أنه ضريح الملك ميسيبسا.

الأحياء ميسيبسا ملك الماسيليين». فالقائم بذلك التكريس، الذي سمى نفسه «آذن الرب»، قدم تمثالاً والنصب المقابري وعدة العبادة. فتكون هذه الكتابة النقوشيَة دليلاً على عبادة مقابرية كانت تُجعل للملوك النوميديين، لكن ليس فيها دليل على أن هؤلاء كانوا في حياتهم يؤلَّهون.

وأما الكتابات النقوشية اللاتينية فتوجَّه خاصة إلى بطليموس، وهو آخر ملوك موريتانيا، لكنها توجه كذلك إلى أحد أبناء ماسينيسا، هو المسمى كَولوسا Gulussa ملك نوميديا (كَاديوفالا Gadiaufala : قصر صباحي)، كما توجَّه إلى الملك هيمبسال (في توبرسيكو نوميداروم : خميسة). والواقع أن «عبادة» الملك هيمبسال في هذه المدينة تجد تفسيرها خاصة في الحرص على التذكير بالأصول النوميدية لهذه المدينة التي تقدس كذلك الجن النوميدي (*genius gentis Numidiae*). وفي هذه العبادة الاستيعادية كذلك تفسير للتوقير الذي كان يحظى به كَولوسا في المدينة المجاورة كَاديوفالا. فوحده الشعور الوطني الشوفيني كان يبعث «النوميديين» في هاتين المدينتين على توقير الأمراء الذين لم يتركوا إلا ذكرى زهيدة ومتواضعة.



90. المدارسن، ضريح ملكي في نوميديا. قطر القاعدة 59 متراً.

وأما يوبا الثاني، الذي يقول الكتاب المسيحيون إنه كان إلهاً يعبده الموريون فإن كتابة نقوشية واحدة اكتُشفت في منطقة برج بوعريرج تفيدنا أن سوقاً سنوية كانت تنعقد في هذه المنطقة تَحت حماية بعض الآلهة؛ كجوبيتر ويوبا، وجن المكان والآلهة إنكَيروزوكَليزيم *dii ingirozoglezim*. وليس بالضرورة أن يكون يوبا هذا الملكَ المؤلَّه، بل تراني أمَيل إلى رأي أنه إله إفريقي قد عُرِف باسمه يوبا الأول وابنُه.

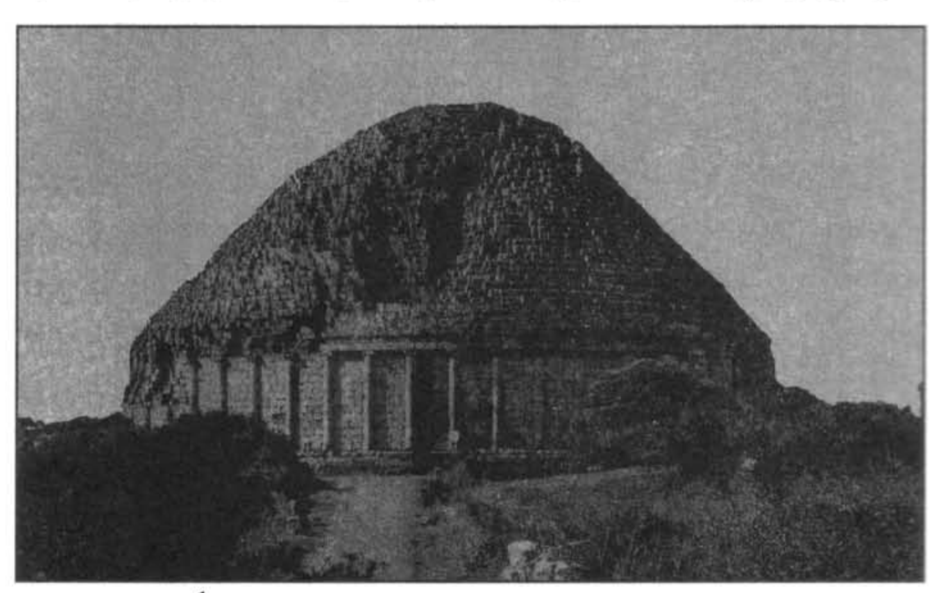
الأسماء الثيوفورية عند البربر

لا يمكننا أن نجزم بأن الأسماء الليبية أكثرها من طبيعة ثيوفورية*. فمعظم الملوك، وكذلك رعاياهم من العامة، كانوا يحملون في ما يبدو اسم إله مجرداً لا يصحبه نعت أو بدل. وقد كان البربر يقتصرون من الإله، ولو كان فينيقياً، على اسمه المجرد. فنحن نرى في كتابتين نقوشيتين ثنائيتيّ اللغة في دقة كيف أن الاسم البونيقي أبديشمون *Abdeschmun* (خديم إشمون) قد صار في اللغة الليبية «سمن» *Smn* (إشمون). فلذلك كانت الأسماء الثيوفورية البربرية لا تتمايز في شيء عن أسماء الآلهة نفسها. ومن قبيل ذلك أن الكتابة النقوشية النذرية الموجهة في هنشير البلدة Henchir Belda إلى مسكَاڤا ليس المراد بها ذلك الابن الغامض من أبناء ماسينيسا، الذي عرّفنا باسمه سطرٌ ورد عند تيت ليف، بل المراد بها الإله

*- الثيوفوري الذي يحتوي على اسم إله.
*- القصور حالياً.

الذي كان هذا الأمير تسمّى باسمه. والأمر نفسه ينطبق على إله آخر، يدعى إيمسال (= هيمبسال) يحظى بالتوقير في تكلات Tiklat، في منطقة القبائل، خارج حدود مملكة هيمبسال الثاني Hiemsal II. وهنالك برهان قاطع على الاستعمال الذي كان لهذه الأسماء الثيوفورية من غير تمييز عن أسماء الآلهة، نجده في المقابلة بين جملة لأميين مارسولين والكتابة النقوشية التي في ماجيفا على مقربة من تبسة والتي كذلك سبعة آلهة، بينها واحد، هو سوجن، قد صارت تُعرف باسمه، كما رأينا، أعلى القمم في هذه المنطقة. والحال أن أميين مارسولين يذكر من بين الأمراء المازيس حلفاء فيرموس، أميراً يسمى سوجن[1]. فيكون أحد الرؤساء الموريين من منطقة كاستيلوم تنجيتانوم Castellum Tingitanum (أورليانفيل سابقاً) قد حمل في القرن الرابع اسم إله بربري كان يُعبد قرناً قبلُ في ماجيفا، على بعد حوالي خمسمائة كلم إلى الشرق.

ولم تكن الأسماء الثيوفورية مقصورة على الأشخاص وحدهم؛ فرواية أميين مارسولين نفسها تعرّفنا على قوم كان يُعرف باسم يوباليني Jubaleni[2]، وكان يستوطن المنطقة الجبلية البيبان، على مقربة من برج بوعريرج. والحال أنه قد تم العثور في نواحي هذه المنطقة على الكتابة النقوشية الوارد فيها ذكر الإله يوبا. فيجوز



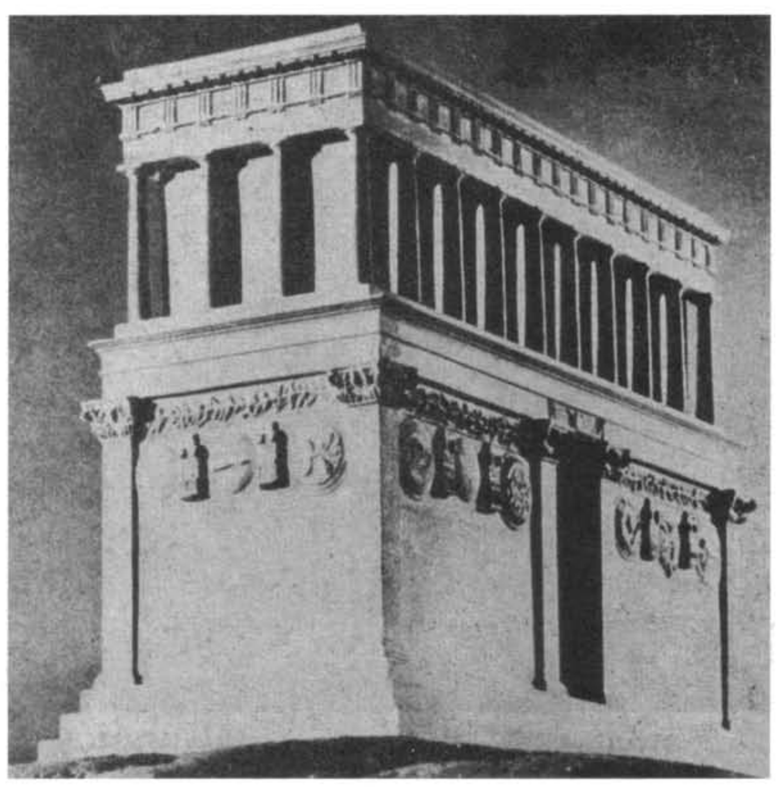
91 . قبر المسيحية. ضريح ملكي في موريتانيا. قطر القاعدة 62 متراً.

1- Ammien Marcellin (XXIV, 5, 21).

2- Ammien Marcellin (XXXIX, 5, 44).

لنا الاعتقاد أن الملك يوبا كان يحمل اسماً ثيوفورياً، على غرار مسكَاڤا وهيمبسال وسيفاقس. لكن يوبا ترك لنا ذكرى راسخة، ليس بين ذرية رعاياه، بل ترك لنا تلك الذكرى بين المثقفين، ويغلب عليّ الظن أن الكتاب المسيحيين الإفريقيين كانوا يعرفون بوجود إله محلي، هو يوبا، ويعرفون أن الملوك القدامى كانوا موضوعاً لعبادة مقابرية، فخلطوا بين هذا الإله والملك الذين كانوا لا يزال بإمكانهم أن يقرأوا أعماله. ذلك بأنني لا أميل إلى الاعتقاد بأن البربر ظلوا يحفظون ذكرى ملك يبتعد بطبعه المسالم والنشيط عن صورة ملك من سادة الحرب، ويخلصون له ويستمرون على عبادته بعد وفاته بثلاثة قرون أو أربعة.

وأما في ما يتعلق بالعبادة المقابرية التي كانت تُقام للملوك المحليين، فليس من شك في أنها قد كان لها وجود عند النوميديين الماسيليين (ضريح ماسينيسا ومعبده في دقة، وضريح الخروب، والمدراسن، والكتابة النقوشية المكرسة لميسيبسا)، كما كان لها وجود عند الماسيسيليين وعند الملوك الموريين (جثوة بني رنان، وقبر المسيحية).



92. معبد سيميثو (شمتو. تونس). معبد نوميدي من المحتمل أنه يعود إلى زمن يوبا الأول. إعادة تكوين لف. راكوب.

قرابين وشواهد للآلهة

تعرِّفنا الكتابات النقوشية، أكثر مما تعرّفنا النصوص التي وضِعت في الدفاع عن المسيحية، وإن بصورة جزئية ومحدودة، على الحياة الدينية لقدامى الإفريقيين.

ولئن كانت الصيغ المسكوكة في التكريسات تعجز أن تحيطنا بالجانب الأساسي في الحياة الدينية؛ نريد عمق الإيمان، والطبيعة الحقة للعلاقات بين المؤمن وإلهه، فإن ضعف الوثائق لا ينبغي أن يُقعدنا عن البحث والتفكير.

ولم يكن كل شأن تلك الآلهة التي ظل [قدامى الإفريقيين] يُقبلون عليها بحمّية ويقدمون لها القرابين، ويقيمون لها الهياكل والمعابد، أنها مجرد جن، وإن لم تحز الشهرة الواسعة. فمن هذه الآلهة، مثل باكاكس، التي كانت تُعبد على الصعيد الرسمي من لدن القضاة البلديين خلال مواسم للحج سنوية حقيقية. وهذا الإله باليدير قد أقيمت له في سيقوس* تماثيل في وسط الميدان.

ونحن لا نحيط معرفة بالقرابين التي كانت تُقَدَّم إلى هذه الآلهة، غير أننا نحسب أنها لم تكن لتختلف كثيراً عن القرابين المقدمة إلى الآلهة البونيقية والرومانية. وقد كان الكبش، الذي يكثر ظهوره في المسلات المكرسة لساتورن، هو أكثر الحيوانات القربانية شيوعاً، ولا يعدم دلالة أن يكون هو الحيوان المرسوم في منظر القربان الوحيد المبيَّن في تكريس قد جُعل لبعض الآلهة الإفريقية؛ نريد النَّقيشة التي في باجة. كما لا يبعد أن تكون القرابين المقدمة إلى الآلهة تشتمل على رسوم للبقريات والحمام، والأطعمة المهيأة، والحلويات، وأكاليل الزهور، وسعف النخيل.

ولم يكن كل شأن هذه الآلهة أنها تستجيب إلى الأدعية الموجهة إليها، والتي يتم التأكيد عليها بقرابين الامتنان، بل ربما اتفق لها أن ظهرت لأتباعها على حين غرة؛ سواء أكان في رؤيا، أو في حدث غير متوقع. وبهذا المعنى ينبغي أن نأخذ كلمة «النذر» في بلاد تشيع فيها الأوهام الخادعة، ويُسمع فيها على الدوام صخب يُحدثه الجن والأرواح. فالتجليات التي كانت تقع من بعض الآلهة كانت الدافع إلى بناء معبد الآلهة الذي في ماجيفا، وكانت كذلك من وراء الرسم الذي جُعل لهرقل إرسيتي Hercule Irsiti، والسببَ إلى التكريس الذي جُعل للآلهة المورية في تبسة. ولقد بقيت مثل هذه التجليات اللحوحة حكراً على الـجْنون وغيرهم من الجن التقليديين الذين لا يعدمون نشاطاً، وهم الذين لا يزالون يتمتعون في القرى والبوادي المغاربية بمكانة كبيرة، خاصة في المعتقدات النسائية.

*- Sigus، تقع على بعد 40 كلم جنوب شرقي قسطنطينة.

المعابد وتمثيل الآلهة

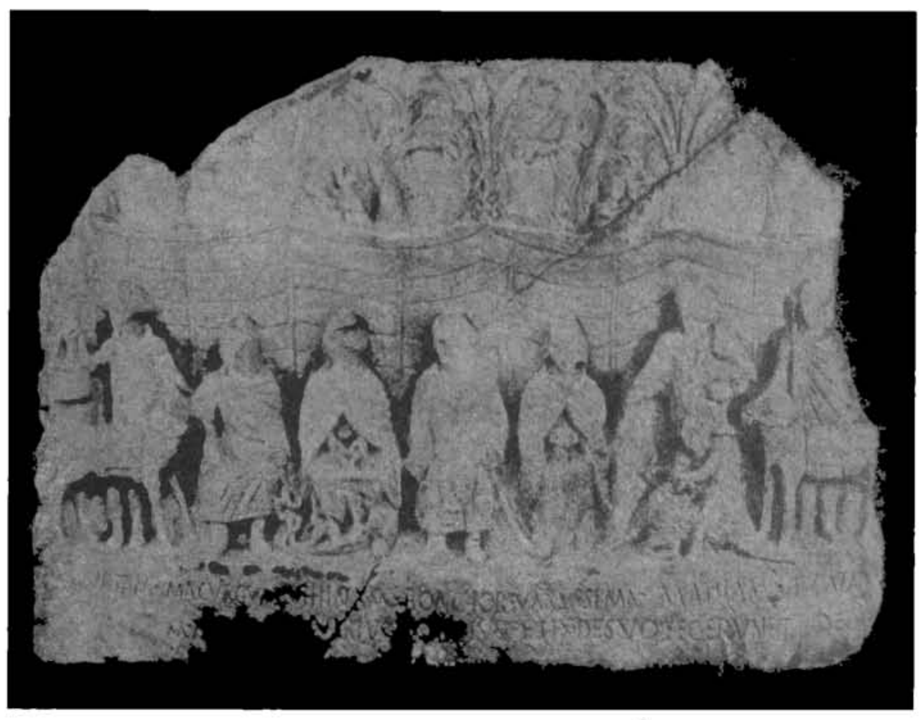
كان قدامى البربر لا يستنكفون أن يقيموا لآلهتهم الهياكل، وقد يشيدون لها المعابد أحياناً. وبعض هذه المعابد تعتبر صروحاً حقيقية؛ كالمعبد النوميدي الكبير في شمتو، وقد أقيم على الطراز البونيقي الهلينستي، وكمعبد الإلهة مورا في البولاي، والذي أعيد بناؤه في سنة 299، وكالمعبد الذي أقامته حامية جولا (بونجيم) لمارس Mars كانابفاري في سنة 225. وأما بعضها فأغلب الظن أنها لم تكن تزيد عن مصليات متواضعة؛ كالمعبد الذي أقامه ك. بوليتيكوس Q. Politicus لآلهة ماجيفا؛ فلم تكلف إقامةُ هذا النصب وصنعُ تماثيل الآلهة الخمسة غير ثمانية آلاف سيسترس. وأغلب الظن كذلك أن «المعبد» الذي أقيم لبلوتو* ڤاريكالا في طبرقة من لدن شخص لم يكن يزيد عن كهنوتي *sacerdos* غير ذي وظيفة بلدية، لم يكن بالصرح العظيم. وربما كان يفوق هذه المعابدَ حجماً معبدُ الآلهة المورية الذي أعاد جابي *exactor* منطقة مصقلة بناءه وترميم أطلاله على نفقته.

والمعبد الذي قام سالوستيوس ساتورنينوس Sallustius Saturninus على زخرفته في ساتافيس Satafis هو معبد قد كُرّس للآلهة المورية وللجني الراعي للبلدية معاً. وفي المدينة نفسها أقام ك. إڤليوس نوڤيلوس C. Ivlius Novellus معبداً لنومين المورية وقام على تبييضه. وهذه ممارسة ما زالت جارية في بلاد البربر فقد يأتون أحياناً على الأماكن المقدسة والصخور وجذوع الزياتين المجوفة بطلاء من الجير.

ورسوم هذه الآلهة الصغيرة المحلية أو الإقليمية قليلة ونادرة؛ فنحن نعلم أنه قد كان لباليدير في سيقوس تماثيل عديدة من البرونز كلف أحدها بقاعدته أربعة آلاف سيسترس. ورُسمت آلهة ماجيفا الخمسة في المعبد الصغير الذي كُرس لها. وفي باجة رسِمت الآلهة السبعة المكونة لمجمع الآلهة الإقليمي على نُقيشة تعتبر أهم عمل فنيَ حُفظ لنا عن الآلهة المحلية في إفريقيا الرومانية. وإذا كانت تقاسيم وجوه هذه الآلهةَ تبدو جميعاً غير واضحة، فإن في الإمكان التعرُّف على ملامح كل واحد منها. فماكورتوم يحمل مصباحاً، وهو مثل نظيره إيونام إله فارس، فقد جُعل أمام كل واحد منهما حصان. ولقد أسلفنا الإشارة إلى أنهما ربما اختلطا على

*- كتب : بلوتون Ploton.

الناظر بكاستوريس موري اللذين في موستي. ويُرى ماكوركَوم جالساً يمسك في يمناه كتاباً *volumen* وفي يسراه عصا قد التفت عليها حية. ولا ندري هل بمحض الصدفة أم عن عمد جُعلت إلى جانب هذا الإله الطبيب [الإلهةُ] ڤيهينام Vihinam وقد تغطت بغفارة من قشور وريش، وأمسكت في يديها ملقاطاً، وجلس عند رجليها



93. نُقيشة وتكريس للآلهة السبعة في باجة (تونس).

طفل، بما يُظهر بوضوح أنها ربة تشرف على التوليد. ويبدو بونشور وهو الشخصية المتوسطة لهذه الآلهة، كأنه السيد على هذا المجمع؛ فقد أمسك في يده صولجاناً أو هراوة. ويرتدي ڤارسيسيما مثل الغفارة التي على ڤيهينام، غير أنه لا يحمل شيئاً مائزاً بينما يقف ماتيلام يشرف على قربان الكبش، وقد أمسك في يده اليسرى مبخرة ويقدم اليمنى فوق هيكل. وقد رُسمت هذه الآلهة وسط الطبيعة، ولم تُرسم داخل معبد؛ فلا يفصلها غير ستار جُعل خلفها عن روضة نستبين فيها أشجار النخيل مثقلة بالعراجين وأشجاراً أخرى قد انحنت فروعها من ثقل الثمار. وتُرى رماح قد وُضعت على ذلك الستار؛ فهي تقوم إطاراً لكل واحد من تلك الآلهة. وعلى الرغم من بعض أوجه الارتباك الظاهرة في إنجاز هذه التماثيل، خاصة ما تعلق بعدم التناسب في

الطول بين ماكورتوم* وإيونام ودابتيهما الرّكوبتين الصغيرتين المضحكتين، فإن هذه النُّقيشة لا تخلو من أهمية. فقد اعتُنِي كثيراً بتكوينها، وعلى الرغم من أن الآلهة السبعة قد جُعلت جميعاً في وضعة مقابلة فإن المواضيع السبعة قد عولجت من المهارة بما يكفي لتخليص تلك الوضعات من الرتابة والجفاف. كما ورُسم الستار بمرونة كبيرة تبرز في التموجات التي توفق الفنان في الإتيان بها، لإظهار التبدلات في الرسوم التي على النسج.

لقد جاء هذا العمل الفني تغلب عليه التقاليد الهلينستية، فكانت النتيجة بعيدة بشكل لائح عن الصورة التي كانت لإفريقيٍّي باجة عن آلهتهم.

وليست رسومات الإلهة الإفريقية *dea Africa* استثناء، لولا أن ظهور هذه الإلهة يعود إلى أواخر العهد الهلينستي، ولا يبدو أن لها من صلة حقيقية بالسكان الليبيين، وإن يكن يوبا الأول ويوبا الثاني قد جاءا برسمها على نقودهما.

وهنالك إله آخر مجهول الاسم لسوء الحظ، نراه مصوراً على مسلة ببناصة في موريتانيا الطنجية. ولكن لاسبيل إلى الخلط بين هذا الإله ذي القرنين المستقيمين وآمون، كما وأن في التشبيه الذي جُعل له بالإله الثور ڭورزيل مجازفة كبيرة. وهذا هو في ما يبدو الرسم الوحيد لإله إفريقي في هذه المقاطعة، التي لم تجعل من تكريس لهذه الآلهة ولا للآلهة المورية.

ورسم الإفريقيون من العهد الروماني كذلك آلهتهم على جوانب الصخور وذلك اتباعاً لتقليد قديم يعود إلى عهود ما قبل التاريخ. وقد أرفِق اثنان من هذه الرسوم بتكريس: هرقل إرسيتي في عين رقادة، وإيرو في قشقاش.

ولا نعرف على وجه التحديد إلى أي عصر نُرجع رسوماً أخرى أقل تهذّباً، ولكن في أسلوب إفريقي واضح، لإله فارس نعرف له ستة نماذج في منطقة القبائل الكبرى. وأجمل تلك الرسوم هي التي على مسلة أبيزار Abizar؛ فهي تصور شخصاً ملتحياً وعارياً في ما يبدو، قد ركب حصاناً من غير سرج وحمل في عنقه نوطاً غريباً من فصين. والشخص مرسوم كجري العادة من قبُل، ولحيته الطويلة المدببة تتدلى على صدره، والوجه في رسم مبسط وخلو من فم، واليد اليسرى تشهر ثلاث حراب ودرعاً دائرية صغيرة واسعة القمة *umbo* أقرب شبهاً إلى الدروع التي تزين المسلات الليبية في منطقة برج القصر والمسلات البونيقية في وليلي. ويمسك هذا الشخص

* – جاء في الأصل الفرنسي: Macultum. وهو خطأ مطبعي لم يتنبه إليه سـ. شاكر أيضاً !!



94. مسلة أبيزار (منطقة القبائل، الجزائر).

في يده اليسرى بشيء كروي الشكل، ربما كان شعار الحكم. والحيز الأيسر تملؤه كتابة ذات حروف ليبية. ويُرى شخص متناهي الصغر، أغلب الظن أن يكون جنياً من درجة أدنى أو خادماً، قد استند إلى جانب الفارس بين ذراعه اليمنى وكفل الدابة الرّكوبة. وتُرى حبارة أو نعامة في حجم مصغر قد رُسِمت تحت رأس الحصان الذي يتقدمه كلب. والرسوم التي على هذه المسلة جميعها في نقيشات خفيفة مسطحة جرياً على تقنية الحفر التي كانت لها حظوة وإيثار لدى الفنانين البربر.

وعلى الرغم من الصعوبة الكبيرة التي نجدها في تحديد عمر المسلات القبائلية كشأن أغلب الكتابات النقوشية الليبية، فإننا نعتقد أنها تعود إلى ما قبل العهد الروماني. ذلك بأن الأسلحة فيها تبدو مختلفة عن الأسلحة التي كانت في عهود

الإمبراطورية، وتشابه الأسلحة التي كانت بأيدي الموريين والنوميديين في القرون الأخيرة قبل بداية العهد الميلادي.

وتطالعنا على المسلات الكبيرة التي في منطقة سيلا جنوب قسطنطينة شخصيات يبدو أنها من الآلهة. فعلى مسلة برج القصر يُرى شخص عار من جانبه الأيمن، وفوق رأسه درع شبيهة بدرع أبيزار، لولا أنها عند هذا الشخص ربما اختلطت على الناظر برسم للشمس! ويتقدم هذا الشخص حيوانان بقريان من حجم صغير جداً، فكأنما يحميهما بيده اليسرى، فيما اليد اليمنى مرفوعة كأنما تمسك بشيء كروي. والجانب الأيسر من المسلة تملؤه كتابة ليبية. وفي الموقع نفسه مسلتان أخريان عليهما التصاوير نفسها في نُقيشات مسطحة أيضاً، وأما نص الكتابات فمختلف عن الأولى.

وفي المنطقة نفسها، وهي شديدة الغنى بالأنصاب النوميدية، يقوم على الضفة اليمنى من وادي الخنقة، في الموقع المسمى بوشين Bouchène، نصب قد نُحت من الحجر الجيري الصدفي، بطول يزيد عن أربعة أمتار. وعلى واجهته الرئيسية نحت لشخص يزيد عن الطول الطبيعي (2,14 متر)، وقد لبس قميصاً يصل حتى ركبتيه وأمسك بيده اليمنى حربة أقصر منه، ويده اليسرى بإزاء صدره فكأنها ممسكة سيفاً كمثل ما يظهر في صورة أوضح على مسلة أخرى كبيرة مهشمة قد اكتُشفت على بعد حوالي خمسمائة متر من الأولى. وعلى جانبيّ هذا الشخص خطان عموديان من كتابة ليبية. والقسم العلوي من المسلة جُعل عليه رسم غريب كأنما هو لجبهية قد أسنِدت إلى بعض جذوع الأشجار غير المقصّبة مصورة من قبُل وممثلة بدوائر متماسة. وإن في هذه الجزئية المعمارية الاستثنائية في فن النوميديين وفي الطول المفرط في الشخص كذلك، ما يجيز لنا الاعتقاد بأن هذا الرسم كان لإله أو على الأقل لأمير معدود في الأبطال.

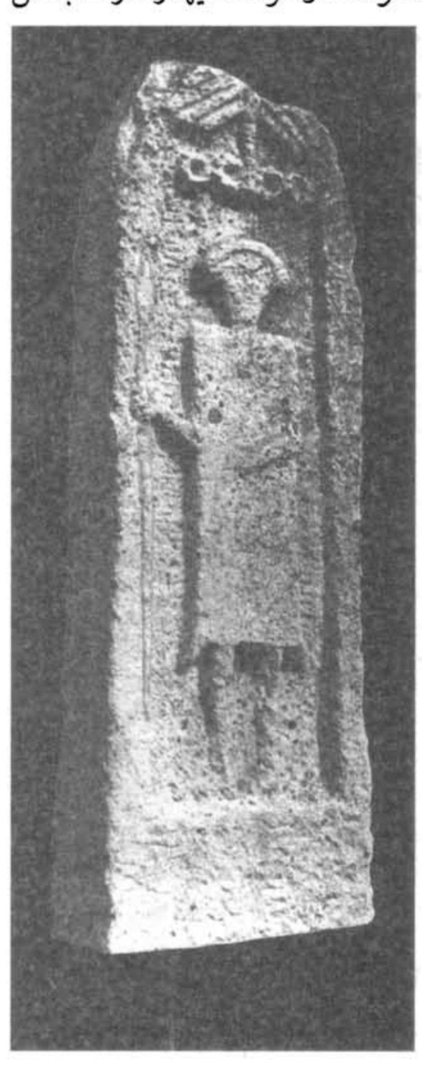
ويمكن أن ننوّه من العهد البيزنطي كذلك إلى الإله كَورزيل، الذي كان حسبما يفيدنا كوريبوس، يُعبد من لاكَواتان في طرابلس الغرب. إنه إله مولود من آمون ومن بقرة، وقد كان يُرمز إليه بثور، وكان لاكَواتان يجعلونه في صور يتخذونها من الخشب والمعادن.

ولسنا نزعم أننا أقد أحطنا ههنا بكل الرسوم التي كانت تُجعل للآلهة المحلية في العهد الروماني، أو أننا تأدينا إلى كل النصوص المتعلقة بالممارسات الدينية للإفريقيين فلا يمكننا إلا أن نقر بضعف ما اجتمع لدينا من وثائق وبقلة ما وقفنا عليه من أنصاب.

والحقيقة أن معظم الآلهة الإفريقية كانت، كمثل ما هم الجْنون في العصر الحاضر. في غنى عن التماثيل، وعن المعابد، وعن القسيسين، والكهنة.

الديانة المقابرية، زخرفة الحوانيت

لقد عرف قدامى البربر ديانة مقابرية حقيقية، يُطلعنا عليها العدد الكبير من الأنصاب ذات التنسيق المحكم المعدة لعبادة الأموات، وتعرّفنا عليها زخارف بعض القبور والأثاث التي اشتملت عليها المدافن.

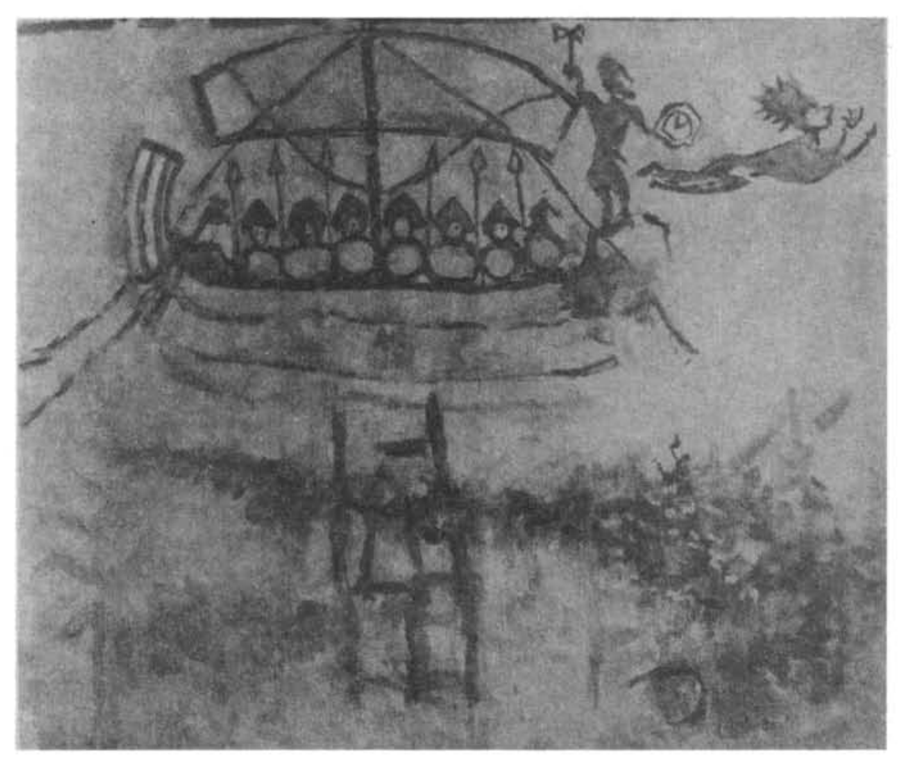


95. نصب عظيم في عين الخنقة (الجزائر). الارتفاع الأصلي لهذه المسلة الحجرية من العصر الحجري الحديث كان يصل إلى 4,13 أمتار.

وأقدم هذه المدافن هي تلك النواويس الصغيرة المكعبة المحفورة في جوانب الأجراف أو على الصخور المنعزلة، وتُعرف بالاسم العربي «حانوت» (جمعه «حوانيت»، انظر الفصل الثاني). وتبين الرسوم التي تزين جدران هذه النواويس المتركزة في شمال تونس، عن شبه كبير مع الرسوم المزينة لبعض القبور البونيقية ذات البئر، حتى ليتعذر التميز بينها. ومعظمها رسوم مغراء قد اشتملت أشكال هندسية بسيطة، وحيوانات ذات طابع وقائي من الأمراض. وهنالك علامة للإلهة تانيت محفورة على مدخل حانوت في جبل الزيت، وفي المقبرة نفسها وحشان منحوتان على جانبيّ مدخل لناووس وهي تؤكد مجتمعة الجوَّ البونيقي للسياق الثقافي والديني. ولكن الزخارف التي في الحوانيت ليست كلها بذات الأصل الفينيقي أو المتصل رأساً بالأصل الفينيقي [لهذه المدافن].

وتطالعنا على قبرين في جبل الزيت منحوتات لثيران على الجدار الداخلي. ولهذا التزيين قيمة دينية، كما يدلنا عليها شكل القرنين في أحد تلك الثيران؛ فقد جاء على هيأة كوة للتعبد جُعلت في الجدار الداخلي، على غرار ما نرى في النواويس الأخرى.

والرسم الجداري الشهير في كاف البليدة منطبع هو الآخر بهذا الجو المتوسطي غير الفينيقي؛ فنحن نرى فيه الشخصية الرئيسية ترفع فأساً مجنحة وتقي نفسها بواسطة درع دائرية عليها زخرفة في شكل حرف V، وهو نمط يعود إلى ما قبل القرن السادس، وينتشر من جزيرة كريت Crète حتى جنوب إسبانيا.



96. جدارية في ناووس (حانوت) من كاف البليدة (تونس).

إن المعنى المقابري والديني لهذا الزخرف على قدر كبير من البيان. فمن الواضح أن رسم السفينة والسلم الذي يتيح للروح الوصول إليها يرمز للسفر إلى العالم الأخروي. والأشخاص الثمانية المسلحون الموجودون على ظهر السفينة هم الجن الحماة الذين سيرافقون الروح، وسيقومون لها بالحماية في تلك الرحلة. وأما الشخص الملتحي والمسلح بفأس مجنحة فيمكن اعتباره إلهاً أعلى؛ كأن يكون بعل

حمون، الذي سيغدو في وقت لاحق هو ساتورن الإفريقي. وأمامه يطير أو يسقط شخص غامض، يمكن أن نحمله على جني شرير يتعرض للطرد أو للضرب من الإله صاحب السيف المجنح، وقد يكون في ذلك تفسير لتلك الحركة التوعدية وتفسير لتلك العدة الحربية.

والحوانيت أنواع من المدافن أدخِلت إلى شمال إفريقيا قبل العصر الحديدي واستمر تداولها أثناء العهد البونيقي ثم الروماني. بل إن بعض أشكالها الأكثر تعقيداً قد عادت تلقى الرواج الكبير لدى اليهود والمسيحيين في هذه المنطقة خلال القرون الأخيرة من عمر الإمبراطورية.



97. نُقيشة من منقوب (تونس).

البازينات والجثوات ذات المصليات

هنالك أنصاب أخرى أكثر تمييزاً لقدامى البربر، من قبيل البازينات التي كثيراً ما تُلحَق بها أبنية مخصصة للعبادة المقابرية. وأكثر هذه الأبنية بساطة هي «هياكل» دثرية بارتفاع ما بين 0,8 متر و1 متر، قد جُعلت قبالة البازينة، من جهة الشـرق بأعداد متغيرة.

والوضعة نفسها نرى عليها تدعيماً في حرم البازينة؛ فهو يشكل كوة تُتخذ للعبادة. وقد تشتمل البازينة أحياناً على مقدمتين على هيأة ساريتين مستطيلتين ومتباعدتين، أو تشتمل على مقدمة بناء ذات أربع زوايا متوازية الأضلاع، فتشكل

نطاقاً لا يتصل مع المدفن، ويقع في وسط النصب. وقد اكتُشفت في بعض هذه النطاقات بقايا قرابين. وتكثر هذه الأنصاب ذات السواري أو المقدمات في المناطق الصحراوية. وقد تكون تلك المقدمات ملتصقة بأنصاب ذات هيأة مربعة (كما في الطاوز، في تافيلالت)، ويكفي حينها أن تخضع تلك المقدمة للخفض بزاوية مستقيمة إلى داخل ذلك النطاق ليتحول بها إلى حجرة حقيقية. وإذا غُطيت هذه الحجرة اندمجت كلياً في النصب وصارت مصلى، ويمكن أن تعتبر كذلك تعميقاً أو توسعة لكوة التعبد.

ونجد الجثوات ذات المصليات في شمال موريتانيا، وفي الساقية الحمراء، وفي تافيلالت، وفي جنوب وهران (منطقة بشار)، ونجدها كذلك في أقصى الشرق في السهل الأوراسي. ونلاقي مثيلة لهذه الأنصاب في منطقة جلفة، بما يؤكد اقترانها بالمجموعة الغربية.



98. مسلة مرسومة من جرف التربة.

ولقد كشفت لنا هذه الجثوات عن آثار لعبادة مقابرية تبدو على أهمية كبيرة. والمصليات في موريتانيا وفي الصحراء الغربية لا تزيد عن حجرات بسيطة مستطيلة وكذلك هو الشأن في الأنصاب التي في جرف التربة (على مقربة من بشار). لكن معظم هذه المعابد قد جُعلت على تصاميم معقدة؛ فأنت تجدها في منطقة نقرين على هيأة مصلى نفلي ذي أعمدة، أو على هيأة قاعة مستطيلة قد زيدت إليها كوة. والمصليات في الطاوز، بتافيلالت، كما في البوية Bouïa، مقسمة إلى زوايا عديدة تتسع لتمدد الإنسان فيها أو قعوده. ولا يخلو الأثاث الذي عُثر عليه في هذه

المصليات من دلالة؛ ففي المغيطي (موريتانيا) تجد مائة لويحة من الحجر الجيري قد زينت بأشكال هندسية وصور لحيوانات مرسومة باللون الأمغر أو بالفحم. وتجد في جرف التربة لوحات كبيرة قد جُعلت في رسم مبهر وأسنِدت إلى الحوائط المزينة كذلك بزخارف مغراء، وبعضها محفور.

والمشاهد في هذه اللويحات متنوعة؛ فهي تشتمل على صفوف من الأشخاص في أفخم لباس قد صوّروا من قبُل، وتُرى فيها أمهار تهاجمها نمرة، وظباء، وخيول متواجهة ومشاهد احتلاب. والخيول هي الأكثر عدداً، قد رُسمت ببراعة، وجُعلت ذيولها في دقة متناهية، فكأنها جناح طائر؛ فهي تدل على وحدة في الأسلوب؛ فكأنها من إنجاز رسام واحد. وتكثر كذلك الظباء والخيول (فيما يغيب أي رسم للجمل) على لويحات المغيطي، وأما المصليات التي في فج الكوشة، وفي وادي جرش (منطقة نقرين) فإن جدرانها ذات الطلاء الأمغر عليها نقوش تكاد تقتصر الرسوم فيها على خيول، مركوبة وغير مركوبة. ونجد في الأخير الكتابات النقوشية التي في جرف التربة، كما الكتابات النقوشية التي في فج الكوشة ذات الحروف الليبية، تؤكد الحداثة النسبية لهذه المدافن. ونقع في هذه المصليات على أرمدة وآثار مواقد، ونقع في بعضها على عظام حيوانات، وعلى حوض (في البوية) مخصص للقرابين أو لإراقة الخمور، وهي تدلنا كذلك على أهمية هذه المصليات في الطقوس المقابرية. وكثيرة هي الأدلة التي تجيز لنا الاعتقاد بأن هذه التهيئات المعمارية كانت على صلة مباشرة بممارسة الحضانة التي وصفها هيرودوت عند الناسامونيين، والتي لا نزال نرى لها وجوداً عند الطوارق. بل يمكن أن نفسر وجود اللويحات والبلاطات المزينة في أنها ألوان من النذور كان يأتي بها المترددون على هذه المصليات.

الفخاريات المقابرية المزوقة في قسطل وتيديس

وأما الجثوات البسيطة والبازينات الخالية من أي تهيئة فهي أكثر عدداً بكثير من الأنصاب ذات المصليات. وتمثل تلك الجثوات مع هذه الأنصاب المقابرَ الأكثر تمييزاً لأوائل البربر. وقد كان لمقبرتين كبيرتين، تعود كلاهما إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، إسهام في زيادة معرفتنا بهؤلاء البربر القدامى، الذين كانوا قد بدأوا يكتسبون المبادئ الأولية لحضارة مدينية. فقد كانت قسطل في جبل الدير شمال تبسة مدينة محصنة تعود إلى أحد فروع قبيلة المزالمة الكبيرة. ولم يكن هؤلاء المزالمة بالرحل؛ فما كانت خزفياتهم ذات القيعان المسطحة، والأشبه أشكالاً بالخزفيات التي

نلاقيها لدى الفلاحين في الوقت الحاضر، بالآنية التي تُستعمل في الخيام؛ بل إن بعض فخارياتهم المشكلة بالأيدي تبدو نسخاً من الآنية المصنوعة باستعمال الدولاب الدوار ذات الأصول البونيقية أو الإغرقية. وتتمثل أهمية بعض هذه الصحون وهذه الآنية البيضية في أنها تشتمل على رسوم، بل إن بعضها قد جاء يحمل زخارف ملونة يجتمع فيها الأحمر والأسود، وهي زخارف شديدة البساطة، تغلب عليها المقوسات والخطوط المنقطة، والأشرطة، والإكليليات. والعناصر الوحيدة المصورة فيها هي النخيل، كما نرى على واحد من هذه الأطباق خيالات طيور.

وتفوق هذه الآنيةَ إثارة للاهتمام تلك الآنيةُ المزوقة في تيديس، والتي عُثِر عليها داخل بازينة أمكن رد تاريخها إلى سنة 250 ± 110 ق. م. فقد حمل أحَد هذه الآنية ثلاثة أحرف ليبية مرسومة على الجانب المحنَّى، والأخرى زُخرفت في أسلوب هندسي مثلثي، مطابق للأسلوب الذي لا نزال نراه على الفخاريات المسماة قبائلية، وهو في الواقع أسلوب مميز لجماع فن الزخرفة البربري. إنه زخرف شديد الصرامة تغلب عليه المثلثات ذات الترابيع أو متنوعة الزخارف، لكنه ليس بخال كلياً من الرسوم؛ فهو قد اشتمل منها على نباتات، وطيور، وتمثيلات لآدميين، وتصوير لقرص الشمس. ولكن على الرغم من النمنمة الطاغية على الزخرف الذي يزين آنية تيديس، فإن لها دلالات على قدر كبير من الوضوح. فمعظم هذه الآنية تتمثل فيها الرغبة الواضحة في تشخيص مختلف مكونات الطبيعة. ففي الفراغات التي تتخلل المثلثات نرى الشمس مرسومة عدة مرات، ونرى طيوراً تعمُر السماء، ونرى نخيلات ونباتات على قدر من النمنمة وهي تطلع من الأرض. وللمثلثات، أو على الأقل تلك التي تُرى على هذه الآنية، دلالة خاصة؛ فهي ترمز إلى الجبال؛ أي أنها ترمز إلى الأرض. وتقوم قاعدة هذه المثلثات فوق شريط من الشاريات، أو المعينات الممدّة، يمكن أن نستبين فيها عنصراً آخر؛ إنه الماء الجاري. فتكون فخاريات تيديس بأقل الوسائل والإمكانيات، وبتكوينها الصارم، توحي بعناصر الطبيعة الأربعة : الماء والتراب، والنار، والهواء، وما ينتسب إلى هذه العناصر مما يدخل في عالم الحيوان وعالم النبات. والحال أن هذه المشّخصات لا تنحصر قيمتها في الجانب التصويري بل إن لهذه الآنية وظيفة مقابرية، ولا يمكن فصل زخرفتها عن هذه الوظيفة. فهل كان المراد منها أن تمثل للميت في قبره صورة للعالم؟

وتسمح كثرة تمثيل الطيور، وهي رموز للتنقل السهل اليسير وللحرية، بالإتيان بافتراضات أخرى. أليست تدل على رسم روح الميت؟ عدا أننا نرى الميت في رسم

واضح على أحد الآنية وهو يلوّح بسعفات، ونرى فخارية أخرى تحمل اسم الشخص الذي جُعلت له داخل القبر قد رُسِمَ عليها بحروف ليبية.

وكانت الآنية الكبيرة، وهي الأكثر زخارف، تحتوي كل واحدة منها على فخارية نذرية صغيرة، وعلى عظام صغيرة، قد اجتمعت فيها أصابع من اليدين، والرجلين والسلامى، والأبواع، وأصابع راحة اليد، وفقرات من العنق، واحتوى بعضها على قطع من جذر الجمجمة وأسنان، واشتمل واحد منها على فك سفلي كامل. والمفسر لوجود هذه العظام في الظروف التي تم فيها نقل بقايا الرفات العارية من اللحم إلى القبر الأخير، الذي هو كهف البازينة. وقد كان نوميديو تيديس إذا جمعوا العظام الصغيرة والبقايا في الآنية، يأتون على فوهاتها بجماجم، بينما يجمعون العظام الطويلة في قاع الكهف. ويحمل التنسيق الذي توجد عليه العظام والآنية والجماجم على الاعتقاد بأن عملية النقل تكون في صورة جماعية أثناء احتفالات ربما كان يُرمز إليها بحلقة الراقصات التي نراها في رسم مبسط على أحد هذه الآنية.

إن هذه الأمثلة القليلة المستقاة من زخارف بعض الحوانيت، ومن النذور التي توضع في الجثوات ذات المصليات، ومن الآنية المزوقة في بعض البازينات، تبين لنا عن تعقد الديانة المقابرية لدى قدامى الإفريقيين. فقد عرف هؤلاء حيثما وجِدوا على الدوام، وسواء منهم الليبيون الفينيقيون في شمال تونس خلال العهد البونيقي أو النوميديون في تيديس المعاصرون لماسينيسا، أو الجيتول في مناطق السهوب في ظل الإمبراطورية الرومانية، عبادةً مقابرية اضطرتهم إلى إقامة الأنصاب، وهي كل ما خلفوا لنا من آثار. وإن التوقير الذي كانت تُجمع به في القبور الثانوية أصغرُ جزيئة من رفات المتوفى، ذلك الغائب دائم الحضور، قد كان يُهيئ الإفريقيين منذ زمن طويل لتقديس الرفات، وهو التقديس الذي عرف الانتشار الواسع في العهد المسيحي.

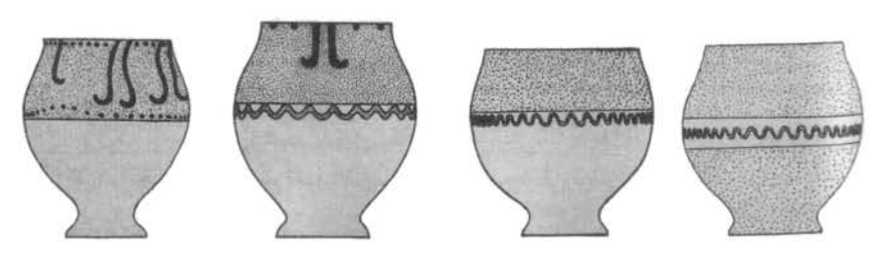
لكن هذه المعطيات تدفع مجتمعة إلى الاعتقاد بأن قدامى البربر كانوا من وراء حفظهم لتلك البقايا الجسمانية، الهشة العطوبة، ومن وراء حرصهم على مد الجسم بالزاد المادي والسحري الضروري لبقائه، إنما كانوا يؤمنون بأن جزءاً روحانياً؛ وليكن الروح، أو نفث الحياة يستقلّ سفينة رمزية، أو ينطلق كالطائر في السماء، أو يمتطي فرساً تمرق به في السهل، ليلتحق بالآلهة في العالم الآخر.

تعارضات المسيحية الإفريقية

لقد أمكن بمجيء المسيحية لبعض الميول في الروح البربرية أن تترسخ بأشد قوة مما كانت تتيح لها المعتقدات الموروثة عن الأسلاف؛ فهي معتقدات لم تكن تخلصت بعد كلياً من الممارسات السحرية الأصلية. كما وأن عقيدة التوحيد الكامنة، والتي كانت قد بدأت تسفر عنها حينها القُدرة الكلية للإله ساتورن الإفريقي قد ساعدت من دون أي شك على انتشار الدين الجديد.

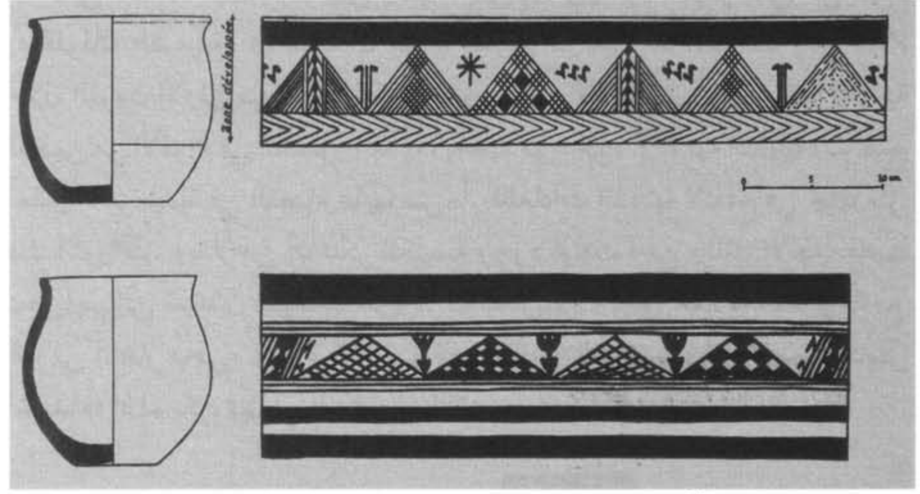
تقديس الشهداء

لكن الحاجة كانت ماسة إلى وسطاء يقومون بين الإله القادر على كل شيء ومخلوقاته الضعيفة، ولاسيما أن طبيعة المسيح لم تكن قد اتضحت بكل جلاء خلال القرون الأولى من ظهور الكنيسة. وقد عمَر الإفريقيون عالمهم، كما الغالبية العظمى من الأقوام في العصور القديمة، بحشد من الجن، أو الآلهة الثانوية، لم تفلح العقَدية التوحيدية في القضاء عليها سريعاً. فالعادات الذهنية لاتفلح في جبّها مثل تلك الثورات. وبدلاً من أن تنكر الكنيسة وجود أولئك الجن وتلك الآلهة، قامت بتحويلهم إلى شياطين وكيانات شريرة. ثم لمحاربتهم وتأمين العلاقة الضرورية مع الله، في انتظار مجيء الروح القدس، ظهر تقديس القديسين، أو بالأصح تقديس الشهداء؛ إذ لم يكن يميَّز في البداية بين الاثنين.



99. آنية مزوقة من جنوات قسطل (منطقة تبسة، الجزائر).

كانت الكنيسة الإفريقية زاخرة بالشهداء. وأقدم من نعرف منهم الشهداء السكيليون scillitains الذين أعدِموا سنة 180، تحت حكم كومودوس Commode. وهم ينحدرون من مدينة صغيرة من إقليم قرطاج، تسمى سكيلي Scilli، أو سكيليوم Scillium، لا نعرف لها موقعاً*. وقد كانوا اثني عشر؛ بينهم خمس نساء، اقتيدوا إلى قرطاج وقطعت رؤوسهم. ويبدو أن ذلك العصر عرف شهداء آخرين ينحدرون من مداوروش، فقد عرّفنا القديس أغسطينوس بأسمائهم الإفريقية والبونيقية. وإن في الحميّة التي تميز البربر والعناد المشتهر به هذا القوم عندما يتعلق الأمر بعظائم الأمور لّما يفسر كثرة شهداء الكنيسة الإفريقية، وفيهما تفسير كذلك للشدة التي كانت من الولاة الرومان، الحريصين على حفظ النظام في المقاطعات المعروفة بكثرة التمردات. وتعتبر **آلام بيربيتو وفيليسيتي*** المصوّرة لعذابات هاتين الشهيدتين ورفاقهما، وهم الذين قضوا جميعاً سنة 203، خلال الاضطهاد الذي كان من سيبتيموس سيڤيروس من أقدم الروايات وأجملها في تاريخ الشهداء اللاتين. وقد جاء النص المدّون لهذه الآلام في صورة بدائية، يبدو فيها تأثره بالمونتانية*، وجاء في حيوية أسلوب، وفي بساطة شديدة، بما لا يدع من سبيل للتشكيك في صحته. وقد جاء قسم من هذه



100. آنية مرسومة من بازينة في تيديس (منطقة قسطنطينة، الجزائر).

*- بعض الآراء تذهب إلى جعل موقعها بالقرب من مدينة سبيطلة في تونس.

*- *La Passion de Perpétue et de Félicité*

*- Montanisme، وهو مذهب في المسيحية أسسه مونتانوس Montanus في القرن الثاني الميلادي، ويقوم على دعوة المسيحيين إلى الزهد في متاع الدنيا والاستعداد للآخرة.

الرواية على هيأة سيرة ذاتية؛ فهو يصور بيربيتو Perpétue، امرأة في مقتبل العمر من مدينة ثوبوربو مينوس Thuburbo Minus*، تتعرض للاعتقال وقت أن تكون ترضع طفلها. ويحكي هذا القسم رؤاها للجنة، والتي تبدو لنا كأنها تعاليق على مشاهد مرسومة في سراديب الأموات. وجاء هذا النص تعبيراً ساذجاً، لكن قوياً عن ذلك «التعطش إلى الشهادة»، الذي ربما كانت إفريقيا تعبر عنه من العمق والحمية في تلك الأرواح المتطلِّبة أكثر من أي مقاطعة أخرى. كما وسلِّم ساتوروس Saturus وجارية أخرى تسمى فيليسيتي Félicité، واثنان من مريدي التنصر إلى الوحوش بموازاة لتسليم بيربيتو إليها، في المسرح الدائري لقرطاج، وقام مصارع فأجهز عليها، وكانت في سن الثانية والعشرين.

وكان الشهداء الإفريقيون من جميع شرائح المجتمع. فهذه بيربيتو، وهذا سيبريانوس Syprien، أسقف قرطاج، كانا من الطبقة الأرستقراطية، وهذا تيباسيوس دي تيجافا Typasius de Tigava كان من قبلُ جندياً، وهذا مارسيلوس Marcellus، الذي حُكم عليه بالإعدام في طنجة زمن الولاية الرُّباعية*، قد كان من قواد المئة، وهذا ماكسيميليانوس Maximillianus كان مجنداً من تبسة، وهذه فيليسيتى كانت من الرقيق، وهؤلاء شهداء مداوروش كانوا جوالين يحملون أسماء بونيقية أو بربرية. وأما مارسيين Marcienne من قيصرية، وسالسة Salsa من تيبازا فقد كانتا من البورجوازية البلدية. والواقع أن المسيحية الإفريقية لم تقتصر منذ البداية على عرق غالب ذي ثقافة إغريقية لاتينية، ولا هي انحصرت في طبقة اجتماعية مخصوصة.

وكان تقديس الشهداء ممارسة شعبية واسعة الانتشار في معظم أنحاء إفريقيا. فقد كان وضع رفات القديسين الموقرين في الكنائس ممارسة جارية، حتى في الكنائس البسيطة في البوادي القصية. وقد تجد في بعض الأحيان إناء فخارياً بسيطاً مثبت الغطاء بالجبص، قد احتوى على رفات قديس، يكون فوق ذلك غير معروف، وقد حُفر على الإناء اسمه بمسمار.

كانت لهذه الآنية الرفاتية ممهدات وسوابق في الفخاريات المقابرية التي وُجدت داخل البازينات خلال الحقبة النوميدية. ولقد رأينا أن في تيديس كانت الرفات

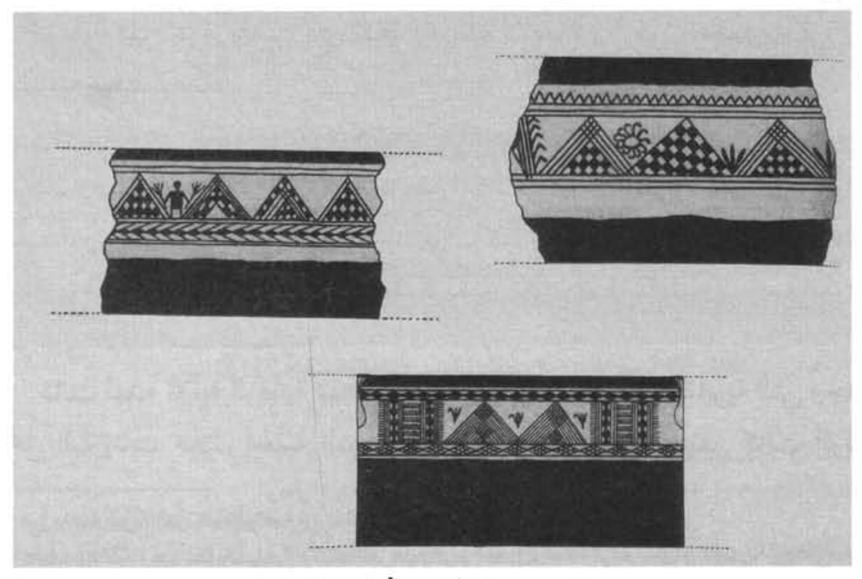
*- هي مدينة طُبرْبَة التونسية الواقعة في الشمال، على بعد 35 كم غرب مدينة تونس.

*- Tetrarchie، وهي نظام سياسي وضعه ديوكليتيانوس Dioclétien أواخر القرن الثالث الميلادي، وكان يقوم فيه أربعة حكام على إدارة الإمبراطورية الرومانية.

الحقيقية توضع بوقار في آنية قد شُكلت ورُسمت تخصيصاً لهذا الغرض. وبذلك يلتقي تقديس الشهداء بتقديس الأسلاف.

وكانت هنالك ممارسة أخرى [لدى قدامى الإفريقيين] لم تزُل كلياً عن إفريقيا المسلمة إلى اليوم؛ نريد بها الولائم المقابرية. وليس يندر إلى اليوم أن ترى النساء يتناولن بعض الأطعمة، خاصة البيض؛ فهو طعام يحمل من الأمل والوعد بالبعث فوق قبر شخص عزيز أو موقر. وقد كانت هذه عادة شديدة الرسوخ في إفريقيا المسيحية، بحيث كانت فيها، أكثر مما في غيرها من الأماكن، سبباً إلى ظهور نوع خاص من المعمار المقابري؛ ذلك هو القبر ثلاثي الأسِرَّة. ففي جوانب ثلاثة من حول التابوت الحجري تُقام دكة يُجعل سطحها في مثل انحناء المقاعد، ويُتخذ غطاء التابوت مائدة (*mensa*)، وقد تجد في بعضها أحياناً كما في تيبازا، كتابة نقوشية تدعو إلى هذا الاتحاد بين الميت والأحياء.

وكان الحرص الشديد من المسيحية الإفريقية، وإن لم يكن مقصوراً عليها، على التقرب إلى الأموات من القديسين والشهداء أشدِّهم توقيراً، دافعاً لها إلى دفن موتاها في أرضيات الكنائس، ثم إلى إنشاء مقابر كبيرة؛ فهي ترصف فيها توابيتها الحجرية أحياناً بعضاً فوق بعض في طبقات عديدة، فأنت تراها كأنما تتأهب للإطباق على تلك الكنائس. ومن نماذج مقابر القديسين *ad sanctos* البديعة هذه، بإطارها البديع، نذكر المقبرة البحرية في كنيسة القديسة سالسة، شهيدة تيبازا الموريتانية.



101. رسوم على آنية من أسلوب تيديس.

الدوناتية، أبرز مثال للانشقاقات

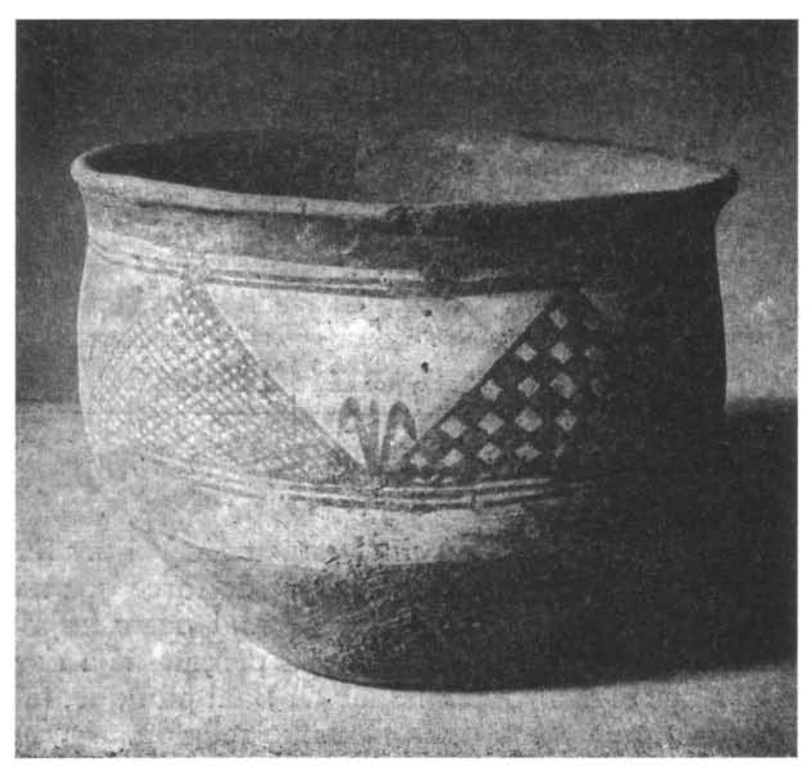
إن من شأن السكينة التي تطبع المقابر الإفريقية والمهابة التي تبعثها أطلالها البائسة أن تقدما لنا صورة مغلوطة عن المسيحية الإفريقية. فهذه المسيحية لم يكن لها بسبب صرامتها، وخاصة بسبب مزاج البربر الذين تحولوا إلى الدين الجديد أن تظهر بالمظهر الملائكي أو المظهر الرحيم، بل الفردوسي، الذي كان يطيب لمدرسة السلبيسية Sulpicienne أن تجعله لبدايات الكنيسة في إفريقيا. فقد كانت المسيحية التي اعتنقها البربر في مبتدئها مطبوعة بالتشدد، وكان مسيحيو إفريقيا بحكم تعطشهم للمطلق يبدون مولعين بالمنازعات، ومطبوعين بالعنف والتعصب، ليس مع الوثنيين وحدهم، بل ومع أبناء جلدتهم أيضاً، وكانت الأسبابَ في الانشقاقات العديدة التي مزقت الجماعات الإفريقية من قبل حتى أن تنتهي عمليات الاضطهاد، وطالت بها في الواقع إلى مجيء الغزو الإسلامي.

لقد عرفت إفريقيا معظم حركات الابتداع التي ظهرت في صلب الكنيسة المبكرة. وكان للمونتانيين Montanistes، والبيلاجيين Pélagiens، والمانويين Manichéens والأريان Ariens مجموعات تتبعهم في المقاطعات الإفريقية. ويعود السبب في كثرة هذه التنوعات إلى شتى أنواع الشك والغموض التي بقيت تحف بطبيعة المسيح. فبعضٌ لا يعتد بغير طبيعته الإلهية (المونوفيزية*)، وبعضٌ يميل إلى الجمع بين الأب والابن في شخص واحد (السابليانية Sabellianisne)، وأما الأريان، وهم الأكثر تطرفاً، فيبالغون في الرد على الفريقين الأولين، ويذهبون إلى حد القول باختلاف المسيح كلياً عن الأب، الذي هو وحده الإله، لأنه «لم يولد».

غير أن الكنيسة الإفريقية لم تخلق، بعكس كنيسة المشرق، من بدع، بل ساهمت في تثبيت العقيدة بفضل أولئك الأساتذة الكبار؛ وهم تيرتوليانوس، وسيبريانوس وأغسطينوس. ومن أسف أن الكنيسة الإفريقية كانت هي المجال المفضل للانفصال والانشقاق. وما كانت تلك التمزقات شبه الدائمة فيها تنتج عن النزاعات اللاهوتية أو تنتج عن الخوض في حياة المسيح، بقدر ما كانت نتيجة لأمور بشرية خسيسة. وتعتبر الدوناتية أكثر تلك الانشقاقات بروزاً، كما تعتبر أخطرها وأطولها عمراً؛ فهي حركة انشقاقية ظلت تقسم مسيحيّي إفريقيا لثلاثة قرون ونصف من الزمن.

---

*- Monophysisme، أي أن المسيح واحد، وأنه من طبيعة إلهية لابشرية.



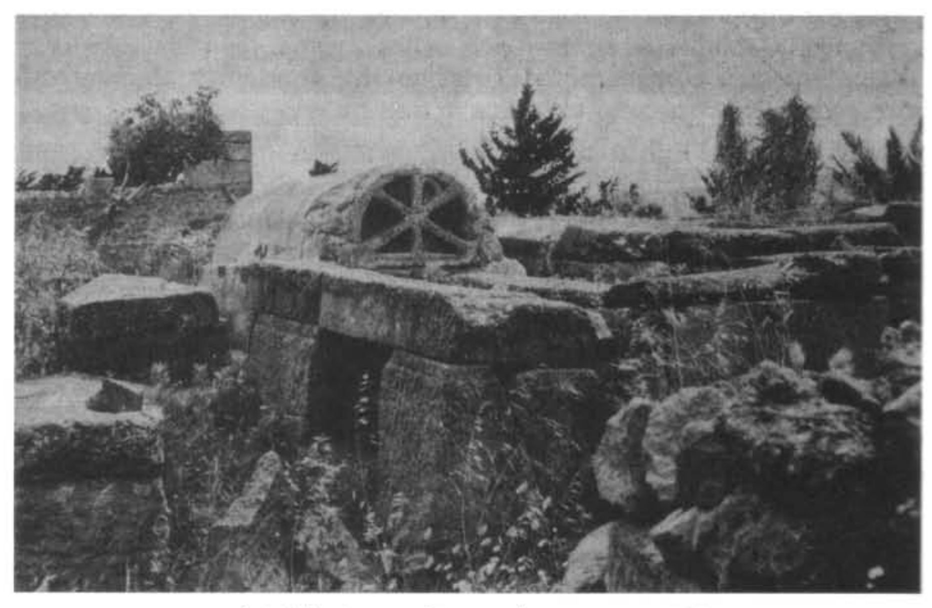
102. إناء مزوق من بازينة في تيديس (منطقة قسطنطينة، الجزائر).

يعود الأصل (305) في هذا الانشقاق إلى التشدد الذي كان من بعض أساقفة نوميديا، ورفضهم الاعتراف بالانتخاب الذي تم في غيابهم لسيسيليانوس Cécilien أسقفاً لقرطاج وكبيراً لأساقفة إفريقيا، إذ كان بين منتخبيه - حسب قولهم- بعض المسلِّمين *Traditores*، وهم الذين امتنعوا من الاستشهاد خلال الاضطهاد الأخير وسلموا **الكتاب المقدس** إلى ولاة الإمبراطورية. وعليه فقد قام أولئك «الخلَّص» الذين سموا أنفسهم «أبناء الشهداء»، بانتخاب أسقف آخر بدلاً عن سيسيليانوس هو ماجوريانوس Majorien، ثم خلفه بعد وفاته دوناتوس Donat (313). ومع ذلك فقد اعترف الإمبراطور قسطنطين Constantin، واعترفت مجامع كنسية عديدة خاصة مجمع أرلس Arles في سنة 314، بسيسيليانوس كبيراً للأساقفة، وأدانت الانشقاق الدوناتي. ولكن لم يضعف ذلك الانشقاق، بل صار يزداد قوة ورسوخاً في سائر المقاطعات، خاصة في نوميديا وموريتانيا القيصرية. فالدوناتيون اعتبروا التكريسات التي قام بها المسلِّمون ومن جاءوا بعدهم لاغية وباطلة. ولقد كان أمراً في غاية الخطورة، ولاسيما أن سيسيليانوس لم يخطئ، ولا أخطأ منتخبوه (بل اختلق

لهم الدوناتيون أكاذيب للنيل من مصداقيتهم)، وأن تقييد قيمة التكريس بجدارة رجل الدين الذي يقوم به فيه تنسيبٌ لعمل المسيح نفسه؛ فهو وحده الذي يصدر عنه التكريس. وكان الجدال الذي قام على الدوناتيين مناسبة للقديس أغسطينوس ليعلن أن قيمة التكريسات مستقلة عن شخص رجل الدين الذي يمنحها، ولا يزال هذا مبدأً راسخاً في الكنيسة الكاثوليكية.

وما أسرع ما انتقل النزاع من الصعيد اللاهوتي إلى الصعيد السياسي، وحتى إلى الصعيد الاجتماعي. وقد شكل تدخل الإمبراطور قسطنطين، وخلفائه من بعده، إلى جانب الكاثوليك أول تجلٍ للحكم المطلق الذي أخضع الكنيسة للمشيئة الإمبراطورية وقيّدها بالضرورات السياسية. ولم يكن للدوناتيين، الأصوليين - بتعبيرنا اليوم - أن يقبلوا بمثل هذا التدخل الدنيوي [في شؤون الدين]، كما وأن تشددهم العقائدي لم يكن ليتراجع أمام مخاطر أخرى. فما كانت الدوناتية مجرد حركة دينة.

وربما كان المؤرخون المعاصرون يميلون إلى المبالغة في الحديث عن الطابع الاجتماعي والسياسي للدوناتية، إذ رأوا فيها تجلياً لـ «مقاومة» البربر للهيمنة الرومانية ولكن من الواضح أن الدوناتية كان لها دور أساسي في تفكك المجتمع الروماني الإفريقي.



103. قبور من مقبرة القديسة سالسة في تيبازا (الجزائر).

كانت الدوناتية، التي نشأت في إفريقيا، بشعبيتها التي فاقت شعبية الكنيسة الرسمية، وشدة قربها إلى الطبقات أشدّها دونية ووضاعة، وتجذرها المكين في المقاطعات أقلّها تروماً، تبدو أكثر إفريقية من كنيسة قرطاج المدعومة من روما. والدوناتية أخذت عن الإفريقي، البربري، العناد والإيمان المتشدّد، والولاء المطلق لرجل أو حزب، وأخذت عنه كذلك روح الانفصال التي كانت من وراء استشراء تلك الانشقاقات. ولم يكن للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الإمبراطورية المتأخرة إلا أن تسهم بوجه أو بآخر في اتساع نطاق الدوناتية. ولذلك فابتداء من منتصف القرن الرابع تحالفت الدوناتية رسمياً مع حركة احتجاج اجتماعي وتمرد تُعرف باسم «الدوارين» *Circoncellions*. ولطالما أثير السؤال بشأن هؤلاء «الدوارين حول مخازن الحبوب»؛ وكان هذا اللفظ يدل من الناحية القانونية، في البداية على الأقل، على فئة اجتماعية، هي فئة العمال الزارعيين الذين يؤجَّرون في مواسم الحصاد أو قطاف العنب، وقد كان في القرنين الثاني والثالث الميلاديين نشاطاً مجزياً، مكَّن لبعضهم أن يمتلكوا أراضي ويصيروا في شيخوختهم ملاكاً يحظون بالاحترام؛ ومن أمثلتهم ذلك الحصَّاد من مكثر، وقد ترك لنا نصاً نقوشياً طويلاً ذائع الصيت، يحكي فيه عن حياته التي صرفها في العمل الشاق، إلى أن تُوجت بالنجاح. ولكن في مقابل الواحد من هؤلاء العمال، الذي كان يتحقق له امتلاك الأرض، وقد ربما تحقق له شرف الوضع أيضاً، كمثل صاحبنا المكثري، كم هم أولئك من رفاقة الذين كانوا يهلكون من الإرهاق من غير أن يصيبوا نجاحاً اجتماعياً مهما يكن زهيداً؟

ومن هؤلاء الدوارين كان يُجنَّد المدافعون عن القضية الدوناتية أشدُّهم تعصباً. فقد جمع هؤلاء «الرافضون» (المناضلون) الاحتجاج الاجتماعي إلى الجدل الديني. فكانوا يمشون جذلين، مطلقين حناجرهم بصيحات «*Deo Laudes*»، ويزيدون إليها ضربات من دبابيسهم، يريدون بها تقويم الأخطاء. ثم يجعلون باسم **الإنجيل*** ينهبون حقول الأسياد *domini*، ويحرضون العبيد على التمرد، ويلقون بالملّاك في السراديب، وقد يلقونهم في الآبار. ولا سبيل إلى التقليل من المعنى العميق لهذا الاقتران الذي انعقد بين الحمية الدينية والاحتجاج الاجتماعي لأول مرة في إفريقيا وأدى إلى إطلاق النضال المنظم على النظام الروماني.

---

* - *Evangile*

لقد أدت الحركة الاجتماعية والدينية بصورة طبيعية إلى العمل السياسي. فقد اعتمد بعض رؤساء البربر، أمثال جيلدون، وفيرموس، على الدوناتية وعلى الدوارين في مسعاهم إلى بسط سيطرتهم على إفريقيا.



104. حوض التعميد في كنيسة ڤيتاليس في سبيطلة (تونس).

بل إن الكنيسة الدوناتية كانت تقدس الشهداء، شهداءها، بأكثر حتى مما تفعل الكنيسة الرسمية. وما أكثر أولئك «القديسين» الذين كانوا يُقبلون على الانتحار الجماعي. وكذلك كان المتمردون يلقون القتل بسيوف الجنود، الذين يستدعيهم الأساقفة الدوناتيون أنفسهم أحياناً وقد ضاقوا ذرعاً بتجاوزات الدوارين فيعلنهم المؤمنون شهداء. ثم يُدفَنون كما يُدفن القديسون داخل الكنائس، وإن يكن هذا الأمر قد صدر فيه منع من أحد المجامع الدينية الدوناتية. وكثيرة هي الكتابات النقوشية من اللهجات الدوناتية التي تحفل بها البلدات، وكلها تمجيد لهؤلاء القديسين المجهولين.

لقد اتضحت شخصية الكنيسة الإفريقية خاصة من خلال مقاومتها لعمليات الاضطهاد، ومحاربتها لصنوف البدع والانقسامات، وكانت لها من خلال ذلك كله مساهمة فعالة، أكثر من أي كنيسة غربية أخرى، في تثبيت العقيدة الكاثوليكية والترسيخ لها. وقد أمكن لإفريقيا أن تنهض بهذا الدور بفضل ثلة من المعلمين نبعوا من أرضها، وتمثلت فيهم صرامة المسيحية الإفريقية، بقدر ما تجسد فيهم عمق عملية الرومنة. وهم يقومون كذلك شهوداً صارخين ومفندين للحكم المسبق العنصري الذي ينكر عن البربر كل مقدرة في المجال التصوري أو الفلسفي.

والأدب المسيحي الإفريقي يتميز ثراء؛ وقد كان من كتابه الجذابون، ذوو الأسلوب الأنيق، أمثال مينوسيوس فيليكس (من النصف الأول من القرن الثالث) هو الذي وضع [كتابه] الحواري الدفاعي **أوكتافيوس*** لإقناع الكفار من المثقفين وذلك بالتوسل بقواعد البلاغة الكلاسية وقواعد الفلسفة. وهنالك كاتب آخر من طينة مختلفة؛ ذلك هو أرنوبيوس (240-325) من سيكا SIKKA (الكاف) الخطيب ذائع الصيت، المنقلب في أواخر حياته إلى المسيحية، والذي تصدى بقوة للمعتقدات الوثنية في كتابه **ضد الأمميين*** في سنة 300 أو نحوها)، لكن لم يكن له شأن كبير في مجال اللاهوت. ويبدو أن هذا المتحول المتأخر إلى النصرانية لم يكن على معرفة كبيرة بالعقيدة التي انبرى للدفاع عنها. ونذكر كاتباً آخر كان مجايلاً لأرنوبيوس؛ ذلك هو تلميذه لاكتانس (240- 325)، وهو أغزر إنتاجاً، وقد تحول إلى المسيحية في سنة 300 أو نحوها، وتصدى هو الآخر للشرك بالدحض والتفنيد وإظهار ما فيه من جهل وضلال. واشتهر لاكتانس بكتاباته المذهبية حول العناية الإلهية وعقاب المذنبين (**غضب الله***)، ومن جملتها **موت المضطهدين***، والمؤلفات السبعة الموسومة **القوانين المقدسة*** (سنة 320 أو نحوها) التي استحق بها لقب شيشيرون المسيحي.

*_ *Octavius*
*_ *Advertus nationes*
*_ *De ira Dei*
*_ *Mort des persécuteurs*

وأما العنوان الأصلي لهذا الكتاب فهو *De Mortibus Persecutorum*.

*_ *Institutions divines*

لكن ثلاثة عمالقة هم من هيمنوا على الفكر المسيحي لإفريقيا الرومانية؛ ذلكم هم تيرتوليانوس، وسيبريانوس، وأغسطينوس. فقد ساهم هؤلاء الإفريقيون الثلاثة بشخصياتهم المختلفة في بناء العقيدة [المسيحية]، وهم يعدّون بحق آباء للكنيسة [المسيحية]. فأما أقدمهم فهو تيرتوليانوس، وربما كان أحسن من يمثل، وأحياناً إلى حد الغلو، المزاجَ الإفريقي في حدته، وتعصبه، وتمرده. وُلد ك. سبتيميوس فلوروس Q. Septimius Floreus تيرتوليانوس في قرطاج لأحد قواد المئة في كتيبة الوالي الروماني على إقليم قرطاج بين سنتي 155 و160. وتلقى تعليمه باللغة اليونانية، كما باللغة اللاتينية، وكان يهيء نفسه للاشتغال بالخطابة والمحاماة. ثم كان أن تحول إلى المسيحية في ظروف غير معلومة لدينا، وقد كان منه تحولاً تاماً وكاملاً. وانبرى يدافع عنها بحمية، لكن هذا الدفاع كان، إذا جاز لي التعبير، هجومياً مغالياً، فما أسرع



105. الكنيسة القديمة الأولى في حيدرة (تونس). كانت المدينة تشتمل على خمس منها على الأقل.

ما تتحول مرافعته في الدفاع عن المسيحيين المفترى عليهم إلى قرار اتهامي. وقد كان هجّاء قل نظير له في حدة الهجاء؛ فهو يستعمل السخرية، لكنه يقدم بين يديه في الوقت نفسه الحجج مبنية على المنطق المفحم. فيهاجم اليهود المحرِّضين للحكام والشعب على اضطهاد المسيحيين، ويهزأ بالفلاسفة الذين يجانبون الحكمة، ويسخر من الخطباء الذين يخلطون بين الفصاحة والصدع بالحقيقة. ولم يسلم من ضرباته المسيحيون أنفسهم؛ حتى قيل عنه إن «روحه تلتذّ بالمطلق، ومزاجه يلتذ بالصراع».

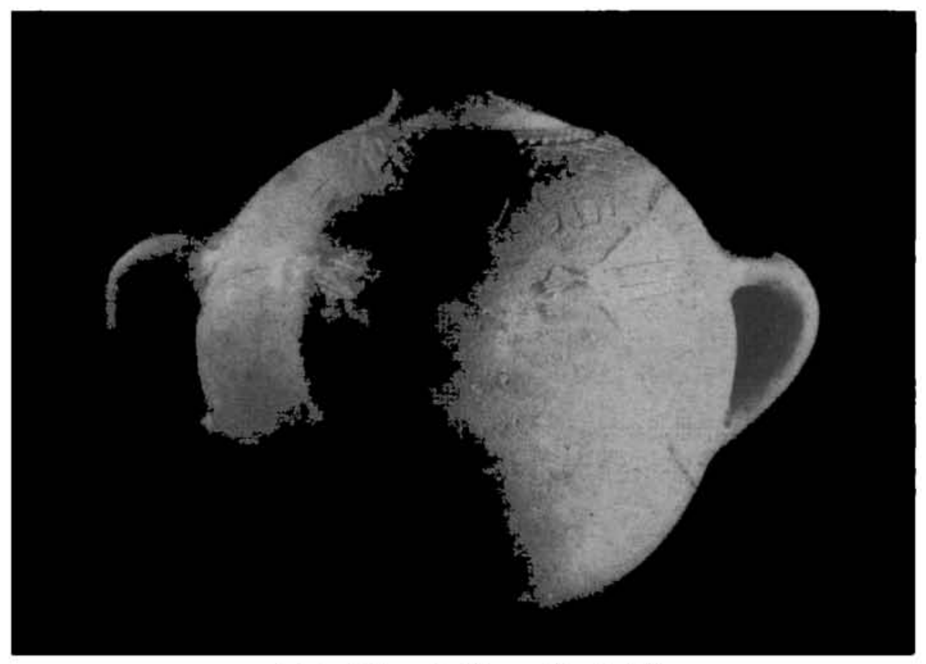
وسيكون من الخطإ ألا نرى في تيرتوليانوس إلا مدافعاً عن العقيدة النصرانية والرجل كان لاهوتياً وراعياً بارزاً. حتى إذا أصبح قسيساً صار يكرس نفسه للرعوية وأظهر تشدداً في النظام وفي الأخلاق؛ فأمر الأبكار من البنات بالحجاب، وتشدد في استنكار تبرج النساء، ومنعهن من ارتياد [أماكن] الألعاب العمومية. وبالغ إلى أقصى الحدود بالقول بمنطق خلاصي ووثوقي بقرب نهاية العالم. ولم يكن يتصور المسيحية إلا نقية ومتشددة. ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد، فقد أوصى المسيحي بالامتناع من الخدمة العسكرية، وحرض الجنود على ترك العلَم الروماني، كما أوصى الجميع بأن يطرحوا عنهم العالم القديم الوثني ويجنِّبوا أنفسهم أسباب التلوث به.



106. الراعي الصالح. لوحة من الرخام من سراديب الأموات في سوسة (تونس).

كان مزاج تيرتوليانوس يتأدى به دوماً إلى الغلو؛ فبعد أن صارع المبتدعة المارسيونيين Marcionistes والبراكسيين Praxéenes، لم يلبث أن انجذب إلى البدعة المونتانية. ولو عاش بعد زمنه بقرنين لكان أصبح دوناتياً، وأما لو كان عاش في القرون الوسطى فقد كان سيصير خوارجياً!

وأقل غلواً من تيرتوليانوس هو سيبريانوس. وهو الآخر قرطاجي، من أصول
رستقراطية، تلقى تعليماً في الخطابة وأصبح محامياً. ثم كان أن انقلب بتأثير من
نقسيس كاسيليانوس Caecilianus إلى المسيحية في سنة 245، وقام بتوزيع معظم
ممتلكاته. وقد كان يحظى بتقدير كبير من رجال الدين ومن سكان قرطاج. ثم سُمي به
ضد رغبته في سنة 248 إلى الكرسي الأسقفي، وسرعان ما أبان عن حنكته في مجال
لإدارة. ونحن نستنتج من كتاباته أن المسيحيين والقسيسين الذين كانوا في إفريقيا
في منتصف القرن الثالث لم يكونوا كلهم قديسين، ولا كانوا قدوات في الفضيلة.
فكان سيبريانوس يذكر الأبكار المكرسات بنذورهم للدين، ويدعوهن إلى التزام
لعفة والاحتشام، ويدعو رجال الدين إلى الخضوع وترك أسباب الثراء الدنيوي.
فقد أدت أربعون سنة من السلام من جانب الكنيسة إلى ارتخاء النظام وانحلال
لأخلاق، فكان سيبريانوس يشتكي بمرارة من هذا الارتخاء. ولذلك فعندما عاد
لاضطهاد ليُعمَل من جديد على عهد ديسيوس Decius (في سنة 250) كان عدد
طالبي الشهادة أقل بكثير من أعداد المرتدين. وحتى إن البعض لم يكن ينتظر أن
يستدعى للشهادة لينقلب جهاراً إلى اتباع آلهة الكابتيول* وإلى عبادة الإمبراطور.



107. إناء رفاتي من فخاريات منطقة قسطنطينة.

* هي جوبيتر وجونون ومنيرفا.

وأما سيبريانوس فلم يسع إلى الشهادة، ثم كان أن توارى في مخبإ قريب دون شك إلى مدينته، واستمر من خلال رسائله يدير أسقفيته. وسرعان ما عرضت له مشكلات كثيرة؛ فكان عليه أن يتصدى للمشكلة العويصة؛ مشكلة المرتدين «*lapsi*»؛ أولئك الذين ضعفوا أثناء الاضطهاد، غير أنهم عادوا يطلبون الصفح. ولاقى سيبريانوس عنتاً كبيراً في تغليب الموقف الخيري؛ فلم يتبعه المتشددون، فكان الانشقاق - الإفريقي الخالص- الذي خرج إليه المجددون، والذي لم يكن يقوم إلا على مسائل تدخل في الانضباط ونزاعات بين الأشخاص. وكان هذا الانشقاق سبباً في دخول سيبريانوس في صراع مفتوح مع البابا إتيان الأول Etienne Ier، فما كانت كنيسة روما وكنيسة إفريقيا تصدران وقتها عن مذهب واحد في صحة التعميد الذي قام به بعض المبتدعة. ولقد بدا الإفريقيون في هذا الأمر كذلك أكثر تشدداً.

ولقد أنشأ القديس سيبريانوس آثاراً عظيمة الأهمية، وأحاط بسائر أنواع الدفاع عن الدين وعن الحياة الرعوية في ما وضع من دراساته وكتاباته العديدة، كما في رسائله البديعة، في لغة ثرة ومتأنقة تُحل هذا الأب بين آباء الكنيسة موقعاً بين مصاف الكتاب العظام.

ثم كان استشهاد سيبريانوس في 14 شتنبر 258 تحت حكم ڤاليريانوس Valerien فتحول به إلى نصر حقيقي، ورافقه جمهور من المؤمنين يقودهم نواب الكهنة، حتى المكان الذي أعدم فيه، ثم حمِل جثمانه في احتفال مهيب إلى قرطاج. وظل على نفوذه وعظيم تأثيره على امتداد القرون اللاحقة، فكُرست له ثلاث كنائس في مدينة قرطاج.

ويعتبر أغسطينوس، أسقف هيبون، بحق، أعظم هؤلاء العمالقة جميعاً. ولقد أمكننا بفضل اعترافاتــه أن نحيط معرفة بمراحل شبابه المضطرب، وفترة تيهه لدى المانويين والأفلاطونيين الجدد، من قبل أن يبدأ في تحوله البطيء نحو المسيحية باتصاله بأمبرواز Ambroise، ثم القرار الأخير الذي استقر إليه في حديقة ميلانو. ولقد صار للقديس أغسطينوس، وقد أصبح أسقفاً، تأثير كبير على الكنيسة الإفريقية وعلى الكنيسة في العالم أجمع. وهو يعتبر اللاهوتي الإفريقي الحقيقي الوحيد والأكبر والأعظم تأثيراً! فلقد تأدى من مصارعته للدوناتيين إلى إعلان ثبات الأسرار المسيحية وعدم قابليتها للتغير، بما يخالف التقاليد الإفريقية. وكذلك كانت مصارعته للبيلاجيين مناسبة له ليحدد بدقة كبيرة أهمية النعمة، التي بدونها لا يقدر الإنسان

على شيء. وفي مصارعته للأريوسيين مكّن لمذهبه القائم في التثليث. ولئن كانت أعماله اللاهوتية عظيمة، فإن أعماله التي وضعها في الرعوية والدفاع عن الدين لم تكن تقل عنها عظمة. ولقد أحاط في دراساته وفي خطبه (وقد حفظت لنا الرواية منها المئات!)، وفي رسائله وفي **مناجاته*** بمشكلات الحياة الدينية والحياة العملية. فلقد كان هذا الأسقف رجلاً متوقد النشاط، وكانت السلطة التي تحققت له هي الممهد للقوة التي ستصير للأساقفة في العصور الوسطى. وعلى الرغم من استغراق القديس أغسطينوس في الحياة العملية والإدارية في زمن كثرت فيه المخاطر، فإنه يبقى في أعماق روحه متأملاً عظيماً في شؤون الدين. وقد كان في ذهنه أول الأمر أن يكتب مستذكراً الأيام السعيدة التي أمضاها مع أصدقائه وإلى جوار والدته مونيك Monique في كاسيسياكوم Cassiciacum، فإذا به يستغرقه الوقت ليكتب قاعدة وبذلك أسس أول رهبانية إفريقية.

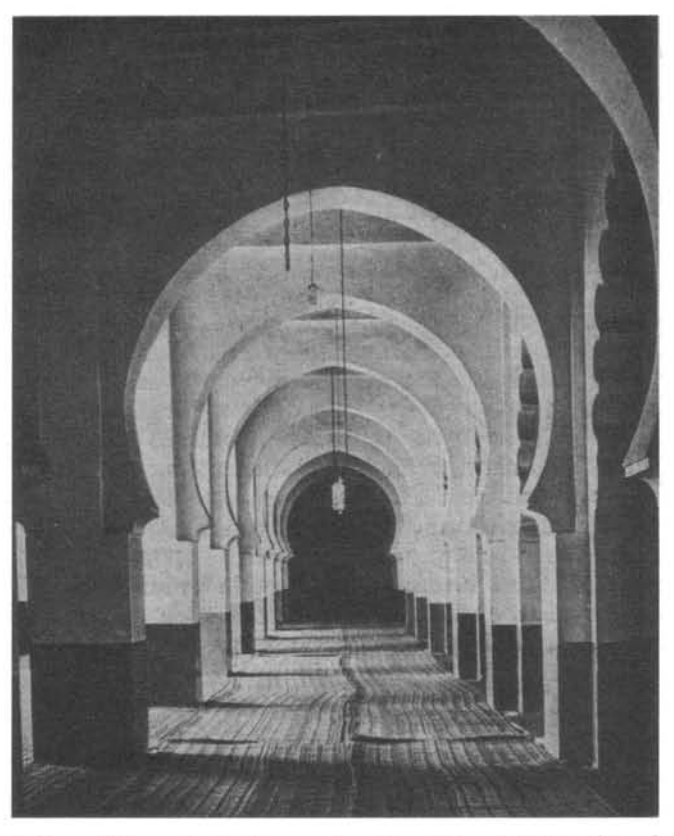
ويبقى أغسطينوس، أبو الكنيسة وأحد قادة الفكر المسيحي في الغرب المؤلف الخالد، صاحب **مدينة الله** التي كانت حلم المسيحية في العصور الوسطى **والاعترافات** المؤثرة، التي صارت لها بدفئها الإنساني قيمة عالية.

---

* - *Soliloques*

بلاد البربر المسلمة
وحدانية الله وانقسام الأناسي

انقلب البربر بأعداد غفيرة إلى الإسلام، على الرغم من الرِّدات الكثيرة التي يصِمهم بها المؤلفون العرب. ولقد رأينا الظروف التاريخية التي وقع فيها ذلك لانقلاب السريع من الإفريقيين إلى المسيحية. وسنسعى الآن في فهم كيف كان عتناق البربر للإسلام.



108. أحد الأروقة الجانبية من الجامع الكبير في مدينة الجزائر العاصمة (العصر المرابطي).

لقد عانت المسيحية الإفريقية كثيراً من الانشقاقات العديدة التي كانت تنشأ بين الفينة والأخرى بسبب مسائل نظامية، أكثر مما تنشأ بسبب استشكالات عقائدية. وكانت المانوية هي البدعة الوحيدة التي لاقت بعض النجاح في إفريقيا؛ وقد كانت بعيدة عن العَقدية، ما جعلها تظهر بمظهر الديانة الجديدة. وأما التفصيلات الدقيقة في دراسة الديانة المسيحية التي كانت من وراء ظهور بدع كثيرة في المشرق، فلايبدو أنها لقيت اهتماماً كبيراً من البربر. فقد كانت الجماهير تعتبر شهادة أن الله واحد وقادر، وغفور رحيم، هي أساس الإيمان، وأما ما عداها فمسائل تخص رجال الدين. والحال أن الإسلام كان يُقدَّم في بساطته اللاهوتية، باعتباره خاتمة للمسار الروحي الطويل الذي سارت فيه البشرية، انتهاء إلى الوحدانية المطلقة. فقد جاء محمد ليتم الوحي، غير منكر للأنبياء السابقين عليه، أو منكر للمسيح. وجاء بالرسالة الخاتمة التي ليس بعدها جدال؛ والقائمة على مبدإ أن «لا إله إلا الله».

إنها حقيقة تقترب من البداهة، ولكنها تأخذ بمجامع النفوس الأقل انفتاحاً على الأمور الميتافيزيقية، وتغلق الباب أمام أي تأويل. فإعلان الانتساب إلى العقيدة الإسلامية (الشهادة) يتم بوضوح ومن غير لبس : «أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

لقد كانت البساطة المميزة للعقيدة الإسلامية مما يناسب البربر كثيراً. وكان للإسلام ميزة أخرى تتصل ببساطته اللاهوتية؛ نريد انعدام رجال للدين بالمعنى الحقيقي فيه؛ فلا نرى لهم دوراً يمكن أن يضطلعوا به؛ ما دام ليس في الإسلام أسرار يُخص بها البعض، وأن تعاليمه قُدِّمت من الناحية المبدئية دفعة واحدة في القرآن، الذي أوحيَ به ولم يُكتب. ثم جاء النظام الذي كرسته العقدية السنية منذ القرن الأول للإسلام، فحدد عدداً من الفرائض المتمثلة في الصلوات الخمس اليومية، مسبوقة بالوضوء وصوم شهر رمضان، والزكاة الشرعية والحج إلى مكة. فلقد رُسمت السبيل؛ فمن يطع الله (الإسلام) ويتبعْ تعاليمه التي أُنزلت على محمد يفزْ بالجنة.

وعلى خلاف اللبس الذي يشوب المسيحية، من حيث قيامها على مسألة الثالوث؛ المتمثل في إدخال ثلاثة أشخاص في إله واحد؛ في المسيح الذي يُجعَل إلهاً وإنساناً يقوم مقام جوهر الأب، والذي ولِدَ ولم يُخلق، تحقق للإسلام النفاذ

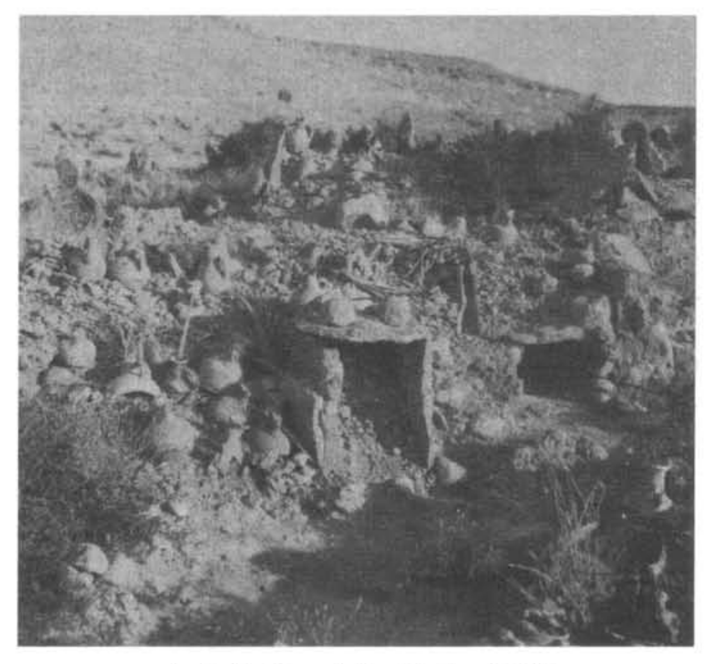
ببساطته اللاهوتية إلى نفوس البربر. لكن من سوء الحظ أن الأناسي لا يعدمون على الدوام أسباب التنازع؛ ولم تكن وحدانية الإسلام نفسها لتحصّنهم من التنازع والتشرذم.

البدعة البربرية عند برغواطة

قلما يتيح الإسلام المجال لظهور البدع؛ بسبب البساطة التي تطبع العقيدة نفسَها.

والحقيقة أنه لم تظهر في إفريقيا ولدى البربر غير بدعة وحيدة، ولا تزال غير معروفة من جميع الوجوه؛ إنها البدعة التي جاء بها برغواطة في المغرب الأطلنتي.

لقد استمد برغواطة مذهبهم رأساً من الحركة الخوارجية، التي مزقت الإسلام المغاربي في القرن الثامن. وكان برغواطة شاركوا في الحملات العسكرية التي شنها ميسرة السّقاء على ولاة الأمويين في المغرب الأقصى، ثم صاروا بعدها يتّبعون المدعو صالحاً، الذي جمع في شخصه النبوة إلى القيادة العسكرية. فقد قرر صالحٌ أن يأتي بدين جديد يكون بمثابة إسلام خاص بالبربر. غير أننا لا نعرف هل كانت القواعد



109. قبور قديمة في مقبرة بني يزقن (مزاب).

الأساسية لهذا الدين من اختلاقه، أو - وهو الأرجح في ما يبدو - من اختلاق حفيده يونس. وعلى الرغم من أن تلك التعاليم لم تتأتَّ معرفتها جيداً، فإن ما يُعرَف منها أنها كانت تبتعد بشكل واضح عن الإسلام الأصيل. فقد أفادنا البكري* أن برغواطة استعاضوا في صلواتهم عن اسم الله باسم «ياكش»*، والذي يبدو أنه الاسم الذي كان البربر يجعلونه لِلَّهِ، وربما كان معناه «المعطي». وكان برغواطة يأخذون كذلك بمحرمات لا تمت بصلة إلى الإسلام الأصيل، بل هي مستوحاة بكل تأكيد من المعتقدات البربرية القديمة؛ فكانوا يجعلون صلواتهم على خلاف الصلوات الإسلامية الصحيحة. لكن تلك البدعة كانت تقوم على منكر أعظم؛ يتمثل في ذلك القرآن الجديد الذي جاء به صالح في لغته [البربرية].

وإذا كنا لا نكاد نحيط بشيء من هذه البدعة*، فلقد كُتِبَ لها مع ذلك أن تعمِّر لا أقل من ثلاثة قرون. فلقد ضيَّق برغواطة الخناق على الوِلاة الأمويين في طنجة وعلى من جاء بعدهم من الأدارسة في فاس. بل استطاعوا أن يقفوا في وجه المد المرابطي، وقتلوا في إحدى المعارك داعيتهم والمؤسس لحركتهم عبد الله بن ياسين (1059). فهذا دعا أبا بكر [بن عمر] إلى أن يأخذهم بالشدة ويُعمل فيهم السيف ليعيدهم إلى الطريق القويم.

حركة الخوارج، انشقاق آخر نموذجي

وعلاوة على هذه البدعة التي بقيت محصورة في المغرب الأقصى، عرف البربر من الانشقاقات المذهبية كمثل ما عرفت الأقوام الأخرى التي دخلت في الإسلام، إلا أنهم، في ما يبدو، قد تمادوا في تلك الانشقاقات وأمعنوا إمعاناً.

فلم يُقيَّض للمذهب الخوارجي في أي موضع آخر من أرض الإسلام من القوة والسلطان كمثل ما تحقق له عند البربر. فقد كان ينسجم إلى أبعد الحدود مع خصائص الروح البربرية؛ لكن منع أن يكون له القبول عند جمهور المؤمنين. لقد كان ذلك

---

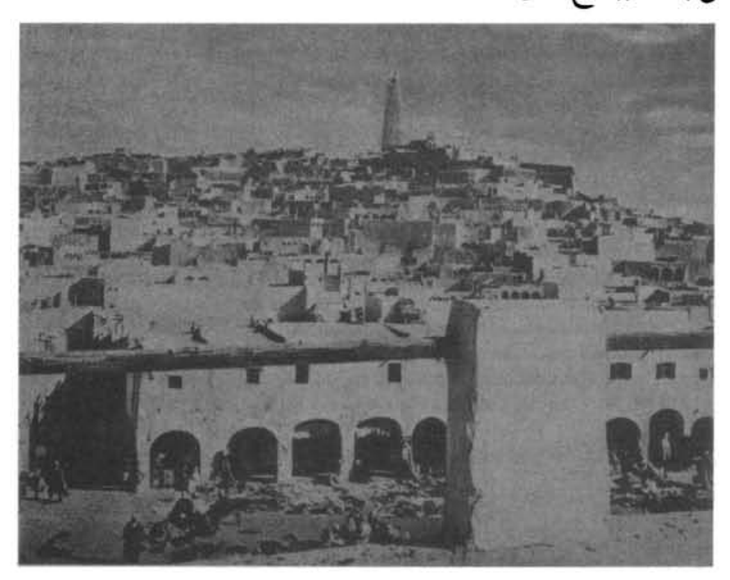
*- كتب البكري: «وهم يسجدون ثلاث سجدات متصلة ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر، وإحرامهم أن يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول: أبسَمَن ياكش، تفسيره بسم الله، مقر ياكش تفسيره الكبير الله (...) ثم يقول مقر ياكش خمساً وعشرين مرة، إيحن ياكش مثل ذلك ومعناه: الواحد الله وردام ياكش مثل ذلك ومعناه: لا أحد مثل الله»، **المسالك والممالك**، م. ذ.، ص. 824.

*- Yakouch هو اسم الله في الأمازيغية.

*- انظر تفاصيلها لدى البكري وصاحب **الروض**، من جملة آخرين.

ندين يضرب بأصوله عميقاً في التنظيم، أو بالأصح اللاتنظيم، الذي تقوم عليه لأمة الإسلامية. فالإسلام قد عانى من غياب القواعد التي كان ينبغي اتباعها في ختيار الخلفاء من بعد الرسول.

فقد وقع الاختيار على الخلفاء الثلاثة الأوائل أبي بكر، وعمر، وعثمان بالاتفاق لعلني، وأما اختيار عليٍّ بن أبي طالب، بعد مقتل عثمان سنة 656، فقد كان مثاراً خلاف وشقاق. وعلى الرغم من أن علياً هو ابنُ عم الرسول وصهره؛ فهو زوج بنته فاطمة، فإن الاختيار لم يقع عليه، واختير بدلاً عنه معاوية، الذي كان عاملاً على الشام (سوريا)، ثم دبر لمقتله. وكان ذلك العزل الذي ناب علياً سبباً في وقوع صراعات طاحنة، ظلت تقطّع أوصال الإسلام قروناً من الزمان، ولا تزال عقابيلها وتبعاتها موصولة إلى اليوم؛ فكل المذاهب التي ابتعدت عن المذهب السني (من شيعة، وإسماعيليين، وإباضيين...) قد كان مبتدؤها من مقتل عليٍّ، ومقتل ولده حسين من بعده ببضع سنين.



110. غرداية، عاصمة مزاب. المنارة المطلة على المدينة الإباضية المقدسة والسوق في الخارج يرمزان بوضوح إلى وظائف هذه المدينة.

ولقد سعى مؤلفون كثرٌ في إيجاد أوجه شبَه بين الحركة الخوارجية والدوناتية. والحقيقة أننا نجد مذهب الخوارج يشتمل على المعطيات الأساسية نفسها التي كانت من وراء النجاح الذي تحقق للدوناتية عند قدامى الإفريقيين. فنحن تطالعنا في الحركتين الانشقاقيتين معاً نوازع إلى الفردانية، والانفصالية، وتنظيم للسلطة

ذو صبغة ديمقراطية. وزيادة على ذلك فالخوارج قد رفضوا سلطة الخلفاء الأمويين عليهم وانحاشوا إلى قضية استقلال المغاربيين عن السادة الجدد القادمين إليهم من المشرق. وتلك قضية كان لا يزال لها قوة ونفوذ. غير أن العقيدة الإسلامية كانت قد تجذرت في نفوس البربر، فلم يتبق للخوارج وسائل يؤثرون بها فيهم غير السياسية. فقد أعلن الخوارج منذ البداية احتقارهم للثراء الدنيوي، ودعوا إلى الخشونة، وإلى الصرامة في العقيدة، وهي مبادئ لم يكن لها إلا أن تستولي على قلوب السكان البربر.

وكانت النزعة الخوارجية، كما الدوناتية، عند البربر ديناً شعبياً، يحضر في البوادي والقرى، أكثر مما يحضر في الحواضر والمدن، وقد ينقلب في بعض الأحيان إلى دين ثوري. فقد كان معظم قادة الخوارج من المغامرين ذوي الأصول المتواضعة. ففي القرن الثامن ظهر ميسرة [السقَّاء] في غرب المغرب، وجاء بعده بقرنين أبو يزيد صاحب الحمار، الذي كاد يطيح بالإمبراطورية الفاطمية، وكان ابناً لتاجر من الجريد.

والخوارج يؤكدون أن في الإمكان أن يقع اختيار الجماعة المسلمة على أي شخص مسلمٍ ليكون عليها خليفة؛ متى كان أهلاً للخلافة، ولو كان «عبداً أسود». فلا ينبغي أن يُعتبر في الخليفة الإيمانُ وحده، بل لابد من اعتبار الأفعال والأعمال أيضاً. ولقد وجدت هذه العقيدة الثورية إقبالاً شديداً من البربر، خاصة زناتة في وسط المغرب الكبير.

وهؤلاء الإباضيون، وهم المكونون للفرع الأقوى في حركة الخوارج، قد أقاموا في هذه المنطقة مملكة تاهرت. وكان إمامَ هذه المملكة نبيلٌ من أصل فارسي، يدعى ابن رستم؛ لكن أصله لم يمنعه أن يحيا حياة الخشونة، بل الزهد. وقد كان الإعلان عن تأسيس هذه المملكة جاذباً ومُلَمْلماً للخوارج المتفرقين في أنحاء العالم الإسلامي. ولكم كانت عظيمةً دهشة مبعوثي تلك الجماعة العراقية حين وصلوا إلى تاهرت فوجدوا ابن رستم يشتغل بنفسه لسد الشقوق في سقف بيته بالملاط! ثم قدم لهم الخبز والزبدة الذائبة، في حجرة لم يكن بها من أثاث غير حشيته التي عليها ينام.

لقد قامت المملكة الرستمية على التزمت وعلى نوع من الديمقراطية، الظاهرية أكثر مما هي حقيقية. لكن ذلك التزمت لم يكن يصحبه، لدى الإباضيين على الأقل من تعصب تجاه غير المسلمين. فقد بقي قسم لا يُستهان به من ساكنة تاهرت يدين بالمسيحية، وظل على وفائه للإباضيين. ثم تبعهم إلى منفاهم في الصحراء.

ومكنت للإباضيين صرامتُهم العقائدية، ووفرة من الكتابات الدينية والإيمان المكين بالحركة الخوارجية سبيلَ البقاء بعد التقويض الذي وقع لمملكتهم في وسط المغرب الكبير بأيدي الفاطميين. ثم التجأوا إلى الصحراء، فأقاموا في سدراتة ومزاب. وبقيت منهم جماعات أخرى في المناطق شبه الصحراوية، في كل من ورقلة في الجزائر، وجربة في تونس، وجبل نفوسة في طرابلس الغرب.

لكن الانشقاق الخوارجي نفسه لم يلبث أن ابتُليَ، على غرار الدوناتية، المشترك فرعه البربري وإياها في طبيعة واحدة، بانقسامات وتمزقات دامية. فالإباضيون وجدوا مدافعة من الصفرية، وقد كانوا يفوقونهم ثورية ويزيدون عليهم تشدداً. بل قام كذلك إباضيو جبل نفوسة يحاربون قبيلة ورفجومة الصفرية في الجنوب التونسي بعد أن استولت على القيروان وارتكبت فيها من العسف الفادح والمذابح الشنيعة. وأسست مكناسة، وهي قبيلة زناتية من الصفرية، في سنة 757 مملكة سجلماسة في أطراف الصحراء، فتحكمت بها في الواحات وطرق القوافل المتوجهة إلى السودان. وقد كان للشعب في هذه المملكة الترِّبية والتجارية أن يقوم بصفة شرعية بخلع الإمام، وكثيراً ما قام الشعب في ما يبدو باستعمال هذا الحق.

وقامت فرقة أخرى من فرق الخوارج، هي «النّكارية»؛ فأصابت بعض النجاح في الأوراس. والنكارية مذهب متطرف ينزع نحو العقلانية، فيما المعتزلة كانوا يجردون أميرهم من أي سلطة فعلية.

ولقد كان للحركة الخوارجية تأثير عظيم في الإسلام المغاربي؛ إذ أسهمت في الإسباغ عليه من تلك الخشونة المناسبة للبربر من كل الوجوه، والمتعارضة بشكل لائح مع حياة الترف والبذخ التي أشاعها الإسلام في المشرق كما في الجارة إسبانيا.

أبو عبد الله وولاء كتامة

كان البربر على امتداد العصور الوسطى ينحاشون بسهولة، وأحياناً بحماس إلى كل حركة إصلاحية تأتي لقلب السلطة القائمة. ويبلغ ذلك الحماس لديهم أقصى مبالغه عندما يكون الداعية يدعو إلى الولاء الشخصي. وليس من تفسير للأعمال البطولية التي حققتها كتامة في منطقة القبائل الصغرى؛ هي التي رأيناها تغزو بلدان المغرب ومصر، فتقيم لأحد حفدة عليٍّ الإمبراطوريةَ الفاطمية، غير ذلك الاستعداد المسبق للولاء المطلق يُغدَق على الأشخاص.

وأما الشيعة فلا يرون شرعية لأي واحد من الخلفاء الذين جاءوا من بعد محمد، ووحده عليٌّ وذريته، أبناء فاطمة، من بعده يُعتبرون لديهم القادة الذين يحق لهم أن يرثوا الخلافة على الجماعة الإسلامية.

ولقد لقي الشيعة الاضطهاد، لشتى الأسباب، من الأمويين والعباسيين فتفرقوا وتحولوا إلى حزب سري. وقام بعض المروّجين، وقد كانوا من الدعاة الحقيقيين، بنشر مذهب مواسٍ يبشر بمجيء المهدي، الإمام الغائب، والآخِر في ذرية عليٍّ، ليكون المنقذ الحقيقي للعالم، ويضمن النصر النهائي للمؤمنين الصادقين.

والمذهب الشيعي يعود بأصوله وقواعده إلى المشرق، ومع ذلك ففي المغرب الكبير تحققت له الغلبة والانتصار. وكان الفضل في ذلك الانتصار يعود إلى الشخصية القوية للداعية أبي عبد الله.

كان مبتدأ تلك القصة في مكة سنة 893 أو 894؛ فهنالك تعرف وجهاء من قبيلة صنهاجة إحدى قبائل كتامة على رجل يمني واسع العلم والبيان، كان يبدي ببلدهم كبير الاهتمام. وإن هي إلا أيام قليلة، حتى نحج هذا الرجل، واسمه أبو عبد الله، في إقناع أهل كتامة بتفوق المذهب الشيعي، وجعلهم يوافقون على اصطحابه وإياهم. وكان هذا الداعية خبيراً بشؤون النفس، وماهراً في شؤون التنظيم، فسرعان ما صيَّر إيكجان، تلك القرية في جبال البابور، إلى حصن شيعي منيع. وتجمع كتامة، المفتونون بأبي عبد الله، في جيش شديد تعصب ووفاء لهذا الرجل. حتى إذا تمكن الرجل من القسم الأكبر من المغرب الكبير وإفريقية سلم مقاليد الحكم إلى المهدي عُبيد الله.

غير أن الولاء الشخصي عند كتامة كان أقوى من الإيمان بالمذهب الشيعي وهو أمر نراه جلياً عندما أعلن المهدي، على غير توقع من أبي عبد الله، نفسه حاكماً مطلقاً واستخف بنصائح قائده العسكري، ورفض كل محاولة للدخول تحت وصايته. فالذي يبدو أن أبا عبد الله قد تآمر، بتحريض من شقيقه أبي العباس على المهدي عبيد الله. لكن قتله هذا الأخير (سنة 911). فلم يلبث كتامة أن خرجوا إلى التمرد ولم يترددوا في الإعلان عن مهدي آخر مزعوم. لكنهم لقوا الهزيمة فعادوا إلى الطاعة، ثم أصبحوا الأعمدة للدولة الفاطمية. فقد حاربوا لأجلها في المغرب وإسبانيا، وصقلية، وقاموا لأجلها بغزو مصر.

ابن ياسين، الصوت الواعظ في الصحراء

وهنالك حركة أخرى أبلغ دلالة في هذا الباب، إنها حركة المرابطين. فقد قام هؤلاء اللمتونيون، وهم رحل من صنهاجة الصحراء، يدعون إلى إسلام نقي يعيدون ابتعاثه بطبعه بالخشونة والتشدد، فاحتلوا قسماً كبيراً من المغرب الكبير وإسبانيا. وما كان مؤسس حركة المرابطين، عبد الله بن ياسين، بذي الثقافة الواسعة بقدر الداعية أبي عبد الله، لكنه كان مثله قائداً قوياً. وكان مثله غريباً عن المجموعة التي قادها على طريق الحكم.

فقد كانت تعيش في أغوار الصحراء الغربية في القرن الحادي عشر مجموعتان من الرحل الصنهاجيين، هما لمتونة وكدَّالة، اللتان نجد فيهما بعض المنحدرين من الجيتول، وربما نجدهم باسمهم القديم. ثم نجح رئيسهم والوجهاء الذين رافقوه إلى مكة في أن يأتوا، عند عودتهم، بفقيه من جنوب المغرب. ويبدو أن الرجل لم يكن له من العلم الشيء الكثير، لكنه كان في أعين أولئك اللمتونيين الأجلاف يتمتع بعاملين قد جعلا له عندهما هيبة ومكانة؛ أنه أجنبي ومتعلم. ثم بدأ الرجل يجمع من حوله بعض المخلصين، كما ضم إليه اثنين من رؤساء لمتونة وسبعة من رؤساء كَدالة فكانوا يجتمعون في رباط بإحدى جزر السنغال أو على الساحل الموريتاني. وكان الرجل يحث أتباعه على ازدراء الثراء، ويدعوهم إلى التزام نظام صارم كان يعاقب على كل خطإ بضربات السياط، التي نجد عند البكري تبياناً لعددها حسب أنواع الأخطاء*. وسرعان ما اجتذب النظام الجماعي الذي يقوم عليه الرباط ذوي النفوس البسيطة المتعطشين إلى القداسة. ثم انطلقت بعد ذلك الغزوات العسكرية. وهذا حلم آخر لمتعصبين قد تحول إلى إمبراطورية...

ابن تومرت، مصلح ورجل دولة

لا يزال الإصلاح الموحدي الذي دعا إليه ابن تومرت يبدو هو النموذج الأبرز والأبلغ دلالة [في هذا الباب]. فشخصية الرجل، الذي تسمَّى هو الآخر باسم المهدي، هي الشخصية المعروفة أكثر من غيرها بين هؤلاء المؤسسين لإمبراطوريات. وعلى الرغم من الغموض الذي أحيطت به أصول هذا البربري ليُزعم له أنه شريف

---

*ـ كتب البكري في هذا المعنى: «فيضرب حد الزاني مائة سوط وحد المفتري ثمانين سوطاً وحد الشارب مثلها»، المسالك والممالك، م. ذ، ص. 864.

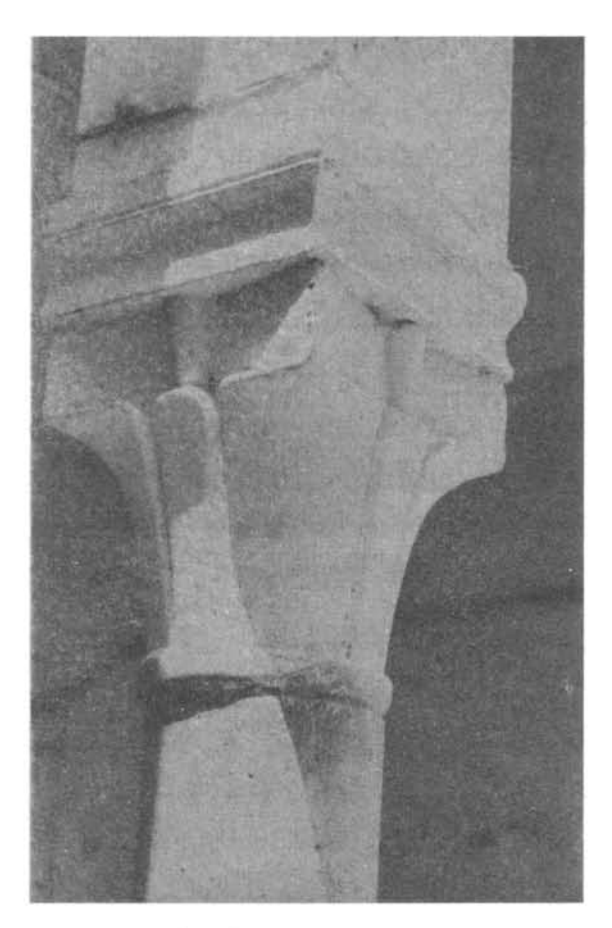
أي من بيت النبي، فالمعروف أنه ينتمي إلى إحدى قبائل سوس؛ هي قبيلة هرغة. وقد أمكننا بفضل البيدق*، أحد تلامذته الأوائل وكاتب أخباره المتفاني في خدمته أن نتتبع مسار حياته، من اليوم الذي ترك فيه قريته، وقد كان وقتها معروفاً بحماسته الدينية وسعة علمه، ليأخذ في التردد على المراكز الثقافية والعلمية في أرض الإسلام. فقد يكون زار قرطبة ودمشق، والمؤكد أنه زار بغداد، والإسكندرية، وتونس. وبدأ يومها يدعو إلى إصلاح العادات من الحمية والشدة بما كان يعرض حريته، بل وحياته أحياناً للمخاطر. فرأى من الأسلم له أن يرحل عن بجاية، ليتخذ له مستقراً في بلدة مجاورة هي ملالة؛ حيث كانت البداية الحقيقية لمهمته. فقد أنشأ فيها مذهبه وجمع من حوله أوائل تلامذته. وكان أقربهم إلى قلبه هو عبد المؤمن، وكان ابناً لخَزاف من ندرومة (في غرب الجزائر)، كان ابن تومرت يعدّه الرجل الذي أرسلته العناية الإلهيه ليكون خليفة من بعده. وقد ترك لنا البيدق رواية مؤثرة لطريقة اختيار الخليفة القابل. ففي إحدى الليالي أخذ المصلح بيد عبد المؤمن وقال له: «لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين، فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال يا فقيه ما كنت في شيء من هذا، إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي فقال له المعصوم: إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك»*.

وكانت محادثة جمعته بحاجين من الأطلس لدى مرورهما ببجاية، هي المناسبة لرحيل أوائل الموحدين إلى المغرب الأقصى. وقد وصلت تلك المجموعة الصغيرة المتألفة من عشرة أشخاص إلى مراكش، بعد أن نشرت في طريقها شيئاً من الدعوة بالقول الحسن، وأثارت بعض الاضطرابات في المدن التي مرت بها، وهي تلمسان ووجدة، وتازة، وفاس؛ حيث انتشرت أخبار ابن تومرت بما كان يهدم من حوانيت باعة الأدوات الموسيقية، الذين كان يحمل لهم، في ما يبدو، بغضاً وحقداً دفينين. ثم كان منه الفعل نفسه في مراكش؛ إذ أنشأ يحطم بعصاه الآلات الموسيقية وجرار الخمر، وكذلك طارد في سورة من الهياج أختَ الأمير المرابطي التي كانت تتجول فوق صهوة جوادها وهي سافرة في شوارع العاصمة.

---

*ـ هو أبو بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيدق، أحد تلامذة ابن تومرت، ومؤلف كتاب **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، انظر منه طبعة راجعها عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، ط .2، الرباط 2004.

*ـ البيدق، م. ذ.، صص.16-17.



111. تاج عمود حفصي (تونس).

ويومها أعلن ابن تومرت أنه المهدي. فلما عاد عند أبناء جلدته من قبائل مصمودة شرع ينظم جماعة الموحدين، ويتقصى العناية والدارية في انتقاء الرجال، ما جعل من هذا الفقيه رجل دولة عظيماً. فقد أنشأ دولة جبلية حقيقية، محكمة التنظيم وزوَّدها بجيش من المتعصبين، الذين قاموا على نشر المذهب الموحدي، بلوغاً به إلى إفريقية وإلى إسبانيا.

ونحن نتعرَّف في هذا الإصلاح على الميل الفطري نفسه إلى التشدد الأخلاقي وإلى البساطة المذهبية، اللذين كانا سمة مميزة لكل الفرق والبدع التي نشأت في بلاد البربر على مر القرون.

لقد كان صوت ابن تومرت ينطلق مدوياً بالإدانة المطلقة لثراء الدنيا وترهاتها فكأنه ترديد لصوت لا يقل عنه حمية؛ هو صوت تيرتوليانوس. ويبدو أن مسير

البربر البطيءَ نحو الله الواحد قد انتهى ههنا إلى إعلان الوحدانية المطلقة لله، الذي يذهب ابن تومرت إلى حد إنكار صفاته (القدير، والرحيم، والجبار)، التي يجعلها له المسلمون؛ فلربما أوحت بقابلية قدرة الله المطلقة للتقسيم. فتكون النتيجة المحتومة لقدرة الله المطلقة بهذا المعنى هي القدر الذي يخضع له سائر المخلوقات؛ فينبغي لكل مخلوق أن يظل ينتظر بخضوع واستسلام ما هو مقدر له منذ الأزل.

وهذا الضرب من الإسلام لا يمكن أن يكون إلا مطبوعاً بالتعصب؛ فهو لا يتحمل تساهلاً في الأخلاق، ولا نسبية في العقيدة، ولا وجوداً للكفار.

وقد كانت هذه الأمور مما يتفق كثيراً والتصلب والعناد المكينين عند البربر، فهذا مما حقق للموحدين النجاح الساحق. ولذلك جاء المد الموحدي على عهد عبد المؤمن ليجرف من على المغرب الكبير كل شائبة من دنس. ويبدو أن في ذلك الوقت كان اختفاء آخر الجماعات المسيحية من هذه المنطقة.

وربما ساورنا استغراب أن نرى إلى الإسلام المغاربي كيف بقي مطبوعاً بطابع مكين من التشدد الموحدي، على الرغم من الغلبة التي تحققت للمذهب المالكي فيه. وينبغي أن نبحث لهذا الأمر عن تفسير في نفوس المؤمنين، لا في ذكرى ذلك الإصلاح.

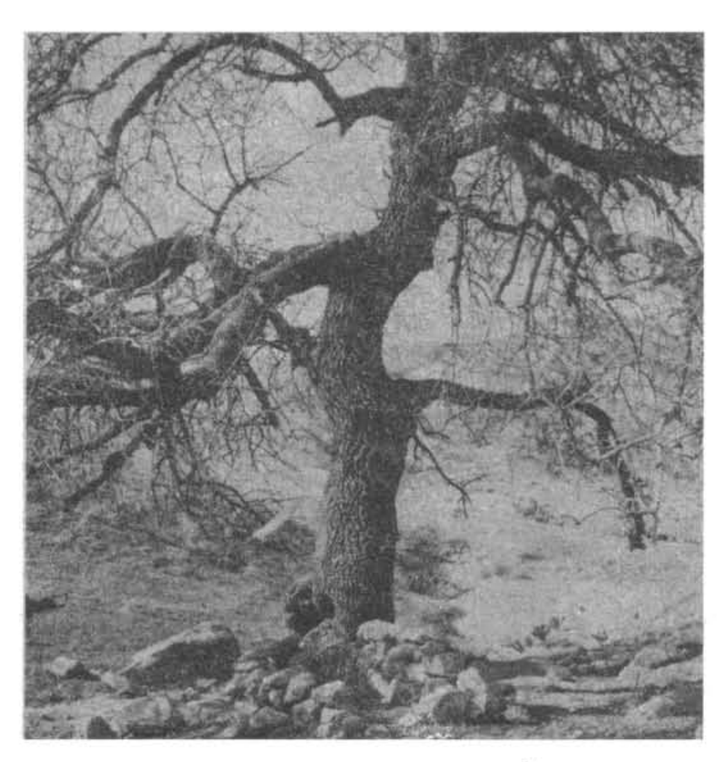
الدين الشعبي

لقد بلغ آباء الكنيسة الإفريقية، وكبار المصلحين المسلمين في القرون الوسطى إلى أعلى مدارج التأمل الديني، غير أن الدين الشعبي، خاصة في البوادي والقرى ظل يتعايش على الدوام مع معتقدات ليست من الدين الصحيح، شديدة تجذر في النفوس، بحيث يتعذر أن تندثر أو تزول بالكلية.

وبينما كان العلو في التديّن والتأمل اللاهوتي يقود إلى وحدانية تزداد صرامة يمكن اعتبار العقيدة الموحدية نتيجتَها النهائية، ظل التدين الشعبي يملأ العالم من الكيانات الدنيا.

فالإسلام يقر بوجود الجن (الـجْنون)، الذين يعيشون بأشكال مختلفة حياة موازية لحياة بني البشر. فهم يكوّنون بحق عالماً من بُعْد مختلف؛ ذلك العالم الماورائي، القائم على شبيه بالنظام الذي يقوم عليه عالم بني البشر، لكنه يختلف عنه في طبيعته. ففي العالمين رؤساء وملوك، والجن كما الإنس يتزوجون ويلدون، وأغلب الظن أنهم يشاركوننا المشاعر والأحاسيس. فمنهم اللامبالون، ومنهم المتسامحون ومنهم العشاق، ومنهم الأشرار، أو على الأقل المشاكسون، فهم يلطمون أو يصيبون بمرض غامض الإنسي سيءَ الحظ الذي يكدر عليهم نومهم أو أعمالهم.

وينحدر عدد من هؤلاء «الـجْنون»، كما تدل عليهم أسماؤهم، من جن قد عاشوا في العصور القديمة؛ فهم يلقون من بني البشر، كما كان يلقى أسلافهم الكثيرَ من آيات الاحترام والتوقير، وربما وجدوا منهم العبودية الحقيقية. ومن ذلك أننا نرى في البوادي والقرى قد أقيمت لهم معابد بسيطة (كالحويطة، أو المزارة) فالنساء يأتينها فيضعن فيها نذوراً من الآنية الفخارية، التي تعتبر هي نفسها امتدادات للخزفيات الصغيرة التي تعود إلى ما قبل التاريخ، أو يجعلن فيها مباخر، أو يكتفين بوضع شموع لا ترى الناس يحرصون دائماً على إيقادها، وإن يكن للنور والنار دور راجح في هذه العبادة، التي لا يجرؤ الناس على إعطائها اسماً. فعلى الشاطىء من



112. «مزارة»، أسفل شجرة مقدسة في تيزي، منطقة مسكرة (الجزائر).

منطقة الساحل التونسية ترى الناس يبتهلون إلى «رجال البحر»، فيضعون شموعاً في تجاويف الجبال، أو يقتصرون على حفر ثقوب في الرمل. وكثيراً ما يصير الثقب في صخرة، أو الكوة الطبيعية، أو التجويف في جذع شجرة، مزارات في البوادي والقرى، يُستدل عليها أحياناً من الطلاء الجيري على جدرانها؛ وتلك ممارسة كانت جارية كذلك في العصور القديمة. وقد يقتصر الناس على عُقد يجعلونها في فروع الأشجار، أو يشدونها إلى الأغصان المتدلية من شجرة يسكنها الجن.

ولن أطيل الحديث في هذا الشكل البدائي من التدين الشعبي، فهو يكاد يكون عاماً بين سائر الأقوام، ولا يمكن اعتباره شيئاً خاصاً بالبربر إلا في قوته، التي لا يزال عليها من غابر الأزمان. فلقد أمكن له استمرار البقاء في منطقة شمال إفريقيا أكثر مما في البلدان المتوسطية الأخرى، وإن يكن المتعلمون يتجاهلون وجوده، أو يرونه لا يزيد عن شكل نسائي ومحتقر من الخرافات القديمة.

وإن تقديس الأولياء، الذي يُعتبر امتداداً متقدماً لتقديس الأسلاف، ممارسة ظلت قائمة في المسيحية وفي الإسلام. وكان السبب في انتشار القباب البيضاء

التي أسماها الأوروبيون أولياء Marabouts، فخلطوا، إن جاز لي التعبير، بين المحتوَى والمحتوِي. وهذه القباب عناصر لا يمكن فصلها عن المشهد المغاربي. وهي تكون بناء بسيطاً، لكنه لا يخلو من تأنق، تعلوه قبة مربعة، تحتوي على قبر الولي. وفي الإمكان بوجه عام أن نقع لهذا الولي على بعض الآثار التاريخية في الروايات الشفاهية، وقد نجد له تلك الآثار كذلك في النصوص. وتجاور تلك القباب قاعةٌ للصلاة في الأضرحة التي تقام لمؤسس طريقة أو شخصية تحظى باعتبار خاص.

لكن هنالك أولياء آخرون أدخل في الخرافة؛ فمنهم ذو القبرين أو القبور الكثيرة (سيدي عبد الرحمن بوقبرين)، ومنهم الأولياء المُبْرِئون، ومنهم المتخصصون كمثل للا تافوغالت (شنوة)، فهم ضامنون للعفة والإخلاص من النساء؛ وفي ذلك تفسير لكثرة الأقفال التي يجعلها الزوار [على شبابيك] أضرحتهم وما يأتون لهم من نذور.

وهنالك أولياء آخرون، وهم الأكثر شهرة، لهم قدرة على علاج العقم عند النساء...



113. «مزارة» في مقبرة قروية، بسيدي محمود، منطقة سطيف (الجزائر).

لكن توجد مزارات أخرى في البوادي والقرى لا يمكن أن نجزم باحتوائها على قبور. وتقوم هذه المزارات بجوار أطلال توسم بالغموض والإلغاز، أو هي مزارات قد شيّدت على جثوات من عهود ما قبل التاريخ، ثم أضفي عليها الطابع الإسلامي كما أضفيَ الطابع المسيحي على بعض الأنصاب الحجرية في بريتانيا*. وقد ترى العامة أحياناً تبالغ في الحيطة والحذر ليلاَّ تُغضب ذلك الشخص، الحقيقي أو المفترض، الذي لا تعرف له اسماً، فتفرغ عليه لقب «سيدي المخفي» (أي المجهول).

وفي الأخير فإن هنالك أناساً يكونون في حياتهم موضعاً للكثير من التوقير وهؤلاء يكونون من الأتقياء الذين يحيون حياة مثالية. وقد استنكر العلماء هذا التعظيم الذي يكون ينطوي أحياناً على مخلفات من عبادة الأشخاص، وما هو بالأمر المقصور على الإسلام المغاربي. ومن الأشخاص كذلك من اكتسب هذا التعظيم بطريق الوراثة إما لإدعائهم أنهم شرفاء ينحدرون من البيت النبوي، أو لا نتسابهم إلى أحد الأولياء المشاهير، فيصيرون يشاركونه البركة. وقد أسيء استعمال مفهوم البركة في كتابات المستشرقين وفي اللغة العسكرية، إلى درجة أن صارت لا تعني أكثر من حظ موصول. والواقع أنها، وكما يدل عليها اسمها، نعمة لدنية حقيقية تحيط الشخص، وقد تحيط ذريته أيضاً، بهالة من الإجلال والتوقير. فيمكن للرجل المميَّز بهذه الصورة عن سائر الخلق أن يكون صانع معجزات، أو مدعياً لها، أو يكون مرشداً أو حامياً، لأن المحبة التي يُخص بها تحمّله التزامات ثقيلة. فهو في الأوقات المضطربة يكون الحكم الطبيعي، والويل للذين لا يمتثلون لحكمه! كما ويمكن لبركته أن تظل مقترنة به إلى ما بعد وفاته، ومن ثم تصير مقرونة بقبره؛ فيغدو ملجأ أو مزارة على أهمية كبيرة في بعض الأحيان. ولتلك المواسم (أوقات الزيارة في الأطلس الكبير المغربي) شبه كبير باحتفالات الغفران البريتانية*، وهي تلعب الدور نفسه دور المنظم للتلاحم الاجتماعي في المنطقة.

فالذي يبدو أن أرض البربر قد انطبعت على مر القرون بتديُّن عميق؛ فنرى المقدس المنتشر في الطبيعة يتجسد أحياناً على صخرة، وينطبع تارة على شجرة، أو يتجلى طوراً في إنسان يكون من أولياء الله. لكن تلك التجليات لا تعدو أن تكون انعكاسات بسيطة لقدرة الله الواحد المطلقة. وأما الجْنون، وهم امتداد للجن والآلهة الصغار في العصور القديمة، فيخضعون له كمثل خضوع بني البشر؛ فالله هو الله.

---

*- نسبة إلى المقاطعة الفرنسية، لا المملكة المتحدة.

114. قافلة صغيرة في عرق ادمر.

الفصل الخامس

الاستمرارية البربرية



لم يكن التعريب الذي تعرض له معظم قدامى البربر بالظاهرة الثَّقافية الكاملة، فقد حافظ سكان شمال إفريقيا في عاداتهم، كما حافظوا في لغتهم وفي تعبيراتهم الفنية، خاصة في الأوساط القروية على الخصائص والمميزات التي كانت لهم قبل أن يتصلوا بالإسلام ويقع عليهم التعريب.

فشمال إفريقيا منغمر عن بكرة أبيه في استمرارية بربرية. وهي استمرارية غير لائحة، ولا يمكن اعتبارها عاملَ فصل لاختلاق تفرقة بين «العرب» و«البربر». فالمناطق حتى التي كان يمكن للعزلة الجغرافية أن تعزز فيها من نزعة محافظة مكينة نراها شهدت على مر القرون، وخاصة في هذا القرن العشرين، تنافُذات لم تكن تغلّب دائماً وأبداً جانب الأعراف والتقاليد المشرقية.

لكن هذه الاستمرارية للبربرية، التي كثيراً ما وقع التأكيد عليها، لا تكون واضحة على الدوام، ولا هي مقصورة على المجموعات الناطقة بالبربرية. وهي أقل إطلاقية وأقل اتساعاً كذلك مما يزعم لها معظم المؤلفين. وجملة القول إن هذه الاستمرارية هي ما يكوّن أصالة المغرب الكبير في العالم العربي وفي العالم الإفريقي على حد سواء.

بيد أن الاستمرارية لا تعني المحافظة المطلقة. بل هي تتمثل في استمرار تقاليد تقنية كُتِبت لها الاستمرارية، كما وأنها قد ظلت ظلت على بساطتها ولم تتحول عنها

وفي بعض أنماط التفكير، وفي بعض السلوكات الاجتماعية، أو الفنية، المتجذرة في دخائل الإنسان المغاربي، والتي تعود إلى الظهور بأوقات معلومة، مهما بدا أن الثقافات الوافدة قد ألغتها منذ زمن طويل. فالمجموعات البربرية ليست بالمنغلقة عن كل تجديد؛ بل هي على العكس تعرف أحياناً كيف تستوعب التجديدات بسرعة كبيرة، وتعرف كذلك كيف تحافظ عليها، حتى إن الكثير من المنتجات والتقنيات التي في الإمكان تتبُّع دخولها من الناحية التاريخية إلى شمال إفريقيا قد صارت اليوم «بربرية» خالصة.

إن البربر يكتسبون بسهولة، لكنهم يهجرون بصعوبة؛ ما جعل المغرب الكبير خاصة مناطقه الجبلية، يصير محْفظاً عجيباً للعادات والتقنيات.

ووقت أن كانت هذه المنطقة لا تزِال تتمثل فيها بعض عناصر الثقافة «الكلاسية» لم يكن للرحالة أو عالم الأجناس بدٌ، وهما يريان الحقائق المغاربية أشدها رسوخاً من استحضار الثقافات المتوسطية القديمة؛ فتراهما يشبهان القرية القبائلية وجماعتها بآثينا... لكن بانتقاص رخام البونتيليك! وقد كان الأصح أن يقارنوا بين أساليب عيش الفلاح اليومية وأدواته في جبال جرجرة بمثيلاتها لدى الفلاح الإغريقي في العصور الغابرة. فسيريانهما اجتمعا على منتجات زراعية واحدة، وأدوات واحدة، وميول واحدة إلى الديكور الهندسي، والتقديس نفسه لجن التراب والماء والتحوطات نفسها من الأذيات، والحكايات العجيبة نفسها الدائرة حول الغول الذي يتغلب عليه الإنسان «الاجتماعي» المستعيض بذكائه، بل حيلته، عن ضعفه الجسماني.

ولن يكون في الإمكان استعراض مختلف مكونات هذه الاستمرارية البربرية. فإن فيها عناصر شديدة القدم قد كُتب لها البقاء لآلاف السنين، وما عادت تُذكر مجرد ذكر، لفرط ما صارت تدخل في المسلمات. وسيكون مبتدأ حديثي منها بالكتابة الليبية.

الليبية والتيفناغات

لقد رأينا أن اللغة البربرية تعتبر، مع اللغة الإثيوبية، التي تشاركها الانتماء إلى الأسرة الحامية السامية، هي اللغة الإفريقية الوحيدة المتلكة لكتابة خاصة بها. ولا تزال الكتابة الليبية إلى اليوم متداولة عند الطوارق؛ فهم يسمون «التيفناغات» تلك الحروف [الليبية] نفسها، مهما تكن تعرضت له من التغيرات المحتومة.

إنها إذاً طريقة في كتابة اللغة قُيض لها البقاء [لدى البربر] منذ حوالي ألفين وخمسمائة سنة، وإلى ما بعد الاستعمال الذي كان [منهم] للغة البونيقية، واللغة اللاتينية، واللغة العربية.

116. كتابة ليبية قديمة لدى عزيب ن إگيس (الأطلس الكبير، المغرب).





115. مسلة من عين كرمات سمين (سوق أهراس، الجزائر). كتابة ليبية من العصر الروماني.

وإن بقاء «التيفناغات» لأمر غريب؛ كما هو بقاء الأبجدية الأترورية étrusque لدى بعض القرى القصية من جبال الأبنين Apennin، مع اعتبار الفوارق بين الأمرين، أو بقاء الكتابة الرونية* في أحد الأودية الاسكندناقية.

والأكثر من ذلك أن هذه الكتابة البدائية، التي تغلب فيها الحروف الصوامت لم تكن ناقلاً لأي أدب مهما يكن قليل الشأن. فإذا عبّر البربري على غير شواهد القبور، أو في غير الكتابات النقوشية، من شؤون الحب، كان يستعمل البونيقية على عهود الملوك النوميديين والموريين، أو يستعمل اللاتينية على عهد أبوليوس، أو في زمن القديس أغسطينوس، أو يتوسل بالعربية أو بالفرنسية.

وإن بقاء الكتابة الليبية في شكلها الصحراوي الحالي لما يبعث على الدهشة والاستغراب، ولاسيما وهي الموغلة في القدم، والضاربة بجذورها في عهود قبيل التاريخ.

أصول الكتابة الليبية

لقد اختلط الأمر في عمر الكتابات النقوشية الليبية إلى أبعد الحدود، بسبب من أن اللغة الليبية لم تكن لها منذ العصور القديمة أبجدية واحدة، بل أبجديات عديدة؛ تدخل فيها الشرقية، التي كانت مقصورة على تونس وما يعرف حالياً بولاية عنابة في الجزائر، والغربية التي كانت تغطي مساحة شاسعة تصل حتى المحيط الأطلسي، وكانت لها في المغرب بعض العلامات غير المعروفة، وكانت لها في مناطق أخرى أبجدية صحراوية قديمة (هي التيفناغات القديمة)، لم تكن تختلف كثيراً عن الأبجدية الغربية، وتدخل فيها كذلك أبجديات التيفناغات الحديثة، التي تنتمي بكل تأكيد إلى مجموعة واحدة والكتابات النقوشية المكتشفة في جزر الكناري. وباستثناء التيفناغات الحالية، فإن حروف الأبجدية المدعاة شرقية هي وحدها التي يمكن أن اعتبارها اكتسبت قيمة حقيقية، بفضل الكتابات النقوشية التي اكتُشفت في دقة والجامعة بين الليبية والبونيقية.

والحال أن الأبجدية الغربية تشتمل على علامات إضافية غير معهودة في الأبجدية الشرقية، كما وأن التيفناغات الصحراوية ليست لها كلها قيمة واحدة والعلامات التي تقوم مقامها في الأبجدية الشرقية.

* - runes، وهي حروف الألفباء المستعملة في اللغات الجرمانية القديمة.

ويعتبر الشمال الشرقي من تونس والقسم المجاور له من الجزائر هما المنطقتان الماسيليتان اللتان تكثر فيهما الكتابات الليبية، وهما كذلك مهد المملكة النوميدية وهي التي بقيت اللغة والكتابة الليبية فيها، كما رأينا، متداولتين ورائجتين لزمن طويل. وفي دقة تم الوقوف على الكتابة الليبية الوحيدة المحدد تاريخها تحديداً لالبس فيه؛ وهي عبارة عن تكريس في الضريح الذي أقيم تخليداً لذكرى ماسينيسا في السنة العاشرة من حكم ابنه ميسيبسا (138 ق. م).

لكن أن تكون الكتابات الشرقية هي الأوفر، والكتابة الوحيدة المحدّد عمرها توجد بالضرورة بينها، أمرٌ لا يترتب عنه لزوماً أن الأبجدية التي كانت متداولة في هذه المنطقة سابقة وجوداً على الأبجديات التي كانت متداولة في المنطقة الغربية، ولا هي سابقة حتى على تلك التي كانت متداولة في المنطقة الجنوبية.

ولو كانت الأبجدية الليبية تنحدر رأساً من الأبجدية الفينيقية، في الصورة التي كانت متداولة بها في أوتيكا Utique (عتيقة) أو في قرطاج، أو كانت الأبجدية الشرقية، كما زعم [أوطو] ميلتزر *Meltzer في غير تروّ، شيئاً اختلقه ماسينيسا لكان من شأن ذلك أن يقودنا بالفعل إلى اعتبار هذه الأبجدية، المتكونة من ثلاثة وعشرين حرفاً، النموذجَ الأصلي الذي اشتُقت منه المجموعات الليبية الأخرى؛ بيد أنهما فرضيتان مردودتان هما الاثنتان.

والواقع أنه يكاد يكون من المتعذر تحديد أصول الكتابة الليبية. فهذه الأبجدية تبدو متحدرة من نماذج أصلية لا تزال غير معلومة للناس، وعنها تولدت الأبجديتان الفينيقية والسامية الجنوبية. فانتشار الكتابة في إفريقيا لم يحدث عن طريق البحر بالضرورة؛ فقد اكتُشفت في النوبة منذ وقت قريب كتابة نقوشية تبدو بحروفها أقرب إلى الأبجدية الغربية منها إلى الأبجدية النوميدية الشرقية.

والحاصل أنه لا يبدو لي من باب المستحيل أن تكون الأبجدية الشرقية «الماسيلية» شكلاً حوِّر عن الكتابة الأصلية بفعل الاتصال بالكتابة البونيقية، بينما يكون استمر خارج البلاد الماسيلية استعمالُ الأشكال القديمة، وظلت في تحول إلى أن انتهت إلى التيفناغات في صورتها الراهنة.

* - له كتاب عن القرطاجيين :

Meltzer, Otto, *Geschichte der Karthager,* 1879-1913, Weidmannsche Büchhandlung, Berlin. 1896.

يزيد الأمر صعوبة لو أردنا تحديد تاريخ لإدخال هذه الكتابة أو تاريخ لظهورها. وقد أظهرت بعض الأعمال الحديثة[1] أن هذه الكتابة أقدم عهداً مما كان يدور في الحسبان. وفي مدينة دقة نفسها توجد كتابات سابقة وجوداً بأجيال عديدة على ذلك التكريس الذي يعود تاريخه إلى سنة 138ق. م. وفي تيديس تم العثور على إناء احتوى على عظام حدِّد تاريخها بواسطة «كاربون 14»* في سنة 250 ق. م.، وقد اشتمل ذلك الإناء في جوانبه على كتابة ليبية مرسومة. وتم العثور على إناء آخر في مقبرة رشقون عليه علامة من الكتابة الليبية يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. بل تم العثور على كتابة نقوشية جدارية في ياغور (في الأطلس الكبير المغربي) ربما كانت أقدم عهداً منها جميعاً. وأما التيفناغات فإن من العسير تحديد مبلغ أقدميتها، بسبب من ضعف التحقيب الصحراوي. وقد بات من المعروف، بفضل أعمال التنقيب التي أجريت في بونجيم في طرابلس الغرب، أن الجرمنتيين كانت لهم أبجدية خاصة في القرن الثاني الميلادي، ولا يبعد أن يكونوا عرفوا تلك الأبجدية قبل ذلك العهد أيضاً. وتم العثور في مقابر جاراما (في فزان) على آنية فخارية مجلوبة تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، وعليها نُقشت حروف ليبية بمنقاش. وفي قلب الهقار يقوم نصب تين هنان Tin Hinan المقابري المشيَّد بقطع حجرية عليها كتابات نقوشية من التيفناغات «الحديثة». والحال أنها كتابات متقطعة بسبب من التقصيب الذي وقع على الحجارة، فتكون سابقة زمناً على القرن الخامس الميلادي، وهو تاريخ بناء ذلك الضريح. وعليه فإن التيفناغات القديمة تضرب بأصولها إلى أبعد بكثير مما كان يُفترض لها، فهي تبدو من زمن واحد والكتابات الليبية الشمالية.

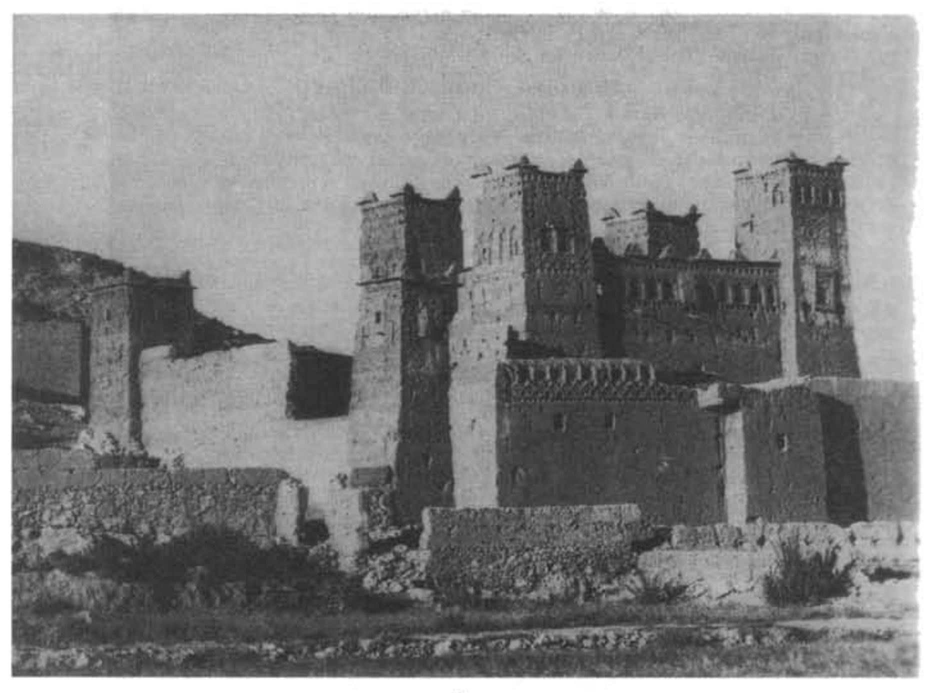
1 – Camps (1975).

*– يستخدم كربون 14 لتقدير أعمار الحفريات ذات الأساس الحياوي والتي قد يفوق عمرها 000 500 سنة.

فن يتحدى الزمن

يقدم لنا الفن أمثلة رائعة عديدة لهذه الاستمرارية البربرية، التي سعى إلى استجلائها مؤلفون كثرٌ.

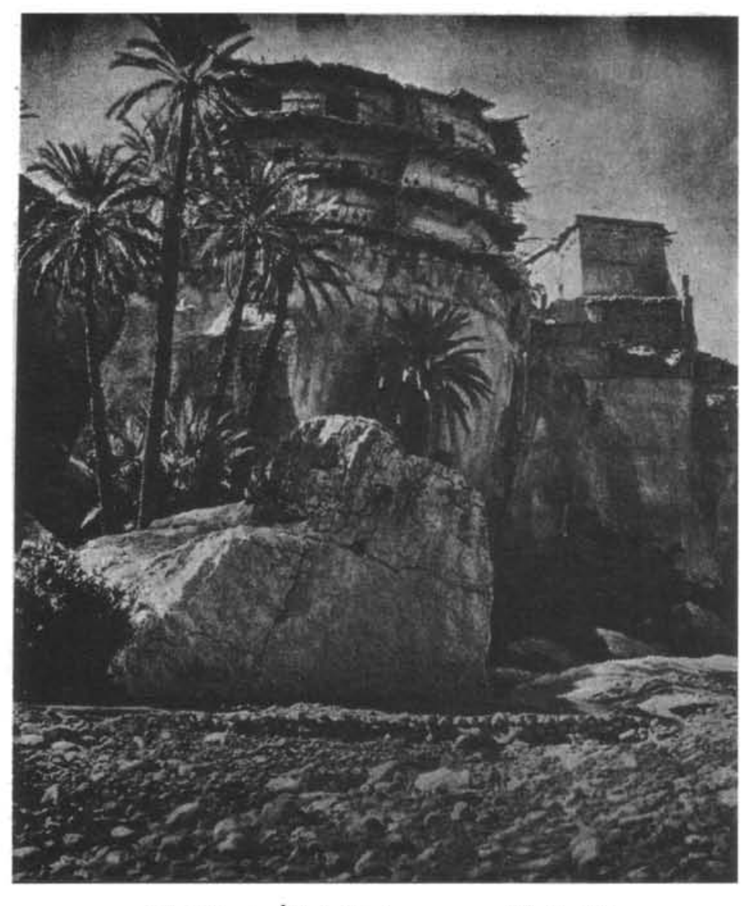
والواقع أن ما سُمي بـ «الفن البربري» في منطقة شمال إفريقيا وفي الصحراء لا يعدو في معظمه عن شكل بدائي في الزخرفة يقوم على تقنيات أولية بسيطة ويتكون في عمومه من أشكال هندسية لم تخلُ منها معظم الثقافات المتوسطية في مراحل من تطورها، وأكثر ما نلاقي منها في بداية العصر الحديدي. والحال أن الفن «البربري» قد بقي في كثير من ملامحه فناً من صميم العصر الحديدي.



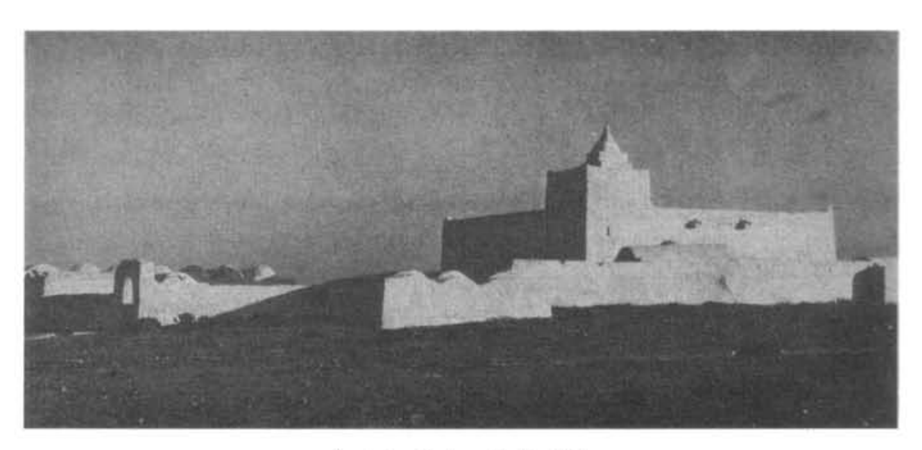
117. تيغرمت (القصبة في العربية) دلدينتْ في منطقة ورزازات (جنوب المغرب).

قلاع من طين ومخازن جماعية للحبوب

يتأدى بنا ما ذكرنا إلى التأكيد على أن الطابع «البربري» إنما يتجلى في فنون الديكور أو في الفنون الصغرى. ولا نجد من استثناءات في غير بعض المنشآت المعمارية محدودة النطاق؛ من قبيل «إغرمان» (القلاع) الكبيرة المشيدة من الطين والحجر في جنوب المغرب. وكانت أقدم هذه القلاع على هيئات مهيبة؛ قد جُعِلت لها أبراج مربعة كبيرة ذات شرَّافات. وأما واجهاتها التي تبدو اليوم بسيطة وخشنة فقد كانت تزينها عُقيْدات بارزة وزخارف ذات أشكال هندسية شُكِّلت من آجر طيني بارز. وترى بعض تلك الزخارف في غاية التنميق؛ أشبه بما نرى على الأثاث الخشبي في منطقتيٍّ القبائل الكبرى والصغرى، وما نرى على المنسوجات من كافة الألوان والأصناف؛ تجتمع فيها الزرابي، والأغطية، والأكياس الكبيرة (التلالس)



118. گلعة (هري محصن) بنيان في الأوراس (الجزائر).



119. زاوية جربة (في تونس)

التي لايخلو منها بلد من البلدان في منطقة شمال إفريقيا، لافرق بين ما يصنع منها المقيمون والرحل الناطقون بالبربرية أو بالعربية. وإن هذه القلاع المتداعية، التي صار كثير منها اليوم إلى خراب، وحوِّل بعضها إلى فنادق راقية، قد كانت تُتخذ في المقام الأول مساكن لعلية القوم. بيد أنها كانت مقصورة على المجتمع القروي؛ فلا تقع في أي مكان آخر في شمال إفريقيا على مثيلة لهذه المباني المتميزة شموخاً وجمالاً؛ والتي تعتبر بحق تحفاً من عمارة راقية قد شُيدت بأبسط المواد.

وبينما يطغى الأحمر الآجري على المشاهد المعمارية في سوس وفي الأطلس الصغير، يغلب الأبيض لدى الإباضيين في مزاب وفي جربة؛ فتراه بارزاً على خلفية



120. أگادير (هري محصن) الفريفري في تزنيت (جنوب المغرب).

من زرقة السماء الصافية في معظم الأوقات. وههنا تبدو الأشكال أقل خشونة ووحشية وأروحَ للعين. ثم صارت هذه المباني بتوالي القرون وقد فقدت حتى زواياها، بل فقدت بعض الدرجات في سلالمها؛ وانطمرت تحت طبقات كثيفة من الجير، الذي ظل كالكفن يغطي بمرور السنين القبابَ والبيوت والخزّانات، ولم تسلم منه في جربة وفي جرجيس حتى المطريات، لم يُجد فيها ما أحيطت به من الصيانة والاعتناء الفائقين.

وعلى الرغم من هذه التعارضات، الظاهرية أكثر مما هي حقيقية، فإننا نقع في هذه المناطق الجرداء في أصلها، والمتاخمة في جهة الجنوب لأغنى الأراضي في بلدان المغرب، على عادات واحدة تُتّبع في إقامة مخازن الحبوب الجماعية، ومعظمها أبنية حصينة. فهذه الأبنية الواسعة، المتباينة أشكالاً وأسماء؛ فهي «أكَادير» في الجنوب المغربي، و«الكَلعة» في الأوراس، و«الغرفة» في الجنوب التونسي، تشتمل في وسطها على مسوَّر من حجيرات لتضع فيها الأسر مدخراتها. وتكون تلك الحُجيرات في «إكَاديرن» [ج : «أكَادير»] في الأطلس الصغير في العادة على صفوف ثلاثة. فلكل أسرة حجيرة في كل صف. ولاشك أن الطلب يكون أكبر على الحجيرات التي في الطابق الأوسط؛ فهي أقل تعرضاً لعوادي الطبيعة وأقل عرضة للقوارض من الحجيرات التي في الطابق السفلي؛ لولا أن ذلك التقسيم الحكيم كان يحول دون وقوع أي استئثار أو احتكار. فأنت تجد في هذا الإجراء تطبيقاً للمبدإ القديم في المساواة الذي كان سائداً في سائر «الجمهوريات» القروية التي مرت على بلاد البربر.



121. فخاريات كاستيلوشيو (من العصر النحاسي في صقلية).

الفخار المشكل بالأيدي : عتاقة التقنيات والأشكال

سنختار في بلدان الشمال هذه، شكلاً آخر من أشكال الفن؛ أبسط بكثير من المعمار، لكنه يتكشف لنا، أكثر منه، دون أي شك، عن أكثر الخصائص تميزاً للاستمرارية الفريدة للتقنيات في العالم البربري؛ نريد الفخار المشكَّل بالأيدي.

يشتهر هذا الفخار باسم تضييقي؛ هو «الفخار القبائلي». وهو يتميز بخصائص تضرب بأصولها في غابر الأزمان، سواء ما دخل منها في صناعته أوما تعلق بشكله وزخرفته.

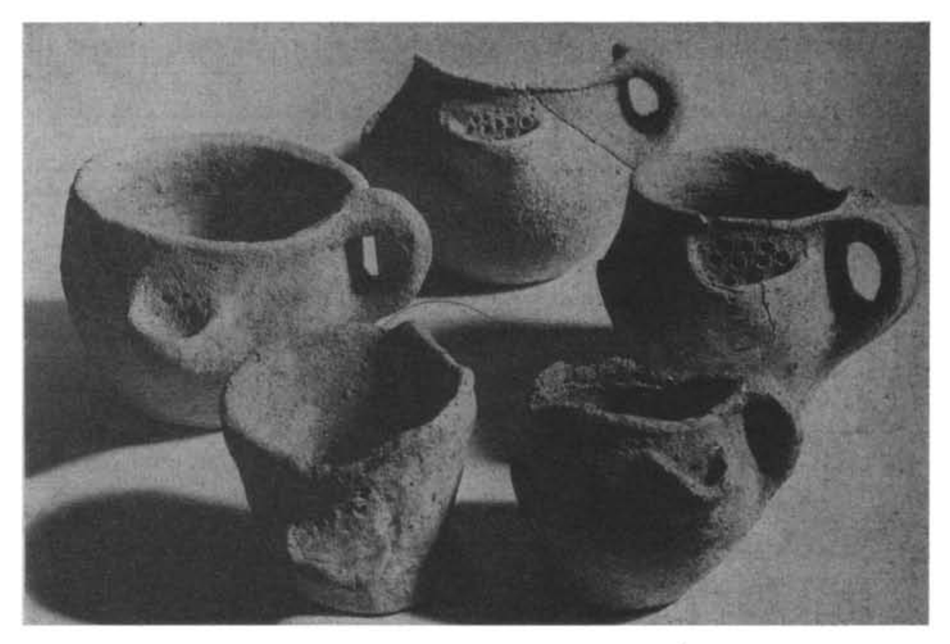
تقتصر صناعة هذا الفخار على القرى والبوادي؛ وتُستعمل في تشكيله حبال طينية قصيرة يُجعل بعضها فوق بعض على قاعدة مسطحة. وهذا النوع من الخزافة معروف على أوسع نطاق، وقد كان له وجود في سائر البلدان المتوسطية، قبل أن تعرف دولاب الفخار، وينتشر فيها الخزف الحضري ذو الطابع الصناعي. وبينما صار دولاب الفخار يقضي بالتدريج على الفخار المشكل بالأيدي في سائر جهات البحر الأبيض المتوسط، ظلت بلدان المغرب هي وحدها التي حافظت على هذه التقنية العتيقة رائجة ومتداولة إلى اليوم.

يُصنع هذا الفخار بأيدي النساء؛ فهن يجعلنه على النار في العراء أو في حفر على غير عمق كبير. وهو يبدو قليل تكلفة، ويستجيب إلى الاحتياجات الأسرية. ولذلك فقلما يُتخذ للتجارة، في ما عدا بعض الأشكال الخاصة منه، من قبيل الأطباق المتخذة من الطين الميكي عند آيت خليلي (في منطقة القبائل)، والتي كان الرجال يبيعونها في القبائل المجاورة.

والتقنية العتيقة المستعملة في هذا الفخار مطابقة للتقنية نفسها التي كانت تُستعمل في الأنصاب الفخارية لعهود قبيْل التاريخ (انظر الفصل الثاني)، وتذكّرنا لامحالة أشكال هذه الفخاريات بأشكال الفخاريات التي عرفتها البلدان المتوسطية في العصرين البرونزي والحديدي؛ خاصة ما تعلق منها بفخاريات صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية. وربما لم يكن التشابه في الأشكال سوى نتيجة طبيعية لاستعمال التقنية الواحدة، بيد أن في ذلك التشابه دقائق تلوح في ظاهرها زهيدة القيمة، وهي شديدة البروز، بما لاسبيل إلى إهمالها أو تجاهلها. فبعض الآنية ذات مرْشح عمودي ينفتح بفم أنبوبي، قد وُجِدت في مقابر ما قبلِ التاريخ في قسطل (منطقة تبسة) وفي مغراوة (منطقة مكثر)؛ وهي أشكال نادرة وُجِدت لها نظائر مطابقة داخل القبور

التي تعود إلى نهاية العصر البرونزي في صقلية وفي بازليكاتا Basilicate. ولا تزال تراهم في الأوراس يجعلون لمنتجاتهم الخزفية عروات بواقيات للإبهام، وهي أشياء غير معهودة في بقية بلدان المغرب؛ ولها ما يطابقها في الآنية الفخارية من نوع «بولادا» Polada (من العصر البرونزي في إيطاليا).

والفخاريات [المغاربية] الحالية، كما الآنية القديمة، تبين في مجملها عن تشابهات لائحة مع المنتجات الفخارية لما قبل التاريخ في صقلية. فنحن نجد فيهما معاً تلك الآنية ذات الفم الأنبوبي غير المزود برقبة، والآنية الرضاعية، التي ربما تعذر التمييز بينها في المنطقتين، لشدة تشابهها في الأشكال والأحجام. وتعتبر العروات الساكبة وهي أفواه تقوم بموازاة لرقبة الإناء وتتصل معه بجُسيْر، من أكثر الخصائص تمييزاً للفخاريات المغاربية المشكلة بالأيدي، وتحضر خاصة لدى المجموعات القبائلية. ومع ذلك فهي شكل متوسطي شديد القدم، فقد كان معروفاً منذ العصر الحجري الحديث. ولقد صار في انتشار من آسيا الصغرى إلى إسبانيا. وأقرب هذه الأشكال إلينا في المكان هي الأشكال القبائلية النموذجية؛ وهي تنتمي إلى ثقافة العصر البرونزي في ثابسوس Thapsos بصقلية. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الجرار ذات الرقبة الأسطوانية العريضة والقائمة على بطن شبه كروية، ولكن بقاعدة مسطحة. وهذا



122. آنية بمرشح عمودي من مقبرة قسطل. وجدت فخاريات مشابهة لها من العصر البرونزي في صقيلة وجنوب إيطاليا.

شكل واسع الانتشار في منطقة القبائل الصغرى، وهو يمثل نسخة من الآنية التي كانت معروفة في صقلية خلال العصر النحاسي Chalcolitique؛ ويمكن التعرف على أصولها كذلك في الخزف الذي كان يصنع في العصر الحديدي في إيطاليا (الڤيلانوڤي Vellanovien*).

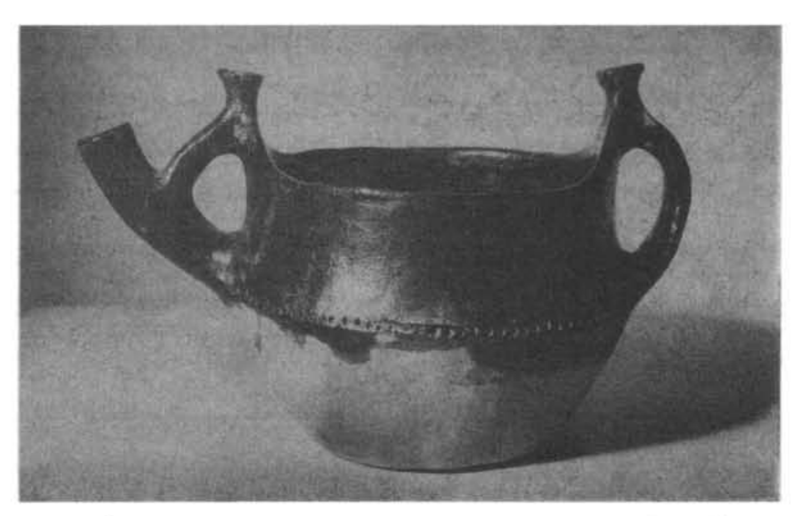
وقد اكتُشفت في مقبرة كاسيبيلي (في سيراقوسة Syracuse)، المتميزة بحوانيتها ذات الطوابق، أقداحٌ ذات أقدام كبيرة، فهي تشبه «المثرد» المغاربي، كما اكتُشفت فيها فخاريات من تلك الأشكال المبتذلة التي نقع عليها في سائر أنحاء شمال إفريقيا. ويُتوَّج هذا التشابه بتلبيسات الآنية؛ فقد جُعلت عليها طبقة صمغية، كمثل ما هو شائع في الفخاريات القبائلية المزوقة.

قدم النمنمة الهندسية

إن هذه الملاحظات التي سقناها في قدم أشكال الخزف البربري المشكل بالأيدي والفخاريات القديمة لما قبل التاريخ أو قُبيْله، في منطقة وسط حوض البحر الأبيض المتوسط، يزيد من تأكيدها إنعامُ النظر في الزخرفة؛ فهي لا تزيد عن أشكال هندسية مستقيمة على الدوام، لكن على تنوع كبير؛ إذ تبين لنا عما لاعد له من الأساليب الإقليمية، تتفرع إلى مجموعة من الهيئات والأشكال المحلية، بل الأسرية. ووحده التداول الطويل بهذه المنتجات الحرفية يسمح بالتعرف على الأساليب الأساسية [المائزة] فيها على الرغم من تشابهها الظاهر. ومع ذلك فما أسرع ما نهتدي إلى التمييز بين إناء من مسيردة (في طرارة بمنطقة وهران) وآخر من زرهون (في المغرب)، أو من شنوة (في الجزائر). فالزخارف التي على إبريق من الأوراس ستختلف عن تلك التي على الأباريق في منطقة القبائل، وبالإمكان التمييز في منطقة القبائل نفسها بين المنتجات التي تعود إلى مختلف القرى والبوادي.

وهنالك فخاريات تُرسم لها زخارفها البنّية رأساً على الطينة الملَّسة. كذلك هو الشأن في بعض الآنية التي تعود إلى قبيْل التاريخ، ولا تزال ترى الشيء نفسه كذلك على فخاريات الجنوب التونسي والنمامشة. والشائع في هذه الآنية أن يُجعل لها دهانٌ قبل أن تزوَّق. وقد يكون الدهان أبيض، وتلك هي العادة المتبعة

* – نسبة إلى الموقع الأثري الكبير ڤيلانوڤادي كاستيناسو Villanova di Castenaso في منطقة بولون، وإلى كيان عرقي اشتهر هناك بالاشتغال على المعادن، خاصة الحديد.



123. إناء بمنقار انسيابي ومقبضين بواقيتين، شبيه بمنتجات خزف العصر البرونزي في إيطاليا (أسلوب بالودا). فخاريات تُصنع حالياً في الأوراس.

على الدوام في منطقة القبائل الصغرى، وفي شرق الجزائر، وفي الشمال الغربي من تونس، ونرى له شيوعاً كذلك في غير هذه المناطق. وعلى ذلك الدهان الأبيض تُرسم الأشكالُ باللونين البني أو الأسود. ويُستعمل في منطقة القبائل الكبرى دهانٌ أحمر يملَّس دائماً بعناية فائقة، وتُرسم عليه الأشكال بالأسود، وقد تُرسم عليه استثناء بالأبيض. ويُستعمل اللونان في هذه المنطقة كذلك في الآنية الكبيرة لتخزين المؤونة وفي الجرار، ويؤثر استعمال اللون الأحمر للرقاب. وأما الزخارف فتُرسم باللون الأسود، ويُفاض عليها من الدهان، بما يسمح زيادة على ذلك بتقطيع سطح الإناء وإشباع الزخرفة عليه، فتصير متعددة الألوان.

وتكون الزخارف المرسومة في غاية التنوع، على الرغم من الرتابة الظاهرة توحي بها الأشكال الهندسية التي تغلب فيها المثلثات، والتي لها شيوع في سائر هذه المناطق. وليس هنالك، حسب ما أعرف، غير ناحية واحدة من القبائل الصغرى، غرب جيجل، هي التي تزيد إلى الزخرفة الهندسية المألوفة على فخارياتها زخارفَ زهرية وخُضرية تتداخل مع الأشكال الهندسية في صورة غريبة مع الأشكال الهندسية [المألوفة]. وربما بدا هذا الأسلوب الزهري استثناء غير قابل للتفسير إذا لم نُسبقه بالفحص المتمعن الدقيق؛ فنحن نستبين به بعض العلامات الصغيرة مبتوتة أحياناً بين زخارف الفخاريات في المناطق الأخرى، يجتمع فيها الآدميون والحيوانات، والخضراوات. وقد بينت لنا دراسة أكثر تعمقاً أن أشكال الزخارف

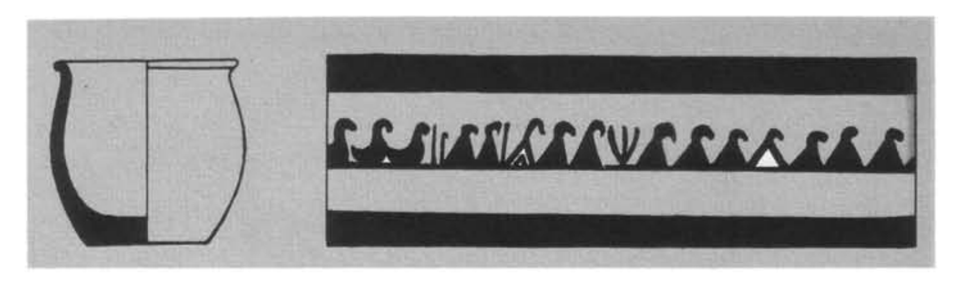


124. فخاريات مزوقة من منطقة القبائل الصغرى، وعليها رسوم باللونين البني والأسود على دهان أبيض.

ذاتها، التي صارت اليوم يطغى عليها التجريد من كل الوجوه، إن هي إلا ثمرة، أو بالأحرى بقايا، لصور قديمة قد صارت تضعف بالتدريج، لأنها لا تعدو عن تمثيلات تبسيطية. وهذه الزخارف الهندسية نفسها، المرسومة على الآنية أو على الجدران والتي باتت اليوم لا يفهمها أولئك من الرجال والنساء الذين يعيدون إنتاجها على الطريقة التقليدية، نطالعها كذلك على المنسوجات وفي الأوشام. والأسماء المجازية التي تُجعل لهذه الزخارف (الجندي، والفراشة، وعين الحمار...) تشفّ عن أصولها التصويرية، وتسمح أحياناً بالاهتداء إلى معناها البدائي.

ولا نرى فائدة في إطالة الحديث عن القرابة المباشرة القائمة بين زخارف الفخاريات لقُبَيْل التاريخ وزخارف الفخاريات في الوقت الحاضر، فما زلتَ إلى اليوم تجد آنية تُزَخرَف باتباع أسلوب تيديس (الذي يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد). ولا يقتصر التطابق فيهما على الرسوم، بل يتعداها إلى التكوين، وتقطيع الفضاء، وتوازن التصاوير. ولكَمْ كانت دهشتي عظيمة عندما رأيت على صحن زُوّق في سنة 1955 في شمال الونشريس الزخارف نفسها التي كانت تُحفر على قشور بيض النعام عند البونيقيين في القرن الرابع قبل الميلاد!

ولكن لا ينبغي أن نبالغ في القول بقدم الأشكال الهندسية، وهو في المشرق قِدم أكبر مما في بلدان المغرب. فعلى خلاف ما يمكن أن يذهب إليه الاعتقاد، فالرسوم الهندسية المبسطة التي يصير فيها الخيال البشري لعبة شيطانية، أو يصيّر العصفور مثلثاً، أو يصيّر الشجرة حسكة، لم تكن نتيجة لتطور طويل في الزمان. فهذا إناء صغير قد اكتُشف في تيديس يُظهر كيف أن هذا التبسيط يتم بصورة تكاد تكون



125. آنية من تيديس (القرن الثالث ق. م.) تبين الانتقال من الزخرفة المجسدة إلى الرسوم المبسطة.

فورية. إنه إناء عليه زخرف معتدل لنقش يصور طيوراً جُعلت في شبكتين. وقد بدأ الخزاف برسم ثلاث بطات يمكن تمييزها بسهولة، وجاء عليها بثلاثة مثلثات وجعل لها زوائد تمثل الرأس والمنقار؛ فصارت هذه الزوائد بعدئذ لا تزيد عن خطوط معقوفة.

الأصول المتوسطية للفخاريات المشكلة بالأيدي والمزوقة

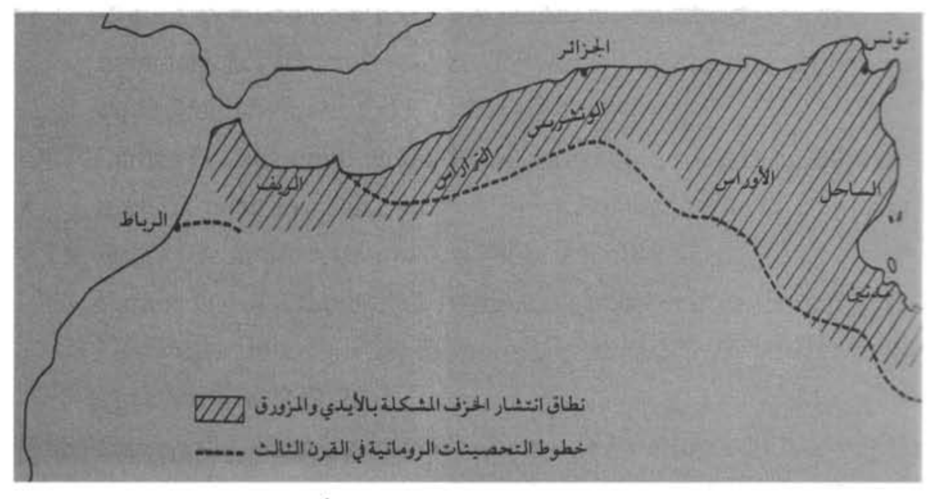
تدخل هذه الزخارف، التي تلوح كأنها ألغاز ورموز، في الإرث الفني العريق للسكان البربر في الشمال. وقد نال التجاهل وجود الخزف المزوق العتيق أمداً طويلاً، وليس ببعيد أن يكون التشابه الكبير بين المنتجات القديمة والحديثة أدى إلى إهمال المنتجات القديمة، أو أدى إلى طرحها واستبعادها. ومع ذلك فإن بعض علماء الأعراق وعلماء الأثريات (ماك إيڤر Mac Iver، وڤان جنيب Van Gennep وشانتر Chantre) لم يتوانوا عن عقد المقارنات بين الخزف المشكّل بالأيدي والمزوق في شمال إفريقيا والمنتجات الجميلة لما قبل التاريخ أو قبيْله، في منطقتيّ حوض البحر الأبيض المتوسط والمشرق. وتُبين الأشكال والزخارف المكونة لمختلف هذه المجاميع من الأساليب عن تشابهات كبيرة، بما يحمل على الاعتقاد بوجود قرابة بينها. ونلحظ في الأسلوب الهندسي في قبرص خاصة وجود قرابة كبيرة له بالمنتجات الخزفية لبلاد البربر. والحال أنه قد تأكد وجود علاقات بين هذه الجزيرة وشمال إفريقيا؛ إذ كان بعض القبارصة ممن ساهموا في بناء قرطاج.

وما أكثر أولئك الذين قالوا بهذا الافتراض، لكن ليس بينهم من جاء له بدراسة متكاملة تسنده وتحيط بمختلف المجموعات الفخارية. ومن ذلك أن إ. گ. گوبير E. G. Gobert يميل إلى الاعتقاد بأن هذه الخزفيات، المنفصلة عن بعضها بالزمان والمكان، تبين عن أوجه تقارب غريبة بفعل تطابق التقنيات التي استُعملت

فيها من ناحيتيّ التشكيل والزخرفة؛ ولذلك فلا تعدو تلك التشابهات أن تكون وليدة لمصادفة.

غير أن هذا الموقف ما عاد له أساس يقوم عليه بعد أن اكتُشفت الفخاريات المزوقة داخل الأنصاب المقابرية في شمال إفريقيا والتي تعود إلى عصور قبيْل التاريخ. ولقد مكنني التجميع الذي قمت به في سنة 1956 لأنواع شتى من الفخاريات المزوقة لتي تعود إلى بضعة قرون قبل الميلاد، من إيجاد رابطين بين إدخال تقنية الخزف لمزوق وخصائص ثقافية تعود بأصولها إلى الجهتين الشرقية والوسطى من حوض لبحر الأبيض المتوسط.

وربما لا نملك أن نجزم بأن خزف شمال إفريقيا يعود بأصوله إلى منتج من لمنتجات المميّزة لجهة من الجهات أو ثقافة من الثقافات بعينها، ولكنني أميل إلى إيلاء أهمية خاصة إلى فخاريات بداية عصر المعادن في صقلية، بسبب من أوجه الشبه والقرب الجغرافي بينها ومنطقة شمال إفريقيا، وأخصّ منها الفخاريات من أسلوب كاستيلوشيو Castelluccio (1800–1400 ق. م)، الذي انتشر في سائر أنحاء هذه الجزيرة، وجرى استنساخه في مالطا، أكثر مما أميل إلى الأخذ بالتأثير القبرصي المباشر. ويمكن اعتبار أساليب أخرى متأخرة، يجتمع فيها أسلوب بنتاليكا Pentalica وثابسوس، وكاسيبيلي لأواخر العصر البرونزي كذلك من بين أصول الفخاريات

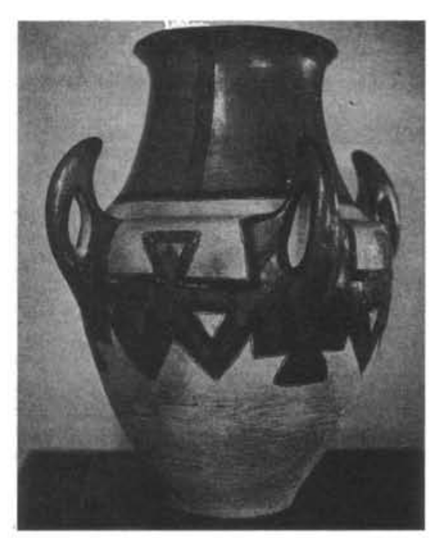


126. خريطة تبين تطابق انتشار الفخاريات المشكلة بالأيدي والمزوقة في بلدان المغرب بشكل غريب مع امتداد الحكم الروماني.

البربرية المزوقة. ولا يمكن أن نغفل كذلك الغلبة التي كانت للزخرف الهندسي على فخاريات جنوب إيطاليا خلال العصر الحديدي.

والحال أن هذه الأساليب الخزفية، المتشابهة على جانبيّ مضيق صقلية، ليست هي السمات الثقافية الوحيدة الناطقة بالعلاقات الموغلة في القدم بين شبه جزيرة صقلية والجزر الإيطالية والجهات الشرقية من منطقة شمال إفريقيا. وإن أكثر الظواهر دلالة في هذا الصدد، من بعد التصدير الذي كان يقع من قديم الزمان في أحجار هذه الجزر إلى إفريقيا، وإدخال الدلمنات والأنصاب الصخرية الكبيرة التي لها ببعضها علائق ووشائج، لهو ما نرى في شمال تونس وفي شرق الجزائر من تلك النواويس الصغيرة الموجودة مثيلة لها في صقلية. فلقد احتوت هذه القبور المكعبة المحفورة في جوانب الصخور في صقلية على مختلف الأساليب الفخارية (كاستيلوشيو وكاسيبيلي)، التي رأينا من المعقول أن تكون هي الأصل للخزف المشكل بالأيدي والمزوق في بلدان المغرب.

وهنالك ملاحظة أخرى تزيد من تعزيز القول بالأصل المتوسطي لهذا الخزف وتسبغ عليه صفة الوثوق؛ ذلك بأننا نتعجب للتوزيع الغريب فيه، والذي يبدو أنه



127. جرة بطلاءين أحمر وأبيض من ترميتين (القبائل الكبرى).



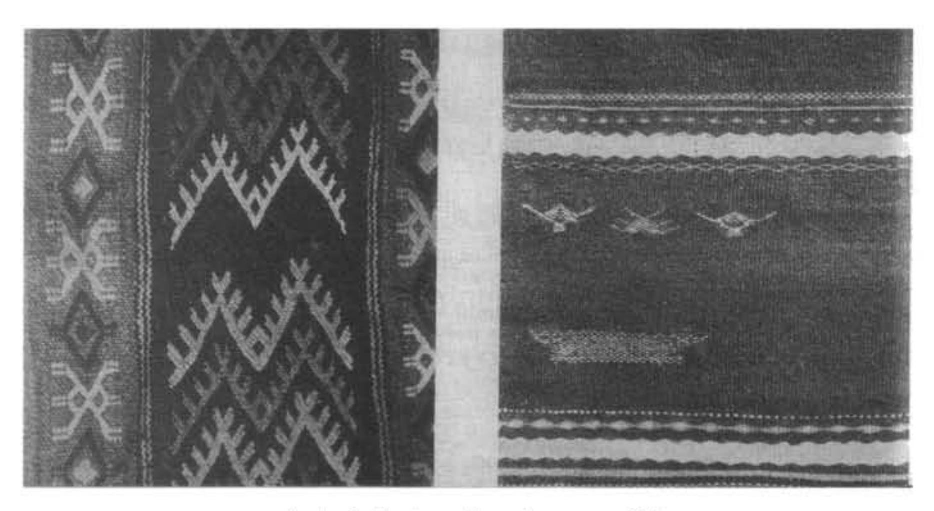
128. إناء كبير لحفظ المؤونة من وادياس (القبائل الكبرى). زخرفة لامعة الطلاء.

لا يخضع لأي ضرورة جغرافية أو عرقية؛ فما هو بالمرتبط بشكل من أشكال المناخ، ما دمنا نلاقيه في المناطق شبه الصحراوية، في الجنوب التونسي (تطاوين ومدنين)، كما نلاقيه في المناطق المطيرة (جبال البابور [في الجزائر]، و[جبال] المقعد [في تونس]) وهذه الفخاريات يقوم على صنعها سكان الجبال (في الأوراس، والقبائل، والريف) كما يصنعها سكان السهول (في عين البيضاء)، ويشتغل بصنعها الناطقون بالبربرية (القبائليون، والأوراسيون، والريفيون) والناطقون بالعربية (في شمال تونس، وفي شرق الجزائر، بفي طرارة بمنطقة وهران). ومع ذلك فإن مراكز إنتاج هذه الفخاريات توجد كلها شمال خط يبتدئ من الجنوب التونسي (تطاوين، ودوز)، ويمر جنوب النمامشة (نقرين) وجنوب الأوراس، ثم يصعد صوب شمال الحضنة، ليسير بموازاة الحد الجنوبي للأطلس التلي في غرب الجزائر، ويصل إلى المحيط الأطلسي، وقد شمل جبال زرهون شمال غربي مكناس. ومن غريب أن هذا الخط يتوافق والخط الحدودي للتحصينات الرومانية في القرن الثالث، وقت أن بلغ الحكم الروماني أوج توسعه في إفريقيا. ولا يمكن لهذا التطابق أن يكون وليد الصدفة؛ فالفخاريات المشكلة بالأيدي والمزوقة والحكم الروماني ظاهرتان متوسطيتان قد وصلتا كلتاهما إلى الصحراء شرق بلاد البربر، بيد أنهما أهملتا السهول الأطلسية والمرتفعات الكبرى في المغرب.

وعليه، فالخزف المشكل بالأيدي والمزوق في بلدان المغرب وُجِدَ في مناطق شديدة التنوع، كان التأثير الثقافي المتوسطي عليها كبيراً على الدوام؛ فلا يصح أن يوسم هذا الخزف بالبربري، وأحرى أن يسمى قبائلياً؛ ذلك بأن قسماً كبيراً من الناطقين بالبربرية في المغرب والصحراء ليس لهم به من معرفة، كما أن هذا الخزف تنتجه مجموعاتٌ قد عرّبت منذ وقت طويل. ومع ذلك فإن هذا الخزف يشكل الرمز الحي لنزعة محافظة تقنية وجمالية في شمال إفريقيا تضرب بجذورها قروناً إلى ما قبل التاريخ. فيكون مثالاً عن «الاستمرارية البربرية».

الصناديق القبائلية

يخضع العمل على الخشب، وخاصة نحتُه بواسطة الحفْر، كما تخضع الأنواع العديدة من المنسوجات، لقواعد جمالية متطابقة، وتمثل فائدة كبيرة للموضوع الذي نحن بصدده، لكن ربما تأدى بنا تناولها بالتحليل إلى توسعات تخرج بنا عن إطار هذه الدراسة. غير أن ذلك لن يمنعنا أن نتوقف عند تلك الحالة العجيبة التي تمثلها



129. رسوم على بساط من غرداية (مزاب).

الصناديق القبائلية. وهي قطع أثاث عظيمة، ذات أشكال شديدة البساطة؛ فالصندوق بطول مترين وزيادة وعرض ما بين 0,60 إلى 0,70 متر، ويقوم على قوائم غليظة وطويلة. وقد كانت هذه القطع، وهي كل الأثاث الذي تشتمل عليه البيوت القبائلية تدخل في استعمالات كثيرة. فهي قد كانت من حيث المبدإ تُتخذ، كسائر الخزائن لحفظ الملابس والحلي وسائر المدخرات النفيسة (التي تُهيأ لها صندوقة داخلية)، بل وتُحفظ فيها كذلك البندقية والأسلحة البيضاء، وباختصار كل ما يستحق أن يُخفى عن الأنظار. وتُزاد الحماية للممتلكات الموضوعة داخل الصندوق متى كان حجمه وصلابته يسمحان لرب الأسرة الحريص بالنوم على غطائه، الذي يجعلونه في قطعة واحدة ثقيلة.

إن هذه الصناديق نتاج خاص لمنطقة القبائل، وأكثر ما تتميز بالزخرفة التي تزين واجهاتها والجوانب الظاهرة على قوائمها. وهي زخرفة ترتبط بشكل أصلي يناسب بتقشفه الذوق الحديث، وفيها تفسير لولع الأوروبيين بهذه الصناديق.

وعلى الرغم من أن زخرفة هذه الصناديق هندسية صرفة، فإنها تختلف كثيراً عن زخرفة الفخاريات. فبينما يتطلب شكل الآنية في حد ذاته تنسيقاً أفقياً تتوزع فيه الزخارف إلى أشكال متتالية، تستدعي الواجهات المستطيلة الطويلة للصناديق تنظيماً عمودياً لتلك الزخارف. وهو تكوين يفرض نفسه بسهولة؛ ولاسيما أن معظم العناصر الزخرفية تكون رسوماً صغيرةً تُثَبَّتْ على الصندوق. وعليه فليس من

نستغرب أن تكون الزخرفة المنحوتة على الصناديق، والتي تعزز منها المسامير ذ ت الرؤوس البارزة، تبدو مظهراً هندسياً غير معهود البتة في الفخاريات، وهي التي تقترب بموضوعات زخارفها كثيراً من الرسوم التي على المنسوجات. ويزيد من هذا الانطباع كذلك وجود سلاسل عُقيدات على واجهات الصناديق، بعضها متوج بنقوش ذات سنينات أو مربعات قد جُعلت في توازن وتناسق. ونجد الرسوم نفسها والروح نفسها غالبة على زخرفة الأبواب الخشبية المنحوتة.

يستعمل الحِرَفي القبائلي الفرجارَ في وضع الرسوم المكونة لهذا النحت بطريق الحفر. والفرجار شيء غير معهود في الفخاريات المغاربية. وبهذه الطريقة تُرسم على الخشب شتى أنواع النجميات، وأكثر أشكالها شيوعاً هو الشكل السداسي ذو الست تويجيات. ويحضر فيها شكل آخر أقل شيوعاً؛ يتمثل في الصليب متساوي الأضلاع ومدور الأطراف، والذي يُجعل في شبكة مقوسة الخطوط تتصل بجوانبه وهذا شكل بربري خالص. وعلى الرغم من الطابع الروماني الذي نراه على صناديق



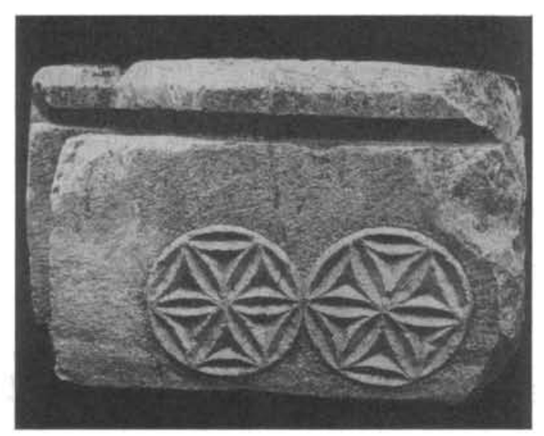
131. باب منحوتة من جماعة تمسغيدة (في القبائل الكبرى).



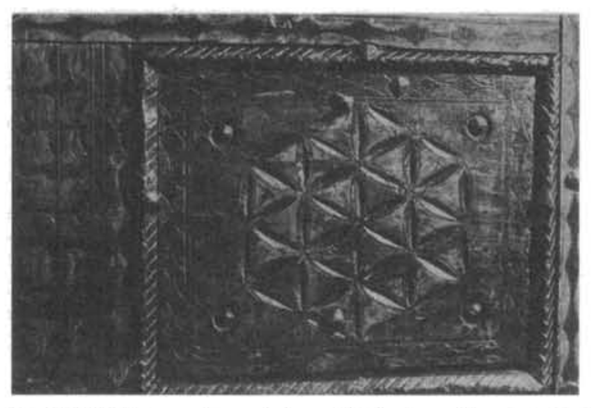
130. نجمية من 6 عناصر (مسدسة) من العهد الروماني في وليلي (المغرب).

كثيرة فسيكون من العبث أن نبحث في هذا الشكل عن صدى للماضي المسيحي للبربر، لأننا نجد الصليب «القبائلي» محفوراً على الصخور في الأطلسين الكبير والصغير، وربما كان يعود بأصوله إلى ألف سنة قبل الميلاد أو نحوها، بجانب رسوم أسلحة تعود إلى العصر البرونزي.

يمثل هذان الرسمان السداسي والصليب مدور الأضلاع شاهدين جديدين وقيّمين على هذه الاستمرارية الفنية الدائمة لعالم البربر. ولقد تركت لنا العصور القديمة المتأخرة على أحجار الكاتدرائيات المسيحية سلسلة من الرسوم المنحوتة لكن طالها الإهمال في العهد الكلاسي؛ فيها الأشكال السداسية، والنجميات المتنوعة والشاريات، والسُّنينات، والمربعات المنسقة، والخوابير، والخطوط المنكسرة، فنحن نراها تتطابق والزخرفة التي يأتون بها اليوم على خشب الصناديق وعلى الأبواب القبائلية.

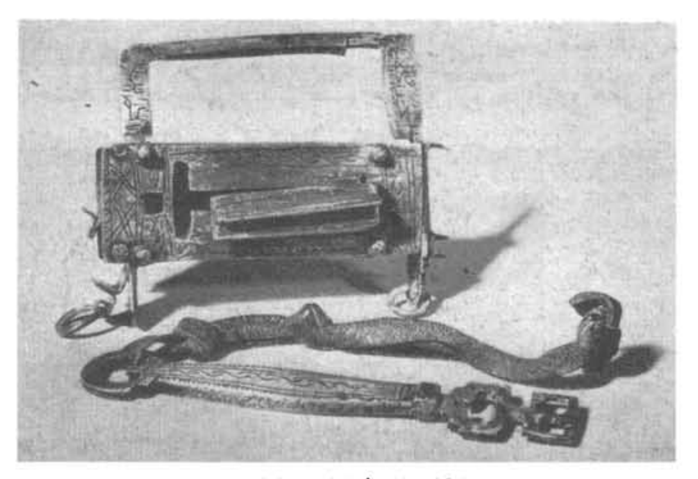


132. قطعة منحوتة من باب قبائلية من غرغور، يظهر عليها رمز الصليب مدور الأطراف.



133. قطعة منحوتة من باب قبائلية من غرغور، يظهر عليها الشكل السداسي.

وهكذا، فالزخرفة على الخشب تبدو ضاربة بجذورها في قديم الزمان، شأنها شأن الزخرفة على الفخاريات المشكلة بالأيدي، وإن كانت بينهما فروق واختلافات. فالزخرفة على الخشب من عمل الرجال، ويغلب عليها الطابع الحضري ويسمها التعقيد. والحال أن الصناديق نفسها التي استُعملت في تجسيد هذه الزخارف تعتبر شواهد في غاية الإبداع. فمعظمها مصنوع من خشب الأرز، وقد تكون القطع التي وصلتنا منها تعود إلى غابر الأزمان. ولكن إذا لم يكن بين أيدينا للتأريخ لها إلا [ما نرى من] قدم زخرفتها وأشكالها، فلا أقل من أن نتساءل عن عمرها وعن أصولها الحقيقية. ومرة أخرى نجد في علم الأثريات شاهداً على هذه الاستمرارية ففي متحف باردو في تونس صندوقان من خشب الأرز كانا يُستخدمان تابوتين قد استُخرجا من المقابر البونيقية في قصور الساف (على الساحل) وفي جكّتيس Gightis قبالة جربة. ويطابق هذان الصندوقان بشكلهما وحجمهما الأثاث القبائلي؛ بما يعني أن عمر «الأسلوب القبائلي» يزيد عن ألفي سنة!



134. قفل طوارقي ومفتاحه.

«الحدادة» : المصوغات الطوارقية

تسمح لنا منتجات المصوغات التقليدية بالإحاطة بجوانب أخرى من قدم هذه التقنية والمحافظة عليها.

وينبغي أن نترك الصياغة الطوارقية جانباً، وهي التي بقيت في أشكالها كما في زخارفها، منحصرة في هندسة مستقيمة الخطوط لا تخرج عنها، فهي تضفي على حليها، سواء منها الرجالية أو النسائية، مظهراً في غاية الإثارة. وهذه الأشياء التي

معظمها أنواط أو قُرَب للتعاويذ وخواتم، تكون لها زوايا مقرَّنة. والحدادون (وهو الاسم الذي يُطلَق [عندهم] على كل من يشتغل بالمعادن) يستخدمون ألواح الفضة والميشور؛ فيقطعونها بالمقص وينقشونها بالمنقَش، فلا تنمّ لديهم عن قدرة تخيّلية كبيرة، إلا في صناعة الأقفال الحديدية والنحاسية؛ فهم يفيضون عليها من الزخارف.

وهذه الأقفال ذات أجسام مستطيلة، ويُجعل لها مفتاح أوعدة مفاتيح مزخرفة هي الأخرى، وهذا نوع من الأقفال يضرب بأصوله في قديم الأزمان، وقد كان معروفاً كذلك عند البربر في جنوب المغرب. وكان لهذه الأقفال شيوع في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى، ويبدو أنها كانت معروفة كذلك خلال العصور القديمة. وكان من عادة نساء الطبقة النبيلة من الطوارق أن يشددن إلى أطراف حجُبهن مفتاح القفل الذي يجعلنه للجراب الكبير المصنوع من جلد الغزال والذي يحفظن فيه المؤن. وقد تولّد عن هذه الممارسة شيءٌ صار يُجعل لمجرد الزينة، وسمي مفتاح اللثام (أسارو أوان أفير).

وتعلق النساء في أعناقهن الملاقط المشوّكة، وهي أعمال فنية بقدر ما هي أشياء نفعية؛ وربما اختلط الملقط بحلية، لأن جسمه يوسَّع في جوانبه وتُجعل له زوائد مقرَّنة لها إيثار خاص في المصوغات الطوارقية. ولاغنى للرجل عن حمل حقيبة («إرمدان» وتشتهر باسمها العربي «منكش»)، يجعلها في قراب جلدي، وتكون تحتوي دوماً على الملقط المشوك، وشفرة مسنونة، ومخرز. وكذلك يعلق هذه الحقيبة في عنقه بخيط جلدي، فهي ضرورية كمثل محفظة النقود وقراب التميمة والتعويذة.

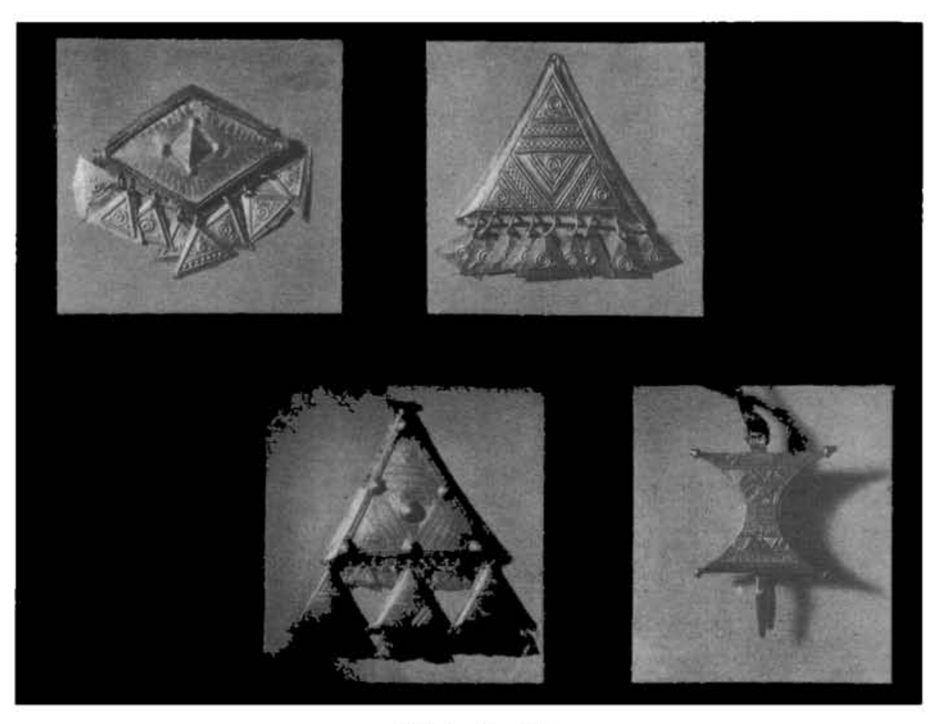
وفي ما خلا هذه الأشياء النفعية، التي يمكن أن نزيد إليها المطارق النحاسية الصغيرة تُستعمل في كسر قوالب السكر، فما أسهل ما يمكن حصر قائمة أشكال الحلي [المدينية في منطقة شمال إفريقيا]، شأنها شأن قائمة الزخارف، لأن هذه الحلي تفتقر إلى أي أسلوب من أساليب الربط، ولا تُحمل إلا معلقة، أو تُربط بالأصبع أو بالذراع أو تجعل حولهما. والطبيعة البدائية لهذه المصوغات الطوارقية تجعل في حد ذاتها من الصعب استبيان أصولها؛ هي التي انضاف فيها مكون إفريقي إلى أساس «بربري»، ما جعلها على وجه الإجمال لا تمت إلى العالم المتوسطي بصلة كبيرة.

شكلا الحلي القروية المغاربية

وأما الحلي والمجوهرات القروية في بلدان المغرب فهي أكثر ثراء. وتُصنع المجوهرات في سائر القرى والجبال المغاربية من الفضة، ويكون بعضها في أحجام

خصبة، وقد تُستبدل أحياناً في العصر الحديث بالمعدن الأبيض، كالميشور أو أي مزيج حر يستعاض ببريقه على نقص جودته. وقد ظل الصائغون يقتصرون لوقت طويل على تذويب النقود الفضية للتحصّل على القدر اللازم من هذا المعدن، كما وأنهم كثيراً ما يعيدون تذويب الحلي القديمة فيحتفظون منها بالأحجار الكريمة من المرجان و الأحجار النفيسة، والعناصر الزجاجية. ولقد قامت هذه الممارسة الموصولة حائلاً دون الحفاظ على الحلي القديمة. بيد أن صون هذه التقنية قد حافظ للحلي، كما حافظ للفخاريات، والمنسوجات، والأثاث الخشبي، على مظهرها التليد.

ولقد بات من اليسير علينا بفضل أعمال هـ. كامب فابرر H. Camps-Fabrer أن نتعرف في المصوغات المغاربية على مجموعين تقنيين كبيرين تحصلت لنا منهما منتجات على قدر كبير من الاختلاف، وإن يكن أساسها واحداً، ذانكما هما: المصوغات المشكلة بالأيدي والمخرّمة والمصوغات المرصعة. فأما النوع الأول فهو معروف [في بلدان المغرب]، وهو، إذ جاز لنا التعبير، منتوج مغاربي، وأما النوع الثاني فهو محصور النطاق كثيراً؛ إذ لا يتعدى بعض النواحي الصغيرة والمحدودة وربما اقتصر وجوده على مجموعة من القرى المتخصصة فيه. وقد كان ترصيع



135. حلي طوارقية.

المصوغات لا يزال ممارسة جارية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين في منطقة القبائل لدى بني ينى*، وفي تونس في بلدة المكنين، وفي جزيرة جربة، وفي المغرب، في الأطلس الصغير، وفي تزنيت على وجه التحديد. ولقد توقفت المشاغل في المكنين وجربة في الوقت الحالي عن إنتاج هذه الحلي، كما نقص إنتاجها كثيراً في المغرب. وحدها منطقة القبائل لاتزال تحافظ بصعوبة على صناعة الحلي المرصعة.

الحلي المشكلة بالأيدي والمخرمة : إرث من العصور القديمة

لاتعدم الحلي المشكلة بالأيدي خصائص مائزة. فقد كانت هذه الحلي في معظم أنحاء المغرب الكبير من عمل حرفيين يهود كانوا يتجولون في هذه البلاد، ويسيرون أحياناً في ركاب الرحل يرافقونهم في تنقلاتهم. وإن في هذا الغياب لمشاغل ثابتة



136. طوارقية من تامسنا (النيجر) تحمل «مفتاح اللثام»، لمجرد الزينة.

*- ورد في الأصل «آيت يني».

بعض ما يفسر الوحدة الغالبة على هذا الإنتاج، لكن في الإمكان أن نتعرف في هذه الحلي، كما في الفخاريات والمنسوجات، إن لم يكن على الأساليب فعلى الأقل على الجهات التي تكون فيها هذه الحلي خاضعة لنماذج معلومة أكثر مما في جهات أخرى. وينبغي أن نزيد تبياناً أن من الصعب أن نميز في هذه المصوغات العتيقة ذات التقنيات البسيطة بين ما يمكن أن يكون فيها راجعاً إلى أصول بربرية قديمة وبين الإضافات البدوية الطارئة عليها. والأوراس هي أكثر الجهات التي تتيح التعرف على الجوانب المائزة لهذه المصوغات.

وتتسم هذه الحلي بتنوع كبير في الأشكال؛ فبالإضافة إلى العقود، والأساور والخلاخيل، والأقراط، التي هي حلي للجسم، نتعرف على نماذج كثيرة من المشابك التي تُجعل اثنين للملابس، والمشابك الدائرية. ومعظم هذه الحلي تُصنع باستعمال القوالب. وبالإضافة إلى الرسوم التي تتحصّل للصائغ من الصهر، يمكنه أن يستعمل كذلك طريقة الحزّ، وقد يستعمل أحياناً الرشم بواسطة منقش محفور. ويقوم الصائغ في بعض الحالات ببسط الزخرفة على لوح الرصاص، فيتحصل على رسوم بارزة، كما نراها على القرُب التي تُجعل للتمائم. وأكثر ما تكون الفتيلة المعدنية عبارة عن سلك محلزَن وملحوم إلى القطاعة الصقيلة؛ وهذه صورة مألوفة في الحلي الأوراسية، ثم تُسبَغ عليها لمسات لونية باستعمال أحجار كريمة ولآلئ من الزجاج الأحمر أو الأخضر.

وأكثر الخصائص تمييزاً لهذه الحلي ما نرى فيها من وفرة السُّليسلات الدقيقة وطولها؛ فهي تتدلى من العقود حول الرقبة، ووفرة الحلقيات، والأقراط، وطولها. وتُحمّل هذه السُّليسلات بأنواط متعددة الأشكال، يمكن أن نتعرّف فيها على خيالات بشرية شديدة البساطة، وأيد، وأهلة، وأسطوانات، ورسوم مستطيلة تسمى «زريعة الدلاح»، لكنها تتطابق و«الأنواط الخنجرية» التي تعود إلى عهود قبيل التاريخ في أوروبا. وبالفعل فإن هذه السُّليسلات وأنواطها تذكرنا بجواهر أواخر العصر البرونزي والعصر الحديدي الأول، بيد أن هذه الجواهر لم تختف كلياً من مصوغات العصور القديمة، بل نراها تعود إلى الظهور وبقدر من القوة في أواخر الإمبراطورية ولدى البيزنطيين. والحال أن هنالك تقنية مألوفة في المصوغات الإغريقية الرومانية هي المسماة «المخرَّمات»*، وإليها يعود نمط آخر من زخرفة الحلي الأوراسية وحلي

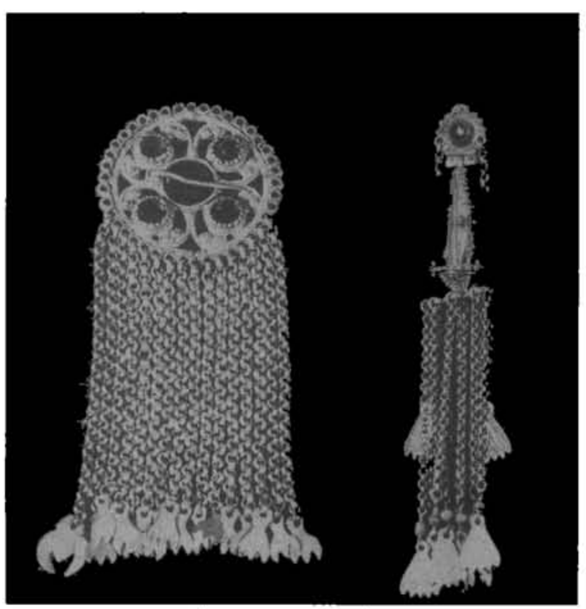
*- باليونانية في الأصل *opus interrasile*.

الجنوب التونسي. وتتمثل هذه التقنية في تقطيع لوح الفضة وتخريمه بحيث تظهر عليه رسوم في غاية الدقة تغلب عليها الأشكال الهندسية، لكن كثيراً ما تُستوحى رسومها من عالم النبات، ومن عالم الحيوان أيضاً. بل إننا نطالع على هذه المخرمات في الجنوب التونسي رسوماً لطيور وأسماك عن طريق التقطيع المبرز للحزوز، وهي رسوم تبدو مستنسخة عن حلي العصور القديمة، أو عن النقيشات في الكنائس المسيحية.

المصوغات المرصعة، باربارية وبربرية

تنتمي المصوغات المرصعة، التي رأينا تموضعها الغريب، إلى عالم فني آخر.

غير أن هذه المصوغات، سواء منها التي في جنوب المغرب، أو التي في منطقة القبائل الكبرى، لا تبين عن اختلافات كبيرة في أشكال حليها عن المنتجات المتحصلة من التقنية الأخرى. بيد أنها تزيد عليها تنوعاً. ومن بين الأشكال المميزة لهذه المصوغات ينبغي أن نشير إلى تلك اللآلئ الكبيرة في حجم البيضة، التي نجدها في جنوب المغرب، والتي تتخلل حلي الصدر بين المشابك الكبيرة مثلثة الرؤوس. وهذه البيضات، ذات القيمة المحققة، لأنها تمثل وقاية من الأمراض، يُستعاض بها عن قُرب التمائم مربعة الزوايا في الحلي القبائلية. وهنالك شكل آخر أصيل؛ نريد به الشّعرية



137. مشك ثوب بمعلقات من الأوراس. وهي حلي أشبه بمنتجات الصياغة القديمة.

الكبيرة التي تُثبَّت إلى غطاء الرأس، وتتخذ في منطقة القبائل أحجاماً على كثير من المبالغة. وهي تتكون في هذه المنطقة من صفائح مرصعة ومشدودة في صفوف كثيرة من حُدبيات مثبتة إلى سلاسل. وأما العقود والأقراط والأساور فهي أكثر عدداً وتنوعاً. ويسري الأمر نفسه على الأنواط التي ليست مجرد قُطاعات صقيلة، بل هي حلي حقيقية مستقلة في حجم الحبيبات والفتائل المعدنية وفي زخرفة شبيهة بزخرفتها. وهي تُجعل على هيئة «أوراق البلوط» والنجوم، والأيدي، و«تابوقالت» (الآنية الصغيرة).

وتكون هذه الحلي على وجه الإجمال في أحجام أكبر من أحجام المجموعة الأولى. فمشابك الأثواب تكون لها دائماً رؤوس مثلثة بالغة الكبر؛ والمشابك الدائرية في منطقة القبائل يصل حجم الواحد منها إلى 15 سم ووزنه حتى 800 غ، والحال أنها تكون دائماً من العيار الرفيع.

ويحتل المرجان في المصوغات القبائلية مكانة هامة، وتُتخذ الأجزاء السميكة منه برسم الأحجار الكريمة؛ فهي تُثبت في كل أنواع الحلي. وقد تُثقب أجزاؤه الصغيرة طولياً، فتكون لآلىء أنبوبية الشكل وأنواطاً.

لكن أكثر ما تتجلى فيه أصالة هذه المصوغات هو بطبيعة الحال ترصيعُها. ويسبق عملية الترصيع لحمُ فتائل معدنية محلزنة، أو أسلاك سميكة تقسم الزخرفة إلى خانات. ويُجعل في تلك الخانات مساحيق لدهانات مختلفة؛ فيها الأصفر والأخضر، والأزرق، ثم توضع الحلية في موقد للفحم يسعّر الحرفي ناره بمنفاخ



138. زخرفة على مشك صدري كبير من جنوب تونس.

أو حملاج. وكثيراً ما ترى الحرفي في المكنين وفي جربة يقوم بتذهيب الفضة، وقد يُسبغ عليها من اللون الأحمر. وفي جنوب المغرب وفي المكنين يُستعاض عن المرجان في المصوغات بالأحجار النفيسة والزجاج.

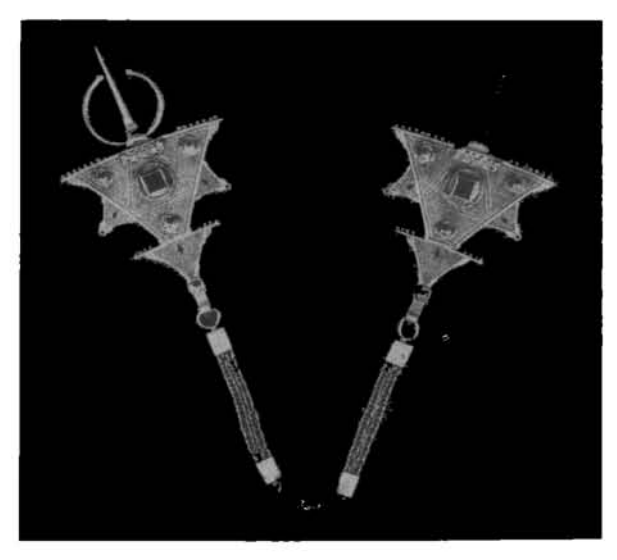
وهكذا، فإن لكل مركز من مراكز إنتاج المصوغات المرصعة عناصر أصالة تميزه، لكنها تشترك في أشكال الحلي وتنسيق المجوهرات التي تمثل الأساس لكل المصوغات البربرية في الشمال، كما تشترك في تقنية ترصيعها. غير أن خشونة الأشكال، والتنافرات الصارخة في ألوان الترصيعات، وتكوين الزخارف في هذه المصوغات تجعلها بما لاجدال فيه أكثر «باربارية» من المصوغات المشكلة بالأيدي والمقطعة. والحال أننا لا نجد شبيهة بهذه الحلي في شمال إفريقيا خلال العصور القديمة، قبل مجيء الوندال.

وبالفعل فالحلي القبائلية، وحلي المراكز الأقل أهمية في جنوب المغرب، وفي تونس، تنتمي إلى الأسرة الكبيرة من المصوغات ذات الحواجز، أو الفتائل المعدنية والمرصعة التي ظهرت في المشرق، وعرفت أكبر انتشار لها في أوروبا لدى الممالك الباربارية من فرنكية Franc، ولومبارية Lombard، ووزقوطية Wisigothique خلال العصور الوسطى المبكرة. وعليه فقد أمكن للوندال، وهم قوم آخر من الجرمان، أن يُدخلوا هذه التقنية إلى إفريقيا. لكن يبدو من المستعبد أن الوندال كان لهم، بقلتهم العددية، واقتصار حكمهم على القسم الشرقي من إفريقيا الرومانية لمدة لا تزيد عن القرن من الزمن، على وجه التحديد، من التأثير ما مَكَّن لهذه التقنية سبيل البقاء في مناطق (كالقبائل والأطلس الصغير) لم يكن لهم عليها من سلطان.



139. سوار من المخرمات في الأوراس.

ولذلك وجدنا مؤلفين كثراً، أمثال جـ. مارسي G. Marcais ود. جـ. مو ـي D. Jacqus-Meur، وهـ. كامب فابرر، وإن كانوا لا يعترضون على القول بدخـ ـن هذه المصوغات خلال الحقبة الوندالية، فإنهم يذهبون إلى الاعتقاد بدخول ثان ـ حدث وأعظم. فنحن نجد المصوغات المرصعة ذات الفتائل المعدنية قد بقِي لها ـجود غير بعيد عن بلدان المغرب، لدى المسلمين في الأندلس، فكانت نموذجاً اتُّبع في ـصوغات الإفريقية. ولقد أنتجت هذه الصياغة عند الناصريين في غرناطة في الفترة ـن القرنين الثالث عشر والخامس عشر تحفاً حقيقية؛ من قبيل السيف المسمى «سيف ـي عبد الله». واستمر وجود الفن المدجن* إلى وقت لاحق، وحتى الطرد النهائي ـموريسكيين في مطلع القرن السابع عشر. ثم جاء هؤلاء، الذين صاروا يعرفون ـالأندلسيين، للاستقرار في المناطق الساحلية من بلدان المغرب، وكان وصولهم إلى ـتك البلدان بموجات متتالية، منذ أن استُكمل الاسترداد المسيحي للأندلس وحتى عمليات الطرد التي وقعت عليهم في الأعوام 1609–1614، وجاءت إلى إفريقيا منهم بأكثر من 200 000. والحال أننا نعرف أن بعض الأندلسيين نزلوا في المناطق ـداخلية من المغرب، وصولاً إلى مراكش، وتارودانت على مشارف جبال الأطلس ـشكلوا في وسط الجزائر قسماً مهماً من سكان مدينة الجزائر وبجاية على جانبيّ منطقة ـقبائل الكبرى. وفي تونس تلقت منهم مدن تونس، وسوسة، والمهدية أعداداً كبيرة.



140. حلية كبيرة من تزنيت.

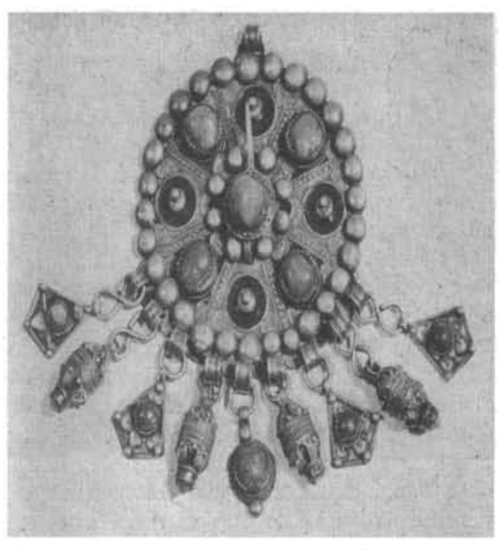
---

* – Mudéjar، وهو فن مسيحي متأثر بالإسلام في أوروبا.

وعليه، فليس ما يمنع من الاعتقاد بمساهمة الأندلسيين في هذا المضمار، وأنهم أدخلوا إلى بلدان المغرب، أو أعادوا إليها، تقنية كان الوزقوط Wisigoths جاءوا بها إلى إسبانيا، وظل العرب يحافظون عليها ويُثرونها طوال قرون.

وقد كانت المصوغات المزوقة في المغرب وفي تونس، ككل ما يتصل بالاشتغال بالمعادن النفيسة، شأناً يختص به اليهود. وربما كان هؤلاء هم الوسطاء بين الصائغين الأندلسيين، وقد كان معظمهم كذلك يهوداً، والزبائن المغاربيين. لكن من الصعب التسليم لهم بهذا الدور في منطقة القبائل؛ حيث يقوم القبائليون بأنفسهم في الوقت الحاضر بصنع حليهم. غير أن الأمر لم يكن على هذا الوجه دائماً؛ فبعض القبائل مثل آيت خيار قد وُجِد لديها صائغون يهود، ولا يبدو أن اختصاص بني ينّي بالصياغة يعود إلى أكثر من قرنين من الزمن، ومن المحتمل أن يكون هذا التخصص صار لديهم بفعل مجيء أولئك الحرفيين من بني عباس من القبائل الصغرى واستقرارهم في القبائل الكبرى، وقد كانوا هم أنفسهم على علاقات موصولة ببجاية.

وأياً ما يكن، فالذي يبدو بالفعل أن الطلاء المزخرف بالفتائل، وهو شيء غريب عن منطقة شمال إفريقيا، قد أُدخِل إليها من إسبانيا ابتداء من القرن السادس عشر. وقد كانت في أولها تقنية حضرية، كشأن كل مساهمة أجنبية، ثم انتقلت إلى القرى واستمرت متداولة في المناطق البربرية، فيما كانت الدُّرجة تتغير في المدن، التي هي أقل محافظة.



141. تبزيمت من الحديد المحوجز والمرصع من بني يني (القبائل).

فمن هذا الذي ذكرنا نتبين كيف أمكن لتقنية مشرقية، ظهرت في مكان ما من شمال إيران، أن تنتقل بفعل زيغ غريب في التاريخ، عبر السهول الأوروبية بأيدي الجرمان، ليقيَّض لها البقاء طوال قرون في أقصى الغرب الإيبيري، قبل أن تدخل خلال العصور الحديثة إلى شمال إفريقيا. وتبقى هذه الحلي بتقنياتها وفخامتها الباربارية منتجات من العصور الوسطى في قلب القرن العشرين.

والأغرب من ذلك أن نرى كيف أمكن لتقنية ساسانية sassanide، فوَزقوطية ثم إسلامية أندلسية، قبل أن تصير «بربرية» صرفة، أن تندمج ذلك الاندماج الكامل [في منطقة شمال إفريقيا] خلال زمن قصير نسبياً. وفي هذا الباب كذلك تبدو الاستمرارية البربرية قد تكونت خاصة من قابلية خارقة لدى البربر لتقبلّ المساهمات الخارجية. لكن سهولة تقبل البربر لتلك المساهمات توازيها سهولة استيعابهم وتمثلهم لها، بحيث يفرغون على المصنوعات الناجزة لمسة بربرية يصعب تمييزها بقدر ما يصعب إنكارها.



142. امرأة قبائلية متزينة بالحلي.

السلطة بدون الدولة

لا يقوم المجتمع البربري على نموذج معلوم. ولكن من بين الأشكال السياسية الكثيرة التي يعرفها البربر، أو عرفوها على مر القرون، يُعتبر ذلك النموذج الشبيه بالجمهورية القروية هو الأكثر تمييزاً وشيوعاً لدى المقيمين منهم. والطابع القروي لهذه المؤسسات شيء لا يمكن إنكاره.

الجمهورية القروية في منطقة القبائل

تعود سلطة القرار في القرية إلى «الجماعة»؛ وهي تجمع لأهل القبيلة يستأثر إمغارن (الشيوخ، ورؤساء الأسر) وحدهم بحق الكلام فيه. فهي إذاً ديمقراطية من حيث المبدإ، لكنها محدودة في الواقع. فالقرار في القرية يكون دائماً بأيدي أسرتين أو ثلاث؛ فهي تتحكم في الرأي عن طريق لعبة محكمة من العلاقات والضغوط أو المرجعيات التاريخية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المحافظة على روابط قوية بين أفراد الأسرة الموسعة تضمن تجمّع المساكن في أحياء أو قرى صغيرة تراها تستبسل في الحفاظ على استقلاليتها داخل الجماعة.

والقرية القبائلية، المعروف تنظيمها أكثر من تنظيم سواها، ليست في حد ذاتها سوى فخدة من القبيلة يُجعل لها في العادة نسب مصطنع. فيقال: بني يني وآيت إراتن، وآيت منقليت. والجماعة تأتلف في مبنى جماعي تتقدمه ساحة أشبه ما تكون بأجورا حقيقية مصغرة، يجتمع فيها الرجال ولا يُستثنى منها اليافعون. ويُستهل الاجتماع بتلاوة آيات من القرآن من قِبل أكبر الرجال سناً وأكثرهم نفوذاً، أو من لدن الشيخ ممثل الأسرة المرابطة التي اندمجت في كل قبيلة قبائلية. وتجري العادة على أن تلي ذلك التبرك بعضُ النتف الكلامية بارعة الأسلوب يُطلَق فيها العنان للفصاحة المتوسطية. ثم يسير الاجتماع في تدرج من العموميات إلى الأمور المخصوصة، وحولها يدور النقاش. وقد يطول الاجتماع كثيراً. ويكون

الخلوص إلى القرار في معظم الإحيان إما بالرضا والقبول الفردي أو بالهتاف التلقائي أو شبه التلقائي.

وتسري تلك القرارات على حياة الجماعة برمتها. وتقوم الجماعة مقام المحكمة فهي تصدر الأحكام، وتحدد الغرامات عن كل مخالفة، أو تحكم بالإبعاد، وتحل النزاعات بين الجيران العنيدين أو الورثة المتخاصمين. وتقوم الجماعة نفسها مقام المجلس البلدي، فهي تحدد مبالغ المساهمات في أوقات الطاعة والامتثال، وتقرر الأعمال ذات المصلحة العامة، وقد باتت تنحسر اليوم إلى الحدود الدنيا. وكانت الجماعة تقوم مقام محكمة عليا؛ فهي تحدد وتوجه العلاقات مع الخارج والعلاقات مع القرى الداخلة في القبيلة الواحدة، والعلاقات مع «الأجانب»؛ والمراد بهم القبائل القبائلية الأخرى، والعرب، ثم الغزاة الأتراك، والفرنسيون.

والجماعة تتخذ كذلك قرارات تتعلق بالحياة اليومية والحياة الفصلية؛ فهي تحدد الوقت لبدء الحرث ووقت الحصاد. وهنالك موعد أكثر أهمية؛ هو الذي يكون فيه جني التين. والجماعة تعلن مقتها الشديد لمن يخالفون تلك القرارات. ويكون في ذلك الإعلان الرسمي تأكيد لسلطة جماعية لما تتخلص بعدُ من طابعها المقدس البدائي؛ لكننا نستبين فيها بوادر للديمقراطية.

التنظيم البلدي في دقة خلال القرن الثاني ق. م

وعلى صعيد أعلى توجد تنظيمات بلدية أكثر تطوراً. ونادرة هي القرى الإفريقية التي كانت توجد على رأسها تلك التنظيمات، وما كانت من صنع الغزاة الأجانب.

وأكثر تلك التنظيمات البلدية إثارة للاهتمام، لأنه أقدمها، هو التنظيم الذي كان للمدينة النوميدية القوية «ثقة» Thuga (أو «دقة» في تونس)؛ إحدى المدن الرئيسية في مملكة ماسينيسا. وتجيئنا كتابات نقوشية عديدة ثنائية اللغة، من الليبية والبونيقية، بصورة على قدر كبير من الدقة عن الحكومة البلدية على عهد الملك ميسيبسا. فقد كانت تتألف من مجلس للمواطنين، وباسمه كرِّس معبد ماسينيسا في سنة 138 ق. م. وأما الشخصية الرئيسية في المدينة فهو ملك سنوي («أكَيليد» *aguellid* بالليبية و«مملكت» MMLKT بالبونيقية)، كان يحمل اللقب نفسه الذي للملك النوميدي. وقد كانت له مهمة سنوية؛ إذ تُسمى السنة التي يحكم فيها باسمه، ويمكن أن يعاد له الانتخاب. ويأتي من بعد الملك قاضيان يحملان لقب «رئيس المائة» («MUSN» بالليبية و«RBT T'M» بالبونيقية). وهذان القاضيان



143. طاحونة للزيتون ومعصرة للزيت في قرية قبائلية.

شبيهان بقضاة قرطاج، غير أن الترجمة البونيقية تنافي كلياً هذا التطابق. ويعتبر ج. فيڤريي J. Fevrier هذين القاضيين رئيسين للمجلس. ويكون تحت هذين الموسنين Musn قاض أخر يحمل الاسم الليبي «MSKU»، وهي وظيفة ليس لها ما يعادلها في التنظيمات البلدية الفينيقية، لأن النص البونيقي ينقل الاسم دون ترجمته.

ومن الأمور الغامضة كذلك تلك الوظائفُ التي يقوم بها «الگزب» GZB و«الگلدگمل» GLDGMIL، اللذان لم يترجَم اسماهما إلى البونيقية، بل اقتُصر فيهما على النقل الحرفي. ويذهب ج. فيڤريي إلى أن الاسم الثاني يدل على أحد رؤساء القسيسين، أي القسيس الأكبر.

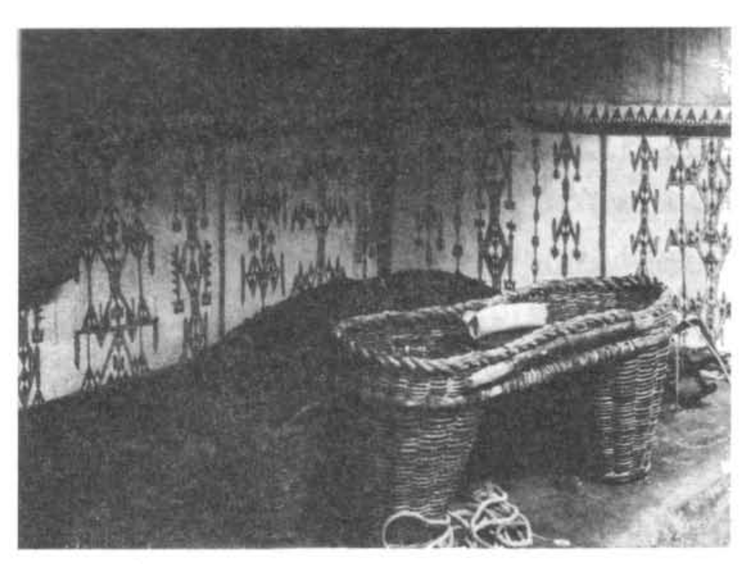
وتكمن فائدة الكتابات النقوشية التي في دقة في أنها تطلعنا على تنظيم لا يدين حسبما يبدو بشيء ذي بال إلى الفينيقيين. غير أن المدن النوميدية الرئيسية ستصير عليها، تحت حكم خلفاء ماسينيسا، إدارةٌ مستنسخة من المؤسسات البونيقية. وما أكثر المدن التي ستصير يحكمها قاضيان، وظل ذلك شأنها حتى في العهد الروماني. بل إن بعض تلك المدن، من قبيل مكثر، والمديْنة Althiburos، وجندوبة Tubrunica ودقّة، قد كان لها تحت الحكم الروماني كذلك ثلاثة قضاة. وتشير كتابة نقوشية من العهد الروماني في قالمة إلى أنه قد اجتمع على هذه المدينة في وقت واحد قاضيان و«أمير» *Princeps* يبدو أنه كان المعادل لملك دقة.

والمؤكد أنه قد كان على رأس المدن، علاوة على القضاة، مجلسٌ يتألف من كبار رؤساء الأسر، بل كانت على رأسها جمعية من أهل القبيلة تتحكم في السيادة المحلية. فقد كانت هذه المدن، وهي ليست جميعاً بذات الأصل الفينيقي، شديدة الحرص على سيادتها. فقد كانت، وهي تحت سلطة الملوك، ثم خلال القرن الأول من الحكم الروماني، تقوم بسكّ نقودها. ونحن نرى الطابع البلدي لنقود بعض المدن مثل ليكسوس وطنجة مبيّناً في الإشارة إلى من أمروا بضربها من «الباليم» *balim* (المواطنين).

الجمهورية التربّبية المزابية

سنختار من الزمن الحديث نموذجاً آخر من الجمهورية الحضرية، والجمهورية التي نريد قائمة على تربّبية موروثة عن التقاليد القروسطية.

وتعتبر مدن مزاب الخمس (في الصحراء الجزائرية) آخر وريثة للسيادة الإباضية المتحدرة عن الحركة الخوارجية. وهذه المدن الخمس هي غرداية، ومليكة وبني يزقن، وبونوارة، والعاطف، وهي ذات تاريخ يطبعه التعقيد. فقد أسِّست في القرن الحادي عشر من لدن الإباضيين، بعد تدمير مملكة تاهرت الرستمية. وكان الإباضيون لجأوا أولاً إلى سدراتة (في منطقة ورقلة). لكن منذ تلك اللحظة وقع اختيار مجموعة منهم، بما كان لها من شدة جسارة وشدة حيطة، على منطقة وادي مزاب المنعزلة. ويبدو أن احتلالهم لهذه المنطقة كان في مبدئه مطبوعاً بالكثير من الفوضى؛ ذلك بأن كل واحدة من المدن الخمس التي أصبحت تشكل تلك المقاطعة قد تكونت، في ما عدا غرداية، من اتحاد قرى كثيرة. وسرعان ما تعزّز إباضيو مزاب بمجيء إباضيِّي سدراته، التي وقع عليها التدمير في سنة 1078، كما تعزز جانبهم بروافد متفرقة جاءتهم من جماعات إباضية أخرى من جربة وجبل نفوسة. وقد كان المزابيون شديدي تعلق بالعقيدة الإسلامية، فصيّروا مدنهم قلاعاً دينية ومنعوا أتباع المذهب المالكي من دخول المزارات والأحياء الدينية. ولهذا السبب فالأسواق، وهي في جوهرها أماكن دنيوية دنسة يتردد عليها الجيران من غير الإباضيين، من أمثال عرب الشعانبة، كانت تقع خارج أسوار المدينة. وتكون هذه المدينة شديدة تحصين، وتشرف عليها مئذنة المسجد. ويقع مسجد غرداية، وهو قلب المدينة، وسط أقدم أحيائها، ويحده حالياً شارع يشكل بمساره الإهليليجي نسخة مطابقة من السور الأول.



144. رسومات جدارية في بيت قبائلي من واديباس (القبائل).

ولقد أفلح المزابيون في صون استقلالهم؛ فقد حافظوا جزئياً على الحكومة التربّبية التي كانت تحكم في تاهرت. ولم يعد عندهم إمام، وهو ملك منتخب من حيث المبدإ، لأن كل مدينة قد صارت تحكم نفسها بنفسها، لكن السلطة كانت، كما في المملكة السابقة عليهم، ممركزة بين أيدي مجلس من رجال الدين؛ هم «العزابة» و«الطلبة». وكانت هذه الجماعة التربيية تقيم العدل وتحدد مشارطات التحالف والمعاهدات، وتعاقب عن كل مخالفة للعقيدة وكل إخلال بالعادات. غير أن جماعة الطلبة كانت، على غرار المحاكم الدينية في الغرب خلال العصور الوسطى تسند تنفيذ أحكامها إلى السلطة الدنيوية التي تتألف من جماعة الشيوخ (جماعة الأعوان). وقد كان يتعين على هذه الجماعة أن تكون على معرفة بالعالم الخارجي فكانت تجتمع في ساحة السوق، يرأسها حكيم ليست مهامه الشرطية والرقابية على السوق بمختلفة كثيراً عن مهام شيخ التجار. وأما القاضي، الذي يقوم مقام قدامى الحكام (المشايخ) فقد كانت تقع على كاهله مسؤوليات ثقيلة؛ إذ كان يجمع إلى وظيفة القاضي وظائفَ رئيس الإدارة البلدية. فلاغرابة أن يكون تعيينه من اختصاص جماعة الطلبة، التي كانت هي وحدها المخول لها بتغيير القوانين.

وعليه، فمهما بدا أن السلطة عند المزابيين كانت برأسين، وتتقاسمها الجماعتان فإن السلطة الفعلية كانت تتركز بين أيدي رجال الدين. لكننا نجد لدى المزابيين كما في مجموع العالم البربري، بعض الظواهر التعويضية التي تصحح هذه النزعة

التسلطية الممزوجة بنزعة تعصبية. ومن ذلك أن رجال الشرطة كانوا يشكلون جماعة أخرى؛ هي المدعاة جماعة المكاري، وقد كانت كأنها نقابة حقيقية؛ فهي تعترض أحياناً على سلطة الطلبة. وعلاوة على ذلك، فالمدينة كانت تشهد انقسامات أخرى تُخفف من السلطة الدينية. فقد كان المزابيون، كسائر المجموعات البربرية منقسمين إلى «صفوف» متعادية، وفيها تندمج حتى القبائل المجاورة من غير المنتمية إلى الجماعة الإباضية.

التنظيم المجزأ عند آيت عطا

ليست الجمهورية القروية أو الحضرية هي الأساس الذي تقوم عليه السلطة فهي تنشغل بمشكلاتها الداخلية، وتتشبث ببقائها، وتمزّقها أحياناً نزاعات طاحنة. بل السلطة يمتلكها تجمّع أهم؛ كالقبيلة، أو اتحاد للقبائل. وقد ظلت هذه التجمعات تسعى على مر القرون في تكوين دول.

ولنضرب مثالاً لهذه التنظيمات القبيلة بالاتحاد القبلي القوي لأيت عطا في الجنوب الشرقي من المغرب. وقد ذهب بعض المؤلفين، على غرار د. م. هارت D. M. Hart، إلى أن آيت عطا يشكلون «قبيلة عليا»، بالنظر إلى أن كل المجموعات المكونة لهذه القبيلة تزعم لنفسها الانتساب إلى جد مشترك؛ هو «ددّا عطا» الذي قضى في محاربته للعرب الرحل. ويعود ظهور هذا الاتحاد إلى القرن السادس عشر، وربما يعود بوجوده إلى ما قبله؛ لأن بعض الروايات تجعل ددّا عطا تلميذاً لسيدي سعيد أحنصال الذي عاش في القرن الثالث عشر.

ينحدر آيت عطا من صنهاجة، الذين جاءوا من الصحراء، ثم أخذوا في التغلغل تدريجياً في الأودية التي في الأطلس الكبير (آيت ن أومالو). ويمثل جبل صاغرو القاحل الأجرد في الوقت الحالي المركز لبلاد آيت عطا، لكن فخدات كثيرة من هذه القبيلة (آيت عطا الصحراء) قد تفرقت في تافيلات، ودرعة، والزيك ودادس. ومنها مجموعات أخرى اجتازت جبال الأطلس، واتجهت ناحية الشمال حتى أشرفت على مكناس.

وآيت عطا معظمهم من الرحل، ويعيشون على تربية الأغنام، وفي الجنوب على رعي الإبل. وهم يمارسون نوعاً من السيادة، أو إنهم بتعبير أدق يمنحون «حمايتـ»ـهم (الرعاية) إلى الفلاحين المشتغلين بالنخيل مقابل نسبة 14/1 و 31/1 من المحصول. فقد كان آيت عطا مقاتلين أشداء، وكانوا في حرب مفتوحة مع معظم جيرانهم

خاصة مع عرب معقل، كما كانت لهم حروب في القرن الثامن عشر مع المجموعة البربرية القوية آيت إفلمان. وكان آيت عطا هم آخر من قبل بالدخول تحت وصاية السلطان، وما خضعوا للقوات الفرنسية-الشريفة إلا سنة 1934. ويقدر عددهم الإجمالي اليوم بـ 000 200 نسمة.

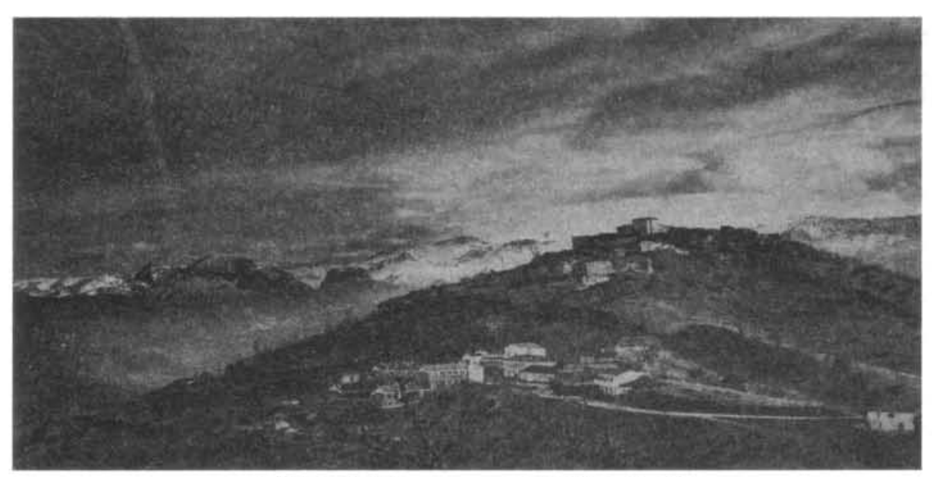
يقوم التنظيم السياسي لآيت عطا على ركيزتين اثنتين. فأما الركيزة الأولى فهي أشبه بالمقاطعة الاتحادية، وهي فضاء مقدس (حرم) يسمى «تافراوت ن آيت عطا» في جبل صاغرو. وقد كانت تعقد في إغرم أمزدار محكمتها العليا (ليستناف) واحتُفظ لنا في تيني أورشام براية آيت عطا الحمراء ووثيقة من جلد الجمل دُونت عليها تقسيمات مجموع القبائل إلى خمسة أخماس.

وتعتبر هذه الأخماس على وجه الدقة هي الركيزةَ الثانية لتنظيم سياسي في غاية التعقيد. فليست الأخماس بتقسيمات ترابية صغرى، بل مكونات يُقال إن لها ببعضها نسباً ووشيجة، وبعضها انضمت إليها بطريق الاختيار قبائلُ «أجنبية». والحالة الأبرز ههنا هي التي يمثلها بني محمد، وهي قبيلة عربية انحاشت إلى خُمس آيت أونبگي. بما يعني أن المجموعات المكونة لأحد هذه الأخماس يمكن أن تكون شديدة تباعد عن بعضها ومختلطة بالأخماس الأخرى.

كان لهذا الاتحاد القبلي «أمغار ن أوفلا»؛ أي رئيس أعلى. وقد كان تعيينه حتى سنة 1926 يكون في صورة هي مثال للبراعة في التوازن السياسي. فقد كان هذا الرئيس يُنتخب في كل سنة من أحد الأخماس، وأما المنتخِبون فيكونون من الأخماس الأخرى، التي لا يكون لها في تلك السنة حق تقديم مرشح عنها. وكان هذا الأسلوب المعقد، الدوري والتناوبي في وقت واحد، يسمح من الناحية المبدئية بالتخلص من الضغط الذي يمكن أن تمارسه العشائر القوية داخل الأخماس لتغليب جانب المرشحين المنتسبين إليها.

وكانت كل مجموعة أو قبيلة من المجموعات والقبائل المشكلة لتلك الأخماس تنتخب بطريقة ديمقراطية «شيخاً للعام»؛ فيتولى الحكم بمساعدة مجلس يتألف حسب القبائل، إما من وجهاء وشيوخ، أو من مجموع الرجال البالغين.

وليس هذا التنظيم القطاعي الخماسي بالحالة الفريدة في الحياة السياسية البربرية. فهذا د. مـ. هارت يشير إلى وجود تجسيدات عديدة لهذا التنظيم في المغرب وحده



145. القرية القبائلية تاوريرت ميمون في فصل الشتاء.

لدى آيت ورياغل في الريف، أو لدى دكالة في السهل الأطلنتي. وقد كان القسم من موريتانيا القيصرية، الذي يوافق منطقة القبائل في الوقت الراهن، عرف في الثلث الأخير من القرن الثالث اتحاداً قوياً كان يسمى لدى المؤرخين الرومان وفي الكتابات النقوشية الرسمية باسم (*Quinquegentiani*). وليس هو بالاسم البربري المحرف بل تسمية إدارية لتجمع من خمس قبائل (*quinque gentes*). عدا أننا نعرف على وجه التقريب أسماء القبائل التي كانت تؤلف هذا التجمع. فالراجح، حسبما يرى لـ. گالان L. Galnd، أن يكون تجمعاً خمسياً، على منوال النظام الذي كان لدى آيت عطا. ويمكن أن نذكّر في هذا الصدد بأسطورة ساقها بوليفيا Boulifa، وتفيد أن القبائليين يعتبرون أنفسهم ينحدرون من خمسة أبناء لأحد العمالقة. وقد شكلت القبائل الخمس المنحدرة من هؤلاء الأشقاء في وقت لاحق اتحاد «زواوة».

الاتحادات النوميدية والمورية

يمكننا أن نتعرف في العصور القديمة، وفي العصور الوسطى بوجه خاص على وجود لتلك القبائل القوية، التي غالباً ما تكون تتحكم في قبائل أخرى، وتتزعم الاتحادات القبلية.

ونحن لا نعدم الأمثلة على هذه القبائل. فقد تكونت في نطاق المملكة النوميدية بين ما يُعرف اليوم بتونس والجزائر، قوة قبلية مهمة على امتداد نهر موثول Muthul (وادي ملاق)؛ ذلكم هم المزالمة. وقد اشتهر هؤلاء بثورة تاكفاريناس على عهد الإمبراطور تيبيريوس Tibere، ثم صار إقليمهم إلى انحسار، أولاً بسبب الاستعمار

الروماني، ثم جرى تحديد نطاقه بعناية كبيرة. لكن بقي هذا الإقليم شاسعاً مترامي الأطراف؛ فهو يمتد من مداوروش إلى تبسة، ومن حيدرة Hammaedara إلى الجزء الأعلى من وادي مسكيانة. وقد تكونت بلديات ومستعمرات حيدرة، وتالة ومداوروش، وتبسة، على حساب المزالمة.

وكان هنالك إقليم آخر يكاد يكون على القدر نفسه من الاتساع؛ لاتحاد نوميدي أقل شهرة، ذلك هو اتحاد المسيسريين Misiciri، الذين كانوا يستوطنون المنطقة الغابوية والجبلية في شمال مجردة على الحدود الجزائرية التونسية. وبالإمكان أن نتعرف بفضل ثلاث كتابات نقوشية لاتينية واثنتين وستين كتابة نقوشية ليبية في إقليم المسيسريين (MSKRH بالليبية) على مجموعات تسمى NBIBH (ربما كانت هي النابابي Nababe، الذين يُعرف اسمهم في أماكن أخرى)، وNNDRMH الذين يذكرنا اسمهم باسم ندرومة (في وهران)، وCRMMH، وNSFH، وNFZIH. فالذي يبدو أن المسيسريين كانوا ينقسمون على أنفسهم إلى خمس عشائر أو قبائل. وهذا عنصر جديد ينبغي إضافته إلى احتمال وجود تنظيم خماسي من القبائل العليا أو الاتحادات البربرية.

وعرفت الموريتانيتان تجمعات أكبر وأعظم؛ فلقد يسّر لهما تنظيمهما القبلي المقاومة الطويلة للتغيرات التي جاءت بها عملية الرومنة. ومن تلك التجمعات نذكر الباڤار، الذين نجد ما يدل عليهم في مناطق عديدة من موريتانيا القيصرية، بحيث يغلب عليّ الاعتقاد أن فيهم مجموعتين على الأقل؛ إحداهما تقع في جبال البابور (ومن المحتمل أن يكونوا منها استمدوا اسمهم) على حدود نوميديا وموريتانيا والأخرى توجد في المرتفعات الساحلية إلى الغرب من وهران على مقربة من ملوية؛ ذلك النهر الذي قال عنه أحد الكتاب اللاتين من القرن الخامس، هو يوليوس هونوريوس Julius Honorius، إنه يمايزهم عن باكوات موريتانيا الطنجية. وكانت هنالك مجموعات أخرى من الباڤار تعيش منعزلة، كما في وسط الجزائر (حسبما نستفيد من الكتابة النقوشية التي في مليانة، ومن قولة أميين مارسولين. وقد ذهب البعض من هذا التشتت الذي كان فيه الباڤار إلى الاعتقاد بأنهم كانوا من الرحل، غير أن لي رأيا مخالفاً في هذا الباب. فقد كان اسم الباڤار دائم الورود في مناطق جبلية سكنتها من قديم الزمان أقوام من المقيمين (البابور، والطرارة، والونشريس).

فأما باڤار الشرق فنحن نتعرّفهم من تكريسات كثيرة للحكام الرومان. فهم قد شكلوا خلال الثورة المورية الكبيرة لسنوات 253-262 تهديداً، كما شكلوا خطراً

على الجزء الغربي من نوميديا. وفي حوالي سنة 255 قُتِل لهم ثلاثة ملوك في معركة طاحنة. ثم قاموا بضع سنين بعدُ باجتياح شمال نوميديا يقودهم أربعة ملوك. فمن هذا الذي ذكرنا نستفيد أن الباڤار كانوا قبائل كثيرة، بين خمس وأكثر، قد تجمعت في اتحاد قوي.

وأما باڤار الغرب فهم الأقدم ذكراً؛ فقد يكون اسمهم جاء على نقش في مدينة وليلي يرجع إلى منتصف القرن الثاني، وهم الذين يريدهم كذلك كتاب متأخرون أمثال يوليوس هونوريوس، الذي يجعل موضعهم بجوار موريتانيا الطنجية.

وقد شكل الباڤار مع الباكوات في ما بين 222 و235، تحت إمارة الإسكندر سيڤيروس Alexandre Sévère، مجموعة واحدة، وكان للباڤار المقدمة في هذا الاتحاد.

ويمكننا تتبع التطور السياسي الذي صارت إليه قبيلة الباكوات بفضل مجموعة كبيرة من الوثائق الكتابية النقوشية التي تم العثور عليها في مدينة وليلي. فهي تفيدنا أن لقاءات دورية كانت تنعقد بين حكام موريتانيا الطنجية ورؤساء هذه المجموعة. كما نجد لدى الكتاب، وفي السيَر الرسمية، وفي الدراسات الكونية* حديثاً كثيراً عن



146. طفلتان من مزاب.

* - Cosmographies، وهي علوم الدراسات الكونية، مع ما يبدو من بعد معناها عن هذا السياق.

الباكوات، مع تحريف اسمهم أحياناً، بما يرجّح أن يكون لهم وجود في موضع ما في شرق وليلي وفي جنوبها. وربما وجدنا في هذا الأمر تفسيراً للتحالف الذي كان منهم تارة مع الباڤار في وهران، وتارة أخرى مع الماسينيين Macénites في الأطلس المتوسط، والذين شكلوا وإياهم اتحاداً. غير أننا لا نعرف هل كانوا هم أنفسهم الباكوات الذين قاموا في ما بين 117 و122 بغزو تنس Ténès (في الجزائر)؛ فقد اكتُشفت في هذه المدينة قاعدة لتمثال فيها تخليد للمقاومة الظافرة التي كانت من هذه المدينة. وتجمع كل الوثائق الأخرى الأقرب عهداً على موضعة الباكوات في موريتانيا الطنجية.

وأصبح الباكوات خلال النصف الثاني من القرن الثالث هم وحدهم الذين نطالع أسماءهم على هياكل مدينة وليلي، بل تفيدنا هذه الهياكل كذلك أن رئيس هذه القبيلة أصبح يسمى بالملك، بعد أن حصل على المواطنة الرومانية في ما بين 245 و249. وهكذا ففي سنة 277 وقع يوليوس نوفوزي Julius Nuffuzi، ابن الملك يوليوس ماتيف Julius Matif، لا مجرد معاهدة للسلم، بل تحالفاً حقيقياً (*Foedarata pax*)، مع الوالي الروماني. وهنالك واقعة أخرى يتجلى فيها الصعود الذي تحقق لقبيلة الباكوات والأسرة الحاكمة؛ فالملك ما عاد يشارك في المفاوضات مع الوالي كما كان يفعل أسلافه، بل صار يفوّض لها ابنه. فعندما استدعت الحاجة لتأكيد الحلف ثلاث سنين بعدُ لقاء جديداً قام يوليوس نوفوزي، الذي كان قد خلف والده، بتفويض أخيه يوليوس ميرزي Julius Mirzi لتمثيله لدى الوالي.

وشهدت العصور الوسطى تطورات مشابهة، وإن على مستوى أكبر. فقد كرست بعض القبائل نفسها لخدمة قضايا معينة، كمثل كتامة ومجموعات أخرى من صنهاجة تلكاتة*، واستطاعت أن تؤسس لها مملكة، أو ممالك عديدة؛ ومن جملتها مملكة الزيريين ومملكة الحماديين، الذين انتهى بهم المطاف إلى أن يطرحوا عنهم القضية الدينية بعد أن كانوا فيها أبطالاً.

إن الغالبية العظمى من الممالك التي توالت على المغرب الكبير خلال العصور الوسطى شديدة التعقيد، ولم تعمر طويلاً، قد قامت على أسس دينية وقبلية معاً.

* - كتبها المؤلف كذا: Takalta!

مجتمع الطوارق الأرستقراطي

لا يزال العصر الحديث يعرف مثيلاً لهذه التنظيمات القبلية التي تحمل في بنياتها بذور الدولة. ذلك هو شأن مجتمع الطوارق، خاصة مجتمع «إهقارن» *Ihaggaren*، الذين من اسمهم (أهقار، الهقار) استُمد اسم البلاد التي يقطنونها.

يقوم هذا المجتمع على إقليم شاسع يسمى، علامة على السلطة، بـ «الطبل» (أو الطبول)، الذي هو نوع من الطبول الكبيرة بصندوق نصف كروي. فهذا هو المفسر لوجود طبل كل ريلا، وهو الأكثر أهمية، ولكن لا يكاد يمايزه شيءٌ عن طبل كل أهقار *Kel Ahagar* (أهل أهقار)، وطبل التجيهي ميليت *Tedjéhé Mellet*، الذي تقلص اليوم إلى شيء زهيد، فلا يعدو عن قيادة على قبيلة مفقّرة.

ينقسم طوارق الهقار إلى طبقتين. فأما الأولى فهي الطبقة الأرستقراطية التي يكونها الإموهاق *Imouhar*، وتتألف من عدة أنساب تستأثر بالسيادة. نذكر منها كل ريلا الذين يقولون بانتسابهم من جهة الأم إلى سلف أنثى، هي تين هنان؛ وهم المتحكمون في الطبول. ومنهم يُختار على الدوام الأمينوكال *Amenokal*؛ أي الرئيس الأعلى.

الطبقة الأخرى هي على وجه التحديد طبقة التبع، الإمراد Imrad، الذين يسمون كذلك كل أولي Kell Oulli («أصحاب الماعز» بعكس النبلاء الإموهاق). ويتكون الإمراد من قبائل عديدة (تاوسيت) ذات قاعدة ترابية، بعكس قبائل الإموهاق. ويكون الإمراد في التنظيم الاجتماعي والاقتصادي التقليدي لمجتمع الطوارق هم الذين يضمنون في الواقع البقاء للنبلاء؛ فهؤلاء يسمونهم بصيغة الجمع «تامسقيت»: القوت. والإمراد أحرارٌ، قد شارك معظمهم في الحملات العسكرية، بل يمثلون العمدة في القوة العسكرية للطبول.

وينبغي التمييز، حسب م. كَاست M. Gast، بين وضعين عند هؤلاء التبع لا يكادان يبينان للملاحظ الأجنبي. فبعض قبائلهم تعود بأصولها إلى أقوام أُخضعت قديماً إهقارن *Ihaggaren*، فتنطبق عليهم تسمية الإمراد (التبع). ومن هؤلاء الَداق رالي *Dag Rali* المقيمون في أتاكور، وهي أشد المناطق ارتفاعاً في الهقار، وآيت لواين، وكل أهنت.

وهنالك قبائل أخرى، مثل إساكامارين *Issaqqamarènes*، لا تعترف رسمياً بوضع التبع، وتعلن رفضها أداء الضريبة (تيوسي) بالغصب، وتدفع إلى الأمينوكال

ما يعادلها في شكل عطايا تعبيراً عن الولاء لهم. وتجلو لنا هذه التدقيقات اللغوية اختلافات ذات طابع تاريخي؛ فالفئة الأولى من الإمراد تمثل المهزومين أو المخضَعين والفئة الثانية تضم المجموعات حديثة اندماج في عرق الطوارق.

ويكتمل مجتمع كل أهقار بفئات اجتماعية أخرى قد اختلطت بالطبقتين المذكورتين. فالحرفيون؛ من لحامين وصائغين، يكونون طائفة شديدة انغلاق تمارس في ما بينها زواج الأقارب. وهم يعيشون مع الرحل في ما يكون لهم من منتجعات غير أنهم يفضلون منتجعات الأمينوكال. ويمثل الحرفيون نسبة هي دون 2% من السكان. وكذلك هم العبيد، الذين أصبحوا بفضل ثورة لغوية يُدعون «خدماً»، فما كانوا بالكثيرين في يوم من الأيام. وهؤلاء يكونون أبناء للعبيد، أو يُتخطّفون من السودان؛ وقد كان منهم الرعاة، وخدم البيوت والبستانيون، وكان الطُّلبة العارفون بالعربية، الذين يزعمون لأنفسهم أنهم أشراف (ينتسبون إلى البيت النبوي) والقادمون من توات، أو من الساقية الحمراء القصية، يقومون على تقديم شيء من التعليم الديني، ويعيشون على العطايا العينية يقدمها لهم الرحل والمزارعون.

فالمزارعون يشكلون في الواقع مجتمعاً موازياً غير مندمج اندماجاً حقيقياً في التنظيم الاجتماعي والسياسي لإهقارن، الذين جاءوا بهم من توات في القرن التاسع عشر، ليقوموا على زراعة بعض الأودية المحيطة. وقد كان للبستانيين في النظام القديم وضع الخماسين؛ أي أنهم لا يحوزون غير الخمس من المحصول. ثم خُوّلت لهم بعدئذ عقود بصفة المزارعين، وتحقق لهم تحسن جديد في أوضاعهم فصار لهم حق الانتفاع من الأراضي الجديدة التي يقومون على زراعتها بإنشاء «فقارات»، وهي أنفاق جوفية يستعملونها في الري. ثم أصبحوا في الأخير ملاكاً كاملي الحقوق في جميع الأراضي التي يقومون لها بالزراعة. فهم اليوم أكثر ثراء وأكثر عدداً من السادة السابقين.

إن هذا المجتمع ذا النظام التراتبي المحكم، الموجه لخدمة مصلحة المجموعة الغالبة، يبدو على اختلاف كبير عن المجتمع الذي تكونه المجموعات البربرية في الشمال. فعلى رأسه يوجد الأمينوكال، وهو سيد يمتلك كثيراً من خصائص الملك الإقطاعي، وربما كان لا يزال يحتفظ بالسلطات التي كانت بأيدي أوائل ملوك البربر. فهو يأخذ الجزية السنوية (تيوسي) من التبع، ويحصّل رسوماً عن القوافل الأجنبية التي تمر بمنطقة نفوذه، ويعود إليه قسم من غنائم الغارات التي يقوم بها الإمراد

(لكنه لا يقبض شيئاً من غنائم الغارات التي يقوم بها النبلاء)، كما وأنه يحصل على الأتاوات من المزارعين. وعلاوة على ذلك فالأمينوكال له حق الانتفاع من الخزينة العامة؛ وهي تتكون من قطيع الطبول غير قابل للتصرف فيه، وتزوَّد من الأموال الشاغرة.

والأمينوكال هو الذي يقوم على التوزيع السخي للقسم الأكبر من هذه المنتجات والعطايا العينية. فيكون الأمينوكال يشكل الحماية المادية لمجتمع الطوارق وهو يحيط نفسه في الحكم والقضاء بمجلس ليس له وضع معلوم، بل هو دائرة ضيقة من الأقارب والأصدقاء. وكذلك يعود لاستشارة النساء النبيلات اللاتي يتمتعن بقدر كبير من الحرية، ويحظين بالكثير من الاعتبار، وكثيراً ما يعمل بنصائحهن.

ويدعو الأمينوكال بضرب الطبل إلى ما يشبه الخيمة لاجتماع الرجال الأحرار والنبلاء والتبع الذين هم في سن يؤهلهم لحمل السلاح. وعن هذه الجمعية الشعبية تنبثق السلطة الفعلية. ويكون لكل شخص الحق في الحديث في هذا الاجتماع. والأمينوكال يعطي بكل حذق الاهتمام الأكبر إلى أحاديث إمغارن (رؤساء) قبائل



147. رجل من آيت إسفول (اتحاد آيت عطا، المغرب).

التبع . ولربما اعتمد عليهم ليعادل السلطة التي يمكن أن تصير لقريب من أقربائه، وهم منافسون له كامنون على الدوام، لأن لهم مثله الحق في تولي القيادة.

لكن هذا المجتمع القديم ذا الجوهر العسكري لم يقوَ على مقاومة التقلبات التي حصلت بفعل ظهور أنظمة سياسية واقتصادية جديدة. وقد كان الانحطاط - حتى لا نقول السقوط - الذي وقع للنبلاء أمراً يبعث على الاستغراب، ولاسيما أن الإموهاق كانوا قبل أقل من قرن يزلزلون الصحراء من أقصاها إلى أقصاها. لقد كان ذلك الانحطاط الذي تردى إليه النبلاء نتيجة مباشرة للغزو الفرنسي. فقد أدت السيطرة الأوروبية على بلدان المغرب وإفريقيا السوداء (السودان والساحل) إلى إضعاف تجارة القوافل؛ والحال أن هذه التجارة كانت تمثل مصدراً مزدوجاً للدخول عند الطوارق؛ فقد كانوا يحصّلون شتى الرسوم عن المرور أو الحماية، ويشنون الغارات المجزية على التجار.

ولقد أدى الغزو العسكري للصحراء بعد ذلك إلى قطع دابر كل محاولة للقيام بتلك الغزوات، وصار المزارعون إلى التحرر بالتدريج. ولذلك أصبح الطوارق في الهقار قبيْل استقلال الدول الإفريقية في ستينيات القرن العشرين وليس لهم غير ثلاثة مصادر للدخول : قطعانهم من الماغز والجمال التي ترعى خاصة في الساحل وما يقبضون عن محصول البساتين، ومتاجرة زهيدة في الملح الذي يستخرجونه من أمادرور Amadror (في شمال شرقي الهقار) أو يقايضونه بالذرة في النيجر. ثم صارت هذه المصادر ثلاثتها كذلك إلى نقص شديد. فمنذ الاستقلال وبفضل المبادئ الاشتراكية، أصبح العاملون في البساتين ملاكاً، وصارو لا يدفعون من أتاوات. وفقد ملح أمادرور معظم قيمته التجارية بفعل المنافسة التي صار يلقاها من الإنتاج الصناعي، بحيث لم يعد للمقايضة من نفع. ونقصت القطعان عملياً فما عادت تزيد عن القطيع الصغير الوحيد من الماعز الذي بقي في الهقار. وما عاد وجود للثروة الكبيرة من الإبل، ولا عاد وجود حتى للثيران التي كانت بأيدي الكل ريلا في تامسنا القصية في النيجر. ثم كانت المنغصات الإدارية التي صارت تبدر من الدول الناشئة الحريصة على استقلالها على جانبيّ حدود لم يعترف بها الرحل الصحراويون في يوم من الأيام، وجاء بعدها الجفاف الرهيب والطويل الذي استوطن الساحل خلال سنوات 1970-1977، فأتى على ما تبقى من القطعان التي ما عادت سوى ذكرى باهتة لسلطة بائدة.

وفي سنة 1975 توفي الباي، أمينوكال كل أهقار، الذي صار له في السنوات الأخيرة من حياته وضع مفارق؛ فهو ملك للطوارق ونائب في الجمعية الوطنية لجمهورية ديمقراطية شعبية. ثم لم يؤت له بخلف. فما عاد للطوارق أمينوكال وما عاد للطوارق وجود... أو إنهم على الأقل قد أصبحوا مختلفين. وبعد أن ظل الإموهاق لزمن طويل يزدرون المدرسة والحِرف اليدوية والنقود، وبعد أن ظلوا لزمن طويل يتجولون وسيوفهم متدلية إلى جُنبهم، إذا هم قد صاروا، كما صار الإمراد، وكما صار المزارعون والحدادون من بعدهم بزمن طويل، يقبلون بالقانون العام؛ ذلك القانون القاسي، قانون العمل والأجر.

الفوضى المتوازنة

إن الناظر إلى المجتمع البربري، في شكله القروي، أو في شكله القبلي، يخرج بانطباع، مهما كانت تنويعاته، بأن هذا المجتمع عرف استمرارية طويلة، لم تنل منها غير التقلبات الاقتصادية التي شهدها العصر الحديث. وفي المقابل فإن الدول المغاربية التي تكونت على مر التاريخ لم تنعم بأي استقرار، وكان عمرها عامة محدوداً في الزمان.

الملكية المستحيلة

وعليه، فالذي يمكن أن نرجم به من المحاولات التي بُذلت في بداية عصور التاريخ لتنظيم الدولة في المملكتين النوميدية والمورية لا يعطينا غير انطباع مخيّب



148 و149. خُرج ودرع طوارقيان.

بمحاولات طابعُها الارتجال على الدوام، أو بالركون إلى نماذج أجنبية. والناظر إلى الصراعات التي كانت تهز الممالك والإمبراطوريات الإسلامية في العصور الوسطى يقع في حيرة شديدة. فما كانت تلك الدول الجنينية غير تجميعات من قبائل وأقاليم لا تستمر في الزمان إلا بما تسير في اتساع؛ وما أسرع ما يعقب اتساعها انحسارٌ وانكماش. وقد سبق لابن خلدون، ذلك الملاحظ النبيه، أن كشف عن هذا العجز الذي كان من المغاربيين عن تأسيس دول تنعم بالاستقرار. فجيل أول يضع الأسس ولشَد ما تكون ضعيفة واهية، للمملكة القابلة، وجيل ثان يحقق للإمبراطورية السطوة والنفوذ ويحوز الولاء من الإمارات القصية، ويأتي جيل ثالث يفسده الترف فيضعف عن الحفاظ على تلك الإمارات. ولئن كانت الممالك القروسطية لا تستجيب جميعاً إلى هذه الرؤية المتشائمة، فالحقيقة أن الانحطاط ثم السقوط اللذين كانا يقعان لهذه الدول غير المستحقة لهذه التسمية، كانا يحدثان بسرعة لا توازيها إلا السرعة



150. طوارقي عاجري في لباس احتفالي.

التي يكون بها اتساعها. ومرد هذا الأمر إلى أن معظم تلك الدول لا يكون لها أساس ترابي تقوم عليه.

فكأن البربري إذا خرج من إطاره البلَدي أو القبلي صار عاجزاً عن تصور دولة منظمة، على الرغم من أننا لم نعدم رجال الدولة العظام، من ملوك وسلاطين ووزراء، على امتداد تاريخ شمال إفريقيا.

ويعود أحد الأسباب الرئيسية وراء ضعف الدول في بلدان البربر إلى قواعد - أو غياب قواعد - انتقال السلطة. ذلك بأن مبدأ التوارث العائلي الذي يبدو لنا أمراً بديهياً، باعتبارنا أبناء الملكية القفصية، ليس بالمبدإ الأصيل في المجتمع البربري. فهو لا يظهر إلا عندما تتجه الدولة إلى تنظيم نفسها على أسس أكثر استقراراً.

ولنمثل لهذا الأمر بأسرة الماسيليين النوميدية. فما كان أسلاف الماسيليين يتوارثون الحكم أباً لابن؛ إذ يبدو أن السلطة الملَكية كانت أشبه بالمُلْكية في أيدي أفراد الأسرة الماسيلية جميعهم، فكانت تُنقل في غير انتظام، إلى الأكبر سناً بين الرجال. وبذا، فالملك گايا، أبو ماسينيسا، لم يكن ابناً لملك، فلما مات في حوالي 207 - 206 ق.م، تولى الملك من بعده أخوه أوزالسيس. ثم لما مات أوزالسيس ولم يعمر إلا في الملك إلا قليلاً، تولى من بعده أكبر الذكور في أسرته وكان ابنَه كابوسا. وما قام ماسينيسا، وهو ابن الملك، يطالب بحقوقه في العرش في مواجهة الشاب لاكومازيس Lacumazès، أخي كابوسا، إلا بعد موت هذ الأخير (انظر الجدول ص. 134).

وتولت الأسرة الماسيلية الملك من بعد حكم ماسينيسا، الذي دام طويلاً، وظلت مستأثرة به، لكننا رأينا كيف وقع اقتسامه بين خلفائه في صورة غريبة. فلقد تقاسم أبناء ماسينيسا الملوك الثلاثة السلطةَ، عملاً في ما يبدو بمشيئة روما؛ فميسيبسا وهو الابن الأكبر، كانت له السلطة العليا على الحكومة المدنية، وكَولوسا تولى قيادة الجيوش، وماستانبال Mastanabal تولى السلطة القضائية. لكن هؤلاء الإخوة كانوا، كما تؤكد الكتابات النقوشية التي في سيرتا، ثلاثتهم ملوكاً. وليس ببعيد عن الاحتمال أن يكون سكيبيون إميليان استلهم من هذا التنظيم الثلاثي التقليدي في تدبير السلطة في مسعاه إلى إضعاف القوة النوميدية. فلقد رأينا حواضر نوميدية كثيرة يحكمها ثلاثة ولاة، بما يخالف التشريع القرطاجي الذي لم يعرف إلا الحكم يتولاه اثنان.

ثم قام ميسيبسا، الذي عاش بعد أخويه الأكبر منه سناً، بتوحيد السلطة الملكية من جديد، حتى إذا توفي ترك المملكة من جديد لثلاثة ورثة؛ هما ولداه أدهربال وهيمبسال، وابن أخيه يوغرطة، الذي قام بتبنّيه على الرغم من أن هذا الابن قد وِلد لماستانبال من خليلة.

لقد كان في تصور الملك الشيخ أن الملكية وحدها يجب أن تُقسَّم، لا المملكة. والواقع أن الملوك الثلاثة قرروا، من عجزهم عن الاتفاق، أن يقتسموا الأموال والتراب معاً. ثم وقع اغتيال هيمبسال، فإذا الورثة قد صاروا اثنين؛ فحصل يوغرطة على نوميديا الغربية، أي ماسيسيليا سابقاً، واحتفظ أدهربال بالقسم الشرقي، الذي تكوّنه ماسيليا، وجعل سيرتا لها العاصمة. ومن المعلوم أن إعادة توحيد المملكة من لدن يوغرطة لم يُكتب لها أن تعمر طويلاً، واضطر من أجل التحالف مع نسيبه بوخوس، ملك الموريين، إلى التنازل له عن ماسيسيليا. وما أن قام بوخوس نفسُه بتسليم يوغرطة إلى سيلا، حتى أصبح أخوه غير الشقيق كَوضا ملكاً على نوميديا، التي باتت تنحصر في قسمها الشرقي. وفي ذلك الوقت صار بوخوس وخلفاؤه يحكمون نوميديِّي الغرب، الذين لم يلبثوا أن اندغموا في الموريين.

ولم يقيِّض لما تبقى من مملكة نوميديا أن يحافظ على و حدته؛ فما أن توفي كَوضا حتى انقسمت المملكة في ما يبدو إلى شطرين؛ فمملكة يحكمها ماسينيسا الثاني Massinissa II، وأخرى يحكمها هيمبسال الثاني Hiempsal II، الذي خلفه يوبا الأول، آخر ملوك نوميديا.

ولئن كان أسلوب تناقل السلطة، ابتداء من كَايا وانتهاء بيوبا الأول، أسلوباً ليس فيه استقرار، على الرغم من الحكم الطويل الذي كان لماسينيسا (ستة وخمسون سنة) وميسيبسا (ثلاثون سنة)، فلأن المملكة النوميدية لم تكن ترتكز إلى أي مؤسسة تنعم بالاستقرار. بل يبدو أن السلطة الملكية نفسها لم تكن محددة في الحقيقة؛ إذ كانت قابلة لتُتشارك. فنحن أولاً نراها قد اشتملت على نظام عتيق، ذي أصول قبلية يجعل هذه السلطة ملْكية أسرية، ونتعرّف فيها عناصر سحرية، ودينية، ربما تعود إلى أشخاص عديدين في وقت واحد، ونراها في الأخير تقوم على سلطة مهتزة لسيد ذي طابع عسكري، يفرض نفسه بالقوة والبطولة، وقد يزيد إليهما هيبة أبوية، على رؤساء قبائل شديديَّ حرص على استقلالهم.

ونحن لا نمتلك معرفة كافية بالتنظيم الذي كانت عليه الممالك البربرية المسيحية عند نهاية العصور القديمة، فنسعى في تعرُّف الكيفية التي كانت تُتداول بها السلطة فيها. وقد عرفت الممالك والإمبراطوريات الإسلامية في العصور الوسطى مؤسسات عديدة، بما فيها الملكية الانتخابية، التي ظهرت لدى بعض الإمارات الخوارجية. وكان من تلك المؤسسات المستمد رأساً من التنظيم الداخلي الذي كان للقبائل الحاكمة، ومنها المستنسخ من الخلافة. ويبدو أن تناقل الحكم قد شكل على الدوام نقطة الضعف في تلك الدول؛ على الرغم من أن خلافة الابن (لكن لا الابن الأكبر بالضرورة) للأب كانت هي الاتجاه الغالب، ولاسيما أن الأصل الشريف يكون في معظم الأحيان هو الفيصل في تولي السلطة.

ولقد رأينا حتى في العصور المتأخرة أن تناقل السلطة من الأب إلى الابن لا يكون هو المؤسسة التي تعود إليها الغلبة بالضرورة. فالسلطة عند البايات في تونس وإن يكونوا ذوي أصول تركية، كانت تنتقل إلى الابن الأكبر للباي الأقدم في الحكم. ومهما يكن من تعقّد هذا النظام، فإنه دون تعقّد النظام المتّبع في تعيين الأمينوكال عند الطوارق. فلابد أن يكون الأمينوكال يتمتع بالأحقية في القيادة («الطبل»، أو «الطبول»)، أي لابد أن يكون ينحدر من تين هنان من جهة النساء؛ أي بالنسب الأمومي. وقد كان هؤلاء الرؤساء يُختارون من الناحية المبدئية من بين أبناء هؤلاء النساء، باتباع الترتيب حسب الأقدمية. غير أن هذا التناقل للسلطة لا يجري بصورة آلية بأي حال، لأن الأمينوكال يُنتخب من لدن الإموهاق ورؤساء القبائل التابعة. وتقوم هذه الجمعية، وهي كما أسلفنا القول مصدر حقيقي للسلطة، بالاختيار من بين المطالبين بالعرش من تراه الأقدر على الحفاظ على الطبول. فتتدخل الانتهازية السياسية لتصحيح القواعد المتبعة في توارث عشوائي للسلطة.

قبائل المخزن وبلاد السيبة

إذا كانت الدول تبدو هشة وضعيفة، فإن القبائل التي تؤلِّفها تظل في حالة مستمرة من إعادة التشكل بوتيرة من شتى أنواع الانضمامات والتبنّيات والتحالفات والتقلبات السياسية. ومع ذلك فما أسهل ما ترى بعض الجماعات ذات الحركية الكبيرة وقد غيرت اسمها وصفتها العرقية. فعلى امتداد العصور القديمة رأينا قسماً كبيراً من النوميديين، ومن بعدهم سائر الإفريقيين غير المترومّين، يتحولون إلى موريين. كما رأينا في العصور الوسطى معظم الزناتيين قد تعرّبوا لساناً وأسماء؛ ثم صارت هذه الحركة إلى اشتداد في العصور الحديثة.

ولا يمكن للتجزئة إلا أن تكون سبباً في إضعاف السلطة السياسية؛ إذ تعجز هذه السلطة عن تدبير القوى المتصارعة فيها، فلا تجد بداً من الاعتماد على قبيلة أو على تحالف من قبائل دون أخرى. ولقد رأينا في العصور الحديثة كيف سعى الأتراك في الجزائر وتونس، والعلويون في المغرب إلى اعتماد هذا الشكل من الإدارة. فكان من القبائل الوفيةُ للدولة، المتمتعةُ من التفضيلات والإعفاءات الضريبية؛ فهي تتولى شؤون الشرطة وتقوم على تحصيل الضرائب. وتلك هي قبائل «المخزن» (الحكومية). ففي المغرب حيث التناقض أوضح وأجلى بين المناطق الجبلية الناطقة بالبربرية والسهول المستعربة، نشأ مفهوم بلاد «المخزن» الخاضعة كلياً لنفوذ السلطان ومنطقة «السيبة» (الانشقاق) التي تتأبى بإدارتها عن السلطان؛ وإن يكن كبار رؤسائها التقليديين يقرون بتبعيتهم له. لكن لم يكن من حد ثابت يفصل بين بلاد المخزن وبلاد السيبة؛ فقد يتسع نطاق بلاد السيبة حتى مشارف مدينة فاس أو مدينة مكناس، أو تنحسر رقعته فلا تتجاوز الجبال الشاهقة في بلاد البربر؛ حسب ما يطرأ من صراعات قبلية.

وليس وجود قبائل المخزن بالأمر الطارئ في التاريخ السياسي لشمال إفريقيا فقد عرفت الإمبراطوريات البربرية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر شبيهاً بهذا التنظيم. وكانت الأسرة الفاطمية تُدخِل في خدمتها قبائل صنهاجية من تلكاتة وتتخذ لخدمتها خاصة قبائل كتامة. وإذا ما ارتددنا إلى ما قبل الرومان رأينا المملكة النوميدية عرفت شبيهاً بهذا التنظيم؛ إذ أن قبائل مثل «الموسونيين» (*Musuni*) و«السوبوربور» (*Suburbures*) كانت تحمل الوسم (*regiani*)؛ بما يدفع إلى الاعتقاد أن هذه الجماعات كانت تتمايز عن القبائل الأخرى بروابط خاصة تجمعها بالسلطة الملكية.

الصفوف، واللفوف، والتحالفات

تتدخل بين القبائل والسلطة السياسية للدولة، التي لا تفلح في تقوية جانبها انفلاقاتٌ أخرى لعبت دوراً لا يستهان به في تاريخ شمال إفريقيا، وكانت، إذا جاز لنا التعبير، عاملاً في استيطان الفوضى في هذه المنطقة. تلك هي «الصفوف» التي تسمى «اللفوف» في المغرب. وهما كلمتان عربيتان (الأولى تعني

«الصف» والثانية «الغلاف») تدلان على بنية اجتماعية ليست مقصورة على البربر وحدهم.

ذلك بأن القبائل لا تبقى منعزلة، فمعظمها ينخرط في أنواع من العصب (الصفوف) التي أبانت عن استمرارية كبيرة. ولكن يجدر بالتبيان أن الفخدات المكونة للقبيلة الواحدة يمكن أن تنضم إلى صفوف مختلفة. فهي تستجيب إلى انقسامات اقتصادية وسياسية تضرب بجذورها في الأزمنة الغابرة، لكن تعود لتشتعل بأوقات معلومة بفعل الصراعات الداخلية أو الخارجية التي تقوم بين الدول. ففي الجنوب التونسي يوجد صفان تقليديان قد اضطلعا بأدوار مهمة، وامتدّا بتفرعاتهما إلى شمال تونس، وإلى قسطنطينة، وطرابلس الغرب؛ ذانكما هما صف شداد وصف يوسف. وبودنا لو نبحث هل كان هذا التقسيم ذا أصل عرقي، وهل كان يقوم على تعارض بين البربر والعرب. فالبعض يذهبون هذا المذهب، فتراهم يُدخلون صف يوسف في معسكر العرب وصف شداد في معسكر البربر، بيد أن هذه الثنائية العرقية الاجتماعية لا تصمد للتحليل. ففي جبل نفوسة نجد رئيسيّ الصفين المتنافسين ينتميان إلى قبيلة المحاميد العربية، وتنتمي قبيلة النوايل، وهي الأخرى عربية، إلى صف شداد. وفي الجنوب التونسي، حسبما أفادنا أ. مارتل A. Martel، الذي صنّف الفخدات حسب انتماءاتها إلى الصفوف، يتكون معظم صف شداد من العرب بينما يغلب البربر على صف يوسف.

ويعود هذا الانقسام غير واضح الأصول إلى الظهور تلقائياً مع كل أزمة. ففي القرن الثامن عشر أدت الثورة التي كانت من علي باشا على الباي حسين (1729) والاضطرابات التي طالت حتى سنة 1756، إلى انقسام التونسيين إلى صفين صف «الباشية»، الذي يكونه أنصار علي باشا، وصف «الحسينية»، الذي يكونه أنصار حسين. وقد قام صف شداد في الجنوب يناصر الباشية، بينما انحاش اليوسفيون إلى صف الحسينية. وفي شرق الجزائر كانت عشيرة بن غانة، التي انضمت إلى توغرت والأربعاء والحنانشة، تعتمد على عشيرة يوسف؛ وأما خصومهم بوعكاز الذين اتبعهم الشعانبة والطرود وواحات تماسين والوادي، فقد كانوا يلقون المساندة من شداد. وكذلك ظهر هذا الانقسام في ناحية الشرق، كما نراه في بعض الأحلاف التي صارت تتكون بالتدريج في مناطق فزان وسرت؛ حيث انخرطت عشيرة أولاد

سليمان وعشيرة الفوقي في الحركة التي كانت من صف شداد، بينما صف المغارة وصف البحر كانا حليفين لليوسفيين. وبذلك قام من سرت الكبرى إلى ورقلة تجمّعان كبيران دأبا على المواجهة بينهما، ثم استمرت تلك المواجهات في سائر الأمور السياسية.

وليست الصفوف كلها على قدر واحد من الاتساع والإشعاع اللذين للصفوف التي نلاقيها في الجنوب التونسي. فالصفوف التي في منطقة القبائل تجمع قبائل لكنها قد تتقسّم قرى وبوادي.

وكان للّفوف في المغرب الخصائص نفسها والقدر نفسه من الأهمية الاجتماعية. وهي تُحدث، مثل الصفوف، انفلاقات أفقية في الأحلاف وفي صلب القبائل؛ فهي قد جمعت فخدات وأسراً كبيرة في أحلاف منها الذي دام إلى ما بعد زوال الهياكل التي قام عليها أول الأمر.

ولقد تأكدت هذه الأحلاف باتفاقات «طاطا» التي تقيم بين القبائل أو بين الفخدات روابط قرابة صورية. ويتم تثبيت هذه القرابة بواسطة بعض الأفعال الرمزية، خاصة منها الرضاعة المشتركة. وذلك بأن يقيموا وجبة جماعية يتناولون فيها الكسكس قد سُقِيَ بحليب النساء. وفي الوقت نفسه تتبادل النساء المرضعات من المجموعتين أطفالهن الرضع؛ فيغدو الرجال إخوة، ويصير واجباً عليهم تقديم المساعدة والغوث لبعضهم. ولهذا الشكل من التحالف شأن كبير عند الناس، إذ يعتبرون القرابة المترتبة عنه قرابة حقيقية، إلى حد أن التزاوج يصير بها محرّماً بين المجموعتين المتحدتين بالميثاق المقدس طاطا. وإذا كان هذا الميثاق يدخل في الطقوس البدائية، فلقد صار في ما بعدُ إلى أشكال مخفّفة، كما نراها في تبادل أكواب الحليب وقطع الثياب.

وهنالك شكل أخر غريب يتصل برمزية النعل، وهي رمزية ذات حضور قوي في بلدان المغرب، وفي الصحراء، وفي بلدان المشرق على حد سواء. وتقوم هذه الممارسة على إخفاء أحذية الأقدام اليمنى لكل ممثلي المجموعتين المتحالفتين؛ فتجتمع منها كومتان تغطّى كل واحدة منهما ببرنوس. ويجعل الوجهاء يأخذون حذاء من كل كومة بالتزامن، فيتقدم صاحبا كل حذائين أحدهما نحو الآخر، فيصيران وقد اتحدا بذلك الميثاق.

ويعتبر ميثاق «العناية» نوعاً آخر من الاحتياط والضمان من الخطر يأتي من خارج المجموعة. وقد كان هذا الميثاق يضع الشخص أو الأسرة تحت حماية رجل قوي أو رئيس ديني. وكان بمكنة المستفيد من تلك الحماية أن يسافر دونما خوف، ولو جاز تراب قبيلة معادية، بشرط أن تكون هذه القبيلة تقر بسلطة الرجل الذي صدرت عنه تلك «العناية».

فيكون المجتمع البربري بإكثاره من المواثيق والضمانات بين الفرد والفرد، وخاصة بين المجموعة والمجموعة، قد أفرز علاجات نجح بها في الحد من تفاقم الفوضى، وإن لم يفلح في استئصالها. فيكون النموذج السياسي الذي قام عليه هذا المجتمع يدخل في نوع من الفوضى المتوازنة.

العيش في المجتمع

الحقيقة أن السواد الأعظم من الناس في المجتمع البربري التقليدي لا يكادون يهتمون للمشكلات السياسية الكبرى، وأحرى أن يهتموا لتحديد فلسفة للسلطة. فالذي يهم المرء في المقام الأول أن ينخرط بكليته في وسطه الأسري، وفي صفه، وفي قريته، وفي عشيرته. وتكون هذه العلاقات المتعددة مطبوعة بطابع الإكراه ومحاطة في الوقت نفسه بقدر كبير من التكتم والتحفظ.

ولقد كانت روح التضامن قوية على الدوام لدى البربر، كما عند معظم المجتمعات القروية. وكانت تلك الروح هي الأساس الذي قام عليه مبدأ «التويزة» المعروفة في سائر المناطق من بلدان المغرب. وهي عمل يُتطوع له لفائدة المجموعة أو لفائدة رئيس الأسرة. وتشمل التويزة كل أنواع الأشغال؛ من تشييد المباني إلى إصلاح الطرق، ومن حفر قنوات الري إلى الأعمال الزراعية الكبرى كالحصاد أو الدرس.

وضع المرأة

إن الحياة الاجتماعية عند البربر تحكمها عادات وتقاليد. وهي أمور لم يكن للشريعة الإسلامية عليها غير تأثير محدود لدى بعض المجموعات البربرية. فليس هنالك قانون عرفي بربري، بل أنواع كثيرة من القواعد المنظمة للقانون الخاص. وترى تأثير الشريعة الإسلامية في أمور الزواج أظهر مما في غيره من الأمور الأخرى وإن تكن لا تزال ترى لبعض التقاليد الخاصة وجوداً في مناطق عديدة. ومن ذلك أن للمرأة عند عند كثير من مجموعات البرابر في المغرب حق أن تطلب التطليق من زوجها؛ وهي حرية ليس لها وجود في القانون القرآني. كما تجد ممارسة أخرى غريبة هي المقابل للممارسة السابقة؛ إذ يباح للزوج أن يعترض على أن تتزوج زوجته السابقة من جديد. وهو اعتراض كثيراً ما يسقط بمقابل مالي. وفي الأطلس

الكبير الشرقي يكون للعشرين من أهل الفتاة الأقربين ما يشبه حق الشفعة (أنحاد) في الفتاة العذراء، وفي العالم العربي لا يكون هذا الامتياز لغير ابن العم المباشر. وأما من الناحية العملية فإذا لم يتزوج بالفتاة القريبُ المعترض على زواجها من «الغريب» فلا يكون لأي قريب آخر أن يمارس هذا الحق.

والمرأة ليس لها وضع واحد في العالم البربري كله. لكن من المسلّم به أن وضعها فيه هو دون الوضع الذي بوأها إليه القانون القرآني. ولكن كثيراً ما بالغ الناس في الحديث عن الطابع الجائر لوضع المرأة البربرية؛ لأن تفكيرهم يذهب خاصة إلى وضع المرأة القبائلية؛ فهو أكثر ما عرفوا منذ القدم من أوضاع المرأة البربرية. وبالفعل فإن المصير الذي يحكم به القضاء على المرأة القبائلية مصير في غاية الإجحاف؛ فهو لا يحرمها الحق في الإرث فحسب، بل ويكاد يجعلها جزءاً من الميراث. فحتى وإن صارت أرملة لا يكون لها، من حيث المبدإ، حق التقرير في أمر نفسها. والمرأة المطلقة لا تستطيع الزواج من جديد بدون موافقة زوجها السابق، وأكثرما تكون تلك الموافقة بمقابل نقدي.

غير أن هذا الوضع يشكل حالة قصوى. فقد حدث في منطقة القبائل نفسها أن كان قرار جماعي من قبائل زواوة في القرن الثامن عشر هو الذي حرم النساء الحقَّ في الميراث الذي تقره لهن الشريعة الإسلامية. وفي المقابل وقعت المبالغة في الادعاء باستقلال المرأة الطوارقية وتهتّكها. فالطوارقية النبيلة، التي غالباً ما تكون أكثر تعلماً من زوجها، تحتل بحق موقعاً متميزاً داخل المجتمع، خاصة عندما تكون من نسل كل ريلا، فعن طريقها يُتناقل الحق في القيادة. وهي تتمتع بشيء من الحرية، وتتردد على ذلك النوع من مجالس الحب المسمى «أهال»، بيد أنها تُحرَم كذلك الحق في الإرث.

وتتمتع الأرامل والمطلقات في الأوراس بقدر كبير من الحرية، ومعظمهن يغدين «عزريات». والمعنى الحرفي لكلمة «عزرية» هو «المرأة التي من غير زوج». وما هن في الواقع سوى بغايا. وربما كان ذلك الوضع عندهن مؤقتاً؛ إذ يمكن لـ «العزرية» التائبة أن تعود لتبدأ من دون صعوبة حياة زوجية عادية. فـ«العزرية» لا يقع عليها الإقصاء من الحياة الأسرية، وكثيراً ما تكون تقيم عند أمها. كما أنها لا تُجعل على الهامش من المجتمع الشاوي؛ فهي لا تلقى احتقاراً لا من أهلها ولا من النساء الأخريات. لكن على الرغم من القانون القرآني المعمول به على نحو صارم في منطقة الأوراس، فإن المرأة الشاوية تُحرَم في الواقع الحقَّ في الإرث.



151. عروس من آيت حديدو (جبال دادس، جنوب المغرب).

إن هذا الإقصاء الذي يقع على المرأة في بلاد البربر عامة، والذي يتوافق وممارسة سابقة على دخول الإسلام، لا يبعث عليه غير الحرص على حماية الأموال الأسرية. وهذا أمر يعرف به ذلك الفلاح الأوراسي الذي كان قال لـ [اثيا] كَودري M. Gaudry : «لو كانت نساؤنا يرثن لأثرين أسر أزواجهن وأفقرن أسرهن».

القوانين القبائلية

لم يفرد العرف مكانة مهمة للإكراه ولا للدفاع عن العالم الصغير المتمثل في القرية أو العشيرة. وحيث إن السجن لم يكن معروفاً، والقتل يولد الثأر أو يحدث له عوضاً نقدياً، فإن القانون الجنائي البربري يتجه خاصة إلى تحديد الغرامات. فهذا أدى إلى نشوء قضاء قد جرى تدوين الكثير من أحكامه. فبعض «مواثيق أكَادير» في بلاد الشلوح (الأطلس الكبير الغربي) تعود إلى القرن الرابع عشر! وهي، كما «أزرف» عند مجموعات البرابر، نصوص جرى تدوينها بالأحرف العربية. وأغرب هذه القوانين هي التي في منطقة القبائل الكبرى؛ فإن فيها تحديداً دقيقاً لأهون مخالفة والعقوبة المترتبة عنها. وإن هي إلا دفاعات واهية يتحصن بها مجتمع منغلق على نفسه. ومع ذلك فإن بعض تلك القوانين يقوم دليلاً على نفاذ ثقافة أجنبية إلى قلب أهم المجموعات الناطقة بالبربرية في الجزائر. وقد جرى منذ أواخر القرن التاسع عشر تحرير بعض تلك القوانين باللغة الفرنسية. وهذا أمر يستحق التنويه، ولاسيما أن القوانين التي صيغت على ذلك الوجه كانت غريبة عن القانون الجنائي الفرنسي الذي كانت الإدارة الاستعمارية قد شرعت في ذلك الوقت تدخله إلى البلاد.

الشرف أو الأنف الأشم

أن يعيش المرء في المجتمع معناه بطبيعة الحال أنه يفقد استقلاليته؛ أي أنه ينخرط في شبكة معقدة من العلاقات تمكّن للجماعة، أكثر مما تمكن للفرد، أن تعبر عن نفسها وتفرض حقوقها. وإنها لعلاقات ملتبسة. فإذا كان من الثابت أن المجموعة الاجتماعية تقوم على التضامن، فإن تجاور الوحدات الأسرية في نطاق الفضاء المحدود يكون سبباً في مخاطر دائمة من حدوث احتكاك في ما بينها وفي ما بين الأشخاص المكوّنين لها. فهذا يحتم على المرء أن يظل يقظاً على الدوام ومتأهباً للدفاع عن استقلاليته. كما ينبغي له أن يتحوّط ليلاً يمس باستقلالية الآخر. وإن هذا التوتر، الذي لمسه سائر من عاش في بلدان المغرب، لأمر ثابتٌ؛ وهو المفسر للكثير من السلوكات. فالبربري

انفعالي غضوب. والأنف عند القبائلي حسّاس بقدر ما كان الشرف عند النبيل الأوروبي في القرن السابع عشر. والمرء ليلاّ يفقد مكانته واعتباره يُضطر إلى تقديم التضحيات الجسام وتتحمل أسرته أسوأ صنوف الحرمان.

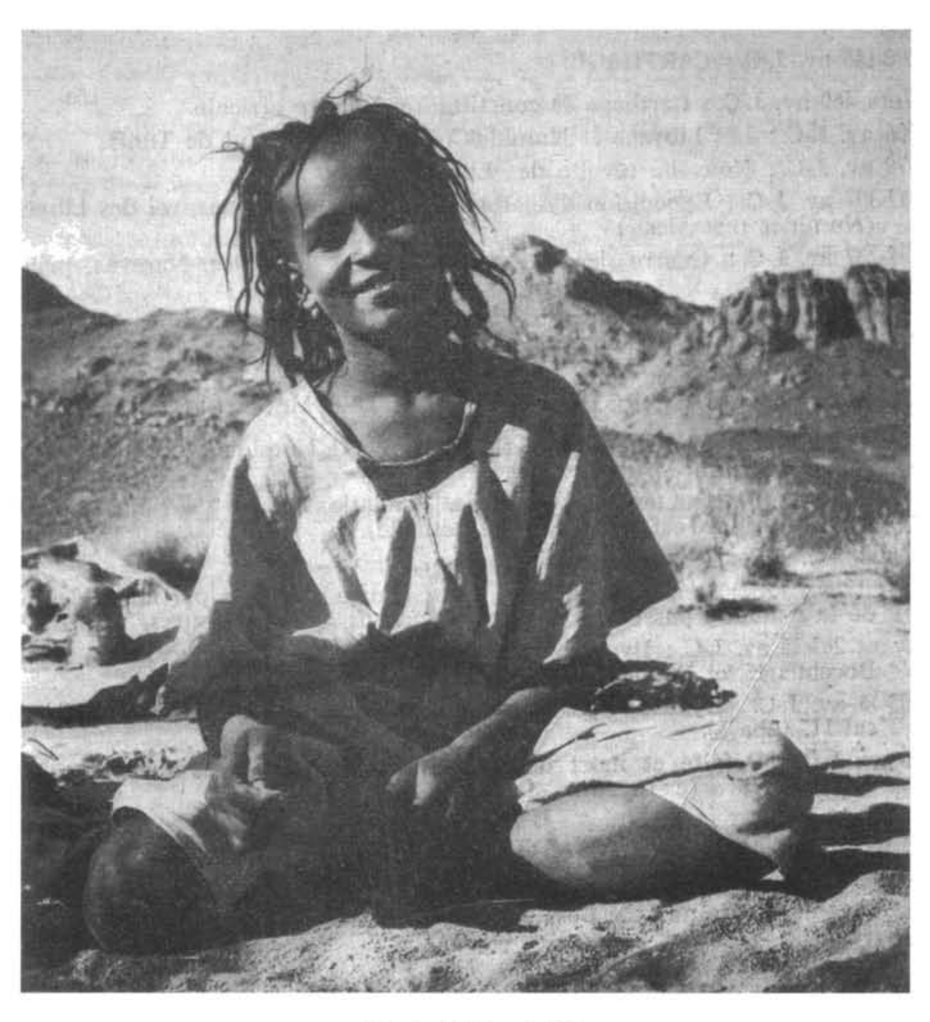
والشرف الذي يجب على المرء حمايته هو في المقام الأول شرف الأسرة والمقصود به خاصة شرف النساء؛ فهن اللائي من خلالهن تُتناقل الحياة. وشرف الزوجة، أو الابنة، أو الأخت، إذا تلطخ لم يغسله إلا الدم. وإنزال القتل بالمذنبين لا يلقى استنكاراً، بل هو شيء يفرضه الإكراه الاجتماعي.

لكن «الأنف» له اقتضاءات أخرى؛ فلا يتحمل الواحد أن يلقى الإهانة من منافس له أو خصم. فسرقة سلة من التين، أو إعطاب آلة، أو كسر سياج، أفعالٌ تستتبع لامحالة ردوداً. فإذا كان الضحية لبيباً عرف كيف يسدد رده، وحرص على أن يكسب إلى جانبه حكماء الجماعة والساخرين، وأما المتهور فقد يتمادى في الرد فتبتدئ حينئذ عملية قد تنتهي بالقتل.

وعلى هذه الصورة تنشأ نزاعات أسرية طاحنة؛ فالقتل يستتبع القتل. وإذا لم يكن شك في أن الأخذ بالثأر ليس بالأمر المقصور على البربر، ولا هو كذلك بالممارسة المتوسطية الخالصة، فإنه قلما يبلغ عند سائر الأقوام مبلغه من الشراسة الراسخة لدى المغاربيين. وكثيراً ما يجري الحديث لديهم عن الحرب الطاحنة التي نشبت بين قريتين من قبيلة آيت ورياغل في منطقة الريف (في المغرب)، وهلك فيها من أفرادهما عدد كبير. فقد أدت عمليات القتل المتواترة لسبع سنين إلى حصد خمسين قتيلاً من إحدى تينك القريتين وسبعين من القرية الأخرى. وما كان السبب في ذلك كله غير مقتل كلب. وفي آخر الأمر اضطرت المجموعة التي نال منها الضعف إلى المهاجرة إلى منطقة زرهون المجاورة. وساق أ. إبازيزن A. Ibazizen بعض الحالات التي تذكرنا بالمآسي الإغريقية أشدِّها دموية؛ من قبيل تلك السلسلة من أعمال القتل التي وقعت في أسرتين متنازعتين من إغيل بوعماس (منطقة القبائل) في سنة 1930 أو نحوها. ثم كانت عملية انتقامية قُتل فيها ثلاثة يافعين؛ فلم يتبق من الفتيان من يقدر على ضمان البقاء للمجموعة. واعترضت أم الضحايا العجوز، كجري التقاليد على أن تدفن الجثامين في المقبرة. وجعلت من يحفر قبوراً في أرضية الحجرة الأكبر في المنزل، ووضعت فوق سداداتها الملابس الملطخة بالدماء، ليكون فيها تذكير يومي للصبية الصغار بالجرائم التي سيكون عليهم أن يثأروا لها.

فالثأر لجريمة الدم واجب لا يسقط في التقادم؛ وليس في مقدور أي رجل مستحق لهذه الصفة أن يتخلص من الإكراه الاجتماعي الذي يجبره بدوره على أن يصير قاتلاً؛ فهو يُسمى للانتقام من الضحية التالية.

وكان في الالتزام بالثأر، كما كان في عوامل أخرى لا تمت إلى الشرف بصلة وثيقة، ما ساعد على ظهور قتلة مأجورين في منطقة القبائل. ومن حسن الحظ أن اختفت هذه الممارسة منذ بضع سنين. وقد لاحظ القضاة أن تلك الممارسة عرفت الانتشار وقت أن حدّت العدالة الفرنسية بإعمالها الصارم للقانون الجنائي من استشراء عملية الانتقام. فقد كان القاتل المنتقِم لقريب له يلقى في الممارسة القديمة



152. ابتسامة فتاة طوارقية.

التقدير والاعتبار من أهله وذويه. ثم أصبح الشخص نفسه بعد إعمال القانون الجنائي يتعرض للملاحقة وتُنزل به أقسى العقوبات. وأما الأفراد المعتدّون بأنفسهم والواثقون من أن الحق إلى جانبهم فإنهم يرون تلك العقوبات تتنافى والعدل. ولذلك فإذا عنّ للواحد منهم أن يجمع بين الالتزام بالانتقام وعدم الوقوع تحت طائلة عدالة غير متفهمة لم يكن له إلا اللجوء إلى قاتل مأجور؛ فهو حل سهل بقدر ما هو حل لاأخلاقي.

الـديـة

إذا كانت الممارسة المتمثلة في الأخذ بالثأر لا تقيم في ما يبدو اعتباراً كبيراً للحياة فإن لها مع ذلك صلة بوعي عميق بقيمة الإنسان.

حقاً إن العادات تقوم عند مجموعات بربرية عديدة، كما لدى العرب وأقوام غيرهم كثيرة، على دفع تعويض يكون فيه تكفير عن الجريمة أو القتل، ولو وقع عن غير عمد. وتُحدد قيمة تلك الدية بالنقود، أو بقطعان الماشية، أو غيرها من الأموال حسب المجموعات. وما أن تُدفع الدية حتى يتوقف حق المتابعة في الحال. والواقع أن هذه التسوية لا تخص الأفراد، بقدر ما تعني المجموعات الأسرية.

ولقد وقفنا على ممارسة ضاربة في القدم، جرى تدوينها في ميثاق «أجريف» (في الأطلس الكبير المغربي)؛ وهي تقضي بأن تحصل عشيرة القتيل على امرأة من عشيرة القاتل، فتقيم هذه المرأة عندها إلى أن تضع مولوداً ذكراً. فتكون مجموعة الضحية قد استعادت في ذلك الطفل الذَّكَر الذي سُلِبته بالقتل. ومهما كانت هذه الوظيفة شبه الآلية التي تُجعل للمرأة فتنحط بها إلى مجرد [بطن] وَلود تصدم الحساسيات في الوقت الحاضر، فينبغي الاعتراف بأنها لا تخلو من منطق وشيء من تعظيم. ذلك بأن فيها إقراراً على الأقل بأن لحياة الإنسان قيمة لا تُقاس بالذهب ولا الفضة. فكأنها تقول : «لقد سلبناكم رجلاً فاضلاً، ونتيح لكم بهذه المرأة أن تحصلوا له على عِوض إن شاء الله!».

وتظهر قيمة الرجل، من حيث هو قوة عمل أو محارب محتمل، في صورة أوضح من الأولى؛ نراها في ممارسة أخرى جارية عند البرابر في وسط المغرب نريد بها «أمحارس». وذلك أن الجماعة القبلية تسمح بموجب عقد حقيقي لشخص غريب عنها بالنزول عند أسرة من أسرها. ثم يحصل هذا الغريب من رب الأسرة

المستقبِلة له على ما يحتاج في مقامه. ويُجعل عقد يحدد القسط من الأرباح الذي يمكنه الحصول عليه [عما يقوم به من أشغال] عند انتهاء ذلك العقد كما تحدد مدته. ولو أن العلاقات اقتصرت على هذه الشروط لما كان في عقد أمحارس ما يدعو إلى الاستغراب، والحال أنه يُعتبر في الحقيقة عقداً للتبني. فرب الأسرة التي تُؤوي الشخص الغريب يمنحه امرأة من عشيرته، تكون في العادة ابنتَه. فيصير الرجل وقد اقترن برباط وثيق بالأسرة المتبنية له. وقد كان يجوز لأمحارس من الناحية النظرية أن يترك تلك المرأة عند انتهاء مدة العقد؛ وأما من الناحية الفعلية فإن الزواج يشرّع ذلك الاقتران فيغدو به التبني قطعياً ونهائياً. ولذلك فإن عقد أمحارس إذ يحفظ على المجموعة تجانسها، يساعد كذلك على زيادة مقدرتها البشرية. ويعتبر «أمزّال» في المغرب و«مشروط» في الجزائر شكلين آخرين من العقود التي يُصدَّق عليها بزواج مؤقت. والعبرة من هذا الأمر أن يكون المجتمع لا يعرف الأجرة، ثم تراه يجتذب إليه أهم مصدر من مصادر الثراء ألا وهو الإنسان نفسه، ويحافظ عليه.

الترتيب الزمني [لوجود البربر]
من الأصول إلى القرن السادس عشر

10 000 ق.م : بداية الحضارة الإيبيرية المورية. إنسان مشتى العربي يحتل الشمال الإفريقي كله.

7 000-5 000 ق.م : الحضارة القفصية. ظهور أوائل المتوسطين.

6 500 - 2 000 ق.م : انتشار حضارات العصر الحجري الحديث في الصحراء وفي المغرب الكبير. وصول بعض المتوسطين إلى الصحراء (في حوالي سنة 3 000 ق.م). بداية العلاقات مع البلدان الأوروبية.

حوالي سنة 1 000 ق.م : وصول متوسطين جدد إلى المغرب الكبير. بداية توطّن الفينيقيين.

800 - 146 ق.م : **قرطاج.**

حوالي 450 ق.م : قرطاج تغدو إمبراطورية إفريقية.

396 ق.م : *استيلاء الليبيين والنوميديين الثائرين على تونس.*

379 ق.م : الليبيون يشنون ثورة جديدة.

311-307 ق.م : حملة أكَاتوكل على مقاطعة إفريقيا. إيليماس ملكاً على الليبيين (النوميديين الماسيليين؟).

238-237 ق.م : حرب المرتزقة والنوميديين. ناراڤاس أميراً على نوميديا.

قبل 220-203 ق.م : حكم سيفاقس، ملك النوميديين الماسيسيليين، واستيلاؤه سنة 203 على المملكة الماسيلية.

القرن الرابع-49 ق.م : **مملكة الماسيليين النوميدية.**

203 - 148ق.م : حكم ماسينيسا، الذي وحّد نوميديا، واستولى على قسم من أراضي قرطاج.

146 ق.م : تخريب قرطاج. وتأسيس مقاطعة إفريقيا الرومانية (في الشمال الشرقي مما يعرف حالياً بتونس).

148-118 ق.م : حكم يوغرطة. وصراع مع روما. وسقوط الجزء الغربي من نوميديا في قبضة بوخوس ملك الموريين.

148 - 118 ق.م : حكم ميسيبسا.

قبل 203-33 ق.م : أسرة البوخوسيين المورية (باجا، وبوخوس الأول، وسوسوس، وبوخوس الثاني، وبوجود).

105 - 46ق.م : الأسرة الماسيلية في الشرق (كَوضا، وماستانبار، وهيمبسال الثاني، وماسينيسا الثاني، ويوبا الأول).

46 ق.م : هزيمة يوبا الأول وموته. إنشاء المقاطعة الرومانية لإفريقيا الجديدة (مملكة نوميديا سابقاً).

25 ق.م- 40 م : **الأسرة الموريتانية** (يوبا الثاني وبطليموس).

42 م : إنشاء المقاطعتين الرومانيتين؛ موريتانيا الطنجية (في المغرب)، وموريتانيا القيصرية (في وسط الجزائر وغربها).

146 ق.م.- 439 م : **السيطرة الرومانية.**

100 م- 400 م : انقلاب قسم كبير من البربر في مقاطعة إفريقيا ونوميديا إلى المسيحية.

حوالي سنة 225م : السيطرة الرومانية تبلغ أقصاها في إفريقيا.

250 - 300 م : تمردات عارمة للبربر في موريتانيا.

305 - 313م : بداية الدوناتية.

372 - 376م : تمرد فيرموس، الموظف الإمبراطوري والقائد الإفريقي.

396 - 430م : القديس أغسطينوس أسقفاً على هيبون.

439 - 533م : **المملكة الوندالية.**

حوالي 455م : القائد البربري ماستيس يعلن نفسه «إمبراطوراً» في الأوراس.

حوالي 470م : وصول تين هنان إلى الهقار. وادعاء سلالة نبلاء الطوارق انحدارها من هذه الأميرة التي تم العثور على قبرها.

508 - 535 (؟)م : ماسونا ملكاً على «الموريين والرومان» في موريتانيا القيصرية.

533 - 647م : **السيطرة البيزنطية.**

تكاثر الإمارات البربرية. توغل البدو الجمالين من البربر الجدد، زناتة، الذين أغلبهم وثنيون وبعضهم من المتهوِّدين.

647م : ظهور **العرب في** (مقاطعة إفريقيا). معركة سبيطلة.

670م : تأسيس القيروان من لدن عقبة وابتداؤه الغزو. الأسطورة تفيد أنه وصل حتى سواحل المحيط.

686-683م : كسيلة يقود المقاومة البربرية ويغدو لثلاث سنين سيداً على إفريقية.

695م- 702م : الكاهنة، ملكة جراوة (الأوراس)، تُبعد العرب إلى طرابلس الغرب بإعمال سياسة الأرض المحروقة، لكنها تُهزم في نهائية الأمر، وتطلب إلى ولديْها، قبل أن تُقتل، أن ينضمّا إلى صفوف الغالبين.

711م : سوقات من البربر المسلمين، بقيادة طارق، تعبر مضيق جبل طارق، وتقوّض المملكة الوزقوطية في إسبانيا.

حوالي 670م- حوالي 750م : نشر الإسلام بين البربر. ظهور مذهب الخوارج.

750 - 780م : ثورة الخوارج في إفريقية وفي وسط المغرب الكبير.

800 - 909م : **الأمراء الأغالبة في إفريقية.**

776 - 909م : **الأسرة الرستمية**، مملكة تاهرت الخوارجية في وسط المغرب الكبير.

757 - 922م : **الأسرة الإدريسية** في المغرب.

809م : تأسيس فاس من لدن إدريس الثاني.

893م : أبو عبد الله يدعو إلى المذهب الشيعي لدى كتامة (البربر الصنهاجيين في القبائل الصغرى).

902 - 910م : غزو كتامة الشيعيين لوسط المغرب الكبير وإفريقية.

910 - 973م : **الأسرة الفاطمية الشيعية.**

913 - 920م : الحملات الأولى على مصر.

922م : غزو المغرب الأقصى من لدن مكناسة باسم الفاطميين.

940 - 947م : ثورة الخوارجي أبو يزيد - «صاحب الحمار».

969 - 973م : غزو مصر ورحيل الفاطميين إلى القاهرة.

973م- 1060م : **الأسرة الزيرية في** وسط المغرب الكبير وفي إفريقية.

973 - 984م : حكم بولوقين وتأسيس مدينة الجزائر.

1015 - 1163م : **الأسرة الحمادية في** وسط المغرب الكبير.

1061 - 1088م : حكم الناصر، وتأسيس بجاية.

1050م : بداية الغزوات الهلالية، وإبعاد قبائل رياح، والأثبج، ثم بني سليم، وبني معقل من مصر، وتوغلهم في المغرب الكبير بموجات متتالية.

1050م : دعوة ابن ياسين عند لمتونة الصحراء، مهد حركة المرابطين.

1055 - 1146م : **الإمبراطورية المرابطية** (على غرب الصحراء، والمغرب، وغرب الجزائر، وإسبانيا).

1059 - 1062م : تقويض البدعة البرغواطية.

1061 - 1088م : حكم يوسف بن تاشفين، وتأسيس مراكش.

1115 - 1120م : ابن تومرت يدعو إلى المذهب الموحدي.

1125 - 1269م : **الإمبراطورية الموحدية** (على المغرب، والجزائر، وتونس، وإسبانيا).

1145 - 1160م : غزو عبد المؤمن للمغرب. وزوال آخر الجماعات المسيحية من لدى البربر.

1206م : تعيين أبي حفص قائداً على إفريقية.

1236م - 1494م : **مملكة الحفصيين في** شرق المغرب الكبير (وعاصمتها تونس).

1235م - 1554م : **مملكة عبد الوديد في** وسط المغرب الكبير (وعاصمتها تلمسان).

1248م - 1456م : **مملكة المرينيين** في المغرب الأقصى (وعاصمتها فاس). استمرار الصراع والتنافس بين هذه (الممالك، وإعادة توحيد مؤقتة للمغرب الكبير بأيدي المرينيين على عهد أبي الحسن (1351-1331م)).

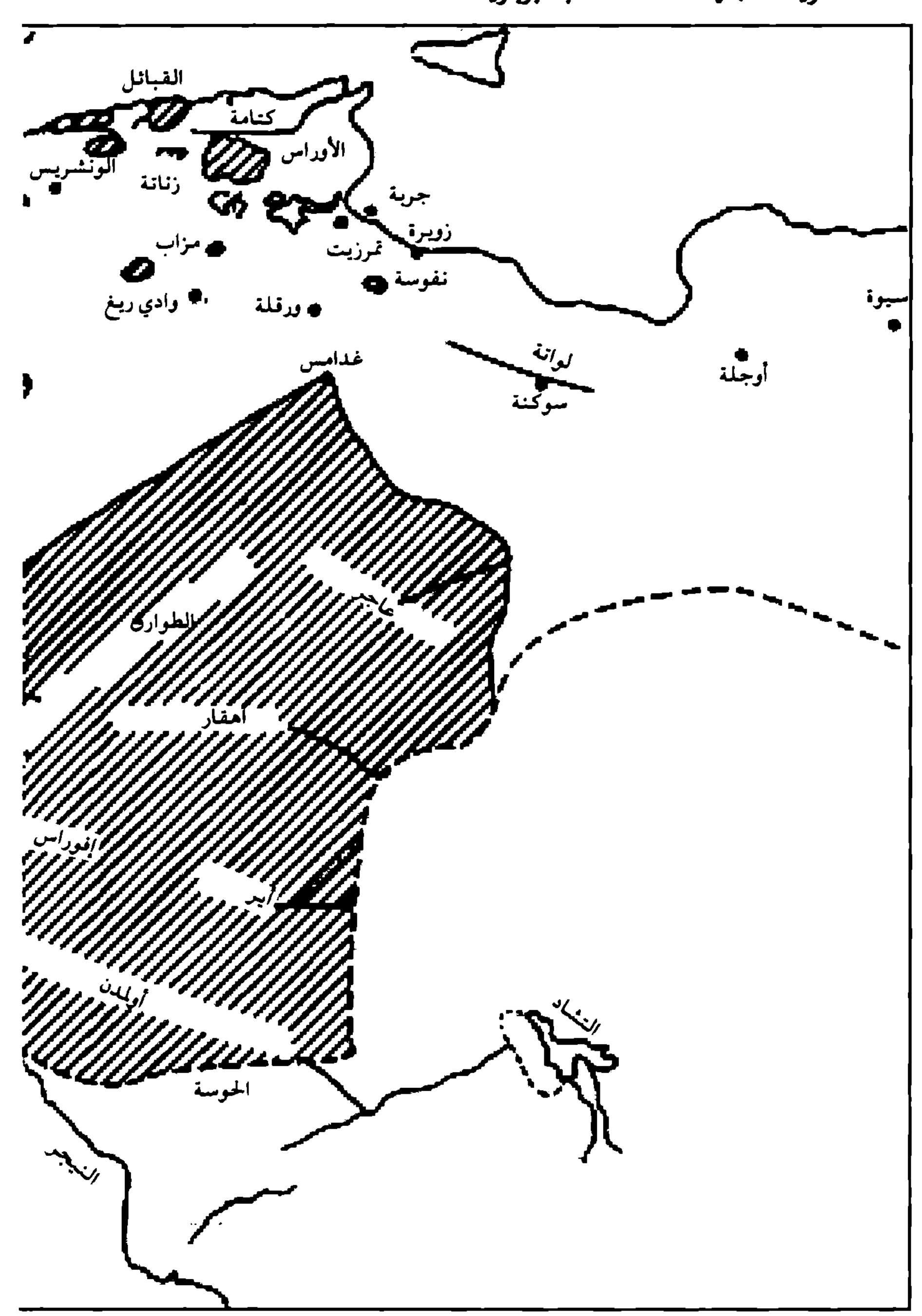
1415م : نزول البرتغاليين بسبتة، ثم طنجة والعرائش (1471)، ومسات (1488)، وآسفي وأكَادير (1508)، وأزمور (1513))

1497م : (استيلاء الإسبان على مليلية، والمرسى الكبير (1505)، ووهران (1509)، وجزيرة بينيون الجزائرية (1510)، وشرشال، وبدليس).

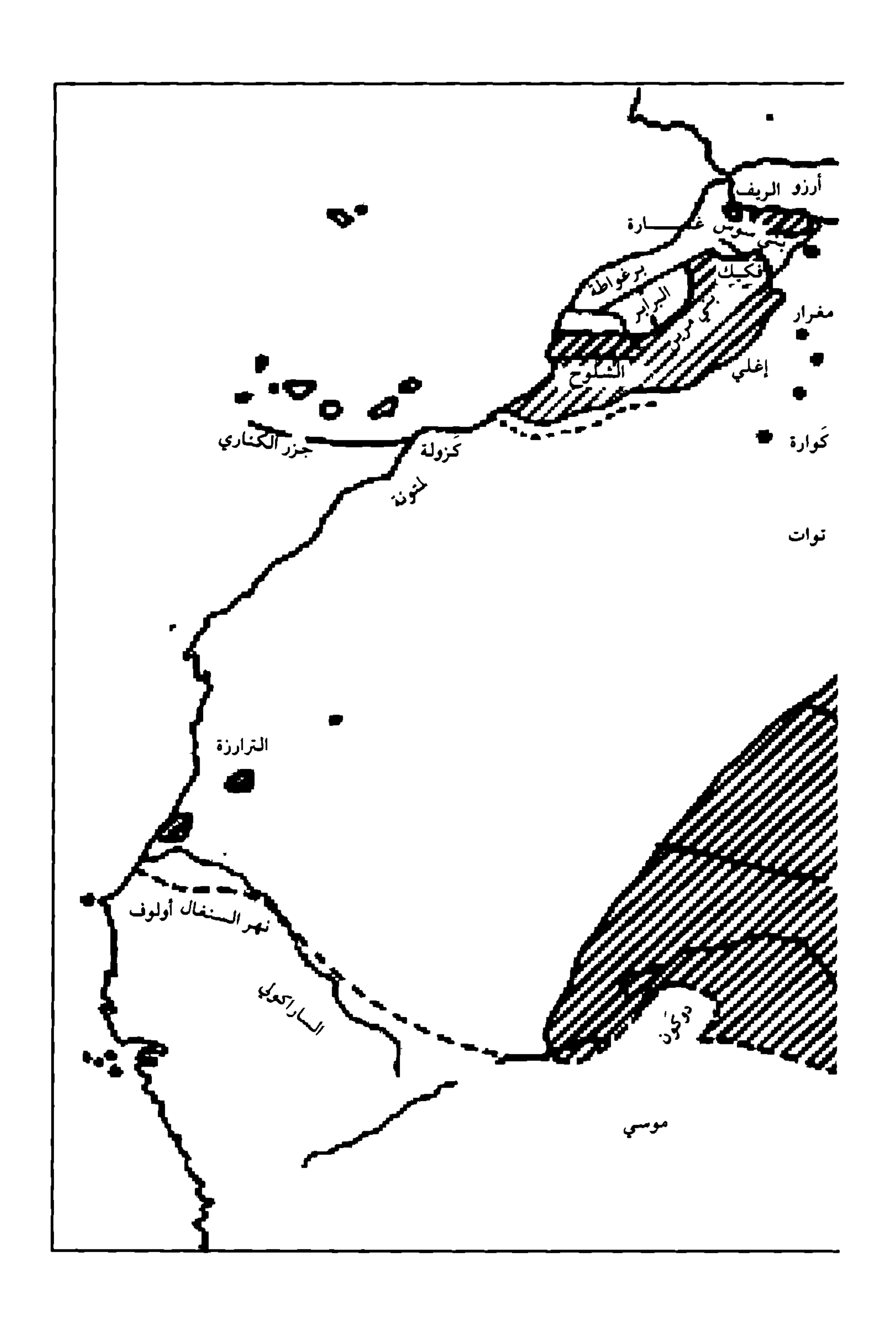
القرنان 15 – 16 : منافسات بين سلاطين بني عباس وملوك كوكو في منطقة القبائل.

1514م : استيلاء التركي عروج على جيجل، ثم على مدينة الجزائر (1516). وخلفاؤه يرسخون للسيطرة التركية على ولايات الجزائر وتونس وطرابلس. وإمبراطورية شريفة تقوم في المغرب. استمرار وصول مكثف للاجئين الأندلسيين إلى بلدان المغرب طوال القرن السادس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر.

153- خريطة الجهات الناطقة بالبربرية



لمتونة : مناطق ناطقة بالبربرية لم يعد لها وجود ---- الحدود القديمة للمناطق الناطقة بالبربرية ▨ المنطقة الناطقة بالبربرية في مطلع القرن العشرين. البرابر : المناطق الناطقة حالياً بالبربرية (في بلدان المغرب).
توات : المناطق الناطقة حالياً بالبربرية (الصحراء) سوكنة : مركز منعزل ناطق بالبربرية.



أرزو الريف
غمارة
سوس
بني
برغواطة
البرابر
نكيك
بني مرين
مغرار
الشلوح
إغلي
كَوارة
جزر الكناري
كَزولة
لمتونة
توات
الترارزة
نهر السنغال
أولوف
الساراكولي
دوكَون
موسي

ملاحظات صاحب التوطئة

في أصل أوائل المتوسطين والقفصيين (صص. 49، وص. 77 وما بعدها).

لقد دافع غابرييل كامب عن الأطروحة القائلة بالأصل المشرقي لأوائل المتوسطين «القفصيين»، وهم الذين كانوا الأصلَ للقسم الأكبر من ساكنة ما يُعرف اليوم بمنطقة شمال إفريقيا، وروّج لها كثيراً. وهذه أطروحة قد انبنت في المقام الأول على الموضع الذي وقع فيه اكتشاف أولى المواقع القفصية ودراستُها (Capsa/ قفصة في تونس)؛ فهي تدلنا في ما يبدو على أن هذه الساكنة قد انتقلت وثقافتها من الشرق صوب الغرب، بما يسوّغ الأطروحة القائلة إنها حلت بالتدريج محل الساكنة المحلية (الإيبيريين الموريين) التي كانت من قبل تستوطن هذه الأماكن، وتسوغ القول باتصال أول للحضارة القفصية بأوائل المتوسطين من الشرق الأوسط (النطوفيين). وأما الاكتشافات الحديثة فهي تجيء للحضارة القفصية بجغرافيا وتردها إلى زمن مختلفين كثيراً؛ عمدتها فيهما مواقع لهذه الحضارة لهم أقدم عهداً قد جرى اكتشافها في غرب الجزائر. وأما من جهة أخرى فإن من المعلوم أن القفصيين والإيبيريين الموريين قد اجتمعوا منذ وقت طويل، بلهَ وقع بينهم تعايش على المواقع نفسها. فلا يترك هذا الأمر للأطروحة القائلة بتنقل تلك الساكنة «الخارجية» من الشرق صوب الغرب من أساس تقوم عليه. وقد صار اختصاصيون كثرٌ يميلون اليوم إلى القول بحدوث تحول إناسي لهذه الساكنة في عين المكان؛ بما يعني وجوب اعتبار الأطروحة التي ترد أصول أوائل المتوسطين إلى المشرق أطروحة ضعيفة، لم تأت لها المعطيات الحديثة التي أسفرت عنها الخاصة بعهود ما قبل التاريخ بما يثبتها.

في أصل الكتابة البربرية وتاريخها (ص. 319 وما بعدها).

تجيئنا الأعمال الحديثة بتكملات وإضاءات لمسألة [البحث في] أصول الكتابة البربرية، وهي تمكننا من استجلاء التحليلات التي جاء بها غابرييل كامب. فلا مراء

في التأثير الذي كان لأبجدية سامية قديمة (الراجح أن تكون هي الفينيقية) على الكتابة البربرية، غير أن من المستبعد أن يكون وقع بين الكتابتين اقتراض مباشر، بل أحرى أن يكون وقع بينهما تأثير وتأثر ومحاكاة على الصعيد المحلي. فالكتابة الليبية تتمثل فيها الكثرة الكثيرة من الخصائص التي لا يمكن ردها إلى نموذج أصلي سام (خاصية معظم الأحرف والهندسية واتجاه الكتابة وغياب الأطوار الوسيطة...؛ (انظر في هذا الصدد Chaker et Hachi, 2001). ولذلك فإن باحثين كثراً باتوا يميلون اليوم إلى القول بالتكوّن الذاتي للكتابة البربرية، من خلال محاكاة لأبجدية سامية، وبالاعتماد على مواد محلية (علامات، ورموز غير أبجدية، تُستعمل علامات على الملكية، وأوشام وزخارف شتى).

ثبت الأعلام والأماكن

أسماء الأشخاص والأمم والقبائل والمذاهب واللغات

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ش)

(ص)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

أسماء البلدان والمدن والمواضع الجغرافية

(أ)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

ثبت الصور

20. ثيران حمَّالة في إيهرن (تاسيلي نعاجر). 97.
21. راع وصياد معاً من النوع المتوسطي مزين برسوم وجهية، ومسلح برمح وعصا للقذف. الخروف ينتمي إلى النوع الكبير *Ovis Longipes*، على غرار الخراف الطوارقية والسودانية في الوقت الحاضر. إيهرن. (تاسيلي نعاجر). 98.
22. رسوم من الأسلوب الخيلي في تامجرت (تاسيلي نعاجر). 99.
23. عربة بأربعة خيول من رسوم وادي زقزة (فزان). 101.
24. محارب وحصانه. نقيشة من إكَادن أرَرني، [جبل] أيِّير (النيجر). 103.
25. أدبني (نصب مقابري من الحجر لا يشده شيء) بتفرعات على المحور، من منطقة عين إيكر (الهقار). 104.
26. أدبني بأسوار على شكل V من منطقة عين إيكر. 104.
27 : نصب كبير في مسوَّر فضنون (تاسيلي نعاجر). المحور الكبير يبلغ 78 متراً. 105.
28. زوج من الحراثين، المزارعين السود في الواحات. 106.
29. قواسون زنوجيون من عصر البقريين. الثيران تحمل فوق قرونها هياكل أكواخ، وهي ممارسة ظلت جارية عند الفولانيين. مخبأ جبارين (تاسيلي نعاجر). 108.
30. حوانيت (نواويس) محفورة في حجر صواني في سجنان (تونس). 112.
31. تقع المقابر الكبيرة من الحقبة قبيل التاريخية المشتملة على فخاريات في منطقة الزراعة البورية للحبوب. 114.
32. دلن على قاعدة متدرجة في بونوارة (الجزائر). 115.
33. تصميم ومقطع لنصب مركب من الحجر الكبير من مكثر (تونس). 117.
34. إناءان جرسيّان من نوع «كازويلا». الذي إلى اليمين من ألابرايا (البرتغال) والذي إلى اليسار من سيدي سليمان الغرب (المغرب). 118.
35. أنواع مختلفة من الأطبار محفورة على الأطلس الكبير (المغرب). 118.
36. جثوة ذات مصلى في الطاوز (تافيلالت، المغرب). 119.
37. قبور جرمنتية (فزان). 120.
38. أنواع مختلفة من «البازينات» في مرتفعات الشلف وفي أولاد نايل (وسط الجزائر). 121.
39. مدخل لمر مغطى في منطقة القبائل، إباريسن (الجزائر). 121.
40. نصب كبير بممر مكشوف في إليزي (تونس). 130.
41. دلن في الركنيه، شرق جزائر. 132.
42. الضريح النوميدي في دقة (تونس). 135.
43. قسطنطينة، سيرتا القديمة، تشرف على الحلوق العميقة في الرمل. 136.
44. مسلة كبيرة لرئيس ماسيلي في عين الخنقة، منطقة قسطنطينة. 137.

مصادر أساسية

BASSET, A. : *La Langue berbère*, Londres-Oxford, IAI, 1952 (réédité 1969).

BATES, O. : *The Eastern Libyans, an essay*, Londres, Cass, 1914.

BERTRAND, A. : *Tribus berbères du Haut-Atlas*, Lausanne, Edita Vilo, 1977.

BRUNSCHWIG, R. : *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, Paris, Maisonneuve, t. I, 1940, t. II, 1942.

CAMPS, G. : *Aux origines de la Berbérie : monuments et rites funéraires protohistoriques*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1961.

– *Aux origines de la Berbérie : Massinissa ou les Débuts de l'Histoire*, Alger, Imprimerie officielle, 1962.

– *Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin, 1974.

– *L'Afrique du Nord au féminin : héroïnes du Maghreb et du Sahara*, Paris, Perrin, 1992.

CAMPS-FABRER, H. : *Les Bijoux de Grandes Kabylie*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1970.

– *Bijoux berbères d'Algérie,* Aix, Edisud, 1990

CAPOT-REY, R. : *Le Sahara français*, Paris, Presses universitaires de France, 1953.

CHAKER, S. : *Textes en linguistique berbère. Introduction au domaine berbère*, Paris, CNRS, 1984.

– (sous la dir.) : *Etudes touarègues,* Aix-en-Provence, Edisud et IREMAM/LAPEMO, 1988.

– *Une décennie d'études berbères (1980-1990)*, Alger, Bouchène, 1992.
Linguistique berbère : études de syntaxe et de diachronie, Paris/Louvain, Peeters, 1995.

– *Berbères aujourd'hui*, Paris, L'Harmattan, 1998 (2e édition revue et augmentée).

CHAKER, S., et HACHI, S., « A propos de l'origine de l'écriture lybico-berbère», *Etudes berbères et chamito-sémitiques. Mélanges offerts à Karl-G. Prasse*, Paris/Louvain, Peeters, 2000, p. 95-111.

COLTELLONI-TRANNOY, M. : *Le Royaume de Maurétanie sous Juba II et Ptolémée*, Paris, CNRS (Études d'antiquités africaines), 1997.

COURTOIS, Ch. : *Les Vandales et l'Afrique*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1955.

DESPOIS, J. : *L'Afrique du Nord*, Paris, Presses universitaires de France, 1949.

DESPOIS, J. et RAYNAL, R. : *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest*, Paris, Payot, 1967.

DERMENGHEM, E. : *Le Culte des saints dans l'islam maghrébin*, Paris, Gallimard, 1954.

DESANGES, J. : *Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique à l'ouest du Nil*, Université de Dakar, 1962.

– *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique*, Ecole française de Rome, 1978.

FAUCOULD, Ch. de, et CALASSANTI-MOTYLINSKI, A. de : *Textes touaregs en prose*, édition critique avec traduction par S. Chaker, H. Claudot, M. Gast, Aix, Edisud, 1984.

GALAND, L. : *Langues et littératures berbères (vingt-cinq ans d'études)*, Paris, CNRS, 1979.

– *Etudes de linguistique berbère*, Paris/Louvain, Peeters (Société de linguistique de Paris), 2002.

GAST, M. : *Alimentation des populations de l'Ahaggar. Etude ethnographique*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1968.

GAUDRY, M. : *La Femme chaouïa de l'Aurès. Etude de sociologie berbère*, Paris, Geuthner, 1929.

GOICHON, A.-M. : *La Vie féminine au Mzab*, Paris, Geuthner, t. I, 1927, t. II, 1930.

GOLVIN, L. : *Le Maghreb central à l'époque des Zirides. Recherche d'archéologie et d'histoire*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1957.

GSELL, S. : *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris, Hachette, t. I, 1913, t. VIII, 1929.

HANOTEAU, A., et LETOURNEAUX, A., : *La Kabylie et les Coutumes kabyles*, Paris, Challamel, 1893. Nouvelle édition intégrale (avec présentation d'A. Mahé et T. Hannemann), Saint-Denis, Bouchènes, 2003.

IBN KHALDOUN : *Histoire des Berbères*, trad. De Slane, Paris, 1890 (1925-1956).

JACQUES-MEUNIÉ, D. : *Le Prix du sang chez les Berbères de l'Atlas*, Paris, Imprimerie nationale, 1954.

– *Architectures et habitas du Dadès, Maroc présaharien*, Paris, Klincksieck, 1962.

LAOUST, E. : *Mots et choses berbères. Notes de linguistique et d'ethnographie*, Paris, 1920.

LAOUST-CHANTREAUX, G. : *Kabylie, côté femmes. La vie féminine à Aït Hichem (1937-1939),* Aix, Edisud, 1990.

LASSERRE, J.-M. : *Ubique Populus. Peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine*, Paris, CNRS, 1977.

LEGLAY, M. : *Saturne africain*, Paris, De Boccard, 1966.

LHOTE, H. : *Les Touaregs du Hoggar*, Paris, Payot, 1944.

MARCAIS, G. : *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris, Aubier, 1946.

MODERAN, Y. : *Les Maures et l'Afrique romaine (IV^e^-VII^e^ siècle)*, Ecole française de Rome, 2003.

MONTAGNE, R. : *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc*, Paris, Alcan, 1930.

PICARD, G. : *Les Religions de l'Afrique antique*, Paris, Plon, 1955.

La Civilisation de l'Afrique romaine, Paris, Plon, 1959.

الأعمال الكاملة
لغابرييل كامب

المؤلفات :

1961 - Camps G., *Aux origines de la Berbérie : Massinissa ou les débuts de l'Histoire*, Alger, Imprimerie officielle, 320 p.

1961 - Camps G., *Aux origines de la Berbérie, monuments et rites funéraires protohistoriques*, Paris, Arts et métiers graphiques, 629 p.

1964 - Camps G., *Corpus des poteries modelées retirées des monuments funéraires protohistoriques de l'Afrique du Nord*, Paris, Arts et métiers graphiques, 108 p. (Travaux du CRAPE ; 3).

1964 - Camps G., Camps-Fabrer H., *La nécropole mégalithique du djebel Mazela à Bou Nouara*, Paris, Arts et métiers graphiques, 92 p. (Mémoire du CRAPE ; 3).

1967 - Camps G., *Le Bardo, Alger : musée d'ethnographie et de préhistoire*, Alger, Imprimerie officielle, 72 p.

1967 - Camps G., *Céramique protohistorique du Maghreb : types 1 à 38*, Paris / Alger, Arts et métiers graphiques / Centre de recherches anthropologiques préhistoriques et ethnologiques, 38 fiches recto-verso (Fiches typologiques africaines, 5ème cahier : fiches 129-166).

1969 - Camps G., *Amekni, néolithique ancien du Hoggar*, Paris, Arts et métiers graphiques, 232 p. (Mémoire du CRAPE ; 10).

1970 - Camps G., Olivier G. (Dir.), *L'Homme de Cro-Magnon : anthropologie et archéologie*, Paris, Arts et métiers graphiques, 219 p.

1972 - Schwabedissen H., Roche J., Camps G., Camps-Fabrer H., *et al.*, *Die Anfänge des Neolithokums vom Orient bis Nordeuropa. T. 7 : Westliches mittelmeergebiet und Britische Inseln*, Köln, Böhlau, 250 p. (Fundamenta : Monographien zur Urgeschichte. Reihe A / Institut für Ur-und Frühgeschichte der Universität zu Köln ; 3).

1974 - Camps G., *Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara*, Paris, Doin, 374 p.

1975 - Camps G. (Dir.), *L'Epipaléolithique méditerranéen : actes du colloque d'Aix-en-Provence, juin 1972*, Paris, Centre national de la Recherche scientifique, 214 p.

1976 - Camps G. (Dir.), *Chronologie et synchronisme dans la préhistoire circum-méditerranéenne : prétirage*, Paris, Centre national de la recherche scientifique, 179 p. (Union internationale des sciences préhistoriques et protohistoriques. Congrès; 9, Nice 1976 - Colloque ; 2).

1978-1990 - Camps G., Camps-Fabrer H. (Dir.), *Atlas préhistorique du Midi méditerranéen*, Paris, Centre national de la Recherche scientifique / Laboratoire d'anthropologie et de préhistoire des pays de la Méditerranée occidentale - Université de Provence.

1979 - Camps G., *Manuel de recherche préhistorique*, Paris, Doin, 458 p.

1979 - Camps G. (Dir.), *Recherches sahariennes*, Aix-en-Provence / Paris, G.I.S. «Sciences humaines sur l'aire méditerranéenne» - Maison de la Méditerranée, 224 p. (Cahier ; 1).

1980 - Camps G., *Berbères : aux marges de l'histoire*, Toulouse, Éditions des Hespérides, 340 p. (Archéologie, horizons neufs).

1982 - Camps G., *La préhistoire : à la recherche du paradis perdu*, Paris, Librairie académique Perrin, 463 p. (Histoire et décadence).

1982 - Camps G., Gast M. (Dir.), *Les chars préhistoriques du Sahara : archéologie et techniques d'attelage : actes du colloque de Sénanque, 21-22 mars 1981*, Aix-en-Provence, Maison de la Méditerranée, 200 p. (Programme Marges désertiques).

1985 - Camps G., Gragueb A., Harbi-Riahi M., M'timet A., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 1 : Tabarka*, Rome, Ecole française de Rome, 24 p., 1 carte h. t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1985 - Gragueb A., Camps G., Harbi-Riahi M., M'timet A., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 2 : Bizerte*, Rome, Ecole française de Rome, 38 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1985 - Harbi-Riahi M., Gragueb A., Camps G., M'timet A., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 8 : Maktar*, Rome, Ecole française de Rome, 37 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1985 - M'timet A., Gragueb A., Camps G., Harbi-Riahi M., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 7 : Le Kef*, Rome, Ecole française de Rome, 28 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1985 - Zoughlami J., Harbi-Riahi M., Gragueb A., Camps G., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 23 : Gabès*, Rome, Ecole française de Rome, 31 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1987 - Camps G., *Les Berbères : mémoires et identité*, Paris, Errance, 261 p.

1987 - Camps G., Gragueb A., Harbi-Riahi M., M'timet A., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 3 : Cap Bon*, Rome, Ecole française de Rome, 23 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1987 - Gragueb A., Camps G., Harbi-Riahi M., M'timet A., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 5 : Tunis*, Rome, Ecole française de Rome, 73 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1987 - Harbi-Riahi M., Gragueb A., Camps G., M'timet A., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 6 : La Goulette*, Rome, Ecole française de Rome, 80 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1988 - Camps G., *Préhistoire d'une île : les origines de la Corse*, Paris, Errance, 284 p. (Collection des Hespérides).

1988 - Camps G., Vigne J.-D., Cesari J., Gauthier A., *et al.*, *Terrina et le Terrinien : recherches sur le chalcolithique de la Corse*, Roma, Ecole française de Rome, 397 p. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 109).

1989 - Zoughlami J., Camps G., Harbi-Riahi M., Gragueb A., M'timet A., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 4 : Souk el Arba*, Rome, Ecole française de Rome, 23 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1990 - Bonifay E., Gauthier A., Weiss M.C., Camps G., *et al.*, *Préhistoire de la Corse*, Ajaccio, Centre régional de Documentation pédagogique, 125 p.

1990 - Camps G., avec la collaboration de Chenorkian R., Camps-Fabrer H., Mahieu E., *Manuel de recherche préhistorique*, 2ème édition, Paris, Doin, 501 p.

1992 - Camps G., *L'Afrique du Nord au féminin*, Paris, Perrin, 353 p.

1992 - M'timet A., Gragueb A., Harbi-Riahi M., Camps G., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 9 : Sousse*, Rome, Ecole française de Rome, 56 p., 1 carte h.t. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81 / Recherches d'archéologie africaine publiées par l'Institut national du Patrimoine de Tunis).

1994 - Camps G., *Introduction à la préhistoire: à la recherche du paradis perdu*, Paris, Seuil, 466 p. (Points-Histoire).

1995 - Camps G., Gragueb A., Harbi-Riahi M., M'Timet A., Zoughlami J., *Atlas préhistorique de la Tunisie. 12 : El Djem*, Rome, Ecole française de Rome, 26 p. (Collection de l'Ecole française de Rome ; 81).

1996 - Camps G., *Des rives de la Méditerranée aux marges méridionales du Sahara. Les Berbères*, Tunis, Alif, 89 p. (Encyclopédie de la Méditerranée).

1996 - Camps G., *I berberi della riva del Mediterraneo ai confini del Sahara*, Milano, Jaca Book, 89 p. (Encyclopédie de la Méditerranée).

1998 - Camps G., *Le Néolithique méditerranéen. Techniques et genres de vie*, Tunis / Aix-en-Provence / Casablanca, Alif / Edisud / Toubkal, 95 p., 13 photo. h.-t. (Encyclopédie de la Méditerranée-Série Histoire).

1998 - Camps G. (Dir.), *L'homme préhistorique et la mer*, Paris, Comité des Travaux historiques et scientifiques, 488 p. (Actes du 120ème Congrès national des Sociétés savantes, Aix-en-Provence 1995).

1945-1946 - Camps G., «Inscriptions d'Altava (Lamoricière)», in : *Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran*, t. 66-67, p. 35-38.

1953 - Camps G., «Les dolmens de Beni Messous», in *Libyca : Anthropologie Archéologie préhistorique*, t. 1, p. 239-372.

1954 - Camps G., «Gisement atérien en relation stratigraphique directe avec un niveau à *Strombus bubonius* : prise de date», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 51, p. 105.

1954 - Camps G., «Gisement atérien en relation stratigraphique directe avec un *Strombus bubonius* LK au Camp Franchet-d'Esperey près d'Arzew», in : *Bulletin de la Société d'Histoire naturelle de l'Afrique du Nord*, t. 45, p. 95-97.

1954 - Camps G., «Des dolmens à 20 km d'Alger», in : *Algéria*, p. 5-10.

1954 - Camps G., «L'inscription de Béjà et le problème des Dii Mauri», in : *Revue africaine*, t. 98, p. 233-260.

1955 - Camps G., «Recherches sur l'antiquité de la céramique modelée et peinte en Afrique du Nord», in : *Libyca : Anthropologie Archéologie préhistorique*, t. 3, p. 345-390.

1955 - Camps G., «Abri sous roche de Bou Nouara», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 52, p. 10-11.

1955 - Camps G., «Escargotières du Capsien supérieur de la région de Colbert (département de Constantine, au sud de Sétif)», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 52, p. 22-.

1955 - Camps G., «Recherches sur les relations du Capsien supérieur et de l'Ibéromaurusien dans le Constantinois», in : *Bulletin de la Société d'Histoire naturelle de l'Afrique du Nord*, t. 46, p. 88-97.

1955 - Camps G., «Le gisement atérien du Camp Franchet d'Esperey (Arzew)», in : *Libyca : Anthropologie Archéologie préhistorique*, t. 3, p. 17-56.

1955 -Camps G., «Les Bavares, peuples de Maurétanie césarienne», in : *Revue africaine*, t. 99, p. 241-288.

1955 - Camps G., «La céramique des monuments mégalithiques : collections du Musée du Bardo (Alger)», in : *Congrès panafricain de préhistoire, Alger 1952 : actes de la 2ème session*, Balout L. (Dir.), Alger, Direction de l'Intérieur et des Beaux-Arts-Service des Antiquités, p. 514-550.

1955 - Camps G., «Du nouveau sur l'archéologie du Fezzan», *Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes*, t. 13, p. 189-198.

1955 - Camps G., «La nécropole de Draria-el-Achour», in : *Libyca : Archéologie Epigraphie*, t. 3, p. 225-264.

1956 - Camps G., «La céramique des sépultures berbères de Tiddis», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 4, p. 155-203.

1956 - Camps G., «Inscriptions de Maurétanie sitifienne», in : *Libyca : Archéologie Epigraphie*, t. 4, p. 91-99.

1956 - Camps G., «Compte rendu de «E.G. Gobert - Remarques sur les tatouages nord-africains»»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 4, p. 376-378.

1956 - Camps G., «Compte rendu de J. Meunié et C. Allain - Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême sud-est marocain», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 4, p. 378-380.

1957 - Camps G., «La céramique modelée et peinte des dolmens et tumulus nord-africains», in : *Congrès préhistorique de France - 15ème session, Poitiers-Angoulême 1956*, Société Préhistorique Française (Dir.), Paris, Société préhistorique française, p. 334-343.

1957 - Camps G., «Compte rendu de «P. Mieg de Boofzheim - Grotte Peltier aux Tamaris : notes préliminaires», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 5, p. 277-278.

1957 - Camps G., Compte rendu de «J. Desanges - Le triomphe de Cornelius Balbus (19 av. J.-C.), in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 5, p. 275-277.

1957 - Camps G., «Compte rendu de «G. Germain - Qu'est ce que le périple d'Hannon ?»»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 5, 1957, p. 275-277.

1958 - Camps G., Céramique nord-africaine et collections archéologiques, in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 55, p. 686-687.

1958 - Camps G., Le grand vase de Zouzoudinga : remarques sur une technique de décoration ancienne, in : *Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes*, t. 17, p. 195-201.

1958 - Camps G., «Compte rendu de «L. Balout - Algérie préhistorique»»», *Revue africaine*, t. 103, p. 162-164.

1958-1959 - Camps G., «Compte rendu de «D. Jacques-Meunié - La nécropole de Foum-el-Rjem»»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 6-7, p. 286-287.

1958-1959 - Camps G., «Compte rendu de «D. Férembach - A propos d'un crâne trépané trouvé à Timma (Israël) : origine de certaines tribus berbères»»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 6-7, p. 284-286.

1958-1959 - Camps G., «Compte rendu de différentes études de A. Jodin», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 6-7, p. 283-284.

1959 - Camps G., «Sur trois types peu connus de monuments funéraires nord-africains (notes de protohistoire)», in *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 56, p. 101-108.

1960 - Camps G., «Compte rendu de «Miguel Fusté - Contribution à l'anthropologie de la Grande Canarie»»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 8, p. 354-.

1960 - Camps G., «Sur une pratique funéraire protohistorique en Afrique du Nord», in : *Bulletin - Société d'études et de recherches préhistoriques et Institut pratique de préhistoire Les Eyzies*, t. 10, p. 1-11.

1960 - Camps G., «Un mausolée marocain, la grande bazina de Souk el-Gour», in : *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. 4, p. 47-92.

1960 - Camps G., «Les traces d'un Age du bronze en Afrique du Nord», in : *Revue africaine*, t. 104, p. 31-55.

1960 - Camps G., «Compte rendu de J. Malhomme - Corpus des gravures rupestres du Grand Atlas», *Hespéris, Tamuda*, t. 1, p. 592-594.

1960 - Camps G., «A propos d'une inscription punique : les suffètes de Volubilis aux III^e et II^e siècles av. J.-C.», in : *Bulletin d'Archéologie marocaine*, t. 4, p. 423-426.

1960 - Camps G., Giot P.-R., «Un poignard chalcolithique au cap Chenoua», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 8, p. 263-276.

1961 - Camps G., «Données nouvelles sur les tombeaux du Djebel Mistiri d'après une note de M. Latapie», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 7, p. 229-242.

1961 - Camps G., «Les origines préhistoriques de la céramique berbère», in : *Bericht über den V. internationalen Kongress für Vor- und Frühgeschichte, Hamburg 1958*, p. 173-179.

1961-1962 - Camps G., «Remarques sur les stèles funéraires anthropomorphes en bois de l'Afrique du nord», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 9-10, p. 205-221.

1961-1962 - Camps G., «Travaux du laboratoire d'Anthropologie du CRAPE», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 9-10, p. 205-221.

1961-1962 - Camps G., «Compte rendu de «J. Desanges - Catalogue des tribus africaines de l'Antiquité classique»»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 9-10, p. 277-279.

1963 - Camps G., «A propos d'une étude sur la protohistoire en Tunisie», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 11, p. 295-306.

1963 - Camps G., «Notes de protohistoire nord-africaine», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 11, p. 169-176.

1963 - Camps G., «La préhistoire en Algérie et les activités du CRAPE en 1962-1963», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 11, p. 269-290.

1963 - Camps G., «Bracelets en bronze trouvés aux Montagnes Rouges (Orléansville)», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 11, p. 174-176.

1963 - Camps G., Lefebvre G., «Un vase de Fedj Mzala à décor rare», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 11, p. 189-197.

1963-1964 [paru 1966] - Camps G., «La préhistoire en Algérie et les activités scientifiques du CRAPE», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques*, p. 231-251.

1964 - Camps G., «Recherches récentes sur le Paléolithique inférieur des Hautes-Plaines constantinoises», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 12, p. 9-42.

1964 - Camps G., «La préhistoire en Algérie et les activités du CRAPE durant l'année 1964», in : *Libyca :Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 12, p. 361-392.

1964 - Camps G., «Industrie en obsidienne de l'Afrique du Nord», *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 12, p. 293-297.

1965 - Camps G., «Rapport sur les activités scientifiques du centre d'Alger de recherches anthropologiques, préhistoriques et ethnographiques durant les mois d'octobre, novembre et décembre

1962», in : *Actes du 88ème Congrès national des sociétés savantes, Clermont-Ferrand 1963 : Section d'Archéologie*, Comité Des Travaux Historiques Et Scientifiques (Dir.), Paris, Imprimerie nationale, p. 63-75.

1965 - Camps G., «Les recherches protohistoriques en Afrique du Nord de 1952 à 1962», in : *6ème Congrès de l'Union internationale des Sciences préhistoriques et Protohistoriques (UISPP), Rome 1962*, p. 343-346.

1965 - Camps G., «Une civilisation préhistorique : le Capsien», in : *Bulletin d'Information historique de la Faculté de Lettres d'Alger*, t. 3, p. 6-8.

1965 - Camps G., «La préhistoire en Algérie et les activités du CRAPE durant l'année 1965», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 13, p. 351-365.

1965 - Camps G., «Note sur les peignes touareg à une dent», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 13, p. 333-336.

1965 - Camps G., «Relations protohistoriques entre la Berbérie orientale et les îles italiennes», in : *Congrès préhistorique de France - 16ème session, Monaco 1959*, Le Mans, Imprimerie Monnoyer, p. 329-330.

1965 - Camps G., «Les monuments funéraires à niche et à chapelle dans la protohistoire nord-africaine», in : *Congrès préhistorique de France - 16ème session, Monaco 1959*, Le Mans, Imprimerie Monnoyer, p. 321-328.

1965 - Camps G., «Essai de classification des monuments funéraires protohistoriques de l'Afrique du Nord», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 62, p. 476-481.

1965 - Camps G., Les dolmens marocains», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 13, p. 235-247.

1965 - Camps G., «Le tombeau de Tin Hinan, *Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes*, t. 24, p. 65-83.

1965 - Camps G., «Le premier congrès des études nord-africaines, Cagliari, janvier 1965», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 13, p. 385-386.

1966 - Camps G., «Le gisement de Rachgoun (Oranie)», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 14, p. 161-187.

1966 - Camps G., «Sur la valeur chronologique des pointes de flèches dites «sahariennes» du littoral nord-africain», in : *Congrès préhistorique de France-18ème session, Ajaccio 1966*, Paris, Société préhistorique française, p. 135-142.

1966 - Camps G., «Nouvelles données par le carbone 14 concernant la préhistoire récente en Algérie (Capsien supérieur et Néolithique)», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 63, p. LXXXIV-LXXXVIII.

1966 - Camps G., «La préhistoire en Algérie et les activités du CRAPE durant l'année 1966», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 14, p. 437-468.

1966 - Camps G., «Les monuments à déambulatoire dans l'Afrique du Nord antéislamique», in : *Atti del primo congresso internazionale di studi nord-africani, Cagliari 1965*, Cagliari, G. Fossataro, p. 37-43.

1966 - Camps G., «Aumassip G., Roubet C., Présentation de deux industries à lamelles des régions sahariennes», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 63, p. 631-642.

1967 - Camps G., «Le Néolithique de tradition capsienne au Sahara», in : *Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes*, t. 26, p. 85-96.

1967 - Camps G., «Missions effectuées par l'Institut de recherches sahariennes en 1967», in : *Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes*, t. 26, p. 133-161.

1967 - Camps G., «Le Centre de Recherches Anthropologiques, Préhistoriques et Ethnographiques d'Alger ; quatre années d'activité», in : *L'Anthropologie (Paris)*, t. 71, p. 279-289.

1967 - Camps G., «La Préhistoire en Algérie et les activités du CRAPE durant l'année 1967», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 15, p. 373-409.

1967 - Camps G., «Origine du royaume massyle», in : *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, t. 3, p. 29-38.

1967 - Camps G., «Précisions sur le combat dit de Sidi Khalef (24 juin 1930)», in : *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, t. 3, p. 56-58.

1968 - Camps G., «Tableau chronologique de la préhistoire récente du Nord de l'Afrique : première synthèse des datations absolues obtenues par le carbone 14», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 65, p. 609-622.

1968 - Camps G., «Le Capsien supérieur : état de la question», in : *La Préhistoire : problèmes et tendances*, Paris, Centre national de la Recherche scientifique, p. 87-101.

1968 - Camps G., «Mouvements de populations et civilisations préhistoriques et protohistoriques au Sahara depuis le X^ème^ millénaire», in : *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, p. 7-11.

1968 - Camps G., «La préhistoire en Algérie et les activités du CRAPE durant l'année 1968», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 16, p. 235-248.

1968 - Camps G., «Compte rendu de «Marie - Claude Chamla - Aksha III : la population méroïtique»»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 16, p. 265-266.

1968 - Camps G., «Compte rendu de «Bruce Howe et coll. - The Palaeolithic of Tangier, Morocco : excavations of Cape Ashakar 1939 - 1947»», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 16, p. 266.

1968 - Camps G., Delibrias G., Thommeret J., «Chronologie absolue et succession des civilisations préhistoriques dans le nord de l'Afrique», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 16, p. 9-28.

1969 - Camps G., «Le Néolithique de tradition capsienne au Sahara», in : *Actes du 1^er^ Colloque international d'Archéologie africaine, Fort-Lamy, décembre 1966*, Fort-Lamy, République du Tchad : Institut national tchadien pour les sciences humaines, p. 81-94 (Etudes et documents tchadiens-Mémoire ; 1).

1969 - Camps G., «L'Homme de Mechta el-Arbi et sa civilisation : contribution à l'étude des origines guanches», in : *Simposio internacional conmemorativo del centenario del descubrimiento del primer hombre de Cro-Magnon*, Madrid / Las Palmas, Patronato de la Casa de Colón, p. 257-272 (Anuario de estudios atlanticos ; 15).

1970 - Camps G., «Notes de protohistoire nord-africaine et saharienne V : dates absolues concernant la protohistoire du Maghreb et du Sahara)», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 18, p. 235-239.

1970 - Camps G., «Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara», in : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, t. 7, p. 35-45.

1970 - Camps G., «Formation des populations méditerranéennes de l'Afrique du Nord», in : *Biologie et génétique de l'homme méditerranéen : Colloque international, Hammamet 1968*, Societé

De Biologie Humaine Et De Transfusions Sanguines (Dir.), Tunis, Imprimerie officielle, p. 51-57.

1971 -Camps G., «Compte rendu de «Raymond Vaufrey - Préhistoire de l'Afrique. Tome 2 : au nord et à l'est de la Grande Forêt»», in : *Cahiers de Tunisie*, t. 19, p. 259-263.

1971 -Camps G., «A propos du néolithique ancien de la Méditerranée occidentale», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 68, p. 48-50.

1972 -Camps G., «Harratin-Ethiopiens : réflexions sur les origines des négroïdes sahariens», in : *Biologie des populations sahariennes*, Société De Biologie Humaine D'afrique Et Du Moyen-Orient (Dir.), Alger, Ministère de la Santé publique, p. 11-17.

1972 - Camps G., «Extension territoriale des civilisations épipaléolithiques et néolithiques de l'Afrique du Nord et du Sahara», in : *Congrès panafricain de préhistoire, Dakar 1967 : actes de la 6ème session*, Hugot H.-J. (Dir.), Chambéry, Imprimeries réunies, p. 284-287.

1972 - Camps G., «Art paléolithique et manifestation de la personnalité», in : *Actas del Simposium internacional de arte rupestre, Santander 1970*, Almagro Basch M., Garcia Guinea M.A. (Dir.), Santander, U.I.S.P.P., p. 139-146.

1972 -Camps G., «Sosus ou Mastanesosus, roi de Maurétanie», in : *Encyclopédie berbère - Cahier*, t. 5, 7 p.

1972 - Camps G., Camps-Fabrer H., «L'Epipaléolithique récent et le passage au Néolithique dans le nord de l'Afrique», in : *Fundamenta (A/3)*, t. 7, p. 19-59.

1972 -Camps G., Espérandieu G., «L'éléphant berbère», in : *Encyclopédie berbère - Cahier*, t. 2, 10 p.

1972 -Camps-Fabrer H., Camps G., «Perspectives et orientation des recherches sur le Néolithique saharien», in : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, t. 11, p. 21-30.

1973 - Camps G., «Pour une encyclopédie berbère», in : *Actes du 1er Congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence arabo-berbères, Malte 1972*, Galley M. (Dir.), Alger, Société nationale d'Edition et de Diffusion, p. 475-477.

1973 - Camps G., «Une «société archéologique» à Fez au XVIe siècle : les Canesin de Jean-Léon l'Africain», in : *Mélanges Le Tour-*

neau, Aix-en-Provence, Association pour l'étude des sciences humaines en Afrique du Nord, p. 211-216 (*Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée* ; 13-14).

1973 - Camps G., «L'âge de l'Atérien nord-africain et saharien», in : *Estudios dedicados al Prof. Dr. Luis Pericot*, Barcelona, Instituto de Arqueologia y prehistoria, p. 29-46 (Publicaciones eventuales ; 23).

1973 - Camps G., «Une frontière inexpliquée, la limite de la Berbérie orientale de la protohistoire au Moyen-Age», in : *Maghreb et Sahara : études géographiques offertes à Jean Despois*, Planhol X. de (Dir.), Paris, Société de Géographie, p. 59-67.

1973 - Camps G., «Nouvelles observations sur l'architecture et l'âge du Médracen, mausolée royal de Numidie», in : *Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et des Belles Lettres*, p. 470-517.

1973 - Camps G., «Les phénomènes de néolithisation en Méditerranée occidentale et dans le nord de l'Afrique, in : *Actes du 8ème Congrès international des Sciences préhistoriques et protohistoriques, Belgrade 1971*, p. 381-385.

1973 - Camps G., Delibrias G., Thommeret J., «Chronologie des civilisations préhistoriques du nord de l'Afrique d'après le radiocarbone», in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 21, p. 65-89.

1974 - Camps G., «L'âge du tombeau de Tin Hinan, ancêtre des Touareg du Hoggar», in : *Zephyrus*, t. 25, p. 497-516.

1974 - Camps G., «Tableau chronologique de la préhistoire récente du nord de l'Afrique : deuxième synthèse des datations absolues obtenues par le carbone 14», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 71, p. 261-278.

1974 - Camps G., «Le Gour, mausolée berbère du VIIe siècle», in : *Antiquités africaines*, t. 8, p. 191-208.

1974 - Camps G., «Compte rendu de «Georges Souville - Atlas préhistorique du Maroc I : le Maroc atlantique»», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 71, p. 166-167.

1974 - Camps G., «Nouvelles remarques sur l'âge de l'Atérien», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 71, p. 163-164.

1974 - Camps G., «Compte rendu de «Jean Guilaine *et al.* (Dir) - Premières communautés paysannes en Méditerranée occidentale», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 85, p. 87-.

1974 - Camps G., «Compte rendu de «Barbara Barich - Archaeology and environment in the Libyan Sahara»»», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 85, p. 85-86.

1974-1975 [paru 1977] - Camps G., «Recherches sur les plus anciennes inscriptions libyques de l'Afrique du nord et du Sahara», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 10-11, p. 143-166.

1975 - Camps G., «La place de la Corse dans la préhistoire méditerranéenne», in : *Etudes corses*, t. 3, p. 109-134.

1975 - Camps G., Les industries épipaléolithiques du Maghreb et du Sahara septentrional», in : *L'Epipaléolithique méditerranéen : actes du colloque d'Aix-en-Provence, juin 1972*, Paris, Centre national de la Recherche scientifique, p. 83-117.

1975 - Camps G., «Nouvelles remarques sur le Néolithique du Sahara central et méridional, in : *Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie*, t. 23, p. 123-132.

1975 - Camps G., «Symboles religieux dans l'art rupestre du nord de l'Afrique», in : *Les religions de la préhistoire : Actes du Valcamonica symposium 18-23 septembre 1972*, Anati E. (Dir.), Capo di Ponte, Centro camuno di Studi prehis-torici, p. 324-333.

1975 - Camps G., «The prehistoric cultures of North Africa : radiocarbon chronology», in : *Problems in prehistory : north Africa and the Levant*, Wendorf F., Marks A.E. (Dir.), Dallas, Southern Methodist University Press, p. 181-192.

1975 - Camps G., «Sur les prétendues représentations de cervidés dans l'art rupestre du Maroc méridional», in : *Bollettino del Centro Camuno di Studi preistorici*, t. 12, p. 160-163.

1975 - Camps G., «Les représentations humaines du type orant à bras et jambes écartés», in : *Bollettino del Centro Camuno di Studi preistorici*, t. 12, p. 13-14.

1976 - Camps G., «La question des navigations préhistoriques dans le bassin occidental de la Méditerranée», in : *Congrès préhistorique de France-20ème session Provence 1974*, Paris, Société préhistorique française, p. 53-62.

1976 - Camps G., «Dix ans de recherches préhistoriques au Sahara», in : *Le Courrier du CNRS*, t. 21, p. 34-41.

1976 - Camps G., «Navigations et relations inter-méditerranéennes préhistoriques», in : *Chronologie et synchronisme dans la préhistoi-*

re circum-méditerranéenne : prétirage, Camps G. (Dir.), Paris, Centre national de la recherche scientifique, p. 168-177 (Union internationale des sciences préhistoriques et protohistoriques. Congrès ; 9, Nice 1976 - Colloque ; 2).

1976 - Camps G., «La navigation en France au Néolithique et à l'Age du bronze», in : *La Préhistoire française. Tome II : Les civilisations néolithiques et protohistoriques de la France*, Guilaine J. (Dir.), Paris, Editions du CNRS, p. 192-201.

1976 - Camps G., «Nouvelles observations sur l'Age du fer indigène en Afrique du Nord», in : *L'Age du fer en Méditerranée : Colloque d'Ajaccio 1974*, Association Archéologique De La Corse, Direction Régionale Des Antiquités De La Corse (Dir.), Ajaccio, Maison de la Culture, p. 37-48.

1976 - Camps G., Souville G., «Mise au point sur les pointes de flèches du littoral nord-africain et leur valeur chronologique», in : *Congrès préhistorique de France-20ème session Provence 1974*, Paris, Société préhistorique française, p. 63-68.

1977 - Camps G., «Trois problèmes de la préhistoire corse», in : *Sautuola II*, Santander, Dirección general del patrimonio artistico, archivos y museos, p. 175-187 (Publicaciones del patronato de las cuevas prehistóricas de la Provincia de Santander ; 15).

1977 - Camps G., «Ten years of archaeological research in the Sahara (1965-1975)», in: *West African Journal of Archaeology*, t. 7, p. 1-15.

1977 - Camps G., Castel A., «Les Capsiens, le plâtre et l'ocre», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 74, p. 264-266.

1978 - Camps G., «Amekni und die neolithische Sahara», in : *Sahara : 10.000 Jahre zwischen Weide und Wüste*, Köln, Museen der Stadt, p. 181-188.

1978 - Camps G., «Origines de la domestication en Afrique du Nord et au Sahara», in : *Revue française d'Histoire d'Outre-Mer*, t. 63, p. 363-376.

1978 - Camps G., «Twelve years of prehistoric research in the Sahara», in : *CNRS Research*, t. 9, p. 40-48.

1978 - Camps G., «La préhistoire dans la région d'Aléria : le Terrinien, faciès ancien du Chalcolithique de Corse», in : *Archeologia corsa : études et mémoires*, t. 4, p. 3-21.

1978 - Camps G., Riser J., «Le Gisement de l'Oued Neffid dans le Tinzouline (vallée moyenne du Dra) : un exemple de l'Acheuléen

du Sud-Est marocain», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 75, p. 291-302.

1979 - Camps G., «Aperçu sur la préhistoire corse et ses problèmes», in : *Bulletin de la Société d'Etudes et de Recherches préhistoriques des Eyzies*, t. 28, p. 1-22.

1979 - Camps G., «Les relations du monde méditerranéen et du monde sud-saharien durant la préhistoire et la protohistoire», in : *Recherches sahariennes*, G.I.S. «Sciences Humaines Sur L'aire Méditerranéenne» (Dir.), Aix-en-Provence / Paris, Centre national de la Recherche scientifique, p. 9-18 (Cahier ; 1).

1979 - Camps G., «Les Numides et la civilisation punique», in : *Antiquités africaines*, t. 14, p. 43-53.

1979 - Camps G., «Les premiers navigateurs méditerranéens», in : *L'Histoire*, t. 13, p. 6-13.

1979 - Camps G., D'Anna A., «Recherches sur les navigations préhistoriques en Méditerranée occidentale», in : *Actes de la Table ronde «Navigation et gens de mer en Méditerranée de la Préhistoire à nos jours»*, G.I.S. «Sciences Humaines Sur L'aire Méditerranéenne» (Dir.), Paris, CNRS-Maison de la Méditerranée, p. 1-16 (Cahier ; 3).

1979-80 [paru 1984] - Camps G., «Une monnaie de Capussa, roi des Numides massyles», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 15-16, p. 29-32.

1979-1980 - Camps G., «Dix ans de recherches préhistoriques au Sahara (1965-1975)», in : *Ampurias*, t. 41-42, p. 427-441.

1980 - Camps G., «El Neolitico», *in* : *Historia universal*, Barcelona, Salvat, p. 79-106.

1981 - Camps G., «Origines de la domestication en Afrique du Nord et au Sahara», in : *Le Sol, la parole et l'écrit : 2000 ans d'histoire africaine : mélanges en hommage à Raymond Mauny*, Paris, Société française d'Histoire d'Outre-Mer, p. 547-560 (Bibliothèque d'Histoire d'Outre-Mer (n.s.) - Etudes ; 5-6).

1981 - Camps G., «Le peuplement préhistorique des îles de la Méditerranée occidentale», in : *Iles de la Méditerranée*, G.I.S. «Sciences Humaines Sur L'aire Méditerranéenne» (Dir.), Paris, CNRS - Maison de la Méditerranée, p. 1-7 (Cahier ; 4).

1981 - Camps G., «L'origine des Berbères», in : *Islam et société : anthropologie du Maghreb*, Paris, CNRS, p. 9-33.

1981 - Camps G., «Fouilles préhistoriques à Aléria : le Terrinien, faciès chalcolithique corse», in : *L'archéologie en Provence-Alpes-Côte d'Azur : lettre d'information*, t. 3-4, p. 127-135.

1981 - Camps G., «Le Laboratoire d'Anthropologie et de Préhistoire des Pays de la Méditerranée occidentale et la recherche archéologique au Sahara», in : *La Nouvelle revue anthropologique*, p. 17-25.

1981 - Camps G., «Cadenat P., «Nouvelles données sur le début de l'âge des métaux en Afrique du Nord»», in : *Bulletin de la Société d'Etudes et de Recherches préhistoriques des Eyzies*, t. 30, p. 40-51.

1981 [paru 1984] - Camps G., «Les derniers rois numides : Massinissa II et Arabion», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 17, p. 303-311.

1982 - Camps G., «Libya II : inscriptions libyco-berbères», in : *Encyclopédie de l'Islam. 5. - nouvelle édition*, Leiden / Paris, Brill / Maisonneuve et Larose, p. 753-757.

1982 - Camps G., «La préhistoire dans la région d'Aléria : le Terrinien, faciès ancien du chalcolithique de Corse», in : *Congrès préhistorique de France - 21ème session, Montauban-Cahors 1979*, Paris, Société préhistorique française, p. 28-41.

1982 - Camps G., «Réflexions sur l'origine des juifs des régions nord-sahariennes», in : *Communautés juives des marges sahariennes du Maghreb*, Abitbol M. (Dir.), Jérusalem, Institut Ben Zvi, p. 57-67 (Publication du Centre de recherche sur les juifs d'Afrique du Nord).

1982 - Camps G., «Beginnings of pastoralism and cultivation in north-west Africa and the Sahara : origins of the Berbers», in : *Cambridge History of Africa*, t. 1, p. 548-623.

1982 - Camps G., «Le cheval et le char dans la préhistoire nord-africaine et saharienne», in : *Les chars préhistoriques du Sahara : archéologie et techniques d'attelage*, Camps G., Gast M. (Dir.), Aix-en-Provence, Maison de la Méditerranée, p. 9-22 (Actes du colloque Sénanque, 21-22 mars 1981).

1982 - Camps G., «Hachid M., Un quadrige peint dans la région de Djelfa», in : *Les chars préhistoriques du Sahara : archéologie et techniques d'attelage*, Camps G., Gast M. (Dir.), Aix-en-Provence, Maison de la Méditerranée, p. 153-160 (Actes du colloque Sénanque, 21-22 mars 1981).

1982 - Camps G., Rostand E., «Les poteries à perforations en ligne à propos du faciès terrinien du Chalcolithique corse», *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 79, p. 240-249.

1982 (1988) - Camps G., «Nouvelles observations sur l'inscription du roi Masuna à Altava», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 18, p. 153-157.

1983 - Camps G., «L'Afrique du nord avant la révolution néolithique», *Archéologia*, t. 184, p. 42-54.

1983 - Camps G., «Le cheval et le char dans la préhistoire nord-africaine et saharienne», in : *Mélanges Édouard Delebecque*, Aix-en-Provence, Université de Provence, p. 43-59.

1983 - Camps G., «Comment la Berbérie est devenue le Maghreb arabe», in : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, t. 35, p. 7-24.

1983 - Camps G., Morel J., «Recherches sur l'alimentation en Afrique du Nord durant les temps épipaléolithiques», in : *Bulletin de la Société d'Etudes et de Recherches préhistoriques des Eyzies*, t. 32, p. 37-49.

1983 (1985) - Camps G., «De Masuna à Koceila. Les destinées de la Maurétanie au VI[e] et VII[e] siècles», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 19, p. 307-325.

1984 - Camps G., «Les tumulus à chapelle du Sahara protohistorique : tombes-sanctuaires des Gétules», in : *Eléments de pré et protohistoire européenne : hommages à Jacques-Pierre Millotte* Les Belles Lettres, p. 561-571 (Annales littéraires de l'Université de Besançon ; 299).

1984 - Camps G., «Quelques réflexions sur la représentation des équidés dans l'art rupestre nord-africain et saharien», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 81, p. 371-381.

1984 - Camps G., «Rex Gentium maurorum et romanorum : recherches sur les royaumes de Maurétanie des 6e et 7e siècles», in : *Antiquités africaines*, t. 20, p. 183-218.

1984 - Camps G., «Les relations entre l'Europe et l'Afrique du Nord pendant le Néolithique et le Chalcolithique», in : *Francisco Jorda Oblata*, Salamanca, Universidad, p. 187-208 (Scripta praehistorica).

1984 - Camps G., «La défécation dans l'art paléolithique», in : *La contribution de la zoologie et de l'éthologie à l'interprétation de l'art des peuples chasseurs préhistoriques : 3e colloque de la Société suisse des sciences humaines, 1979*, Bandi H.-G. (Dir.), Fribourg, Suisse, Editions universitaires, p. 251-261.

1984 - Camps G., «A propos des chars sahariens», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 81, p. 44-48.

1985 - Camps G., «Le peuplement préhistorique des îles de la Méditerranée occidentale», in : *L'homme méditerranéen et la mer : actes 3e Congrès international d'études de la Méditerranée occidentale, Jerba, avril 1981*, Ladjimi Sebai L., Galley M. (Dir.), Tunis, Salammbô, p. 9-19.

1985 - Camps G., «Pour une lecture naïve d'Hérodote : les récits libyens (IV, 168-199)», *Storia della storiagrafia : rivista internazionale*, t. 7, p. 38-59.

1985 - Camps G., «Les Croyances protohistoriques en Afrique du Nord», in : *Mythes et croyances du monde entier. Tome 2 : le monothéisme*, Akoun A. (Dir.), Paris, Lidis-Brepols, p. 304-319.

1985 - Camps G., «Poterie peinte et araire manche-sep en Afrique du Nord», in : *Histoire des techniques et sources documentaires*, Aix-en-Provence, Institut de Recherches méditerranéennes, p. 173-178 (Cahiers du Groupement d'Intérêts scientifiques ; 7).

1985 - Camps G., L'Araire berbère, in : *Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord : actes du 3ème Colloque international réuni dans le cadre du 110ème Congrès national des Sociétés savantes, Montpellier 1985*, Paris, Comité des Travaux historiques et scientifiques, p. 177-184.

1985 - Camps G., «Un thème religieux dans l'art rupestre nord-africain : le bélier à sphéroïde», in : *Studi di paletnologia in onore di Salvatore M. Puglisi*, Liverani M., Palmieri A., Peroni R. (Dir.), Roma, Università La Sapienza, p. 345-357.

1986 - Ben Ouezdou H., Camps G., Gragueb A., Mahjoub K., Zouari K., «Sur les dépôts du Pléistocène supérieur et de l'Holocène de la région des chotts et de la plaine côtière du Golfe de Gabès (Tunisie) et leur place dans la stratigraphie du Quaternaire», in : *Comptes Rendus de l'Académie des Sciences, Paris (2)*, t. 302, p. 659-664.

1986 - Camps G., «Préhistoire», in : *Dictionnaire des sciences historiques. Tome 2*, Paris, Presses universitaires de France, p. 537-543.

1986 - Camps G., «Funerary monuments with attached chapels from the northern Sahara», in : *The African Archaeological Review*, t. 4, p. 151-164.

1986 - Camps G., «Le jeune mouton et la mer», in : *Diogène*, t. 136, p. 19-45.

1986 - Camps G., «Les relations trans-sahariennes durant la Pré-et la Protohistoire», in : *Archéologie africaine et sciences de la nature appliquées à l'archéologie : 1er symposium international, Bordeaux 1983*, Bordeaux, CRIAA-Université Bordeaux III, p. 29-34.

1986 - Camps G., «Oreilles de zèbre ou oreilles d'âne ?», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 83, p. 166-167.

1986 - Camps G., Walker S.C., «The young sheep and the sea : early navigation in the Mediterranean», in : *Diogène*, t. 136, p. 19-45.

1986-1989 - Camps G., «Elevage du mouton et premières navigations en Méditerranée occidentale», in : *Empúries*, t. 48-50, p. 164-175.

1987 - Camps G., «Protohistoire de l'Afrique du Nord : questions de terminologie et de chronologie», in : *Travaux du LAPMO 1986*, Etude 11 : 12 f.

1987 - Camps G., «La naissance du sentiment religieux durant les temps préhistoriques et les premiers pélerinages», in : *Histoire des pèlerinages non chrétiens : entre magique et sacré, le chemin des dieux*, Branthomme H., Chélini J. (Dir.), Paris, Hachette, p. 25-34.

1987 - Camps G., «Protohistoire de l'Afrique du Nord : questions de terminologie et de chronologie», in : *REPPAL - Revue d'Etudes phéniciennes, puniques et des Antiquités libyques*, t. 3, p. 43-70.

1987 - Camps G., «Le jeune mouton et la mer : recherches sur les premières navigations en Méditerranée», in : *Travaux du LAPMO 1986*, Etude 6, 18 f.

1987 - Camps G., «Un scénario de «Préhistoire catastrophe» : l'odyssée des Atériens et le retour des Ibéromaurusiens», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 84, p. 67-69.

1987 - Camps G., «Le problème de la représentation de l'*Equus mauritanicus* dans l'art rupestre nord-africain et saharien», in : *Paléoécologie des régions sahariennes*, Alger, Centre national d'Etudes historiques (C.N.E.H.), p. 185-198.

1987 - Camps G., «Compte rendu de «Ginette Aumassip - Le Bas Sahara dans la préhistoire»»», in : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, t. 43, p. 153-154.

1987 - Camps G., «Compte rendu de «A. Muzzolini - L'Art rupestre des massifs centraux sahariens»»», in : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, t. 44, p. 148-149.

1988 - Camps G., «La faune de l'Afrique du Nord et du Sahara d'après Hérodote», in : *Espacio, Tiempo y Forma (serie II : Historia Antigua)*, t. 1, p. 209-221.

1988 - Camps G., «Chars protohistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara. Engins de guerre ou véhicules de prestige ?», in : *Actes du 113ème Congrès national des Sociétés Savantes, Strasbourg,*

1988 - 4e colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, t. 2, p. 267-288.

1988 - Camps G., «Les chars sahariens : images d'une société aristocratique», in : *Travaux du LAPMO 1987*, p. 107-124.

1988 - Camps G., «Le Docteur Arnal et le Chasséen», in : *Le Chasséen en Languedoc oriental : hommage à Jean Arnal : actes des journées d'études, Montpellier, 25-27 oct. 1985*, Boutié P. (Dir.), Montpellier, Publication de la Recherche-Université Paul Valéry, p. 7-9 (Préhistoire U.P.V., 1).

1988 - Camps G., «Espaces berbères», in : *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, t. 48-49, p. 38-60.

1988 - Camps G., «Scènes de caractère religieux dans l'art rupestre de l'Afrique du Nord et du Sahara», in : *Mélanges Pierre Lévêque*, Mactoux M.-M., Geny É. (Dir.), Besançon, Université de Besançon, p. 65-82 (Annales littéraires de l'université de Besançon. Centre de recherche d'histoire ancienne ; 79).

1989 - Camps G., «La Corse à l'âge du fer», *Travaux du LAPMO 1988*, p. 175-184.

1989 - Camps G., «Le bestiaire libyque d'Hérodote», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 20-21, p. 17-27.

1989 - Camps G., «La Provence préhistorique», in : *La Provence des origines à l'an mil : histoire et archéologie*, Février P.-A. (Dir.), [Rennes], Ouest-France, p. 55-166.

1989 - Camps G., «Le sepulture neolitiche dell'Africa settentrionale», in : *Archeologia : culture e civiltà del passato nel mondo europeo ed extraeuropeo*, Fasani L. (Dir.), Milano, Mondadori, p. 297-332.

1989 - Camps G., «Les chars sahariens : images d'une société aristocratique», in : *Antiquités africaines*, t. 25, p. 11-40.

1989 - Camps G., «La Corse des origines», in : *Le Temps de la Préhistoire*, Mohen J.-P. (Dir.), Paris, Société préhistorique française / Archéologia, p. 40-43.

1989 - Camps G., «Premiers cultes agraires : mort et fertilité», in : *De Lascaux au Grand Louvre : archéologie et histoire en France*, Goudineau C., Guilaine J. (Dir.), Paris, Errance, p. 480-483.

1989 - Camps G., «Compte rendu de «Paul-Albert Février - Approches du Maghreb romain»», in : *Revue du Monde musulman et de la Méditerranée*, t. 51, p. 157-159.

1990 - Camps G., «La faune des temps néolithiques et protohistoriques de l'Afrique du Nord : critique des données», in : *Travaux du LAPMO 1989*, p. 59-70.

1990 - Camps G., «Qui sont les Dii mauri ?», in : *Antiquités africaines*, t. 26, p. 131-153.

1990 - Camps G., «Des incertitudes de l'art aux erreurs d'Hérodote : la faune des temps néolithiques et protohistoriques de l'Afrique du Nord», in : *Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et des Belles Lettres*, p. 35-57.

1990 - Camps G., «Statues-menhirs corses et Shardanes : la fin d'un mythe», in : *La Bretagne et l'Europe préhistoriques : Mémoire en hommage à Pierre-Roland Giot*, L'helgouach J. (Dir.), Rennes, Association pour la diffusion des recherches archéologiques dans l'ouest de la France, p. 207-212 (Revue archéologique de l'Ouest. Supplément).

1990 - Camps G., Cesari J., «Découverte d'un tesson campaniforme en Corse», in : *Travaux du LAPMO 1989*, p. 213-216.

1990-91 - Camps G., «Les creusets de Terrina (Aléria, Haute Corse)», in : *Le Chalcolithique en Languedoc : ses relations extra-régionales, Saint-Mathieu-de-Tréviers 1990*, Ambert P. (Dir.), Lattes, Fédération archéologique de l'Hérault, p. 41-49 (Archéologie en Languedoc - Colloque international Hommage à Jean Arnal).

1990-92 (1994) - Camps G., «Punica lingua» et épigraphie libyque dans la Numidie d'Hippone», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 23, p. 33-49.

1991 - Camps G., «Le peuplement prénéolithique de la Corse», in : *Mésolithique et néolithisations en France et dans les régions limitrophes*, Paris, Comité des Travaux historiques et scientifiques, p. 37-51 (Actes du 113ème Congrès national des Sociétés savantes (Strasbourg, 5-9 avril 1988)-Commission de Pré-et Protohistoire).

1991 - Camps G., «Une découverte importante dans la région de Marseille : la grotte ornée de Sormiou», in : *Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et des Belles Lettres*, p. 585-590.

1991 - Camps G., «Cro-Magnon, une découverte en perpétuel devenir», in : *Les Dossiers de l'Archéologie*, t. 156, p. 4-12.

1991 - Camps G., «Paul-Albert Février», in : *Revue du Monde musulman et de la Méditerranée*, t. 59-60, p. 266-267.

1991 - Camps G., «Cesari J., Découverte d'un tesson campaniforme en Corse du Sud», in : *Bulletin de la Société des Sciences historiques et naturelles de la Corse*, t. 111, p. 31-38.

1992 - Camps G., «L'Age du bronze en Afrique du Nord : état de la question», in : *Atti del 3° Convegno di studi : Un millennio di relazioni fra la Sardegna e i paesi del Mediterraneo, Selargius-Cagliari 1987*, p. 527-549.

1992 - Camps G., «Le Mort rassembleur de foules : une fonction méconnue des nécropoles protohistoriques de l'Afrique du Nord», in : *Anthropologie préhistorique : résultats et tendances. Actes du colloque de Sarrians, septembre 1989*, Mahieu E. (Dir.), Marseille, E.P.A. / Commune de Sarrians / Conseil général du Vaucluse, p. 91-96.

1992 - Camps G., «Originalité de la Provence au Paléolithique», in : *Provence Historique*, t. 167-168, p. 11-23.

1992 - Camps G., «Guerre ou paix ? Origines des conflits intraspécifiques humains», in : *Préhistoire Anthropologie méditerranéennes*, t. 1, p. 9-15.

1992 - Camps G., «Le Cerf en Afrique du Nord», in : *Préhistoire Anthropologie méditerranéennes*, t. 1, p. 127-133.

1992 - Camps G., «Maghreb-Sahara», in : *Néolithique : la première révolution sociale*, Paris, Excelsior, p. 140-146 (Science & Vie Hors-série ; 178).

1992 - Camps G., «Le coq et la coquille», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 22, p. 56-61.

1992 - Camps G., «Documents et filtres culturels : à propos de la faune néolithique et protohistorique de l'Afrique du Nord», in : *The limitations of archaeological knowledge*, Shay T., Clottes J. (Dir.), Liège, Université - Service de Préhistoire, p. 211-224 (Etudes et recherches archéologiques de l'Université de Liège ; 49).

1992 - Camps G., «Lionel Balout (1907-1992)», in : *Préhistoire Anthropologie méditerranéennes*, t. 1, p. 225-227.

1992 - Camps G., «Compte rendu de «S. Lancel - Carthage»», in : *Revue du Monde musulman et de la Méditerranée*, t. 63-64, p. 274-276.

1992-1993 (1994) - Camps G., «Liste onomastique libyque d'après les sources latines», in : *REPPAL - Revue d'Etudes phéniciennes, puniques et des Antiquités libyques*, t. 7-8, p. 39-73.

1993 - Camps G., «Réflexions sur l'origine protohistorique des cités en Afrique du Nord», in : *La città mediterranea : eredita antica e apporto arabo-islamico sulle rive del Mediterraneo occidentale e in particolare nel Maghreb : atti del Congresso internazionale di Bari, 4-7 maggio 1988*, Serra L. (Dir.), Napoli, Istituto universitario orientale, p. 73-81.

1993 - Camps G., «Hérodote et l'art rupestre. Recherches sur la Faune des temps néolithiques et protohistoriques de l'Afrique du nord», in : *L'arte e l'ambiente del Sahara : dati e interpretazioni*, Milano, Società Italiana di Scienze Naturali / Museo Civico di Storia Naturale, p. 125-134 (Memorie ; 26/2).

1993 - Camps G., «Les recherches dans la grotte Cosquer (Sormiou, Marseille) : premiers résultats», in : *Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et des Belles Lettres*, p. 201-202.

1993 - Camps G., «Compte rendu de «V. Fayolle - La poterie modelée du Maghreb oriental, de ses origines au XXème siècle»», in : *Bulletin de la Société préhistorique française*, t. 90, p. 9-10.
1993 - Camps G., «Fiches pédagogiques : La Corse préhistorique I & II - La Corse protohistorique I & II», in : *Archéologia*, t. 290, p. 67-70.
1993 - Camps G., «À la recherche des Misiciri : cartographie et inscriptions libyques», in : *À la croisée des études libyco-berbères : mélanges offerts à Paulette Galand-Pernet et Lionel Galand*, Drouin J., Roth A. (Dir.), Paris, Geuthner, p. 113-126.
1994 - Camps G., «Encore et toujours le monument de Tin Hinan à Abalessa», in : *Le Saharien*, t. 131, p. 36-39.
1994 - Camps G., «Remarques sur la toponymie de la Maurétanie césarienne occidentale», in : *L'Afrique, la Gaule, la religion à l'époque romaine. Mélanges à la mémoire de Marcel Le Glay*, Le Bohec Y. (Dir.), Bruxelles, Revue d'Etudes latines, p. 81-94 (Latomus ; 226).
1994 - Camps G., «Compte rendu de «Jean Clottes - Les cavernes de Niaux : art préhistorique en Ariège»», in : *Préhistoire Anthropologie méditerranéennes*, t. 3, p. 225-226.
1994 - Camps G., «Amon-Râ et les béliers à sphéroïde de l'Atlas», in : *Hommages à Jean Leclant*, Berger C., Clerc G., Grimal N. (Dir.), Le Caire, Institut français d'Archéologie orientale, p. 29-44 (Mémoire ; 4).
1994 - Camps G., «Mito o permanencia bereber», in : *Imazighen del Magreb entre Occidente y Oriente : introducción a los bereberes*, Ahmed R.R. (Dir.), Granada, Institut français d'Archéologie orientale, p. 11-19.
1994 - Camps G., «Els Berbers. Mite o realitat», in : *Les cultures del Magreb*, Roque M.A., Arkoun M. (Dir.), Barcelona, Institut Català d'Estudis Mediterranis, p. 75-96 (Estudis i Simposis).
1994 - Camps G., «Les mausolées princiers de Numidie et de Maurétanie», in : *Archéologia*, t. 298, p. 50-59.

1995 - Camps G., «Préface», in : *Le Gisement paléolithique moyen de la grotte des Cèdres (Le Plan-d'Aups, Var)*, Defleur A., Crégut-Bonnoure E. (Dir.), Paris, Maison des sciences de l'homme, p. 7-8 (Documents d'Archéologie française ; 49).

1995 - Camps G., «Compte rendu de «Méthodes d'approche de la préhistoire saharienne. Les gisements, reconnaissance et exploitation»»», in : *Préhistoire Anthropologie méditerranéennes*, t. 4, p. 232.

1995 - Camps G., «Les nécropoles mégalithiques de l'Afrique du Nord», in : *L'Afrique du Nord antique et médiévale : Monuments funéraires, institutions autochtones*, Trousset P. (Dir.), Paris, Comité des Travaux historiques et scientifiques, p. 17-31 (6ème Colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, Pau 1993).

1995 - Camps G., «Modèle hellénistique ou modèle punique ? Les destinées culturelles de la Numidie», in : *Actes du 3ème Congrès international des Etudes phéniciennes et puniques, Tunis 1991*, Volume 1, Fantar M., Ghaki M. (Dir.), Tunis, Institut national du Patrimoine, p. 235-248.

1995 - Camps G., «Les chars sahariens : images d'une société aristocratique», in : *Cavalieri dell'Africa : storia, iconografia, simbolismo*, Pezzoli G. (Dir.), Milano, Centro Studi Archeologica africana, p. 141-160.

1996 - Camps G., «La vie à Terrina (Aléria, Haute Corse) au Chalcolithique», in : *La vie préhistorique*, Société Préhistorique Française (Dir.), Dijon, Faton, p. 100-103.

1996 - Camps G., «Compte rendu de «Yves Gauthier *et al.* - L'art du Sahara», in : *Préhistoire Anthropologie méditerranéennes*, t. 5, p. 239-.

1996 - Camps G., «Les Touaregs descendent-ils des anciens Garamantes ?», in : *Voyages au sein du mystérieux*, Paris, Sélection du Reader's Digest, p. 44-45.

1997 - Camps G., «Le chacal de Ti-n Affelfelen (Ahaggar, Algérie). Gravures rupestres et ensembles funéraires protohistoriques», in : *Sahara. Preistoria e Storia del Sahara*, t. 9, p. 35-50.

1997 - Camps G., «Le style de Gastel : étude des céramiques d'une nécropole protohistorique d'Algérie», in : *Antiquités africaines*, t. 33, p. 39-48.

1997 - Camps G., «Tin Hinan et sa légende. A propos du tumulus princier d'Abalessa (Ahaggar, Algérie)», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 24, p. 173-195.

1997 - Camps G., «Le voyage manqué du jeune Baquate», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 24, p. 256-257.

1997 - Euzennat M., Camps G., «Remarques sur l'inscription latine récemment trouvée à Timissao (Sahara central)», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 24, p. 235-236.

1998 - Camps G., «Peuplement des îles et navigations préhistoriques», in : *L'homme préhistorique et la mer*, Paris, Comité des Travaux historiques et scientifiques, p. 129-132 (120ème Congrès CTHS, Aix-en-Provence, octobre 1995).

1998 - Camps G., «Les représentations de Canidés dans l'art rupestre saharien», in : *Rivista di Scienze preistoriche*, t. 49, p. 197-212.

1998 - Camps G., «Le «mariage de chacal» ; à propos de la représentation des canidés dans l'art rupestre saharien», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 25, p. 132-134.

1998 - Camps G., «Les noms divins et les noms théophores chez les anciens africains», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 25, p. 138-140.

1998 - Camps G., «Chaker S., Laporte J.-P., Deux nouvelles stèles kabyles au cavalier», in : *Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique*, t. 25, p. 19-32.

1999 - Camps G., «La Corse à l'Age du fer», in : *Archéologie des Celtes. Mélanges à la mémoire de René Joffroy*, Chaume B., Mohen J.-P., Périn P. (Dir.), Montagnac, Monique Mergoil, p. 29-40.

1999 - Camps G., «Essai de cartographie culturelle : à propos de la frontière de Numidie et de Maurétanie», in : *Frontières et limites géographiques de l'Afrique du Nord antique : hommage à Pierre Salama*, Lepelley C., Dupuis X. (Dir.), Paris, Publications de la Sorbonne, p. 43-70 (Histoire ancienne et médiévale ; 56).

2000 - Camps G., «Les haouanet : petits hypogées de l'Afrique du nord», in : *L'ipogeismo nel Mediterraneo : origini, sviluppo, quadri culturali*, Melis M.G. (Dir.), Sassari, Università degli Studi-Facoltà di Lettere e Filosofia, p. 139-184.

2000 - Camps G., «Contribution de la cartographie à l'étude des phénomènes culturels berbères», in : *Hommes et terres d'Islam : mélanges offerts à Xavier de Planhol*, Balland D. (Dir.), Téhéran / Louvain, Institut français de recherche en Iran / Peeters, p. 377-390.

2002 - Camps G., «Le cerf en Afrique», in : *Ithyphalliques, traditions orales, monuments lithiques et art rupestre au Sahara : hommages à Henri Lhote*, Le Quellec J.-L. (Dir.), Saint-Lizier, AARS / AFU, p. 75-82 (Cahiers ; 7).

«الموسوعة البربرية»

1984 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, I : *Abadir-Acridophagie*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 1-112.

1984 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, II : *Ad-Aguh-n-Tahlé*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 113-270.

1986 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, III : *Ahaggar-Ali ben Ghaniya*, Aix-en-Provence, Edisud,, p. 269-448.

1987 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, IV : *Alger-Amzwar*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 447-629.

1987 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, V : *Anacutas-Anti-Atlas*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 631-791.

1989 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, VI : *Antilopes-Arzuges*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 793-952.

1989 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, VII : *Asarakae-Aurès*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 953-1095.

1990 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, VIII : *Aurès-Azrou Addendum réédition Asura-Ahaggar-Ajjer*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 1097-1287.

1991 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, IX : *Baal-Ben Yasla*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 1289-1449.

1991 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, X : *Beni Isguen-Bouzeis*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 1451-1601.

1992 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XI : *Bracelets-Caprarienses*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 1603-1756.

1993 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XII : *Capsa-Cheval*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 1757-1911.

1994 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XIII : *Chèvre-Columnatien*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 1913-2067.

1994 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XIV : *Conseil-Danse*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 2069-2222.

1995 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XV : *Daphnitae-Djado*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 2223-2374.

1995 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XVI : *Djaziya-Dougga*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 2375-2528.

1996 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XVII : *Douiret - Eropaei*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 2529-2682.

1997 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XVIII : *Escargotière-Figuig*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 2683-2837.

1998 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XIX : *Filage-Gastel*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 2839-2993.

1998 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XX : *Gauda-Girrei*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 2995-3148.

1999 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XXI : *Gland-Hadjarien*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 3149-3304.

2000 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XXII : *Hadrumetum-Hidjaba*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 3305-3462.

2000 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère* XXIII : *Hiempsal-Icosium*, Aix-en-Provence, Edisud, p . 3463-3618.

2001 - Camps G. (Dir.), *Encyclopédie berbère*, XXIV : *Ida-Issamadanen*, Aix-en-Provence, Edisud, p. 3619-3782.

الموجزات

1984 - Camps G., «Avertissement : être Berbère - Origines des Berbères - Les mécanismes de l'arabisation», in : *Encyclopédie berbère*, I, Aix-en-Provence, Edisud, p. 7-48.

1984 - Camps G., «Notices : Abadir - Abd el Salam - Abilar - Abigas - Abizar - Abu Hakim Yacub - Acridophagie», in : *Encyclopédie berbère*, I, Aix-en-Provence, Edisud.

1984 - Camps G., «Notices : Adebni - Adrar - Adrar des Iforas - Adrar de Mauritanie - Aethiopes - Afariq - Africanae - Agadir - Agellid - Aghmat», in : *Encyclopédie berbère*, II, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1986 - Camps G., «Notices : Ahaggar (préhistoire) - Ahl al Kaf - Ailymas - Aïn Metterchem - Aïn Roua - Aïn Temouchent - Albulae - Akkar - tombeau - Akreijit - Akus», in : *Encyclopédie berbère*, III, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1987 - Camps G., «Notices : Alger (préhistoire) - Alimentation des Paléoberbères - Allées couvertes (Kabylie) - Amalécites - Amazones - Amekni - Amergou - Ammon - Amour (Djebel)», in : *Encyclopédie berbère*, IV, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1987 - Camps G., «Notices : Andalouses (Les) - Ane - Animisme - Annaba (Hippo Regius) - Antalas - Antée», in : *Encyclopédie berbère*, V, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1989 - Camps G., «Notices : Anzar - Aphther - Apiculture - Arabion - Aradion - Araire - Arganier - Armes (partie) - Art rupestre (partie) - Arzew», in : *Encyclopédie berbère*, VI, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1989 - Camps G., «Notices : Ascalis - Aspis - Ateban - Athèna - Attelage - Aulisua», in : *Encyclopédie berbère*, VII, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1990 - Camps G., «Notices : Aurès (préhistoire) - Autels - Auzia - Azib - Azriva», in : *Encyclopédie berbère*, VIII, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1991 - Camps G., «Notices : Babor - Bacax - Baga - Baldir/Balidir - Ballene praesidium - Bavares - Bazinas - Bélier à sphéroïde», in : *Encyclopédie berbère*, IX, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1991 - Camps G., «Notices : Beni Messous - Beni Rhénan - Bisaltia - Bocchus - Bogud - Bou Alem - Bouclier», in : *Encyclopédie berbère*, X, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1992 - Camps G., «Notices : Branès - Breshk - *Bubalus antiquus* - Buccures - Burnous», in : *Encyclopédie berbère*, XI, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1993 - Camps G., «Notices : Capussa - Casablanca - Cercles de pierre - Cereres - Cerf - Chacal - Chars - Cheffia - Chettaba - Cheval», in : *Encyclopédie berbère*, XII, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1994 - Camps G., «Notices : Croissant - Cubos - Cynophagie - Dahar - Da'i - Danse des cheveux», in : *Encyclopédie berbère*, XIV, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1994 - Camps G., «Notices : Chouchet - Cinq - Cité - Citrus - Cochon - Colactation - Colombe - Columnata - Columnatien», in : *Encyclopédie berbère*, XIII, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1995 - Camps G., «Notices : Dar bel Ouar - Darbouka - Dasibari - Dattes / dattiers - Daya - Debdou - Demnat - Dépôts rituels - Deren - Devinettes - Diana veteranorum - Didon - Dieux africains et Dii mauri - Dioscures - Dir», in : *Encyclopédie berbère*, XV, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1995 - Camps G., «Notices : Djaziya - Djedar - Djedi - Djellaba - Djerat - Djidiouïa - Djohala - Djorf Torba - Djurdjura - Dolmens - Dorsale tunisienne - Dougga», in : *Encyclopédie berbère*, XVI, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1996 - Camps G., «Notices : Dromadaire - Ecriture - Edeyen - Edough - Egide - Egorgement - Ehen n - Fatima («Tente de Fatima») - Elassolithique - Ellès - Enfida - Enfous (El Richa, El Hamra) - Ennayer - Epée - Epipaléolithique - Equidiens», in : *Encyclopédie berbère*, XVII, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1997 - Camps G., «Notices : Escargotières - Etoile - Faraxen - Fatimites - Fedala (Fadala, Al Muhammadiyya) - Fedj El - Koucha - Fennec (*Fennecus zerda* Zim.) - Fer (âge du) - Feriana - Fès (Fas) - Fezzân (Phasania, Targa). Préhistoire et art rupestre du Fezzân - Figuig», in : *Encyclopédie berbère*, XVIII, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1997 - Camps G., «Notices : Filfila - Firmus - Flissa / Iflissen - Forgerons : les forgerons du Maghreb - Foum Le - Rjam - Four - Foyer - Fraichich (Frechich) - Fudina - Fut (Oued Tensift) - Gabès - Gaia - Gastel», in : *Encyclopédie berbère*, XIX, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1998 - Camps G., «Notices : Gétulien - Gauda - Gharb (Rharb) - Ghadamès - Ghât (Rhat) - Ghorfa - Ghana - Ghaniya - Ghiata - Ghomâra (Ghumara, Ghmara) - Gibraltar - Gazelle - Genette - Giddaba (Mont) - Giri (Mont)», in : *Encyclopédie berbère XX*, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

1999 - Camps G., «Notices : Gland (Abellud en kabyle) - Goraa (Djebel) - Gour - Gubul - Gudâla/Guezula - Gulussa - Gunugu - Gurzil - Hachereau - Hadiddou (Ayt) - Hadjar en - Nesr (Le Rocher du Vautour)», in : *Encyclopédie berbère XXI*, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

2000 - Camps G., «Notices : Haouanet - Haouz - Hafsides - Haha (Ihahane) - Hammam Guergour - Hammam Meskoutine : Aquae Thibilitanae - Hammam ez Zouakra - Hammamet - Haos - Henchir

(Anschir) - Hiarbas», in : *Encyclopédie berbère XXII*, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

2000 - Camps G., «Notices : Ibéromaurusien - Hiempsal - Hilaliens - Hodna - Ibadites - Ibarissen - Ibn Battûta - Ibn Khaldoun - Ibn Toumart - Ichoukkâne», in : *Encyclopédie berbère*, XXIII, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

2001 - Camps G., «Notices : Iheren (ou Eheren) - Incinération - In Habeter / Messak - Inhumation», in : *Encyclopédie berbère XXIV*, Camps G. (Dir.), Aix-en-Provence, Edisud.

الفهرس

الفصل الثاني

أقوام على هامش التاريخ

الفصل الثالث

السيطرة الأجنبية وعمليات المثاقفة

الفصل الرابع

البربر والدين

الفصل الخامس

الاستمرارية البربرية



ذاكـرة وهـويـة

يكتسي هذا الكتاب أهمية خاصة، لاعتبارات عديدة؛ يأتي في مقدمتها ما صار للبربر (الأمازيغ) اليوم من المكانة المتعاظمة في البلدان المغاربية عامة، وفي المغرب بوجه خاص؛ كما نرى بعض أوجهه في اتساع نطاق الحضور الثقافي والإعلامي الذي صار يحوزه المكون البربري (الأمازيغي) في هذه البلدان، والاهتمام الكبير الذي صارت تلقاه اللغة البربرية (الأمازيغية) في دساتيرها وفي برامجها التعليمية. فهي اعتبارات قد عزّزت من الحاجة إلى مزيد تعرّف على أصول البربر، ورحلتهم المديدة في التاريخ، وإبراز ما كان لهم فيه من ألوان المساهمات، والتعرف إلى تقاليدهم، وأساليبهم في العيش واستكناه العناصر المكونة لثقافتهم واجتماعهم.

وفوق هذه الاعتبارات الراهنة، هنالك اعتبار آخر بالغ الأهمية، وقد كان كذلك من موجّهات كامب إلى الاشتغال بهذا الموضوع؛ نريد خصوصية البربر المائزة لهم بين سائر الأقوام التي عمَرت عالمنا من قديم الأزمان. فالبربر قد عمَّروا فوق ما عمَّر سواهم كثيرون. والبربر قد صمدوا لتقلبات التاريخ، وغزو الغزاة، ومحاولات الاحتواء، والطمس، والتذويب؛ فكأنهم المجرى الثابت الذي ظل موصولاً بعد انقضاء الحضارات والدول والإمبراطوريات التي تعاقبت على منطقة شمال إفريقيا.
ولا تزال ترى للبربر اليوم وجوداً في أكثر من اثني عشر بلداً، وعلى نطاق يمتد من غرب مصر إلى أقصى الشمال الإفريقي، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى جنوب النيجر.

وكامب يروم بهذا الكتاب استجلاء تاريخ هذه الأقوام، بعد أن كان الجهل سائداً بمعظم جوانب تكوّنها وخصوصيتها، وهي التي يصل تعداد أفرادها اليوم إلى حوالي ستة عشر مليوناً ويبحث في الأسباب من وراء ذلك الاحتواء الصارخ الذي وقع على البربر خاصة من الحضارة العربية الإسلامية. وجاء كامب يفكك الأساطير والخرافات التي نسجها الأجانب والعرب سواء بسواء بشأن البربر وثقافتهم وأصولهم. والكتاب يمثل أول محاولة في مقاربة تاريخ هذه الأقوام بالتوسل بجماع من العلوم – تدخل فيها الحفريات، والجغرافيا، والعراقة، واللسانيات، إلخ. – وهاجس تركيبي لائح للملمة شعث تاريخ من الصراع لصون الهوية البربرية من رياح الاجتياحات الأجنبية لأقوام ضاربة بجذورها في أغوار التاريخ الإنساني.



Peinture acrylique sur toile Polyptique,
Aissa Ikken
La poésie dans le sillage de la peinture.

ISBN 9981-25-752-8

